جورج أمادو

زوربا البرازيلي

ترجمة: ممدوح عدوان



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

جورج آمادو

الكاتب الكبير الحائز على أعظم الجوائز العالمية

زوربا البرازيلي
خيمة المعجزات

ترجمة: ممدوح عدوان

زوربا البرازيلي

خيمة المعجزات

رواية

تأليف:جورج أمادو

ترجمة: ممدوح عدوان

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

دمشق -ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

خلاسي، معوز، مواطن من باهيا، متعالم دائماً، حكيم،

روح الحياة في الحفلات

(من تقرير الشرطة عن بدرو أرشانجو عام 1926)

إيابا، شيطانة دون ذنب،

كاريبي

(إيابا، سيناريو فيلم)

مقدمة

بقلم ممدوح عدوان

هو ذا زوربا آخر، وهذه المرة من تقديم جورج أمادو.

اسم زوربا هنا بدرو أرشانجو.

وأظن أننا سنتذكر هذا الاسم طويلاً، بعد قراءة «خيمة المعجزات»، بقدر ما تذكرنا زوربا اليوناني الذي قدمه لنا كازانتزاكي.

بدرو أرشانجو مثل زوربا اليوناني محب للحياة وللنساء والخمرة والمغامرة.. والناس كلهم. الناس كلهم أهله وهو شاب ورجل، والناس كلهم أبناؤه وهو شيخ وعجوز. ويزيد المسألة ظرفاً وعمقاً أن يكون لهذا الكلام مضمون واقعي فعلي بمقدار ماله من دلالة رمزية وإيحائية: (قسم كبير من الأبطال أبناؤه فعلاً). ما يزيد في بدرو أرشانجو عن زوربا اليوناني أن أرشانجو معني بقضية محددة وليس معنياً في أن يعيش كما توجهه غرائزه ويغامر بحياته.. ولكن دون أن يحوله هذا إلى شخصية متجهمة أو دعائية. ذلك أن ارتباطه بهذه القضية جزء من ارتباطه بالحياة وبالتالي فالقضية ذاتها، تزيده حيوية وتزيدنا حباً له وارتباطاً به.

فهذه الرواية ـ إضافة إلى كونها رواية ممتعة ـ أعتبرها واحدة من أكثر الروايات التي قرأتها إمتاعاً. وهي، في الوقت ذاته، مرافعة فذة للدفاع عن الشعب البرازيلي ـ شعب باهيا تحديداً ـ وعن ثقافته وتقاليده وتراثه أمام هجمة «التأورب» والانسلاخ الثقافي والصَّغار أمام الغرب.

بهذا يتحول الدفاع عن رقصة شعبية أو أغنية أو موكب احتفالي قضية خطيرة تشبه، في خطورتها ومسؤولياتها ونتائجها وطريقة التعامل معها، قضية حمل السلاح ضمن تنظيم سياسي لقلب نظام الحكم. ويصبح الاختلاف في وجهات النظر حاداً ومرتبطاً بمنطق ومصلحة وقيم مما يؤدي حتماً إلى سفك الدماء. وإنني لمما يزيدني غبطة أن أقوم بنقل هذا الكتاب إلى العربية مساهمة متواضعة مني في التأكيد على هذه القيم وفي الدعوة إلى الحفاظ على الخصائص الوطنية أمام هجمة (الإنتاج بالجملة mass production) التي تتعامل بمنطق واحد مع المعلبات والأقمشة والأغذية والأبنية والشعوب والثقافات. هذه الهجمة تنطلق من مقولة واحدة وتؤكدها. وهي أنه يكفي مصدر واحد للإنتاج ـ الإنتاج الثقافي والمعرفي والسلوكي والغذائي والأمني والاحتفالي (وهو حتماً المصدر المعزز تكنولوجياً) وأنه ليس على بقية البشر إلا أن تستهلك وتتقولب في كل ما يتعلق بحياتها حسب متطلبات هذا الإنتاج ذاته، والذي صنع أصلاً بمقاسات أوروبية أمريكية. والطرف المنتج لا يكتفي بطاقاته التكنولوجية

المنتجة بل هو ينتج إيديولوجياً على مقاس التكنولوجيا، وهذه الأيديولوجية تطالب أيضاً بمسح الملامح المحلية وإعادة إنتاج الهوية تحت أوهام التطور الذي لا يعني إلا التقزم من أجل التشبه بالآخر.

وأرجو أن لا يخيل لأحد أن الرواية صراع أيديولوجي ضمن دائرة الأفكار المتلاكمة. إنها المرة الأولى التي يمكن فيها أن نقرأ رواية حول الثقافة والهوية الوطنية وتظل محتفظة بمتعتها وحيويتها وغناها. فقد تعودنا أن نقرأ أدباً معنياً بالثقافة ولا يهم إلا المثقفين (ولا يرضيهم غالباً) ولا يرى المعركة تدور إلا بينهم. فالتجربة، في هذا الأدب، تجربة ذهنية مفتعلة وبعيدة عن الحياة. بينما أمادو يقدم معركته من أعماق القاع الشعبي الذي يضم الشغيلة والسكارى والمومسات واللقطاء وأصحاب الدكاكين والحرفيين. هذا القاع الشعبي خليط من قوميات وألوان وثقافات. هناك السكان الأصليون من أبناء القارة ثم امتزاجهم بالزنوج الذين جلبوا إلى القارة رقيقاً، ثم امتزاج هذين الشعبين مع الأسبان والأوروبيين عامة. وهذا الخليط الشعبي له ذاكرة هي مزيج مما تراكم من عادات هذه الشعوب وثقافاتها: الرقصات والأغاني والمواكب والطبول والمهرجانات والكرنفالات جزء من هويته. وهو مصر على المحافظة عليها وممارستها وإحيائها.

هذا كله، أمام نزعة تسلطية فوقية تريد أوربة كل شيء ونقاء الدم الأزرق (دم الأشراف البيض) وفرض الثقافة الغربية وإلغاء كل ما هو محلي..

وفي الوقت الذي يهتم أمادو فيه بالدفاع عن شخصية الشعب البرازيلي بقوة وعنف وإخلاص، يعرض في الوقت نفسه الابتذال الثقافي السائد وتعهير القيم والاستباحة الاستهلاكية النفعية لمقومات الحياة.

الرواية، بهذا، تسير في مستويين، كعادة أمادو، المستوى الأول القصة التي تدور حول البطل (عام 1969) من خلال شخصية الشاعر الشاب المكلف بالبحث عن معلومات (الذي هو مزيج من القواد والانتهازي) ومن خلال الاستعدادات للاحتفال بالذكرى المئوية لأرشانجو، ومحرضات هذه الاستعدادات وتحولاتها.

إنك وأنت تقرأ الرواية، تدخل في تفاصيل تجعلك تحس بالخجل لأنك تحيا في عالم فيه هذا القدر من الابتذال (الابتذال الذي تدرك ببساطة أنه موجود في حياتنا نحن أيضاً، وليس فقط في البرازيل)، ولكن تفاصيل أخرى تجعلك تحس بالاعتزاز لأن الحياة تحتوي على أناس يحملون القيم ويدافعون عنها، فتتشربهم وتتماهى فيهم مثلما ترى بعض أبطال الرواية.

والكاتب نفسه، أمادو، موزع هذا التوزع. ولكم تحسه مليئاً بالقرف والغضب وهو يعرض أساليب الراوي والاستعداد للاحتفال بالذكرى المئوية. ولكم تحسه أيضاً، مليئاً بالفخر لأنه ابن للشعب العظيم الذي فيه عظماء من أمثال أرشانجو وزملائه ثم:

أية قصة عظيمة حدثت في تاريخ هذا الشعب؟! وأي هاجس تافه وحقير يحرك أولئك الذين يسعون لإحيائه وإحياء ذكراها؟!.

ثم تدرك أية خفة دم وتلقائية شعبية يتمتع بهما أمادو وهو يجعل آخر أصدقاء أرشانجو

(الميجور) يحتال على الاحتفال المكرس لتكريم «فخر البرازيل أرشانجو» لكي يجمع من المحتفلين مالاً يساعد به امرأة فقيرة (ومومساً طبعاً)!.

لماذا؟

فالبطل لا يريد أن يكون بطلاً ـ بل مخلصٌ مع نفسه فقط ـ والشعب لا يتحرك بتلك القصيدة الإنشائية التي يلجأ إليها الروائيون عادة أو يسير بها النفعيون الذين يستثمرون إحياء القيم الشعبية. حدث هذا لأننا هكذا لأن الحياة هكذا لأن الناس هكذا. وبين حين وآخر:

1 ـ إيه.. كومبادر أرشانجو، ما أطول كفاحنا!. استغرق المعلم ليديو كورو مع ذكرياته في خيمة المعجزات وهو يقرأ في الصحيفة أن معاون قائد الشرطة قد استقال، قبل خمس وعشرين سنة، عند نهاية القرن، بدأ قتالهم مع الشرطة والحكومة والتعصب الأعمى.. وبعدها لم نتوقف عن القتال يا كومبادر. في الشوارع في التيريرو، في الكتب والصحف، بالحبر والحجارة، بالحفلات والقبضات. ما أطول معركتنا؟ هل تظن أنها ستنتهي ذات يوم يا كومبادر العجوز؟

ستنتهي ذات يوم يا صاحبي. ولكننا لن نعيش لنرى النهاية يا رفيقي. سنموت ونحن نقاتل. ونحن ما زلنا نستمتع بالقتال. بدريتو العجوز يفر وآغون يلاحقه ويداه مثل الكوبرا! دعني أطلق ضحكتي يا كومبادر. لم أر في حياتي ما هو مضحك أكثر من هذا، سنسقط ونحن نقاتل. شباناً وشجعاناً يا صاحبي. إنكح البوليس! انكح الشرطة وليحيا شعب باهيا».

من هو بطلنا؟

في مقدمة الرواية يورد الكاتب ما جاء في تقرير الشرطة عنه: «خلاسي، معوز مواطن من باهيا، متعالم دائماً، حكيم، روح الحياة في الحفلات». وفي آخر سطور الرواية، وبعد أن يتحول أرشانجو نفسه إلى جزء من الأسطورة التي يدافع عنها، وبعد موته، وفي أحد الاحتفالات التي قضى حياته وهو يدافع عن استمرارها لأنها هوية الشعب وذاكرته، يتقدم أرشانجو بعد الموت. نعم، هو مستمر مثل الآلهة التي دافع عنها. هو مستمر في الذاكرة. في الشخص الذي يأخذ دوره في الحفلة. لا يمثله، بل يصير هو:

«بدرو أرشانجو (أو جوبا) يرقص، ليس شخصاً واحداً بل هو أشخاص كثيرون، متعددون ومتنوعون: عجوز، في منتصف العمر، شاب، مراهق، صعلوك، راقص، متحدث بارع، سكير فذ، متمرد راديكالي، داعية إضراب، مقاتل شوارع، عازف غيتار وكافاكوينهو، مغازل، عاشق حنون، فحل جنسي، كاتب، حكيم، ساخر..

وكل منهم خلاسي وفقير ومواطن في باهيا».

وتنتهي الرواية.

ربما كنا في حاجة إلى دراسة أكثر تأنياً ومرجعية لكي نعرف مدى العلاقة (الأدبية ـ التأثرية ـ النقلية) بين كازانتزاكي وجورج أمادو. في «المسيح يصلب من جديد» يتدخل مصير كل شخصية في التراث المسيحي فيؤثر، بشكل أو بآخر، في مصير الشخصية التي تمثلها.

وفي احتفال الكاندومبلي ـ والاحتفالات الأخرى ـ تدخل روح إله في شخص، فيتقدم ويقوم

بدور ذلك الإله. ثم يقوم أمادو بمزج الإله والشخص ثم حين يتكرر قيام الشخص بذلك الدور يصبح هو هو.

«يانسان» مثلاً هي آلهة الرياح والعواصف والشلالات.. يأخذ منها أمادو حركية هذه الأشياء.. ثم يجعلها تتلبس امرأة تريد أن ترقص.. أو ترقص. تصبح الراقصة ريحاً وعاصفة وشلالاً. ولكن في أماكن معينة تحس بوجود يانسان ـ كما تحس بوجود آلهة أخرى في أمكنة أخرى ـ داخل الحفلة. تحسها تأمر الراقصة. ثم تعتذر منها الراقصة لحظة لشغل ما.. ثم، بعد الانتظار، تدخل يانسان في المرأة. وتبدأ الرقص.

نعود إلى اليونان مرة أخرى.

في الثقافة اليونانية التي يفخر بها الأوربيون، من المعروف أن كلمات مثل أريسطوس وأغاثوس وأوغسطس تدل على مَكانة معينة، وهي بهذا شبيهة بكلمة نبيل أو لورد أو ماركيز.. أو حتى بروفسور أو دكتور.

اللقب يمتزج بالاسم. واللقب يظل مشحوناً بدلالته التاريخية، أو الميثولوجية أو العلمية، حتى وهو داخل الاسم الواقعي. يصبح اللقب هو الاسم.

وفي العقائد الموروثة لدى الشعب البرازيلي ـ والقادمة من التراث الهندي الأحمر أو من العقائد الإفريقية ـ آلهة يحتفل بها وتُمثل في الاحتفال. كلمة «تمثل» هذه كلمة وافدة. الشخص لا يمثل الشخصية بل يتمثلها: يكونها. وبالتالي فإن «آرغون» حين يمثله زي، إنما يدخل أرغون في زي. يصبح هو زي. ويصبح زي هو آرغون، هكذا يعتقد الناس، وهكذا يتعاملون، وهكذا أيضاً، يروي عنهم جورج أمادو.

ابتداء بالبطل بدرو أرشانجو (أو جوبا) ـ عيني كسانغو ـ وانتهاء بكل من يؤدي أي دور مهما صغر.. تختلط الأمور: فيُحكى عن الإله ـ القديس ـ الشخص اليومي بالكلمات ذاتها بالتعامل ذاته. مثلما يحكى في حرم جامعي عن العميد والبروفسور والمعيد الذي هو فلان الشخص والأب والزوج والجار.

أين الخيال؟ وأين الحقيقة؟ أين الأسطورة؟ وأين مزج الأسطورة في الواقع؟ لا حاجة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة. في مخيلة الشعب، هذا كله موجود في وقت واحد، ولهذا هو شعب وليس صف مدرسة. ولأن الأمر كذلك ـ ولأن العمل مكتوب أصلاً للدفاع عن ثقافة شعب وعن شخصيته، فإن بعض الكلمات لم تكن تصلح للترجمة. ليس، فقط، لأنه ليس لها بديل في العربية، بل لأنها هي كذلك.. تلفظ كذلك.. ويستخدمها الشعب كذلك. وفي استخدام الشعب لها بهذه الطريقة، تأكيد عنيد منه على هويته، وتأكيد عنيد من الكاتب نفسه، على مقولة روايته حول الدفاع عن هوية الشعب. لذلك فإن هناك مقاومة عنيدة ضد تحويل كلمات الشعب البرازيلي إلى كلمات أوروبية ـ بأية لغة كانت (والظريف أن رمز هذه المقاومة أرشانجو يعرف معظم هذه اللغات) ـ وضد تحويل عقيدة الشعب وتفاصيل سلوكه اليومية. يجب أن يتم التعامل معها كما يتعامل معها الشعب والكاتب.

من أجل هذا ستجد تعابير قد تبدو غريبة، بسبب الإصرار على التسميات، وحالات قد تبدو

غريبة بسبب امتزاج الأسطورة بالواقع. ومن أجل هذا قد تجد تعبيراً مثل: «تيريرودو جيسوس: معبد المسيح» التي تحمل تناقضاً بين الكلمتين: لكنه تناقض منسجم أو امتزاج شبيه بمزيج دم الخلاسي أو المهجن، والمترجمة إلى الإنكليزية (بربارا شيلبي) أبقت على التسميات داخل النص الإنكليزي (الذي ترجمت عنه) وأنا لن أكون أكثر منها خيانة في الترجمة.

إذا احتجت عزيزي القارئ هناك جدول بالكلمات في نهاية الرواية يمكنك الرجوع إليه.

ممدوح عدوان

هذه أنت، يا باهيا، وتلك هي الأمور التي تحدث في شوارعك

غريغوريو دوماتوس

لدى البرازيل مسوّغان للعظمة: خصب تربتها والذكاء الحاد لدى مهجّنيها.

مانويل كويرينو

«مساهمة المستوطن الأسود في الحضارة البرازيلية»

ثم وقعوا على حل مشين ولكنه على الموضة: حولوه إلى ما ليس هو. صنعوا منه (روبوت) كبيراً مطواعاً مبرمجاً. آلة تلائم زماننا، انعكاس كامل لبرنامج مندثر، أو لبرنامج يوشك أن يحل محله. ستشبه غريغوريو دوماتوس، لكنها ستكون أكثر لطفاً ووسامة. وسيقدم هذا الشبيه إلى أطفال المدارس وطلاب الجامعة؛ كما سيباع في المكتبات وأكشاك الصحف. وسوف تستخدم آلة الدعاية في المدارس والوكالات الحكومية لزرع هذه الصورة الزائفة في عقول الصغار والكبار على السواء، وبالفعالية ذاتها المتبعة في بيع نصف الحقيقة من أجل ترويج أية سلعة أخرى.

وكان على هؤلاء البارعين أن يضعوا في اعتبارهم أن شاعرنا لم يختر العدل أو الظلم، الشهرة أو الغفلة؛ لم ينعزل في ملجأ ولم يلتجئ إلى الريف الذي كان تواقاً إليه. لم يتخلف غريغوريو دوماتوس عن فعل ولم يفضل حياة التأمل على حياة الالتزام. لقد عاش الحياة التي علمته قصائده أن يحياها، حياة الحب البشري والحرية التي تتجاوز، كثيراً، الشرط العام.

وهذه هي الصورة المقدمة هنا بكل نقائها أو عدم نقائها إذا أحب القارئ.

جيمس آمادو («الصورة الممنوعة لثلاثمئة عام» - ملاحظات هامشية على نسخة الناشر للأعمال الكاملة لغريغوريو دوماتوس).

في جوار بيلورنهو، في قلب باهيا، العالم كله يُعلِّم ويتعلم. جامعة هائلة تتشعب في تابوان وأبواب كارمو، وسانتو انطونيو ما بعد كارمو، ووادي الحذائين والأسواق، وفي ماسييل ولابينها وساحة الكاتدرائية وتورورو، وباروكيتها، ومدينة بورتاس، وريوفير ميلهو، وحيثما يوجد رجال ونساء يعملون. ومن شغل المعدن والخشب، ومن تركيب الأدوية من الجذور والأعشاب، ومن إيقاع النغمات العاجلة تولد صورة جديدة أصلية لألوان وأصوات جديدة.

استمعوا إلى الطبول الجلدية والخشبية، وإلى رنة القوس، إلى اليقطين المدروز مع الأفاعي، إلى الرق وجوز الهند، إلى الأجراس المعدنية والقرصية، إلى الطبول الطولية والبيريمبو والغانذا والأدوق والكاكسيكسي والأغوغو؛ آلات الفقراء الموسيقية، الغنية في أنغامها وإيقاعاتها. الموسيقى والرقص ولدا في حرم جامعة الإنسان العادي:

كامارادينهو أي

كامارادينهو، كامارا

إلى جوار كنيسة سيدتنا ذات السلاسل المخصصة للعبيد، وفي طابق ثان له خمس نوافذ مطلة على بيلورينهو أقام السيد بوديان أكاديميته لفن القتال الأنغولي، (كابويرا)، وبدأ طلابه يتوافدون مساء أحد

الأيام وهم منهكون من شغل النهار، لكنهم لا يزالون راغبين في اللهو. وتقوم رنات البيريمبو الوترية بضبط خطوات المناورات والطعنات؛ وكل منها أشد رهبة من الأخرى: انحناءة الهلال، التشطيب بالنصل، المطرقة السقاطة، رد الرأس، لسعة السوط، رفسة الساق، رفسة البطن، صدفة البطلينوس والرقصة الجاثمة. يتصارع الشبان على أنغام البيريمبو التي تحدد الجغرافية المجنونة للضربات: سان بينتو العظيم، سان بينتو الصغير، سانتا ماريا، كافالاريا، الأمازونا، أنغولا، أنغولا المزدوجة، أنغولا الصغيرة، التقاط البرتقالة عن الأرض، أيونا، سامونغو سينكوسالومان ـ وأكثر مما تستطيع أن تحصي. تغيرت الكابويرا الأنغولية وتطورت في هذا المعهد: لقد صارت الآن باليه، على الرغم من أنها لا تزال معركة.

أمر لا يصدق: كيف يتقافز السيد بوديان وهو في هذا العمر؟ هل سبق أن وجد من هو بهذه البراعة وبهذه الخفة وهو على قدميه؟ أنظر إليه وهو يقفز إلى الوراء أو يقفز جانبياً؛ ما من خصم يستطيع أن يلمسه. جميع أساتذة الكابويرا أظهروا شجاعتهم وتنافسهم، وبرهنوا عن حجم معرفتهم في هذه القاعة: حبيب الله، الكابتن كيتش، تشيكو دابارا، توني الموج، زاكاريا الكبير، بيروكابيكسوتو، سبع طرق للموت، الشنب الحريري، رجل السلام من ريوفير ميلهو، رأس الشعر الجميل، فيسنت باستنها، قوتي تعادل قوة اثني عشر رجلاً، تيبور سينهو من جاكواريبي، أعطني إياه يا تشيكو، النوه من المصنع، وباروكينها:

من علمك هذه الحيلة يا ولد؟

باروكينها علمني.

لم تكن لحيته قد نبتت لكنه كان سريعاً بالسكين

شرَّح شرطياً وعفا عن فقير.

جاء مدربو الرقص، فوجدوا خطوات الباليه موجودة جاهزة. جاء الملحنون ـ على اختلاف أنواعهم: الجيدون والرديئون وغير المهتمين ـ فوجدوا أكثر مما يلزمهم من الإلهام. هنا في حَرم بيلو رينهو لجامعتنا الحرة، يخلق الناس أعمالاً فنية. وفي أعماق الليل يغني الطلاب:

آي آي آيوي

عندك لعبة جميلة وأنا أحب أن ألعب

آي آي آيوي

الأساتذة موجودون في كل بيت وكل مخزن وكل مشغل. في الفناء الداخلي للمبنى الذي يضم أكاديمية بوديان يلتقي سحرة الغناء ليتمرنوا من أجل الاستعراض ومهرجان أبناء باهيا تحت إشراف فالديلوار الشاب: تجسيد البراعة بالنسبة لألعاب الشوارع واحتفالات الكرنفال. يعرف كل ما يجب أن يُعرف عن الكابويرا، إضافة إلى ابتكارات قام بها بنفسه، وأضافها عندما فتح مدرسته الخاصة به في التورورو.

تنعقد حلقة السامبا في الباحة الكبيرة أيام السبت والأحد، وذلك عندما يريد آجايي الأسود أن يستعرض. وله منافس على مركز سفير أفوكسي هو ليديوكورو. أما حين يتعلق الأمر بالسامبا، فإنه

المتفوق الأكبر كرئيس عصبة ومدرب رقص أول. إنه يحدد الإيقاع ويرسم الخطوات.

ثم هناك رسامو المعجزات، الفنانون الذين يرسمون بالزيتي أو يخططون بالقلم أو بمسحوق الدهان الممزوج بالصمغ المخفف. وكلما نذر أحدهم نذراً لمولانا في بونغيم أو لسيدتنا في كاندلماس أو لأي قديس آخر؛ وبعد تقديم صلاته يذهب دائماً إلى محال رسامي المعجزات ليطلب صورة يعلقها في الكنيسة دليلاً على الامتنان. ومن هؤلاء الفنانين العصاميين (الذين تعلموا بلا معلمين) جوان دوارت دو سيلفا، السيد ليسيدو لوبيز، السيد كويروز، أغريبيني آنو باروس، وريموندو فراغا. السيد ليسيدو يحفر على الخشب أيضاً ويصمم نشرات وبيانات يدوية.

مغنو الشوارع وعازفو الغيتار والقوالون يبيعون قصص الحب والأشعار لقاء بنسات قليلة في هذه المنطقة الحرة، مثلما يفعل أيضاً الملحنون على وريقات صغيرة مكتوبة باليد في مطبعة السيد ليديو كورو أو في أي حانوت صغير متواضع.

هؤلاء شعراء ومؤلفو كراريس ومؤرخون ومدربو رقص وواعظون. يحكون عن الحياة في المدينة ويعلقون عليها، ويضبطون على الإيقاعات أحداثاً حقيقية وقصصاً مذهلة يخترعونها هم، «عذراء باربالهو التي علقت الموزة على...» أو «الأخيرة ماري كروز والفارس الطائر». يحتجون وينتقدون، يقدمون المواعظ والتسلية، وبين حين وآخر يطلقون قصيدة شعرية جيدة.

في مشغل أغنالدو يتحول الخشب القاسي الجميل ـ خشب الورد*(1) والخشب البرازيلي وخشب الماهوغاني*(2) والبيروبا والبوتوموجو والماساراندوبا ـ إلى عربات لكسانغو المرعد، ولأرواح الماء والأوكسون والأم بيمانجا والأرواح الهندية ـ كشاف الطرق، النجم الثلاثي، (ذو السيوف السبعة) الذي يحمل سيوفاً لامعة في يديه القويتين. ويدا أغنالدو نفسه قويتان على الرغم من أن قلبه بدأ يضعف لأنه أصيب بمرض شاغا القاتل، الذي لم يكن قد عرف له اسم في تلك الأيام، لكنه كان يعني الموت البطيء المحتوم. يداه اللتان لا تعرفان الكلل تصوغان آلهة أفريقية وأرواح كابوكلو (هجين من أبيض وهندي) التي لها سرها الخاص بها والذي لا يعرفه أحد؛ وكأنما أغنالدو نفسه، الموشك على الموت، ينفخ في كل منها نوعاً من الخلود. إنها أشكال مقلقة تذكر في الوقت ذاته بكائنات خرافية وببشر عاديين، وذات مرة طلب باي دوسانتو، وهو طبيب ساحر من ماروغوجيبي، تمثالاً ضخماً لأوكسوسي الصياد وجلب جذع شجرة ضخمة لينحته منها. احتاج نقل الشجرة إلى ستة رجال. وابتسم أغنالدو، الموشك على الموت والذي لا يكاد يلتقط أنفاسه، حين رآها: كان يجب أن يشتغل على قطعة ضخمة من الخشب كهذه. وفيما كان ينحت الشجرة بغبطة لا توصف وضع لأوكسوسي بندقية يمسك بها بدلاً من القوس والسهم. كان نوعاً مختلطاً من الأوكسوسي: إنه لا يزال ملك كيتوورب الغابات، طبعاً، لكنه يشبه إلى حد بعيد لوكاس دوفيرا، قاطع الطريق في المناطق النائية، أو لصاً فظاً مثل بيتل غولدنكورد (الخنفس ذي الخيط الذهبي).

قبل أن يموت بيتل العجوز

تكلم بوضوح شديد، وقال:

«لا تسمح لأحد بإزاحتك، يا بني،

إذا كنت تريد أن تشابه أباك».

أغنالدو رأى أوكسوسي بهذا الشكل، وهكذا نحته مع سكين صيد السمك وبندقية ونجمة قاطع الطريق على قبعته الجلدية. لكن المعلم الأب رفض أن يقبل الصورة الشائعة. وظل أوكسوسي في عمق الحانوت ليحرسه عدة شهور إلى أن مر فرنسي جوال ذات يوم ودفع مبلغاً كبيراً من المال مقابلاً له. ويقال إن أوكسوسي انتهى في متحف في باريس. ولكن بعد ذلك رويت مجموعة من الحكايات في المناطق المحيطة ببلورينهو.

وبين يدي خلاسي هزيل أقرب إلى البياض اسمه ماريو بروينشا، تتطرق صفائح التنك والزنك والنحاس وتتحول إلى سيوف للمحارب أوغون، ومراوح ليمانجا، وميدالية أوكسون المدورة الرمزية التي هي مروحة وآلة موسيقية، ومقشات طائرة لأوكسالا، أعظم الآلهة. ورمز عبادة بروينشا تمثال ضخم من النحاس ليمانجا: «خيمة أم المياه».

أما المعلم مانو القاسي الكالح ذو الوجه المجدور، الرجل ذو الكلمات القليلة والمزاج الصعب فيصنع رمح إكسو الثلاثي الحربات، وأسلحة أوكسون الحديدية المتعددة، وقوس أوكسوسي المشدودة، وصل أوكسوماري، إله قوس قزح. وهذه الآلهة ـ الأوريكسا ـ مثل رموزها مولودة من النار ومن عنف مانو.

يولد النحت بين أيدي هؤلاء الناس غير المتعلمين.

ويشتغل المعلم ديدي، وهو يقف عند بوابات كارمو، بالخرز والقش، وذيول الخيل والجلود ليخق ويخلق المِدراس اليدوي القصبي لأمولو وكافة الرموز الأخرى ـ الايبيري والآري والايروكسين والايروكيري والكساكسارا. وإلى جواره ديودورو، الخلاسي ذو الضحكة الصاخبة والذي تخصص في صنع الطبول الخشبية الخاصة بكل شعب أفريقي ـ ناغو، غيجي، أنغولا، كونغو ـ والطبل الصغير، إيلو، لإيجاكسا، يصنع آلات معدنية وخشخيشات خرزية. ولكن أجراس آغوغو التي يصنعها مانو هي الأفضل.

وفي مدخل أحد المنازل في روادو ليشيو يزخ ميغيل دفقات من المرح والثرثرة اللامتناهية وهو يصنع الملائكة والقديسين ـ قديسون كاثوليك ومقدسات كنيسة، وعذراء الحمل، والقديس أنطونيو من لشبونة والملاك الحارس جبرائيل، والطفل يسوع ـ كيف يحدث أن يكونوا قريبين بهذا المقدار من أوريكسات المعلم أغنالدو؟ الشيء الوحيد المشترك بين رموز الفاتيكان وآلهة فودو وكابوكلو هو دمهم المختلط، فإذا كان الأوكسوسي الذي يصنعه أغنالدو قاطع طريق من المناطق النائية فكذلك يكون القديس جورج عندنا من القديسين. وخوذته تبدو أشبه ما تكون بقبعة جلدية وتنينه قد يكون مزيجاً من التمساح والغول الخرافي عند مهرجان الملوك الثلاثة.

بين حين وآخر، حين يجد ميغيل الوقت والرغبة، فإنه ينحت زنجية عارية شهوانية لمجرد اللهو والتسلية ثم يقدمها لأحد أصدقائه، أحد هذه التماثيل كان صورة ناطقة لدوروشيا السوداء؛ الثديان المرتفعان والمؤخرة الصلبة والبطن الموردة والقدمان المدورتان. ومن أحق من بدرو أرشانغو باقتنائها؟ ولم يستطع ميغيل أبداً أن ينحت تمثالاً لروزا دو أوكسالا. لم يستطع «أن يحس بها» كما كان يقول.

صاغة الذهب والفضة يعملون بالمعادن النبيلة. الفضة والنحاس يصبح لهما جمال قاس حين يصاغان على شكل فاكهة أو سمكة أو تعويذة ـ الفيغا والبالانغاندان؛ وفي لارغو داسي وبيكادوس ساباتيروس يتحول الذهب إلى قلائد وأساور بلمسات من الصائغ. وأكثر هؤلاء الصاغة شهرة هو

لوشيوريس، الذي كان والده خبيراً برتغالياً، وقد علمه الصنعة جيداً. لكن لوشيوريو أهمل الصياغة التخريمية اللوزيتانية وصار يصنع، بدلاً منها، ثمار شجر البلاذر الأمريكي والأناناس والكرز البرازيلي والتفاح السكري ورموز الخصب (الفيغا) من الأحجام كافة. وعن برديليتا السوداء، أمه، أخذ خاصية اختراع الأشياء. والحلق وقطع الزينة والخواتم التي اخترعها تساوي الآن ثروات طائلة في محلات بيع الأثريات.

وتحت ظلال النخيل تضيف جوزات الكولا والبذور السحرية الطقوسية قوتها إلى الدواء العادي. والدونا أديليد توست، بفمها البذيء وقدرتها اللا محدودة على احتساء روم الكاشاشا تعرف القدرة الإيذائية لكل بذرة وورقة شجر والصفات الدوائية للجذور واللحاء والنباتات والأعشاب: الشبّة للكبد، ونبتة رغي الحمام لتهدئة الأعصاب، والبردي اللزج لآثار السكر والبريكستون للكلى، والعشبة المقدسة لآلام المعدة، وبردي لحية الماعز لرفع المعنويات وتخفيف الآلام. والدونا فيلومينا خبيرة أخرى! فإذا سألتها بلطف ودفعت لها بسخاء فإنها تجعل جسدك محصناً من العين الشريرة. وهي لا تفشل أبداً في علاج البرد المزمن وآلام الصدر بوصفة مؤلفة من الشيح والسرمق والعسل والحليب والليمون وما لا يعرفه إلا الله. ما من سعال، ولا حتى الشهيق التشنجي يستطيع مقاومتها. وقد استطاع طبيب بعد تعلم الوصفة الخاصة بتنقية الدم على يد الدونا فيلومينا أن يذهب إلى سان باولو وأن يجمع ثروة طائلة من معالجة السفلس.

خيمة المعجزات، لاديرا دوتوبوان رقم (60)، هي البناء الأساسي في الجامعة الشعبية. هناك المعلم ليديوكورو الذي يرسم المعجزات، ويلقي بالظلال السحرية ويحفر خطوطاً أولية على الخشب. وهناك بدرو أرشانجو الذي يمكن اعتباره مستشار الجامعة. هذان الرجلان وهما منكبان على النموذج العتيق البالي وآلة الطبع الحساسة في الحانوت القديم الفقير في أثاثه، يهيئان نموذجاً لكتاب عن الحياة في باهيا.

ولا تبعد كلية الطب كثيراً عن «معبد المسيح»*(3)، وفي تلك المدرسة يتعلم الطلاب علاجات أخرى للمرض وطرقاً أخرى للعناية بالمرضى. ويتعلمون أيضاً أشياء أخرى ـ بلاغة رديئة، وطريقة ترديد القصائد (السونتس) ونظريات ذات قيمة مشكوك فيها.

---

*(1) ـ خشب وردي من أشجار استرانية.

*(2) ـ خشب أحمر.

*(3) ـ تيريرو دو جيزوس.

كيف كُلِّف فاوستو بينا، الشاعر الذي يحمل البكالوريوس في العلوم الاجتماعية بمهمة وكيف نفذها؟

سيجد القارئ في الصفحات التالية نتائج تحرياتي حول حياة بدرو أرشانجو وأعماله. وقد أسندت إليّ المهمة من قبل جيمس د. ليفنسون العظيم ودُفع لي من أجلها بالدولار.

قبل كل شيء هناك بعض النقاط التي لابد من توضيحها طالما أن الأمر كله كوميديا أخطاء من بدايته حتى نهايته. وعند تصفح دفتر ملاحظاتي لا أستطيع تجاهل الدليل: لا يتبقى إلا القليل من الهذر الفارغ. والقصة كلها مشوشة وغامضة على الرغم من قصارى جهودي التي كانت جهوداً جبارة بلا حدود. صدق أو لا تصدق.

وحين أتحدث عن الشكوك والأمور غير الموثوقة وعن الغموض والسحر فإنني لا أشير فقط؛ إلى حياة كاتبنا، بدرو أرشانجو من باهيا، بل إنني أشير إلى مجمل الحقائق في أوج تعقيدها: من حوادث الماضي البعيد إلى الأحداث المعاصرة؛ بما في ذلك مقابلة ليفنسون المثيرة؛ ومن الحفل المشهود الذي أقيم في عيد ميلاد أرشانجو الخمسين إلى الليلة الختامية للذكرى المئوية. أما في ما يتعلق بإعادة بناء حياة بدرو أرشانجو فلم يكن ذلك قصدي أبداً. وفي الحقيقة لم يطلب مني ذلك عالم كولمبيا الذي كان اهتمامه متركزاً على مناهج أرشانجو في البحث ونوع ظروف العمل التي استطاعت أن تنتج عملاً حياً وأصيلاً كعمله. كل ما طلبه مني ليفنسون هو جمع المعطيات التي تمكنه من النفاذ إلى شخصية أرشانجو وأعماقه وذلك لأنه يريد أن يكتب عدة صفحات عنه كمقدمة للترجمة الإنكليزية لمؤلفاته.

ولم تكن التفاصيل الدقيقة في حياة أرشانجو هي التي جذبتني بل الحقائق الهامة والأساسية أحياناً. وكثيراً ما كنت أجد نفسي أمام جدار كاتم، في متاهة من الزمان والفضاء، أو في مواجهة أحداث لا تفسير لها، وروايات متعددة للقصة ذاتها، وشروحات غير معقولة ونقص مريع في ترتيب المادة التي تمكنت من جمعها ومعلومات متناقضة وأصحاب معلومات متناقضين. فلم أستطع، مثلاً، أن أعرف أبداً ما إذا كانت الزنجية روزا دو أوكسالا هي نفسها الفتاة الخلاسية ريزوليتا، التي جاء أسلافها من مالي أم أنها هي دوروشيا، المرأة التي تحالفت مع الشيطان. كان هناك من يعتقد أنها متجسدة في روزيندا باتيستا دوس من موريتيبا، بينما ربط آخرون قصتها بالفاتنة سابينا دوس أنجوس «ألطف الملائكة» حسب تعبير المعلم أرسانجو الفصيح. قلت لنفسي: عليها اللعنة. هل كانت امرأة واحدة أم عدة نساء؟ وتوقفت عن محاولة الكشف. وأنا واثق أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف أكثر مما عرفت.

وعلي أن أعترف بأن مجموع الروايات المتناقضة قد أغضبتني إلى درجة التوقف عن تعرض

مكتشفات محددة. كانت الأمور تنتهي دائماً إلى «ربما» و«لعله» و«إن لم يكن الأمر على هذا النحو فعلاً فلا بد أنه كان كذلك» ـ لا تماسك ولا يقين أبداً. ربطوا به مآثر عديدة. وكأن الذين كنتُ أحدثهم لم تكن أقدامهم على الأرض. فكأنهم لم يكونوا يرون الميت مخلوقاً من لحم ودم بل يرونه عصبة كاملة من الأبطال والسحرة. ولم أستطع أبداً أن أرسم حداً فاصلاً بين الحقيقة والوهم كما بين الواقع والتخيل.

قرأت كتبه كلها من بداياتها حتى نهاياتها. ولم تؤد الغرض المطلوب ـ مجرد أربعة كتب صغيرة أطولها لا يزيد على مئتي صفحة (مؤخراً قام ناشر في سان باولو بطباعة ثلاثة منها في مجلد واحد وحذف كتاب الطبخ لأن نوعيته المتخصصة تحقق انتشاراً أوسع) ولن أغامر بإبداء رأي في عمل أرشانجو، الذي أصبح الآن فوق النقد والاعتراض. وما من أحد يجرؤ على إنكار قيمته بعد أن كرسه ليفنسون العظيم وتُرجم إلى عدة لغات. ويبدو أنه استقبل بحفاوة في كل مكان. فيوم أمس بالذات قرأت في الصحيفة خبراً موجزاً: «تم نشر أرشانجو في موسكو وقد مدحته البرافدا».

كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أضيف مديحي إلى الجوقة العالمية. سأقول إنني وجدت الكتب ممتعة للقراءة: كثير من الأشياء التي يشير إليها أرشانجو هي جزء من الحياة اليومية في باهيا حتى اليوم. تسليت كثيراً بالكتاب قبل الأخير (كان على وشك أن ينشر كتاباً آخر عند موته) الكتاب الذي جلب له الكثير من المشاكل. واليوم حين أسمع بعض معارفي يتباهون بدمهم الأزرق، وسلالتهم النبيلة وأشجار عوائلهم وشعارات نبلهم وما شابه ذلك من هذا الهراء؛ أكتفي بأن أسألهم عن اسم العائلة ثم أنظر في قائمة أرشانجو. لقد كان جدياً ومجتهداً جداً في بحثه عن الحقيقة.

لم أوضح بعد كيف تعرفت بذلك الباحث في أمريكا الشمالية وكيف شرفني بتلك المهمة. اسم جيمس د. ليفنسون غني عن التعريف. ومسألة أن يثق بي من أجل مهمة صعبة كهذه هي مصدر غبطة وفخر. وذكرياتي عن اللحظات القصيرة التي قضيتها برفقته هي ذكريات مبهجة على الرغم من كل ما حدث. غير مدّع بل مبتسم ومؤدب وأنيق ووسيم. إنه الرد الحي على جميع كاريكاتيرات الباحثين العجائز المنهكين في أراشيف المحفوظات المعثثة.

وعليّ أن أغتنم هذه الفرصة لأضع الأمور في نصابها في ما يتعلق بتعاوني مع البروفسور الشهير في جامعة كولومبيا؛ الأمر الذي استغله الحاسدون والفاشلون بشكل مخجل، فهم لم يكتفوا بالتدخل في حياتي الخاصة ويلوثوا اسمي واسم آنا مرسيدس، كما هي عادتهم؛ بل حاولوا تشويه سمعتي عند اليساريين بأن أعلنوا لأرجاء الدنيا كافة بأنني قد بعت نفسي وبعت ذكرى أرشانجو إلى الإمبريالية الأمريكية الشمالية لقاء حفنة من الدولارات.

أسألكم الله ما هي العلاقة الممكنة بين ليفنسون ووزارة الخارجية أو البنتاغون؟ والحقيقة هي أن مركز ليفنسون ينظر إليه من قبل الرجعيين والمحافظين نظرة غير سليمة لأن اسمه مرتبط بالحركات التقدمية وبالاحتجاج على الحرب. وحين نال جائزة نوبل من أجل مساهماته في العلوم الاجتماعية والإنسانية فإن ما ركزت عليه الصحافة الأوروبية هو شبابه بشكل خاص ـ هو أصلاً لم يتجاوز الأربعين بعد ـ واستقلالية المكرّم الجديد الأمر الذي أثار الشبهات حوله في الدوائر الرسمية. وإضافة إلى ذلك فإن مؤلفات ليفنسون في متناول الجميع؛ وفيها تلك الإحاطة الشمولية الهائلة بالحياة عند الشعوب البدائية والمتخلفة والتي وصفت بأنها «صرخة احتجاج درامية ضد العالم الخاطئ والظالم».

وأنا لا علاقة لي بنشر مؤلفات أرشانجو في الولايات المتحدة؛ بل إنني أعتبر أن شعبيتها وانتشارها

انتصار للفكر التقدمي. ففي النهاية يظل ابن بلدنا الباهي متحرراً، ومن دعاة الحرية. صحيح أنه لم يبشر بأية أيديولوجيا، لكنه كان يتأجج بحب حارق لا حدود له لأبناء شعبه. وكان من حملة ألوية الكفاح ضد العنصرية والتحامل والبؤس والتعاسة.

التقيت ليفنسون عن طريق آنا مرسيدس، الممثلة الحقيقية لحركتنا الشعرية الشابة في أحسن حالاتها، والتي تكرس الآن مواهبها الكبيرة للموسيقى الشعبية البرازيلية، والتي في الوقت ذاته تعمل كمراسلة لجريدة يومية محلية، وقد طلب إليها أن تغطي زيارة البروفيسور القصيرة لمدينتنا. وقد حملت أوامر رئيس تحريرها بإخلاص إلى درجة أنها لم تفارق الأمريكي. كانت مترجمته ومرافقته الدائمة في الليل والنهار. ولاشك أن لتزكيتها لي علاقة باختياري للمهمة. ولكن مسافة شاسعة وبحراً من الافتراءات يقعان بين هذه الحقيقة وبين ما تجرأ على قوله بعض المنحطين عنا نحن الاثنين. لقد كانت أمام ليفنسون الفرصة الملائمة لتقدير مؤهلاتي قبل ن يقدم لي العقد.

كنا، نحن الثلاثة، نذهب معاً إلى الاحتفالات في عيد يانسان حسب الأصول والطقوس الملائمة لـ«تيريرو ألاكوتي» وكنت قادراً على إظهار معرفتي المتخصصة بالثقافة الأفرو ـ برازيلية وجعله يشعر بعظمة فائدتي له. بمزيج من البرتغالية والأسبانية وبشيء من الإلمام بالإنكليزية الذي جمعته من بعض إلمامات أو أن كنت أشرح له الطقوس المتوافقة المتعارضة. قلت له أسماء الأرواح ـ الأوريكسا ـ وأسباب حركاتها المختلفة وإشاراتها ووضعياتها، وشرحت له الرقصات والأغنيات وألوان الملابس التي يرتديها المؤمنون إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة. ـ فأنا متحدث بارع حين يكون مزاجي جيداً؛ وما لم أكن أعرفه كنت أفبركه. كنت مصمماً على عدم إضاعة هذه الدولارات التي كانت تتلامع أمام عيني. دولارات، انتبه، وليست كرويزوات عديمة القيمة. بعد قليل استلمت نصف المبلغ في بهو الفندق، حيث، بشيء من عدم الحماس، ودعتهما وتمنيت لهما ليلة سعيدة.

وهذا كل ما عندي لأقوله. لم يكن هناك ما يمكن شرحه، باستثناء أنه، ولأسفي الشديد لم يول ليفنسون العظيم أي اهتمام لشغلي. فحالما انتهى الشغل أرسلت له نسخة على الآلة الكاتبة، كما التزمت بأن أفعل، وربطتها بواحدة من الصورتين الفوتوغرافيتين اللتين استطعت إيجادهما؛ الصورة الباهتة يظهر فيها خلاسي فاتح السحرة، شاب ضخم يرتدي بذلة فاتحة يتخذ وضعية خاصة ويبدو منسجماً مع نفسه. إنه بدرو أرشانجو نفسه بعد قليل من استئجاره كساع في كلية باهيا الطبية، ورأيت من الأفضل ألا أرسل الصورة الأخرى التي يظهر فيها المعلم بدرو، وقد صار الآن عجوزاً مقعداً، مجرد بقايا إنسان، محاطاً بنساء مشكوك في فضيلتهن وهو يمسك كأساً ومن الواضح أنه سكران كما يليق بلورد.

بعد ما يقرب من أسبوعين، تلقيت رسالة موقعة من سكرتير ليفنسون، يؤكد فيها استلامه لأوراقي ومعها شيك بالنصف الآخر من أجري مع مبلغ إضافي لتغطية بعض النفقات التي تكبدتها أو قد أتكبدها. لقد دفعوا دون مماحكة على البنسات، وأنا واثق أنهم كانوا سيدفعون أكثر لو لم أكن متواضعاً في توقعاتي وغير مبازر في قائمة مصاريفي.

من كل المادة التي أرسلتها لم يستخدم ليفنسون إلا الصورة عند نشره الترجمة الإنكليزية لمجمل أعمال بدرو أرشانجو وباعتبارها جزءاً من موسوعته الهائلة عن حياته بين شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (انسكلوبيديا الحياة في البلدان الاستوائية والمتخلفة) التي كتبت بالتعاون مع بعض السلطات العليا في زماننا. وفي مقدمته اكتفى ليفنسون بتحليل كتبنا الباهيانية مع ذكر عابر لحياته ـ ما يكفي للتدليل على أنه لم يلق ولو نظرة عابرة على النص الذي كتبته. وفي مقدمته جاء أرشانجو وقد

تقدم إلى «بروفسور بارز، وعضو في الهيئة التدريسية في كلية الطب». والذي تحت رعايته يفترض أنه قام بأبحاثه ونشر كتبه. تصور ذلك إذا استطعت! من الذي دس هذه الأكاذيب الصارخة لليفنسون!! ولكن لو أنه ألقى نظرة واحدة على الأقل على أوراقي الأصلية لما وقع في خطأ فادح كهذا ـ من ساع، إلى بروفيسور. آه! أهذا ما كان ينقصك يا أرشانجو المسكين!!.

ولم يذكر اسمي ولو مرة واحدة، كما لم ترد أية إشارة إلى شغلي في كتاب ليفنسون. في هذه الحال أجد لدي الحرية الكاملة لقبول العرض الذي تلقيته لتوي من دميغال شافز، بائع الكتب والناشر الثري في روادا أجودا، الذي عرض علي أن ينشر جهودي المتواضعة. ولم أشترط غير شرط واحد؛ عقد واضح وملائم. ذلك أنه يشاع أن السيد شافز، على الرغم من ثرائه وغناه الواضحين، يعقد صفقات قاسية وأحياناً تخونه الذاكرة حين يتعلق الأمر بدفع حقوق المؤلفين. وفي هذا المجال يتمشى الرجل مع تقليد محلي: صديقنا أرشانجو كان ضحية لشخص اسمه بونفانتي؛ بائع كتب وناشر هو الآخر، لديه مكتبة في لارغودوسي منذ وقت طويل، كما سنرى.

وصول الباحث الأمريكي الشمالي جيمس د. ليفنسون إلى البرازيل ومعاني هذا الوصول وتبعاته

-1-

ـ ياي! ياي! إنه لعبة. لعبة حية تتنفس!

هكذا صرخت آنا مرسيدس، وهي تخطو خطوة واحدة إلى الأمام، حتى وقفت مثل نخلة استوائية ممشوقة خارج إطار الجمع، المكون من مراسلين ومعلمين وطلاب ونساء المجتمع الراقي ورجال الأدب والفضوليين الذين تجمعوا في الصالون الواسع في الفندق الكبير بانتظار جيمس د. ليفنسون الذي سيقابل الصحافيين.

وكما لو أنها قد انتُدبت لتقدم للرجل مفاتيح المدينة، تقدمت الفتاة المراسلة لصحيفة «مورننغ نيوز»، مبتسمة وشقت طريقها وسط زحام المكروفونات الإذاعية وكاميرات التلفزيون ومصابيح الإضاءة والمصورين الصحافيين ومصوري السينما والتلفزيون وكتلة متشابكة من الأسلاك الكهربائية.

«الشيمية»*[4] كلمة أكثر انحطاطاً وسوقية من أن تليق بوصف تلك المشية المتماوجة، ذلك التأرجح في الأرداف والبطن على إيقاع السامبا، والذي يليق بحاملة علم في مسيرة كرنفال.. مثيرة جنسياً (سكسي) إلى أبعد الحدود. والميني جيب الذي ترتديه يظهر العمودين السمراوين لفخذيها. نظرتها ليلية. وهناك ابتسامة على شفتيها المنفتحتين بنصف انفتاحة والمكتنزتين قليلاً. وأسنان بيضاء شهوانية. وسرتها ظاهرة للعيان. فتاة ذهبية من رأسها إلى أخمص قدميها. لا. الشيمية ليست بالكلمة المناسبة. إنها دعوة وعرض. هي الرقصة ذاتها.

خطا الأمريكي خارجاً من المصعد ثم توقف ليستطلع القاعة وليترك المجال لتأمله! طوله أكثر من ستة أقدام مع جسد رياضي ومظهر ممثل: شعر أشقر، عينان بزرقة السماء ومعه غليون ـ من يصدق أنه في الخامسة والأربعين من عمره كما يقول بيان سيرته؟ الصور الكاملة التي نشرت في مجلات ريو وسان باولو هي التي جلبت النساء بهذه الكثرة: وحالما رأينه أيقنَّ بصمت أن ليفنسون بلحمه ودمه أفضل بكثير مما هو في صوره. يا له من رجل!

«يا للصفيقة»! همست امرأة ذات صدر فيه عظمة بارزة، وكانت تعني آنا مرسيدس.

تطلع الباحث مسحوراً إلى الفتاة التي كانت تتقدم إليه مباشرة بسرتها الظاهرة. لم يسبق له أن رأى مشية متراقصة كهذه، وجسداً ليناً كهذا، ووجهاً مثل هذا الوجه مليئاً بالبراءة والإدراك، خلاسية بيضاء سوداء.

تقدمت وتوقفت أمامه، وحين تحدثت كان كلامها تغريداً: «مرحبا يا ولد!».

ـ مرحبا! أجاب ليفنسون بلهجة موحية وهو يخرج الغليون من فمه يقبل يدها.

ارتعشت النساء كلهن في وقت واحد وهن يتطلعن مذهولات إلى وقاحتها. أوه! هذه الآنا مرسيدس ليست سوى مومس رخيصة، تسمي نفسها مراسلة وتكتب خربشات يسمونها شعراً.. على أية حال الجميع يعرفون أن فوستو بينا، ديوث هذه المرحلة، هو الذي يكتب لها شعرها!

وكما كتب سيلفينهو الرائع في زاويته في اليوم التالي: «كانت فتنة سيدات باهيا ورقيّهن وثقافتهن حاضرة. «كوم إل فو» في مؤتمر جيمس د. الصحفي الرائع، بعض الأشياء العزيزة الصغيرة (السيدات) يتحدثن بعلم الأقوام معه، بينما صيادات الرجال يحدقن إليه فاغرات أفواههن وهن يستعرضن علومهن الاجتماعية». كان لبعض هؤلاء النساء، فعلاً، مواهب أخرى إضافة إلى مظاهرهن الحسنة وألقهن وباروكاتهن الأنيقة وبراعاتهن في السرير؛ لديهن شهادات من وزارة السياحة أو مدرسة المسرح في «الملابس والأزياء النموذجية» و«تراث مدينتا وتاريخها ونُصبها» و«الشعر الحسي» «والدين والجنس والتحليل النفسي». ولكن سواء كن تلميذات مزودات بشهادات أم مجرد هاويات، وسواء كن بالغات غير مروضات أم سيدات رصينات على أبواب عملياتهن التجميلية الثانية أو الثالثة؛ فإنهن جميعاً قد أدركن أنهن قد خسرن السباق وأن عليهن الاستسلام؛ فآنا مرسيدس الصفيقة الساخرة قد تقدمت عليهن وطوت العالم الدافق الرجولة تحت جناحها وحولته إلى ملكية خاصة تماماً. فلأنها تملكية ونهمة ـ «بقرة نهمة ونجمة مضاجعة» كما جاء في شعر فوستو بينا الغنائي ذي المعاناة الطويلة ـ لم يكن في نيتها أن تشارك أحداً في لفنسون، وأدركت النساء الأخريات أن عليهن الاستسلام نهائياً.

أمسكت الشاعرة المراسلة البروفسور القادم من جامعة كولومبيا بيده وقادته إلى وسط القاعة حيث وضع كرسي ذو مساند. تلاحقت لمعات الأضواء وبدت المصابيح كالأزهار. ولو أن أحدهم فتح البيانو وعزف «مارش الزفاف»، لكانت آنا مرسيدس بالميني جيب والميني بلوز وجيمس د. لفنسون ببذلته الاستوائية الزرقاء عريسي العام في طريقهما إلى المذبح. وهمس سيلفينهو: «انظروا إلى العريس والعروس».

لم تفترق يداهما إلا بعد أن جلس الباحث. ولكن آنا ظلت واقفة للحراسة إلى جانبه؛ إذ أنها لم تكن من الغباء بحيث تفلته وسط هذه الحلقة من العاهرات الشرهات وهن في حالة نزاع. كانت تعرف كل واحدة من هؤلاء البقرات وتعرف أن كلاً منهن أكثر استعداداً من الأخرى للاضطجاع. ضحكت لهن لكي تستعرض انتصارها فقط. وجن جنون المصورين فصعدوا على الكراسي ووقفوا على الطاولات وزحفوا على الأرض في مشهد مهووس من البحث عن الزوايا والوضعيات. وبإشارة خفية من وزير السياحة قام الخدم بتقديم المشروبات وبدأ المؤتمر الصحفي.

جوليو ماركوس، المثقل بإحساسه بالأهمية والمعرفة وتقدير الذات والغرور، وهو الناقد الأدبي ورئيس التحرير لـ«سيتي نيوز» وضع نظارته ونهض على قدميه. ساد صمت وإعجاب وشيء من حبس الأنفاس بسبب التوقعات الأنثوية. فإذا كان النتاج الأجنبي المتمثل في شخص العالم الأشقر لم يعد ممكناً؛ فإن ماركوس الصلف بعينيه الزرقاوين المخضرتين ومسحته الخلاسية المنمشة لديه شيء من الفتنة. وباسم «سيتي نيوز» والمثقفين المتنورين بشكل عام طرح السؤال الأول، وكان مدمراً:

ـ أود لو أسمع، بكلمات موجزة، رأي البروفسور العظيم بأعمال ماركيز، أليس صحيحاً أن ماركس، بعد ماركيز، صار موضة ظافرة هل توافق على هذا الرأي؟ أم لا؟» وبعد أن تكلم مسح القاعة بنظرة ظافرة، فيما المترجم الذي يحتل مكتب العميد في الجامعة أو لديه لفظ واضح بالطبع) راح يترجم

السؤال إلى الإنكليزية. وماريوشا بالانغا، الكاريكاتير التعيس لفتاة في سن الزواج والتي لوجهها وظيفتان ولصدرها وظيفة واحدة، هتفت بإعجاب وبصوت هامس ولكنه مسموع: «ما أبرعه!».

بحنو تطلع جيمس د. ليفنسون إلى سرة آنا مرسيدس، بئر الغموض العميقة، وزهرة بستان الحلم، وسحب نفساً من غليونه ثم أجاب بإسبانية خارجة من الحلق، وبالفظاظة التي تليق بالفنانين والعلماء: «هذا سؤال غبي. والأحمق وحده هو الذي يمكن أن يغامر برأي كهذا حول مؤلفات ماركيز أو يناقش ماركسية اليوم ضمن إطار مؤتمر صحفي. ولو كان لدي الوقت لإلقاء بحث أو محاضرة لاختلف الأمر. ولكن ليس لدي الوقت ولم آت إلى باهيا للتحدث عن ماركيز. جئت لكي أرى المكان الذي عاش فيه رجل ذو أهمية واشتغل فيه، رجل ذو مثل عميقة وطيبة، وأحد مؤسسي الإنسانية الحديثة ـ ابن بلدكم بدرو أرشانجو هذا، وهذا وحده، هو ما جاء بي إلى باهيا».

ونفخ في غليونه ثم ابتسم للجمهور المسترخي والمستمتع بحب الغرينغو*(5). ودون أن يلقي حتى نظرة على جثة ماركوس المسكين الملفعة بإزار من غروره الأحمق؛ تأمل آنا مرسيدس من رأسها إلى قدمها ومن شعرها الأسود المرسل إلى أظافر قدميها العجيبة المدهونة بالأبيض، ليكتشف أنها تزداد ملاءمة لمقاييسه وذوقه. لقد سبق لأرشانجو أن كتب في أحد كتبه: «جمال النساء، النساء البسيطات من الطبقات الفقيرة الدنيا، إحدى ميزات مدينتنا المهجنة، ومن مزايا الحب بين الشعوب، ورمز لصباح مشرق سخي». وتطلع مرة أخرى إلى السرة الموردة، سرة العالم، ثم قال بإسبانيته القاسية الصحيحة المستمدة من جامعة أمريكية شمالية:

«أتعرفون بما أود أن أشبه عمل بدرو أرشانجو؟ بهذه الصبية الواقفة إلى جانبي. إنها بالضبط مثل صفحة من كتاب: أرشانجو، إغواليتا ـ طبق الأصل».

وهكذا، في باهيا، عصر ذلك اليوم الجميل من نيسان بدأ تمجيد بدرو أرشانجو.

---

*(4) ـ رقصة أميركية من رقصات الجاز، تتميز بهز الأوراك أو الأكتاف ـ المورد.

*(5) ـ اللفظ الأميركي اللاتيني لكلمة ((غريب)).

- 2 -

الشهرة والاعتراف الشعبي والمديح وإعجاب المتعلمين والمجد والنجاح ـ وحتى النجاح العالمي المقرون بكتابات التقريظ في الزوايا الاجتماعية والصرخات الهستيرية الصغيرة من نساء الطبقة الراقية ـ هذا كله جاء لبدرو أرشانجو بعد موته، وما من شيء من هذا يفيده، ولا حتى النساء اللواتي أحبهن من كل أعماقه حين كان حياً.

كانت تلك «سنة بدرو أرشانجو» كما كتب صحافي مشهور في استعراضه للأحداث الثقافية في نهاية العام. وكان ذلك صحيحاً: إذ لم يتمتع أي مثقف آخر بشعبية كهذه، ولم يتلقّ أي كتاب مثل ذلك المديح الذي انصب على مؤلفاته الأربعة، التي أعيد طبعها بسرعة بعد عقود عديدة من الإهمال حين كانت مجهولة تماماً، ليس فقط بالنسبة لعامة القراء بل حتى بالنسبة للمتخصصين مع استثناءات مشرفة محددة سنأتي على ذكرها لاحقاً.

بدأ الآمر كله مع وصول جيمس د. لفنسون الشهير إلى البرازيل، وهو «أحد العبقريات الخمس في هذا القرن» (الموسوعة البريطانية): فيلسوف، عالم رياضيات، عالم اجتماع، عالم أحياء، عالم في علم الأقوام. الخ وبروفسور في جامعة كولومبيا، وحائز على جائزة نوبل في العلوم ـ وإضافة إلى ذلك كله: أمريكي. لقد استطاعت نظرياته الجريئة والمثيرة للجدل أن تثوِّر العلوم المعاصرة: وبالنظر إلى المسائل بمناظير حواريين آخرين توصل إلى نتائج جديدة جريئة فقلب الفرضيات والأطروحات القديمة التي ظلت لفترة طويلة تعتبر بدهية. وبالنسبة للمتحفظين كان يعتبر مهرطقاً خطراً؛ أما بالنسبة للطلاب والأنصار فقد كان إلهاً. وبالنسبة للصحافيين كان مَنّاً تنزل من السماء لأن جيمس د. لفنسون كان يتحدث بصراحة ومباشرة ويقول ما يفكر فيه تماماً.

لقد جاء إلى ريو بدعوة من جامعة البرازيل لإلقاء سلسلة من خمس محاضرات في كلية الفلسفة والآداب. وكما نعرف جميعنا كانت الندوات ناجحة تماماً. فالمحاضرة الأولى التي خطط لها بأن تلقى في قاعة محاضرات الكلية كان لابد من الانتقال بها في آخر لحظة إلى المدرج الكبير في المبنى الرئيسي. وحتى هناك كان بعض المستعمين واقفين في الممرات أو جالسين على الأدراج. وكان هناك الكثير مما يشغل المراسلين والمصورين. فلفنسون لم يكن عبقرياً فقط بل كان «فوتوجينيك» بشكل باهر.

وتسببت محاضراته، التي تلتها فترات للأسئلة وأحياناً نقاشات حادة، في قيام تظاهرات طلابية عنيفة تأييداً للعالم مع صرخات احتجاج ضد الديكتاتورية. وأكثر من مرة كان الطلاب يهبون واقفين ليعبروا عن حماسهم المفرط له ويظلون على ذلك عدة دقائق. والتقطت مخيلة الناس بعض عبارات لفنسون لتنتقل بسرعة شديدة من أقصى البلاد إلى أقصاها. «عشر سنوات من المؤتمرات العالمية المطولة أفضل من يوم واحد من الحرب وأرخص أيضاً». «السجون ورجال الشرطة قذرون بالمقدار ذاته في ظل أي نظام ودون استثناء». «لن يكون العالم متحضراً فعلاً إلا حين يقتصر وجود البزات

العسكرية على المتاحف».

كان لفنسون يلازم الشاطئ في الصباح وهو محاط بالمصورين وهاويات الشهرة ولا يرتدي إلا مايوه السباحة الصغير. وبشكل مقصود رفض الدعوات كافة من الأكاديميات والمعاهد والنقابات والمجالس الثقافية وجمعيات المعلمين ـ إنه مشبع بهذه الأشياء من نيويورك وقد قرف منها ولكن متى تتاح له الفرصة مرة أخرى للتمتع بشمس البرازيل؟ كان يلعب الكرة على الشاطئ وكان بالطبع يصور وهو يسجل الأهداف، على الرغم من أن النساء هن، دون شك، رياضته المفضلة. وصار متألقاً بحميمية مع بعض أفضل النماذج المحلية في النوادي الليلية وعلى الشاطئ.

وبما أنه مطلق حديثاً فإن الزوايا الاجتماعية في الصحافة قد انشغلت إلى أقصى الحدود في اختراع قصص الحب والخطوبات له. وإحدى كاتبات الزوايا المهذارة الحمقاء تنبأت بدمار زواج معين محترم لكنها غلطت: فالزواج كان أعلى مقاماً من أن يحتك بجواد «الشباية»*[(6)] والعالم هذا، «يوم أمس وعلى الشرفة في قعر كوباكابانا كانت كاتي سيكويرا بدرو بالبكيني المشترى من كان وقد تطلعت بشغف إلى جميس د. العظيم وزوجها المدلل وهما صديقان حميمان» كما ردت زول العارفة ببواطن الأمور. وأظهرت إحدى المجلات الشعبية العري الرياضي للعالم الحائز على جائزة نوبل على غلاف عددها هذا الأسبوع إلى جوار العري الراقي لناديا سيلفيا وهي ممثلة ذات موهبة عظيمة تظهرها حينما (أو لو أنها) تعطى الفرصة الملائمة؛ تلك الفرصة التي لم تمنحها إياها السينما أو المسرح ودون سبب واضح. وحين حاورها أحد المراسلين ضحكت وغمزت دون أن تجيب بنعم أو لا على الأسئلة حول الحب من أول نظرة ومشاريع الخطبة. وقد كتبت إحدى الصحف بحياد موضوعي «إن لفنسون هو سادس شخصية عالمية تنبهر أمام ناديا سيلفا التي لا تقاوم». ثم عددت أسماء الخمسة السابقين وهم: جون كندي وريتشارد برتون وأغاخان ومدير بنك سويسري وأحد اللوردات الإنكليز ـ إضافة إلى كونتيسة إيطالية معينة ذات ميول رجّالية ومليون دولار.

وكتبت جيسا في «ايفننغ كرونيكل»: «ظهر لفنسون العبقري في قاعة الرقص مرة أخرى في لوباتو ليلة أمس وكان في حالة حب مع هيلينا فون كلوستر الشهيرة. أما وقد تعلم السامبا الآن فإنه لم يرقص رقصة أخرى بعد ذلك». وكشف روبرت سابا وفي ثماني عشرة جريدة وعبر عدد أكبر من محطات التلفزيون عن أن برانكينها دو فال برنير وهي المضيفة ذات الأهمية التي لا تضاهى على متن الطائرة أو في السرير قد أشارت إلى أنه «لو لم يكن جيمس حامل جائزة نوبل كما هو الحال، لاستطاع أن يكسب عيشه كراقص محترف». وتبارت الصحف والمجلات في الكتابة عنه كما أن العالم لم يخذل أحداً وظل يقدم المادة الصالحة.

لكن شيئاً من هذا كله لم يكن مثيراً قدر الإثارة التي تسببها ذكره لبدرو أرشانجو. هذه القنبلة انفجرت في المطار عندما استقل الطائرة قادماً إلى باهيا. صحيح أنه في لقائه الأول مع الصحافة عند وصوله من نيويورك قد ذكر ابن باهيا بإيجاز وسماه بالاسم: «أنا في بلد أرشانجو ويسعدني أن أكون هنا». ولم ينشر الصحافيون هذه العبارة ضمن ما نشروه وذلك إما لأنهم لم يفهموها أو لأنهم لم يولوها أهمية. ولكن حين جاء إلى باهيا اختلف الأمر، فحامل جائزة نوبل المخيب للآمال أعلن أنه قد خصص يومين من إقامته القصيرة في البرازيل للذهاب إلى سلفادور «لكي أتعرف على المدينة وعلى الشعب اللذين درسهما بدرو أرشانجو الفذ. والذي يُقرأ العلم في كتبه كما يُقرأ الشعر، ذلك الكاتب الذي بذل الكثير لكي يرفع مستوى الثقافة البرازيلية». معلومة في متناول الجميع.

ـ من هذا البدرو أرشانجو؟ لم أسمع به من قبل.

راح المراسلون المنذهلون يسأل كل منهم الآخر. وحاول أحدهم أن تكون له مكانة الصدارة فسأل كيف عرف لفنسون بهذا الكاتب البرازيلي. فأجاب الباحث: «بقراءة كتبه. كتبه الخالدة».

لقد جاء السؤال من أبيو كُرّيا، محرر أقسام العلوم والفنون والآداب في إحدى الصحف الصباحية وأحد الدهاة.

دفع بالخديعة خطوة أخرى وقال إنه لم يكن يعرف أن كتب أرشانجو قد ترجمت إلى الإنكليزية.

فأبلغه الأمريكي الرهيب أنه لم يقرأ الكتب بالإنكليزية بل بالبرتغالية. وأضاف بأنه استطاع ذلك على الرغم من معرفته البسيطة باللغة البرازيلية، وذلك بفضل معرفته بالإسبانية واللاتينية. «لم تكن هناك مشكلة» قال ذلك بهدوء واثق موضحاً أنه قد اكتشف كتب أرشانجو في مكتبة كولومبيا مؤخراً عندما كان يقوم ببحثه عن الحياة في البلدان الاستوائية. وقد أزمع أن يعمل على ترجمة «مؤلفات ابن بلدكم العظيم» ونشرها في الولايات المتحدة.

علي أن أتحرك بسرعة لأن ابيو كريا ركض ليوقف سيارة تاكسي لتأخذه إلى المكتبة الوطنية.

وحدث تزاحم بين المراسلين قبل أن يكتشفوا البروفسور راموس ويحاصروه لأنه معروف بتضلعه في ميادين عديدة. وقد زادت أهميته لديهم الآن طالما أنه يعرف مؤلفات ارشانجو وكان قد أشار إلى أهميتها أكثر من مرة في مقالاته في المجلات الصغيرة التي ليس لها إلا القليل من المشتركين، للأسف، وأقل منهم من القراء.

قال لهم: «منذ سنوات وسنوت وأنا أسعى جاهداً بين دور النشر طالباً منها إعادة نشر كتب أرشانجو. صدقوني أنها كانت مهمة صعبة لم أتلقَّ عليها حتى الشكر». كتب مقدمات وهوامش وتحليلات. ولم يبد أي ناشر اهتمامه. «ذهبت إلى البروفسور فيانا، عميد كلية الفلسفة، لعله يستخدم نفوذه لدى الجامعة لنشر الكتب، فأبلغني أنني «أضيع وقتي مع تخريفات زنجي سكير مخرب». أظن أنهم الآن سينتبهون ويدركون عظمة مؤلفات أرشانجو بعد أن أعطاها لفنسون الأهمية التي تستحقها. وبالمصادفة فإن مؤلفات لفنسون ليست معروفة في البرازيل أكثر مما كانت مؤلفات أرشانجو، وأولئك الذين يحومون حوله لم يسبق لهم حتى أن قرأوا أهم كتبه وليست لديهم أدنى فكرة حول ما يفعله. إنهم حفنة من الدجالين».

لقد تحدث البروفسور راموس بشيء من المرارة وبقدر ما يستطيع. ذلك أن لديه السبب الكافي للإحساس بالمهانة بعد كفاحه سنوات عديدة لإيجاد مكان لأرشانجو تحت الشمس ولم يلق إلا الرفض الدائم من الناشرين. لقد اضطر لتحمل إهانات بالغة وتهديدات من فيانا هارد نوزد؛ ثم يرى أجنبياً يستطيع تحريك المطابع بجملة واحدة، لقد استطاع لفنسون أن يدفع بمجموع المثقفين المنذهلين للبحث عن مؤلفات أرشانجو. الانتلجنسيا من كافة الأصناف والألوان والمذاهب، من اليساريين والمهرجانيين إلى اليمينيين المغرورين، هؤلاء صاروا الآن كلهم يلهثون وراء ذكرى ابن باهيا المجهول حتى تاريخه؛ لقد حقق بدرو أرشانجو غايته بفعل انتقامي. فما من أحد يستطيع الاحتفاظ بموقعه في الطليعة إذا لم يستطع أن يتعرف على كتبه ويقتبس منها ويستشهد بها.

وبعد ثلاثة أسابيع حين ظهرت مقالة ابيوكريا «بدرو أرشانجو: شاعر اتنولوجي» كانت مثيرة إلى

أبعد الحدود. وفيها صورة غريبة، إن لم نقل رائعة، عن الحوار في المطار بين لفنسون المثقف وكريا الواسع الاطلاع، وكل منهما يبدي معرفة عميقة بأعمال أرشانجو. وكان من الطبيعي أن تظهر معرفة الناقد أكثر عمقاً إلى حد ما وأكثر شمولية لأنه، أولاً وأخيراً، برازيلي.

كانت الضجة في باهيا أكبر لأنها موطن أرشانجو، وكانت مقر بحثه وموضوعه، ومصدر المادة لبحثه Raison detre (سبب قيام) مشروعه.

والاسم الذي جعله لفنسون مشهوراً بين عشية وضحاها لم يكن مجهولاً تماماً هنا كما هو في ريو وسان باولو. (ومن المفيد أن نتذكر أن الصحافيين في سان باولو قد وجدوا صعوبة كبيرة في العثور على مرجع واحد عن ابن باهيا. ولكن حين عثروا عليه فقد كان مرجعاً عظيماً: مقالة كتبها الناقد الفني سيرجيو فيليت عام 1929 لمجلة استادو دو سان باولو. فقد ذكر هذا الناقد الكبير في معرض تعليقه الودود والتقريظي على كتاب أرشانجو حول فن الطبخ في باهيا ـ مطبخ باهيا ـ أصوله ومبادئه ـ أنه أدرك بأن المؤلف سبّاق وطليعي وأنه «واحد بين أعظم المؤلفين وأكثرهم أصالة» في مجال الأنتروبوفوجي *(7)، «تلك الحركة الثورية والمثيرة للجدل التي أطلقها مؤخراً الفنانون: تارسيلادو أمارال، وأوزوالد دو أندرادي وراؤول بوب». هذا «الكتاب الممتع» بمضامينه البرازيلية الجوهرية ونثره ذي النكهة المتميزة قد أدهشه «كنموذج متكامل للمقالة الانتروبوفوجية الحقة». واختتم ميليت مقاله بإبداء أسفه لعدم اطلاعه على كتب أخرى لهذا الكاتب الواسع الاطلاع والذي، على الرغم من أنه بالتأكيد يسمع بالأنتروبوفوجيين في سان باولو؛ إلا أنه قد تقدم عليهم).

في باهيا هناك من عرفوا أرشانجو وتحدثوا معه، كما اكتشفت الصحافة بسرعة. لكن المعرفة الوثيقة كانت وقفاً على قلة من الناس وبعض الحكايات والنوادر. وهذه الكتب الأربعة حول الحياة في باهيا، والتي طبعها بدرو أرشانجو بعد عناء في كتيبات صغيرة في مطبعة صديقه ليديو كورو، غير الموثوقة، في رواد وتابوان؛ هذه المؤلفات التي أثارت الاهتمام الكبير لدى العالم الأمريكي كانت مهملة ومن الصعب العثور عليها في باهيا كما كان الحال في أنحاء البرازيل كافة.

ولوا أن أرشانجو قد أرسل نسخاً من كتبه إلى معاهد وجامعات ومكتبات محلية وأجنبية لما سمع أحد بأي منها؛ ذلك لأن لفنسون ما كان سيكتشفها. وفي سلفادور قلة من علماء الأقوام والأحياء قد عرفوها ولو بالسماع عنها.

والآن، وبغتة، ليس فقط الصحافيون بل والمؤسسات العامة والمثقفون والجامعة ومعهد التاريخ والأكاديمية وكلية الطب والشعراء وأساتذة الجامعات والطلاب. وجماعات المسرح وجمعية علماء الأجناس والأقوام ومركز دراسة الفولكلور وحتى وكلاء السياحة وآخرون ممن لا عمل لهم.. جميعهم أدركوا وبسرعة أنه كان لديهم كاتب عظيم وشهير يعيش بين ظهرانيهم ودون أن يعرفوا؛ وأنهم لم يستفيدوا منه ولو استفادة رمزية في الخطابات العامة بل إنهم تركوه للنسيان والإهمال. بعد ذلك بدأ الاهتمام الكبير بأرشانجو. بعد المقابلة مع لفنسون استخدم ورق كثير وحبر كثير ومساحات صحفية كثيرة للتهليل للمؤلف المهمل بظلم، وتحليل أعماله ودراستها والتعليق عليها وتقريظها. ولابد من تعويض هذا التأخير. لابد من تصحيح الغلط. ولابد من إزالة غبار الصمت المتراكم منذ سنوات.

الآن، وأخيراً، احتلت مؤلفات أرشانجو المكانة التي تستحقها تحت الشمس. وبين كل مدائح المشعوذين والدجالين الذين ركبوا الموجة بأمل اكتساب شعبيته لأنفسهم كانت هناك فضلة من كتابات

جادة، بضع صفحات تليق بذكرى الإنسان الذي عمل سنوات طويلة بمثابرة ودون اهتمام بنجاح أو ربح. وبعض شهادات الذين عاصروه، الذين عرفوه وتعاملوا معه، كانت تحمل طابع الإحساس الصادق وتكشف عن شخصية الرجل الحقيقية. ولم يكن زمن أرشانجو بعيداً في الماضي كما بدا لأول وهلة؛ بل مجرد خمس وعشرين سنة. عام 1943 فارق هذه الحياة وعمره خمس وسبعون سنة وفي ظروف غريبة على ما يبدو. لقد عثر عليه ميتاً وهو ممدد في حفرة في ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن يحمل في جيوبه أوراق تعريف أو أي شيء إلا دفتراً أو عقب قلم رصاص. لم يكن يحتاج إلى أية وثائق في هذه المنطقة الفقيرة القذرة في أقدم أحياء المدينة حيث الجميع كانوا يعرفونه ويحبونه.

---

*(6) ـ الجواد المخصص لتلقيح الإناث.

*(7) ـ المعنى الحقيقي للكلمة: أكل لحوم البشر، وهنا الخطأ مقصود بينها وبين الأنتروبولوجيا: علم الأجناس.

موت بدرو أرشانجو، أوجوبا، عيني كسانغو، ودفنه في مقبرة كوينتاس

- 1 -

كان الرجل العجوز يتعثر في مشيته وهو يصعد التلة مستنداً إلى جدران البيوت العتيقة. ومن الممكن أن تظن، وأنت تنظر إليه، أنه سكران؛ وخاصة إذا كنت تعرفه. الظلام دامس والمصابيح كلها مطفأة في الشوارع، والبيوت دون أية بارقة من ضوء ـ كانت أيام الحرب والغواصات الألمانية تجوس قرب شواطئ البرازيل حيث كانت تغرق بين حين وآخر سفن الشحن وسفن الركاب المسالمة.

شعر العجوز بالألم في صدره وحاول أن يسرع خطاه؛ لو أنه يستطيع، فقط، أن يصل إلى البيت. كان سيشعل مصباح النفط ويسجل المحادثة، العبارة الرائعة في دفتره الصغير. لم تعد ذاكرته كما كانت. في الأيام الخوالي كان يستطيع أن يتذكر حديثاً، إشارة، حادثاً ما بكل تفاصيله لأشهر والسنوات ودون أن يسجل ملاحظات وحالما كان يسجل المقولة الجدلية كان يستريح. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحس فيها بهذا الألم يجيئه ثم يزول. لم يسبق أن آذاه كثيراً. آه. لو أنه يستطيع فقط أن يعيش عدة أشهر أخرى، عدة أشهر فقط. ما يكفي لإنهاء ملاحظاته وترتيبها وإعطائها لذلك الشاب الذي يعمل في المطبعة. عدة أشهر فقط.

تمسك بالجدار وحاول أن يتلفت حوله ولكن نظره صار حسيراً. لم يكن لديه ثمن نظارة جديدة، من هذه الناحية لم يكن لديه ثمن جرعة من الروم. نوبة أقوى من الألم جعلته يرتمي على الجدار لاهثاً. كل ما كان يحتاج إليه الآن هو ما يكفي من القوة ليجتاز هذه المسافة القصيرة المتبقية إلى غرفته الصغيرة خلف «قلعة» استر. هناك سيستطيع أن يكتب تحت ضوء المصباح بيده المدققة. لو أن الألم يهدأ ويمكنه من فعل ذلك. فكر في صديقه كورو، الذي سقط فوق إحدى لوحاته المبدعة وخيط من الدم على طرف فمه. لقد فعلا أشياء كثيرة معاً، هو وليديو كورو: ركضا في الشوارع المنحدرة وتمرغا مع الخلاسيات في مداخل البيوت. مات ليديو منذ وقت طويل؛ منذ ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً، وربما أكثر. منذ متى حدث ذلك يا صاحبي؟ ثمانية عشر عاماً؟ عشرين؟. بدأت ذاكرته تخونه. لكنه ما يزال يتذكر عبارة الحداد كلمة كلمة. تشبث بالجدار وحاول أن يرددها لنفسه. يجب أن لا أنساها. مسافة قصيرة جداً عدة مئات من الياردات. وبجهد جبار تمتم مردداً لعنة الحداد الأخيرة، التي أكدها بضربة على الطاولة بيده السوداء كالمطرقة التي تضرب سنداناً.

ذهب ذات ليلة لسماع نشرات الأخبار الأجنبية بالراديو: إذاعة لندن، راديو موسكو، صوت أمريكا. كان صديقه مالوف قد اشترى مذياعاً تستطيع منه سماع العالم كله. وكانت الأخبار تلك الليلة طيبة. كان الآريون يتلقون الضربات. وكل إنسان كان يلعن «النازيين الألمان»، «الأغوال الألمانية» ولكن أرشانجو العجوز اكتفى بتسميتهم «الخنزير الآري»، قتلة اليهود والزنوج والعرب. كان يعرف بعض الألمان الممتازين. غيلهيرم نودلر مثلاً تزوج زنجية وأنجب منها ثمانية أطفال. وذات يوم أورد أحدهم ذكر «الآرية» فسحب قضيبه وقال: «سأقطع قضيبي إذا جاء هذا اليوم».

وحين دعاهم مالوف إلى كأس بنغا احتفالاً بانتصارات ذلك اليوم بدأ النقاش: إذا كسب هتلر الحرب فهل يستطيع، أم لا يستطيع، أن يقتل كل إنسان ليس أبيض خالصاً؟ هل سيفني كل شخص آخر؟ قال البعض شيئاً وقال آخرون شيئاً آخر. نعم يستطيع. لا. لا يستطيع. راهن بحياتك أنه يستطيع. وفي النهاية صرخ الحداد: «حتى الله الذي خلق البشر لا يستطيع أن يقتل الجميع دفعة واحدة. يقتلنا واحداً بعد الآخر. وكلما قتل أكثر، ازدادت ولادة الأطفال وتسارع نموهم. هكذا هي الحال دائماً. سيظلون يولدون ويكبرون ويتزاوجون ويلدون المزيد من الأطفال وما من ابن قحبة سيوقفهم»! وحين ضرب بيده الضخمة على المنضدة قلب كأسه وانسكب الروم. ولكن مالوف التركي كان إنساناً طيباً فدعا الجميع إلى كأس أخرى قبل أن ينصرفوا للنوم.

حاول العجوز أن يكمل سيره صاعداً التلة وهو يقلب كلمات الحداد في ذهنه: «سيظلون يولدون ويكبرون ويختلطون...» كلما ازداد اختلاطهم كان أفضل. كان في وسع العجوز أن يبتسم تحت وطأة الألم الذي يمسك بظهره كالصليب. ألم أثقل من أن يحتمل. وابتسم حين تذكر حفيدة روزا، التي تشبه جدتها ولكنها تختلف عنها أيضاً: الشعر الحريري المرسل، القوام الممشوق: العينان الزرقاوان والبشرة السوداء. لقد احتاج الأمر إلى أنواع مختلفة من البشر لجعلها متكاملة كما هي الآن. روزا! روزا دو اوكسالا؛ جهنم في هيئة امرأة! لقد عشق العجوز وتملك نساء عديدات ولكن ما من واحدة منهن تصلح أن تحمل الشمع لها. لأجلها تحمل آلاماً مضنية وفعل أشياء لا تصدق وتحامق وحاول أن يموت: وأن يقتل.

سيدفع أي شيء لقاء رؤية حفيدة روزا مرة أخرى، بضحكة جدتها وحيويتها ومشيتها المتراقصة وعينيها الزرقاوين.. من أعطاها ذلك؟ لو أنه يستطيع، فقط، أن يرى أصدقاءه مرة أخرى، يزور التيريرو ويحيي القديسين، يرقص قليلاً، يغني أغنية، يأكل فروجاً، يخنة سمك مطبوخ بزيت النخيل على مائدة في قلعة استر مع استر والبنات. لا. لم يكن يريد أن يموت. ولماذا؟ ليست هذه هي الطريقة. ما الذي قاله الحداد بالضبط؟ كان عليه أن يسجله قبل أن ينساه. لقد بدأ ينسى منذ الآن. الكتاب لم ينته نصفه بعد. وما زال عليه أن يكتب ما تبقى، يلتقط النوادر والعبارات والقصص، مثل تلك القصة عن الشيطانة التي صممت على مطاردة النساء وفقدت عقلاً بسبب واحد من باهيا جميل المظهر تياه المشية وتحولت إلى عجينة بين يديه. يعرف هذه القصة أكثر من أية قصة أخرى.. آه. دوروشيا! آه تادو!

مزقه الألم وفجر صدره.. آه. الآن لن أستطيع الوصول إلى بيت استر. ضاعت عبارة الحداد وقد كانت عبارة صحيحة. آه. وحفيدة روزا..

سقط إلى جانب الطريق وتدحرج نحو الساقية. وظل جسده هناك لا يغطيه سوى العتمة إلى أن جاءت أول أضواء الفجر وألبسته النور.

- 2 -

ضحك ناحت القديسين وهو يشير إلى الجسد الممدد، ثم ضحك ثانية وهو يحاول أن يوازن نفسه على قدميه: «لقد شرب هذا الصاحب أكثر منا نحن الثلاثة. انظر! سقط على وجهه وتقيأ أحشاءه» واستمر يضحك وهو يحاول أن يؤدي برونة*(8) السيرك وقفز في الهواء.

الميجور داميان درسوزا، إما لأنه شرب أقل منه أو لأن لديه خبرة أكبر بالموت (كان عمله محامياً عاماً، ومرتاداً دائماً لمعرض الجثث وعلى صلة قديمة بالجرائم والجثث) شك في الأمر فاقترب ولاحظ الدم. لمس هذا العجوز من سترته الرثة بطرف حذائه وقال:

«ميت مثل مسمار الباب. هيا. ساعدني».

تساءل ناحت القديسين بينه وبين نفسه حول كم من الكحول يستطيع الميجور أن يتناول دون أن يسكر، وكان بذلك يردد السؤال الذي يسأله كل سكير في العالم، وجميعهم يذلهم اللغز الذي يتجاوز كل إدراك وفهم. حتى الآن لم تستطع مصانع الجن في باهيا والريكونكافو أن تسد الحاجة، وبالنسبة لماني ليما كان الميجور قادراً على استهلاك خمور الدنيا. يظل صاحياً حتى النهاية.

تقدم ناحت القديسين وماني ليما للمساعدة وهما يترنحان ويضحكان. وقلب الثلاثة الجسد على ظهره. وتعرف الميجور، حتى قبل أن يرى الوجه، على شيء من السترة. ولكن ماني ليما، الذي أخذته المفاجأة. وقف ملجوماً وبعد قليل أطلق صرخة رهيبة:

- إنه بدرو أرشانجو!

وقف الميجور منتصباً يتشنج، ومر ظل خفيف على وجهه النحاسي. لا. ليس هناك خطأ: إنه العجوز. وأحس الميجور، وهو في التاسعة والأربعين، كأنه يتيم مهمل. نعم. إنه العجوز. وآه... لم يعد هناك ما يمكن فعله. لِمَ لم يكن أي شخص آخر؟ أي شخص غريب؟ هناك ما لا يحصى من السكيرين التافهين في العالم، هذا العالم اللعين التافة، ومع ذلك فأرشانجو هو الذي يموت بهذه الحالة في الشارع، في منتصف الليل، ودون أن يدري به أحد.

- «يا إلهي. إنه العجوز!» وهبط الروم كله من رأس ناحت القديسين إلى ساقيه، فجلس بغتة على جانب الطريق صامتاً وعاجزاً. كل ما استطاع أن يفعله هو أن يرفع يد العجوز من الوحل ويشد عليه بين يديه.

كل أربعاء، ودون استثناء، في الشمس أو في المطر، يأتي أرشانجو إلى حانوت ناحت القديسين ويخرجان معاً. في البدء يشربان أكواباً من البيرة المثلجة في بار أوزماريو ثم يتمتعان بوجبة طيبة من القريدس المعد بزيت النخيل حسب طقوس الكاندومبلي في كازابرانكا. وكان الحديث بينهما لطيفاً دائماً

ومزوداً بالنوادر، نوع الحديث الذي اعتاد عليه:

ـ اخلع سترتك يا صاحبي وقل لي ما الذي توصلت إليه.

ـ لا أخبار عندي يا معلم أرشانجو. لا أعرف شيئاً.

ـ بالتأكيد تعرف.. يا صاحبي. الأشياء تحدث في كل لحظة، أشياء لطيفة، بعضها لكي نضحك منه وبعضها لكي نبكي عليه. هيا، حل عقدة لسانك يا كومارادو. خلقت الأفواه لكي نتحدث بها.

كيف كان يفعل ذلك؟ أية تعويذة لديه تجعله قادراً على فتح قلوب الآخرين وأفواههم؟ حتى أكثر أدلاء الروح الغيورين صراحة ـ العقيلات المحترمات من أمثال تياماسي، ودونا مينينها أو الليدي الأم في أوبوا فونجا ـ ما كانوا يستطيعون أن يخفوا عن العجوز سراً. كانوا يقولون له كل ما يعرفونه ودون أن يضطر لمسايرتهم؛ الحقيقة أن الأوريكساس أمروهم بذلك «لا باب يغلق في وجه أوجوبا» والآن يتمدد أوجوبا، عينا كسانغو الملك، ميتاً في ساقية.

وتعودا على ارتشاف البيرة ـ كان المعلم أرشانجو يستطيع دائماً أن يشرب ثلاث أو أربع زجاجات. في الأسبوع الأول يدفع العجوز الحساب. وفي المرة الثانية يدفع ناحت القديسين. وفي الآونة الأخيرة صار العجوز يتجول معظم وقته خاوي الوفاض دون بنس؛ ولكن ما يستحقق النظر كان أن تراه حين يؤمن بعض الفراطة. بأية أبهة يضرب الطاولة لينادي النادل:

ـ هات الفاتورة، يا صاحبي.

ـ لا. لا. يا معلم أرشانجو. ارجع نقودك..

ـ ماذا فعلت لكي تنزعج مني يا كاماردو؟ لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟ حين أكون مفلساً تستطيع أن تدفع. لا يهمني. ليست غلطتي. ولكن بما أنني أنا الغني اليوم فلماذا تدفع أنت؟ لا تأخذ مني واجبي وامتيازي. لا تصغّر أرشانجو العجوز. اتركني كما أنا يا صاحبي.

ثم يضحك مظهراً أسنانه البيضاء الكاملة، وكلها لا تزال قوية لأنه لا يزال يمص قطعة صلبة من قصب السكر ويعلك بالقوة نفسها قطعة لحم مقددة صلبة.

ـ أنت تعرف أنني لم أسرق هذه النقود. كسبتها بعرق جبيني.

لقد كسبها من شغله الأخير خادماً في الماخور. والذي يراه باسماً وراضياً كما هو الآن لا يمكن أن يخطر له الحرمان والفقر والبؤس والتقشف والإدقاع الذي عاشه في السنوات الأخيرة من حياته. نهار الأربعاء السابق لجلوسه بهذا الرضى: في محل استر التقى بطالب شريك في مطبعة وكان الطالب راغباً في طباعة كتابه. كان هذا الشاب قد قرأ كتبه الأخرى وراح يقول لكل من يستمع إليه بحياد حاسم إن أرشانجو ليس خائفاً من أي مخلوق. ألم يقم بفضح حفنة النصابين في كلية الطب كلهم؟

وحين كان الصديقان العجوزان يستقلان الترام في طريقهما إلى ريوفرميلهو الدنيا حيث (البيت الأبيض) الذي كان بالعادة تابعاً لمزرعة قصب السكر القديمة ـ كانت النجوم قد بدأت تظهر ونسيم البحر قد بدأ يهب منعشاً ـ حكى المعلم أرشانجو لناحت القديسين عن الكتاب الجديد وعيناه الصغيرتان تلمعان بشيء من الأسى. كم جمع من القصص وسجل في هذا الكتاب، «ذلك الكيس للنثريات والبقايا»

والمليء بما تعلمه الناس في جامعتهم.

ـ لا تستطيع أن تتصور يا صاحبي كم جمعت من القصص في ذلك الماخور، ومن المومسات وحدهن. ولمعلوماتك يا رفيقي لا يستطيع أي فيلسوف أن يجد مكاناً أفضل من الماخور ليعيش فيه.

ـ أنت فعلاً فيلسوف يا معلم أرشانجو، أفضل فيلسوف عرفته. ليس لك شبيه في التوصل إلى الأفضل من خلال ما يتوافر لك.

كانا في طريقهما للاحتفال بطقوس كسانغو، هذا التزام يوم الأربعاء. يتاماسي تقدم لكسانغو صحنه المقدس، آمالاً، على صوت الجرس المعدني وغناء اللواتي نذرن أنفسهن. بعد ذلك، وبعد أن يجلس الجميع حول المائدة الكبيرة في البهو تقدم يخنة القريدس وكعك الحبوب وأحياناً مع صحن سلحفاة. وكان المعلم أرشانجو أكولاً نهماً وشارب خمر ممتازاً أيضاً. ويستمر الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل بحيوية ومودة، ودفء الصداقة يخيم عليه. كان الاستماع إلى أرشانجو أحد امتيازات الفقراء.

الآن انتهى كل شيء. لم يعد هناك كتاب أو مراسيم أو طقوس أو طعام نذور أو رسوم.. لم تعد هناك سفرات بالترام ولا مفاجآت يقدمها أرشانجو. كان العجوز يعرف كل ركن وزاوية في الطريق؛ كان يعرف كل شجرة وكل بيت وكأنه قد عاش معه مئة عام؛ إذ أنه لم يكن يعرف كل شيء فقط كما هو الآن بل يعرف ماضيه أيضاً. يعرف لمن كان ولمن هو الآن، يعرف الأب والابن والجد وجد الجد، الدم الصافي والدم المختلط. يعرف قصة الأسود الذي جلب رقيقاً من أفريقيا، والبرتغالي المطرود من البلاط، والمتهود الهارب من محاكم التفتيش. والآن كل ما يعرفه، كل مرحه وضحكه انتهى. وأغلقت عينا «عيني كسانغو». المكان الوحيد الذي يذهب إليه أوجوبا الآن هو المقبرة.

ذاب ناحت القديسين في دموعه يملأه إحساس بالوحشة والوحدة والهجران.

وكان يصعب على الميجور أن يبكي حزناً مثلما يصعب عليه أن يسكر. المرات الوحيدة التي يبكي فيها ـ وكم كان ذلك سهلاً يومها ـ عندما يترافع أمام قاضٍ أو عندما يستدر عواطف مستمعيه، في محاولة لكسبهم إلى صفه وتأييد قضيته. وحين كان يحس بالألم في جسمه فإن ذلك لم يكن ينعكس على وجهه أبداً.

أعلن ماني ليما، من موقعه وسط بيلورينهو الملائم والمناسب، اسم المتوفى ووفاته للدنيا؛ ولكن في تلك الساعة المعتمة، ما قبل الفجر، لم يسمع صرخاته أحد إلا بعض الجرذان وكلب هزيل عابر.

أبعد الميجور نفسه عن المشهد الرهيب ثم أخذ الشارع نحو قلعة استر وعلى كاهله عبء الخبر القاسي. سيحتسي الشراب القوي الذي يحتاج إليه حين يصل إلى هناك.

---

*(8) ـ دوران في رقص الباليه على قدم واحدة.

- 3 -

دبت الحياة في الشارع بغتة، من لارغودوسي، من حارة الحذائين ومن كارمو تدفق الرجال والنساء الحزانى. ولم يكن ما جلبهم موت الكاتب المثقف في الدراسات المحددة، بدرو أرشانجو؛ بل موت أبيهم، أرجوبا، عيني كسانغو. وانتشر الخبر من محل أستر على الأفواه من باب إلى باب، ومن مبنى إلى آخر، عبر الأزقة والأدراج ونزولاً من التلة حتى ساحة الكاتدرائية في وقت تحرك أول ترام وأول باص في ذلك اليوم.

انتزعت النساء من نومهن أو من بين أذرع آخر زبائنهن واستيقظن دامعات ناحبات. وكذلك العمال الذاهبون إلى عملهم، والعاطلون عن العمل الذين لا ساعة محددة لهم، المتسولون والسكيرون، سكان أسطحة البيوت القديمة؛ والأزقة القذرة، المرابون العرب، العجائز والفتيان، المتاجرون بالقديسين وراكبو الدراجات من تيرير ويسوع، وبائع جوال يدفع عربته أمامه. وإستر، أيضاً، بكيمونو مفتوح عن جسدها العاري ليظهر كل ما لديها ولكل من يريد أن يرى. ولكن في وقت كهذا لم ير أحد إلا إستر التي تشد شعرها وتضرب صدرها.

ـ آه يا أرشانجو، يا ملاكي المسكين. لِمَ لَم تقل لي إنك مريض؟ كيف لي أن أعرف؟ آه يا أوجوبا. ماذا سنفعل الآن؟ كنت ضوءنا، وعيوننا التي نرى بها وفمنا الذي نتكلم به. كنت كل الشجاعة والتفاهم الذي نملكه. كنت تعرف ما جرى أمس وما سيجري غداً، أين نستطيع أن نجد مثيلاً لك؟».

أين؟ آه.. أين؟ في تلك الساعة الرهيبة كان الرجال والنساء يقفون وجهاً لوجه أمام الموت بكل قذارته.. هوذا ممدد في الساقية. عار من أي تفصيل مهدئ أو معزّ. بدرو أرشانجو لم يتحول بعد إلى ذكرى. مجرد جثة. لا شيء آخر.

فتحت الأبواب والنوافذ. وقامت إستر وهي تنشج بمعانقة القندلفت حين جاء ومعه مصباحه المضاء. واحتشد الناس حول جسد الميت. وظهر شرطي عسكري مدججاً بسلاحه وسلطته. جلست إستر إلى جانب ناحت القديسين وأمسكت برأس أرشانجو بين يديها وراحت تمسح الدم عن شفتيه بطرف الكيمونو. وحول الميجور عينيه عنها لكي يرى ثدييها العاريين في تلك اللحظة غير الملائمة ـ ولكن هل هناك وقت غير ملائم يا أرشانجو؟ اعتدت أن تقول إنه لا يوجد، وإن «أي وقت هو الوقت الملائم لإكرام الجسد» ـ ثم وجه كلامه لها:

ـ فلنأخذه إلى محلك يا إستر.

ـ محل؟ انفجرت إستر وسط دموعها وحدقت إلى الميجور عاجزة عن تصديق ما تسمعه. «هل فقدت عقلك؟ ألا تعرف أنه لا يلائم؟ هذا أوجوبا الذي سيدفن وليس إحدى العاهرات أو أحد القوادين الذين لا يستحقون أن تخرج جنائزهم إلا من ماخور..

ـ لم أقصد أن تخرج الجنازة من محلك. ولكن يجب أن نغير له ملابسه قبل أن نفعل أي شيء آخر. لا يمكن أن يدفن بهذا البنطلون القذر وتلك السترة العتيقة المهلهلة.

ـ أو دون ربطة عنق. لم يكن يذهب إلى أية حفلة دون ربطة عنق.

هذا ما علقت به روزاليا، أكبر البنات سناً، والتي كانت معشوقة أرشانجو في أيام مضت.

ـ ليس لديه غيار..

إن كان هذا ما يقلقك سأعطيه بذلتي الجوخ الزرقاء. لقد فصلتها حين تزوجت ولا تزال كأنها جديدة. كان هذا عرض جوان دوس برازيريس، معلم النجارة الذي يسكن في الجوار. وأضاف مكرراً: «إن كان هذا ما يقلقك...» ثم ذهب ليحضر الثياب.

ـ ولكن أين سنأخذه بعد ذلك؟ سألت روزاليا.

ـ لا تسأليني يا عزيزتي. لست في حالة أستطيع معها أن أفكر أو أقرر حول أي شيء. اسألي الميجور. واتركيني مع عجوزي. وأعولت إستر وهي تضع رأس أرشانجو بجوفي حضنها لتحيطه بدفء لحمها.

فوجئ الميجور.. أين يأخذه؟ لا ترهقوني بالتفاصيل. المهم الآن هو إخراجه من وسط الشارع. سيكون هناك الوقت الكافي بعدها للتفكير في أي بيت أفضل. ولكن، بغتة، تذكر قندلفت كنيسة العبيد (سيدتنا في روزاري)، وهو رفيق شراب قديم لبدرو ارشانجو، أن أرشانجو كان ذات يوم منتمياً إلى «الأخوَّة» الرهبانية. كان عضو شرف وقد دفع كل ما يترتب عليه وأن له الحق في السهر على جثته في الكنيسة وأن يقام قداس جنائزي على جثمانه وله الحق في قبر ملائم في مقبرة كوينتاس.

ـ فلنذهب إذاً! قال الميجور بلهجة آمرة.

وحين هموا برفع الجثة وضع العسكري يده على صدرها وأمرهم بأن يلزموا أماكنهم. لن يمس هذه الجثة أحد قبل وصول الشرطة والطبيب والمحقق. كان جندياً فتياً لم يبلغ العشرين بعد، أشبه بطفل وكان يرتدي لباسه الرسمي ولديه أسلحة وأوامر صارمة. ويتجسد فيه أسوأ شيئين في الدنيا: السلطة والقوة الهمجية.

ـ لا أحد يلمسه.

تفحص الميجور هذا الجندي ودرس الموقف. مستجد في وزارة الداخلية متشرّب بقداسة النظام، ليس من السهل مداورته، وجرب الميجور:

ـ هل أنت من سكان هذه المناطق أيها الشاب؟ أم أنك من سيرتان؟ أتعرف من هذا؟ إن كنت لا تعرفه فدعني أخبرك...

ـ لا أعرف ولا يهمني.. لن يبرح هذا المكان قبل أن تأتي الشرطة وتأخذه.

الآن جاء دور الميجور ليعنّد. لن يترك جثة أرشانجو ملقاة هنا وسط الشارع مثل جثة مجرم عادي ليس له الحق في تأبين.

ـ سينقل.. وسينقل الآن.

كانت هناك أسباب وجيهة عديدة وراء تسمية الميجور داميان دوسوازا محامي البؤساء. فدون شهادة مدرسية في القانون كان يستحق اللقب ألف مرة. الناس هم الذين منحوه هذا اللقب «ميجور» ـ ميجور بلا رتبة أو كتيبة أو شرطة أو بذلة ولا مرؤوسين لإطاعة أوامره. ميجور ليس أكثر من إنسان طيب. ارتعش صوت محامي الشعب غضباً وتقدم إلى جوار الطريق وبدأ خطابه:

ـ هل سيقبل شعب باهيا أن تظل جثة بدرو أورشانجو (الأوجوبا) ممدة وسط الشارع في وحل هذه الساقية محاطة بالوسخ الذي لم يره رئيس البلدية ولم يأمر بإزالته وتنظيفه؟ هل ستتركونها ملقاة هنا إلى أن يخطر للشرطة أن ترسل طبيباً؟ إلى متى ستتركونها ممددة؟ إلى الظهر؟ إلى الرابعة بعد الظهر؟ هل الشعب.. آه هذا الشعب المجيد في باهيا، الذي طرد الهولنديين وهزم البحارة اللوزينانيين: هل سيترك أبانا أوجوبا ممدداً هنا في هذه القذارة إلى أن يتعفن؟ آه يا شعب باهيا»!

أبناء شعب باهيا ـ ثلاثون منهم على الأقل ودون ذكر الذين كانوا في طريقهم إلى المكان ـ هدروا ولوحوا بقبضاتهم. وتوجهت النسوة المعولات نحو الحارس العنيد. كانت لحظة توتر، لحظة بشعة وخطرة. وكما تنبأ الميجور ثبت الجندي مكانه وقد قرر ألا يتراجع خطوة واحدة. تصلب مثل السبطانة مقرراً ألا يتزحزح لأن سلطته الفتية ليست مجالاً للسخرية. ثم امتشق سيفه: «من يتقدم خطوة واحدة سيموت على الفور» ونهضت إستر واقفة ومستعدة للموت.

واخترقت الضجة صفرة حادة عالية. إنها الصفرة شبه المدنية لإيفيرالدو و(هوني فكر)*(9) ، الحارس الليلي، الذي كان عائداً إلى بيته بعد انتهائه من عمله الليلي ومن عدة جرعات من الروم. فيم هذا المواء كله عند الصباح الباكر؟ ورأى الجندي وبيده سيفه الممشوق وإستر بثدييها المشرعين ـ وفكر في نفسه إنها مجرد عاهرة شدادة للشعر ولكنه، أيضاً، مدين بالكثير لإستر. فزعق بالمجند: «عسكري.. استعداد».

سلطة في مواجهة الأخرى. من هذه الجهة الحارس الليلي، أدنى الرتب الرسمية ومعه صفارته التي تبعد اللصوص وبذاءته ودهاؤه وخبثه. ومن الجهة الأخرى الجندي الصغير الزائف ومعه سيفه ومسدسه وتعليماته وعنفه وقوته الوحشية.

ولمح إيفرلادو الجثة ممددة على الأرض: «ما الذي يفعله أرشانجو العجوز هنا؟ إنه سكران فقط أليس كذلك»؟

ـ ليته كان كذلك..

وشرح الميجور كيف عثروا على الجثة وحكى عن رفض الجندي العنيد السماح لهم بنقل أرشانجو إلى بيت إستر. وكسر إيفيرالدو، المعروف بهوني فكر، جمود الموقف بأن قال بلهجة عسكرية لعسكري:

«يا عسكري.. الأفضل أن تنصرف ما دامت الأمور لا تزال على خير. لقد فقدت عقلك وأهنت الميجور».

ـ ميجور؟. لا أرى أي ميجور؟.

«إنه يقف هناك. الميجور داميان دوسوزا. ألم تسمع به من قبل؟».

ومن لم يسمع بالميجور؟ حتى المجند الفتي كان يسمع باسمه كل يوم في البراكات في جوازيرو.

ـ أهذا هو الميجور؟

ما إن انكسرت قوته الهشة ـ وعناده ـ حتى تحول إلى شخص وديع كالحمل، وعلى استعداد لأن يكون أول من ينفذ أوامر الميجور. وهكذا وضعت الجثة في عربة اليد وانطلق الجميع إلى قلعة إستر.

المعلم بدرو أرشانجو سعيد الآن في موته مثلما كان سعيداً في حياته: موكب جنازته في عربة مكشوفة يجرها حمار صغير في رقبته جرس، ويرافقه السكارى وبوم الليل والعاهرات وأصدقاء آخرون وإيفيرالدو يقود الموكب وهو ينفخ في صافرته والجندي يقدم التحية في آخر الموكب ـ آه. هذه الرحلة الصغيرة كان يمكن أن تكون بدعوة خاصة من أرشانجو؛ سكرة أخيرة لتسجل في دفتره الصغير وتحكى على مائدة عشاء كسانغو الأربعاء القادم.

---

*(9) ـ معنى اسمه: مُضاجع العسل. ونعني بالعامية صاحب العلاقة الجنسية البريئة (كالجنس بين الأطفال).

- 4 -

معظم النقود اللازمة لتكاليف الجنازة جاءت من العاهرات. وقد كانت كافية لشراء الكفن والأسلاك الكهربائية والمصابيح والزهور واستئجار الباصين.

وارتدت روزاليا، معشوقة أرشانجو نحو العجوز، لباس الحداد كأرملة. وكان شالاً أسود على شعرها الخفيف المّميش ثم راحت تجول في أنحاء بولورينهو لجمع المساهمات. لم يرفض أحد أن يدفع، ولا حتى ماركيز، الشحيح الذي لم يسبق أن ديّن زبوناً ولو جرعة من الروم. دفع مبلغه الهزيل وحتى أنه قال بعض الكلمات الطيبة بحق المتوفى.

ولم يكن المال وحده هو ما تجمعه روزاليا. بل كانت تريد قصصاً وأقوالاً مثيرة وذكريات من كافة الأنواع؛ وكانت آثار بدرو أرشانجو في كل مكان. كيكي الصغيرة، الكسيحة التي لم تبلغ الخامسة عشر بعد، والشهية بالنسبة للمحامين والقضاة في مؤسسة ديدي، فتحت عينيها الواسعتين على اتساعهما وأخرجت اللعبة التي أعطاها إياها أرشانجو ثم انفجرت باكية.

وديدي، القوادة ذات الوجه المجدور، قالت إنها كانت تعرف أرشانجو طوال عمرها وأنه كان دائماً محباً للحرية وجموحاً. وعندما كانت فتاة، ريفية في مهرجان الملوك الثلاثة، كانت رفيقته المفضلة في كافة احتفالات نهاية العام: في التاسوعية وصلوات الأيام الثلاثة عشر وفي حفلات ساحة المدينة والتدريبات على السامبا وفي كل أصناف اللهو في الكرنفال. يجب أن تديروا بالكم على أرشانجو. لا تعرفون ما الذي يمكن أن يفعله فيما بعد. لقد فض بكارات العديد من البنات في أيامه، بما في ذلك عدد لا بأس به من الريفيات. وبكت ديدي ثم ضحكت لشيء في ذاكرتها: «أنا جميلة ومودرن وهو سافل ومنحط».

ـ أكان هو الأول؟ هل عمل معك هذا المعروف؟

وظل السؤال بلا جواب. لن تقول ديدي شيئاً آخر. وظلت روزاليا على شكوكها عندما ذهبت. أن لديها قصة خاصة بها ولذلك كانت قادرة على ضبط نفسها وعلى الاستمرار في جمعها دون أن تنهار.

قال روك: «سأعطيك كل ما لدي. ويسرني ذلك. ولا أتمنى إلا لو كان معي المزيد». وأفرغ الميلريات القليلة التي في جيبه.

العمال الخمسة الذين في الحانوت ساهموا. ولكن روك هو الذي حكى القصة..

«لم يكن ذلك منذ زمن بعيد، ربما خمس عشرة سنة، وربما ليس بهذا القدر.. انتظروا لحظة وسأقول لكم متى كان ذلك بالضبط. كان عمري أربعة وثلاثين، منذ تسعة أعوام: كيف يمكن لإنسان أن ينسى إضراب عمال الكهرباء؟ بدأ الإضراب بعمال السكك والترام، ولم يكن للعجوز شأن في الموضوع

لكي يزج بنفسه فيه».

ـ أكان يعمل في شركة الكهرباء؟ لم أكن أعرف ذلك.

لفترة قصيرة فقط. كان يوزع فواتير الكهرباء. لقد عانى الكثير قبل أن يحصل على هذا العمل وكان محتاجاً إلى المال.

ـ كان دائماً محتاجاً.

ومع ذلك شارك في الإضراب ووضعوه ضمن لجنة الإشراف. لقد ساعده الحظ فلم يلق إلى السجن بعد انتهاء الإضراب بدلاً من الاكتفاء بطرده. ولكن منذ ذلك الحين لم يدفع أجرة ركوب الترام طوال حياته. لقد ظل العجوز دائماً في الصدارة.

وفي الطابق الثاني المجاور للكنيسة جلس المعلم بوديان وحيداً على مقعد في أكاديمية كابويرا وراح يحدق أمامه ذابل الجلد والعظم وأذناه مهيأتان لالتقاط أي صوت. وكأنه لم يكفه عماه، ففي الثانية والثمانين من عمره كان يعاني الاستسقاء: ولكن حتى وهو في هذه الحال كان يحمل البيريمبو ويقود الغناء في الأمسيات التي كانت القاعة تمتلئ فيها. وطرحت روزاليا أمامه موضوعها:

ـ سمعت لتوي. ولقد أرست زوجتي لتأخذ معها شيئاً للجنازة. وحالما تعود سأذهب لتوديع بدرو في الكنيسة؟

ـ ولكن يا عم لست في حالة تسمح لك أن...

ضبي لسانك. كيف يمكن أن يخطر لي ألا أذهب؟ أنا أكبر منه بكثير وأنا علمته الكابويرا.. ولكن كل ما أعرفه عن أي شيء آخر هو ما علمني إياه بدرو. إنه أشرف وأعظم وآمن رجل عرفته في حياتي. إنسان جاد يعتمد عليه.

ـ جاد؟ كان لاهياً دائماً.

حين أقول: جاداً فأنا أعني أنك تستطيعين دائماً أن تعتمدي عليه وأن تثقي بأنه سيفعل ما هو صواب وليس بمعنى أنه يتجول مقطباً.

وتاه في خيالاته، حين كان المعلم بوديان شبه عاجز عن الحركة، رأى أرشانجو الشاب محاطاً بالكتب وبالمزيد من الكتب يدرس بنفسه. لم يعتمد أبداً على معلم.

«لم يكن يحتاج إلى معلم. كان يتعلم الأمور بنفسه».

وفيما كانت زوجة معلم الكابويرا، وهي سيدة قوية في الخمسينات، تصعد الدرج كان صوتها يملأ الغرفة.

يبدو جميلاً فعلاً في ملابسه الجديدة والزهور في كل مكان. إنهم يأخذونه إلى الكنيسة الآن، والناس أكثر من أن تستطيع أن تحصيهم . ستبدأ الجنازة في الثالثة.

ـ هل أعطيتهم النقود؟

طبعاً. أعطيتها لناحت القديسين، ميغيل، هو الذي يشرف على الأمور.

وتابعت روزاليا طريقها من بيت إلى بيت ومن حانوت إلى حانوت ومن قلعة إلى قلعة مرت بكارموغيتس ونزلت إلى شارع تابوان. وحين وصلت إلى ما كان ذات يوم مطبعة ليديوكورو وصار الآن محلاً لبيع الخرداوات توقفت قليلاً.

لقد حدث الأمر قبل أكثر من عشرين عاماً وربما خمسة وعشرين أو ثلاثين. ما جدوى عد السنين؟ هي أيضاً، روزاليا، كانت «جميلة ومودرن»، وكانت قد تجاوزت الصبا ولكنها صارت امرأة شهية في أوج حياتها وكان أرشانجو قد أشرف على الخمسين. حدث بينهما حب جارف وتولدت عاطفة مجنونة هوجاء.

قضيا قسماً من الوقت في حانوت ليديوكورو. كان الرجلان، وبمعونة مساعد واحد، يعملان على لوائح الطبع. ويتوقفان بين الحين والآخر لجرعة من الروم تساعدهما على الاستمرار. وكانت روزاليا تشعل المدفأة فيقومان بإعداد طبخات يحبانها. وفي الأمسيات يجلب الصديقان ما يشربانه.

بعد مسافة قصيرة كان هناك بيت من طابقين لم يعد موجوداً الآن. ومن العلية تحت الإفريز كانا يريان بزوغ الفجر على رصيف المرفأ ويريان السفن وزوارق الصيد. ومن زجاج النافذة المكسور كان المطر يتسرب ومعه نسيم البحر والقمر الأصفر والنجوم. ونهدات الحب تتلاشى بين ثنايا الصباح. كان بدرو أورشانجو فحلاً في السرير. وكم كان رجلاً محترماً ومؤدباً.

لم يعد هناك بيت الآن. لا علية ولا نافذة تطل على البحر. ولكن حين انطلقت روزاليا من جديد لم تعد تحس بالوحدة أو الحزن. وجاء رجلان يتمشيان في الشارع.

ـ عرفت أحد أولاده. عملت معه على رصيف المرفأ إلى أن هرب إلى البحر.

ـ بدرو لم يتزوج أبداً.

ولكنه رزق بما لا يقل عن عشرين طفلاً. كان فحل نكاح لا يجارى.

وضحك المتحدث ضحكة عالية شاركه فيها زميله. نعم كان بدرو أرشانجو دائماً في موقع الصدارة. ولكن من أين جاءت تلك الضحكة الأخرى الأعلى يا روزاليا؟ عشرون فقط؟ كفاك. أضف عدة أبناء آخرين يا رفيقي. لا تكن خجولاً؛ كانت لدي أداة قوية كما تعرف. وكانت تخترق العذراوات وتغوي المتزوجات. وكانت هبة من الله للعاهرات ـ ما قيمة هذا الشيء أو ذاك، هذه المرأة أو تلك؟ بدرو أرشانجو كان يساعد على إعمار الدنيا وإكثار الذرية يا صديقي.

بعد الظهر كانت كنيسة العبيد تلتمع بالزرقة وهي قائمة هناك في بيلورينهو. أكان ذلك شعاعاً من الشمس أم بقعة من الدم على الرصيف الحجري؟ كم جرى من دم على هذه الحجارة، وكم انطلقت من فوقها صرخات الألم نحو السماء، وصلوات عديدة ومثلها من التجديفات الكافرة ترددت أصداؤها بين الجدران السماوية الزرقاء في كنيسة العبيد لسيدة صلواتنا في روزاري!

منذ زمن طويل لم يجتمع حشد كهذا في بيلورينهو. لقد غصت الكنيسة بالناس وامتلأت الباحة والأدراج وفاض الجمع إلى الشارع والزواريب. هل سيكفي باصان؟ وماذا عن التقنين بالمحروقات! بصعوبة تم تأمين هذين الباصين. لقد اضطر الميجور لاستخدام بعض السلطة. فحشد مثل هذا على

الأقل كان ينتظر عند سفح التل. وذهب كثيرون إلى الكنيسة لإلقاء النظرة على الوجه الهادئ للفقيد، وبعضهم قبّل يده ثم ركبوا الترام في محطة الحذائين لينتظروا غيرهم عند باب المقبرة. ومن سطح مقر قيادة جمعية الكرنفال خفق علمها أسود عبارة عن قطعة من القماش.

على درجات الكنيسة كان الميجور يدخن سيجاره الرخيص ويرد التحية حين تُوجه إليه، ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بالحديث اللبق. وفي داخل الكنيسة كان بدرو أرشانجو قد صار جاهزاً للتشييع: نظيفاً حسن الملبس ومحتشماً. كان دائماً يتأنّق للمناسبات الخاصة سواء لاحتفال «كاندومبلي» أو مهرجان في شارع أو حفلة عيد ميلاد أو ذكرى سنوية أو عرس أو سهر على ميت أو جنازة. وفي أواخر أيامه فقط صار يتهاون قليلاً ـ فالفقر المدقع لم يترك له الخيار ـ ولكنه لم يفقد أمراً واحداً هاماً وهو مزاجه المرح.

حين كان شاباً في الثلاثين أو ما يقرب من ذلك اعتاد أن يأتي كل صباح لشرب قهوته مع عصيدة دقيق الذرة والتبيوكة*(10) في كشك «الرفيقة تيرينشيا» في (السوق الذهبية). وهي أم ذلك الشيطان المؤذي داميان. كان المعلم أرشانجو يأكل هناك مجاناً: ومن له القلب ليطلب منه أن يدفع؟ منذ مطلع حياته تعود ألا يدفع مقابل بعض الأمور، أو بالأحرى اعتاد أن يدفع بضحكته وحديثه فيسلي ويعلم. ولا يعني هذا أنه كان بخيلاً ـ فقد كان يلقي بالنقود مثل الماء ـ بل الأمر ببساطة أن الناس لم يكونوا ينتظرون منه أن يدفع؛ وغالباً لأنه لا يكون لديه ما يدفعه. لم تسد النقود يوماً ثقباً في جيبه. ما فائدة النقود إن لم تكن في إنفاقها يا عزيزي؟!

وكان الفتى داميان، حالما يسمع ضحكة أرشانجو الصافية، يتوقف عما يفعل، حتى لو كان في مشاجرة، ويجلس على الأرض بانتظار حكاية. وكان أرشانجو يعرف كل شيء عن خصوصيات الأوريكساس والأبطال الآخرين أيضاً: هرقل وبيرسوس وآخيل وأوليس. ولولا أن أرشانجو قد علم داميان لكان تحول إلى ولد متوحش فاسق، مصدر رعب للجوار، وزعيم عصابة من الخارجين على القانون، ولما تعلم القراءة. ما من مدرسة كانت ستتحمله وما كان الضرب سينفع في تقويمه. لقد سبق له أن هرب من الإصلاحية ثلاث مرات. ولكن كتب أرشانجو ـ «الميثولوجيا الإغريقية»، «التوراة»، الفرسان الثلاثة، رحلات غاليفر، دون كيشوت ـ المصحوبة بالضحك وذلك الصوت الأخوي الدافئ: «اجلس يا رفيقي الصغير! هي ذي حكاية رائعة لك» استطاعت أن تكسب هذا الميؤوس منه.

وكان أرشانجو يحفظ الكثير من الشعر ويحسن إلقاءه أيضاً: فلقد ولد ممثلاً. قصائد لكاسترو ألفيس: «كان كابوساً من كوابيس دانتي.. وأرض السفينة مغطاة بالدم، واللمعان الأحمر للضوء الشاحب» وكونسالفس دياس: «لا تبك يا صغيري، لا تبك، فالحياة كفاح طويل، والكفاح هو الحياة». فكان يجعل العرب في الشوارع يستمعون إليه فاتحين أفواههم دهشة مما يسمعون.

وحين كان تيرينشيا حزينة من أجل الزوج الذي هرب مع أخرى وضاقت الدنيا في وجهها كان عرابها يجلب البسمة إلى شفتيها بقراءة ترانيم الحب: «... كان فمها عصفوراً قرمزياً يغرد بابتسامة مبهجة...» وكانت تيرينشيا في كشك المأكولات تعيش من أجل ابنها الأهوج داميان وحده. وكانت تريح عينيها الساهمتين على عرابها ـ وما الذي في وسعها أن تفعل إلا أن تبتسم لتطرد الكآبة؟ وفي كوخ ميرو كانت ايفون الحادة المزاج تفتح صناديقها ابتهاجاً بقراءة الأشعار: «ذات مساء سأذكره دائماً... كانت تذبل نعاساً في الأرجوحة.. ثوبها نصف مفتوح وشعرها متدلٍّ...» وتغيم عينا تيرينشيا ثانية.

في السوق الذهبية، وفي مساء عاصف كانت السماء فيه ملبدة بالغيوم والريح عنيفة رأى بدرو أرشانجو نفسه وجهاً لوجه مع السويدية كيرسي.. وخيل للميجور أنه كان يستطيع رؤيتها: خيال مدهش واقف بالمدخل، غريبة وخائفة، يلسعها المطر وثوبها ملتصق على جسمها. لم يسبق للولد أن رأى شعراً كهذا: مسبلاً وأشقر، جميلاً وكستنائياً، ولا بشرة وردية كهذه، ولا عينين بهذه الزرقة اللازوردية، بزرقة كنيسة العبيد لسيدة صلواتنا.

داخل الكنيسة كان هناك ضجيج وأناس يدخلون ويخرجون مع مجموعة ملازمة للتابوت. ولم يكن تابوتاً من الدرجة الأولى، لم يكن تابوتاً ملفوفاً بترف. فالنقود لم تكن كافية لذلك. لكنه لم يكن شيئاً مخجلاً؛ بحبل الزهور والشريط الذهبي والستارة الحمراء التي تغلفه مع المسكات المعدنية وفي داخله أرشانجو، ملفوف بوشاح الأخوة الكاثوليكية الأحمر. وتحلقت حوله جلوساً كل الأمهات دليلات الأرواح في باهيا. في وقت مبكر من ذلك اليوم، وفي غرفة نوم صغيرة مخبأة في القسم الخلفي من بيت إستر، أدت الأم بولكويرا أول الواجبات الطقوسية تجاه أكسيسكي (أوجوبا)، مأدبة جنائزية في اليوم السابع. وملأ الموالون الكنيسة والساحة العامة: زعماء موقرون، كاهنات فتيات، ومتدربات أصغر سناً. وكانت هناك ورود زرقاء وصفراء وأرجوانية، مع زهرة حمراء في يد أرشانجو السمراء. الزهرة الحمراء هي ما كان يريده. وذهب القندلفت وناحت القديسين لمناداة الميجور: فالساعة الآن الثالثة إلا خمس دقائق.

وانطلقت عربة النعش والباصان، وقد اكتظا إلى آخر حد ممكن، نحو مقبرة كوينتاس حيث لأوجوبا، عيني كسانغو، الحق في التمدد إلى الأبد في القسم المخصص للأخوة الكاثوليكية. ورافقت الموكب سيارة نقل البروفسور أزيفيدو والشاعر سيمونير، وهما الشخصان الوحيدان اللذان حضرا لأن المتوفى قد كتب أربعة كتب، ودافع عن نظرياته أمام مناقشات متعلمي زمانه وأفحمهم بإنكار المذاهب العلمية التي كانت في حينها رائجة. الآخرون كلهم جاؤوا لتوديع عجوز كان يتمتع بالحكمة والذكاء والخبرة، يقدم المشورة الطيبة ويتحدث بعنف، ولتوديع سكير معتبر، ومطارد نساء حتى النهاية، ومنتج غزير للأولاد، مفضل لدى الأدريكساس، مستودع أسرارهم كلها، عم عجوز يستحق كل احترام، شبه ساحر - أوجوبا الذي لهم.

تقع مقبرة كوينتاس فوق تل ولكن عربة النعش والباصين والأوتوموبيل لم تصعد حتى الباب كما هي العادة. فيما أنها ليست جنازة عادية فإن الميت ومرافقيه صعدوا المنحدر مشياً على الأقدام.

وامتزج الجمع القادم من الكنيسة بالجمع الأكبر المنتظر في كوينتاس, الجنازة الوحيدة التي احتشد لها مثل هذا الجمع كانت جنازة الأم أنينها قبل أربع سنوات. ولم يسبق لسياسي أو مليونير أو جنرال أو قس أن جذب مثل هذا العدد الغفير من المشيعين والمودعين.

ملوك وزعماء، بعضهم أحنته الشيخوخة، ومعمرون اجتازوا المسافة الصعبة من أفريقيا، هؤلاء هم الذين رفعوا التابوت مع الميجور وناحت القديسين، ميغيل، ثم أشرعوه ثلاث مرات وأنزلوه ثلاث مرات من أجل البدء بطقوس الناغو.

وارتفع صوت دليلة الروح نيزينهو بغناء جنائزي بلغة (يوروبا)

أكسيكسي، أكسيكسي

أو موررودي

وتعالت الأصوات جوقة تردد أغنية الوداع: «أكسيكسي، أكسيكسي». وتقدمت الجنازة صاعدة التل: ثلاث خطوات إلى الأمام مقابل خطوتين إلى الوراء، وهي خطوات الرقصة المؤداة على صوت الغناء القدسي، والتابوت مرفوع على أكتاف القسس:

ايكولونان تا! يوي كسي

ايكولونان تا! يوي كسي

ايكولونان

وفي منتصف الطريق الصاعد أمسك البروفسور أزيفيدو بمقبض التابوت. فقد كانت الخطوات سهلة عليه الآن فهي ممتزجة بدمه. وكانت النوافذ مليئة بالوجوه. وتدفق المزيد من الناس لرؤية المشهد الفريد من نوعه. إذ ليس هناك مكان آخر خارج أفريقيا، إلا في باهيا، تستطيع أن ترى فيه جنازة كهذه. وحتى في باهيا نادراً ما تحدث.

هوذا بدرو أرشانجو (أوجوبا)، ذو المظهر الجميل ببذلته الجديدة وربطة عنقه وقبعته الحمراء، يرقص رقصته الأخيرة. وكانت الأغنية القوية تجتاز البيوت وتخترق سماء المدينة فتُوقف الأعمال وتجمّد حركة السابلة. الرقص ينفجر في الشوارع: ثلاث خطوات إلى الوراء، خطوتين إلى الأمام ـ الميت وأصدقاؤه الذين يحملونه وجميع من يتبعونهم:

آرا آرا لا إنسو

إيكو أو إيكو أو

آ إنسو بيريري

ووصلوا أخيراً إلى بوابة المقبرة. وأدخل الملوك (أوبا) والوجهاء (أوغان) تابوت أوجوبا وهم يمشون إلى الخلف كما تقتضي الطقوس. وإلى جانب القبر، ووسط الزهور والبكاء صمتت الطبول وتوقف الغناء والرقص. وقال سيمونز الشاعر للبرفسور أزيفيدو: «نحن آخر من يرى أشياء كهذه». وكان البروفسور يتساءل، بقلق، حول عدد الذين لديهم أية فكرة عن أهمية أعمال أرشانجو بين هؤلاء المحتشدين. أهي فكرة معقولة ذكر ذلك في خطاب قصير؟ ولكن الخجل ربط لسانه. وكان الجميع بملابس بيضاء، لون الميت.

أريح التابوت قليلاً إلى جانب القبر قبل إنزاله فيه إلى الأبد: لا يزال بدرو أرشانجو بين جماعته. وتدافع الحشد ونشج أحدهم.

بعد ذلك، وحين ساد الصمت ورفع حافرو القبر بدرو أرشانجو في تابوته، ارتفع صوت منفرد بنغمة حادة متزنة، لأغنية وداع رقيقة وحزينة. كان هذا الصوت المعلم بوديان ببذلة حداده البيضاء يسير بقيادة زوجته وتعينه ماني ليما على الوقوف بعماه وشلله على حافة القبر، أب وابنه، أخوان لا ينفصلان، معاً للمرة الأخيرة: وداعاً يا أخي، وداعاً، وداعاً إلى الأبد، عبارة حب: ايكو أو ايكو أو دابو راجو مابويا.

«تذكروا أن تضعوا في يدي زهرة حمراء حين أموت». زهرة نارية. زهرة نحاسية أغنية للرقصة: روزا دو أوكسالا، أكسيكسي، أكسيكسي.

---

*(10) - حلوى نشوية.

شاعرنا وباحثنا بوصفه عاشقاً وديوثاً*(11)

مع نموذج من شعره

---

*(11) ـ للتوضيح: الديوث هو الذي يعرف أن امرأته تخونه ويقبل.

- 1 -

بما أن ليفنسون العظيم كان في حاجة إلى مساعدة آنا مرسيدس لترتيب بعض الملاحظات في تلك الليلة ذاتها، وبما أن وجودي لم يكن مفيداً أو مرغوباً للعمل الذي سيتم، ودعتهما في بهو الفندق. وتمنى لي ليفنسون بنبرة فيها شيء من السخرية بحثاً موفقاً.

انتحيت بمعاونته الجديدة جانباً وأوصيتها بالتزام الحكمة والحرم فيما إذا حاول هذا (الغرينغو) أن يمارس دور دون جوان رخيص، وإذا انحدر مستوى العمل إلى حيث يصبح لهواً داعراً ولعباً. بتعالي المجروحة في كبريائها قاطعت آنا مرسيدس شكوكي ووساوسي بسؤال فظ وتهديد قاس: هل أثق أم لا أثق بخلاصها وشرفها؟ لأنه إن كان لدي أدنى شك فسيكون هذا أفضل.. وأسفاه علي. لم ادعها تكمل. أكدت لها ثقتي العمياء بها واستسمحتها بقبلة سريعة وابتسامة أسرع.

ثم خرجت بحثاً عن بار أستطيع فيه أن أقوم بواجب الحراسة. كنت أريد أن أتجرع الكثير من الخمور، أن أغرق غيرتي المتبقية والتي لم تستطع دولارات هذا الأميركي ولا احتجاجات آنا مرسيدس أن تمحوها.

نعم. الغيرة. مت من الغيرة وانبعثت من جديد ـ كل صباح، وفي كل لحظة من لحظات النهار، والأسوأ من ذلك كل ليلة إن لم تكن معي. كنت أغار على آنا مرسيدس. وكنت أقاتل من أجل تلك الفتاة، أصرع الرجال بسببها وأصرع أيضاً وأعاني عذابات لا توصف من أجل خاطرها. صرت بئراً لاقاع لها من المهانة والضغينة. خرقة تافهة، وأضحوكة للمثقفين وأشباههم ـ لكنها كانت تستحق ذلك كله، وتستحق ما هو أكثر، أكثر بكثير.

آنا مرسيدس، ملهمة الجيل الجديد من الشعراء وعمادهم، كانت عضواً في (حركة الاتصالات السحرية)، تصور صيغة كهذه عبقرية حقيقية. والحساد وحدهم والمحافظون التقليديون هم الذين ينكرون قيمتها. وكان اسمي محط تقدير وإعجاب بين (الشعراء الجدد) «فاوستو بينا، مؤلف (بيرب)، أحد أبرز الشعراء الشباب من طلائع مستقبلنا». هكذا كتب زينوباتل (مؤلف «صعوداً مع الهراء» في صحيفة سيتي نيوز أنباء المدينة) ـ وهو ليس أقل مني طليعية وليس أقل أهمية. وآنا مرسيدس، طالبة الصحافة في الجامعة ذاتها التي نلت منها شهادتي في علم الاجتماع قبل عامين، أجّرت ذكاءها الوقاد مقابل أجر زهيد من أجل قسم المدينة في سيتي نيوز. وبصفتها مراسلة تعرفت على ليفنسون، وبصفتها مراسلة كانت تمنح بسخاء جسدها الإلهي الذي لا نظير له لهذا الشاعر الملتحي المفلس. آه! كيف لي أن أصف خلاسية الله بذاته، ذهب خالص من رأسها حتى قدميها، ولحمها عابق بالأريج، وضحكتها البلورية، ولا مبالاتها الشهية، وقدرتها غير المحدودة على الكذب!

حبن دخلت آنا مرسيدس بتموجها إلى قسم المدينة مثل زورق صيد في بحر هائج لم يبق واحد من

الأنذال المحيطين الذي يعملون في مورننغ نيوز (أنباء الصباح)، من المالكين إلى البوابين، هذا إذا لم نذكر المراسلين والإداريين والطابعين، إلا واستولت على ذهنه فكرة واحدة هي إغراق زورقها بطريقة ما وفي مكان ما ـ على إحدى الأرائك الناعمة في مكتب رئيس التحرير وأمام صورة جينير مؤسس الجريدة الموقر، وعلى أحد المقاعد البالية في قسم المدينة، أو فوق الآلة الطابعة العتيقة على مواعين الورق أو على الأرض الوسخة الملوثة بالشحم، هذه الأرض القذرة، لو تمددت عليها آنا مرسيدس، لتحولت إلى سرير من الزهور وإلى أرض مقدسة.

وأنا لا أصدق أنها قد سمحت لأي من هؤلاء الحقراء الوقحين أن يدبر أمره معها باستثناء تلك المرة التي حكوا عنها، وهي أنها من أجل الحصول على الوظيفة خرجت مع الدكتور بريتو، المدير الإداري للجريدة. وقد شوهدت معه في المنطقة المشبوهة المجاورة لـ «81» وهو فندق مترف تديره مدام أبيزا القوية، وقد أقسمت لي بأنها بريئة: نعم. لقد ذهبت إلى تلك المنطقة مع رئيسها ولكن ذلك لكي تبرهن عن قابليتها للعمل وقدرتها على التقاط الأخبار ـ قصة مشوشة لن أعلق عليها طويلاً وسأضع لها حداً بشكل سريع. وعلى أية حال ليس هذا مكانها.

قبلت توضيحها المتكلف. هذا التوضيح وتوضيحات كثيرة غيره. بما في ذلك التوضيح العلمي في تلك الليلة التي ألزمت نفسي فيها بالبحث عن معلومات حول بدرو أرشانجو في شوارع باهيا وأزقتها. غيرتي الوحشية العنيفة القاتلة الانتحارية كلها كانت تذوب، أمام أيمانها المتعهدة بالحفاظ على الحب الأبدي، وحينما تقوم الحية الماكرة بخلع الميني بلوز والميني سكيرت عنها وفتح ذراعيها وساقيها لتريني كامل ماليديها. في ذلك المشهد الذهبي حيث الذهب والنحاس معطران بعطر إكليل الجبل، كانت تتحول إلى راهبة فسق سامية. ولقد كتبت في إحدى القصائد التي أهديتها لها: «تعلمت المومسات منك فنونهن». ـ وهي قصائد عديدة ولطيفة، إذا جاز لي أن أقول ذلك عن نفسي.

الأدب هو أول ما جمعنا. وكانت آنا مرسيدس معجبة بالشاعر وشعره القاسي قبل أن تستسلم «للكوبرا» الشرير ذي اللحية والشعر الطويل والجينز الأزرق، نعم «كوبرا شرير» إذا سمحتم لي بهذه الجرأة، هكذا كانت الشاعرات يلقبنني: كوبرا حقيقي.

آه على تلك اللحظة التي لا تنسى والتي قدمت لي فيها آنا مرسيدس بخجل وخوف دفترها المدرسي الذي فيه محاولاتها الأولى لكي أحكم عليها، مع هذا الجمال الآخاذ، وهذا التواضع، والابتسامة المتضرعة. كانت تلك المرة الأولى، والأخيرة التي ألتقي فيها بآنا مرسيدس متواضعاً على قدمي.

كان زينو باتل قد سمح له بالإشراف على ركن الشعراء الشباب في ربع صفحة من ملحق الأحد في «سيتي نيوز» وكان يريدني أن أساعده في ذلك. فبما أنه يشتغل كالعبد ثماني ساعات يومياً في أحد البنوك ويعمل على منضدة التحرير ليلاً فإنه لاوقت لديه لجمع القصائد واختيار الأفضل من بينها. وهكذا حصلت على عمل. كان عملاً شاقاً وبلا أجر. ولكنه بشكل ما كان يستحق الجهد. ففي العمل امتياز لابأس به. اتخذت مكتبي في بار صغير سيء الإضاءة خلف قاعة عرض فني وسرعان ما وجدت نفسي محاطاً بعدد كبير من البنات والفتيان. ولم أكن قد حلمت بوجود هذا العدد الغفير من الشعراء الشبان في باهيا، ومعظمهم رديئون ـ كل منهم أغزر إنتاجاً من الآخر، وكل منهم تواق لاحتلال أية مساحة ممكنة في الركن، وكان المتقدمون، الذين هم عادة أغنياء في إلهامهم وفقراء في متاع الدنيا، يقدمون لي كأساً من الروم، وقلة منهم الذين هم أحسن حالاً يقدمون كأس ويسكي (سكوتش). وأريد هنا أن أوضح أن حكمي واختياري للشعر الأصيل ما كانا يتأثران بنوعية المشروب أو كميته. وحتى

بعض الشاعرات الأكثر تصميماً ما كن بقادرات على تغيير صرامتي النقدية المعروفة عني بفتح سيقانهن النحيلة، كن في الحد الأقصى قادرات على تليينها فقط.

ولكن آنا مارسيدس، وخلال ثوان قليلة، استطاعت أن تنهي كل نزاهتي وصرامتي، ففي اللحظة التي نظرت فيها إلى الأشعار في دفترها تأكدت بأنها لم تخلق لهذا، يا إلهي كم كانت الأشعار شنيعة. ولكن ركبتيها، وعرض الكف الظاهر من فخذها، كانت نماذج للكمال. وعيناها كانتا مخيفتين ـ قلت لها: «ياطفلتي. إن عندك موهبة» وحين ردت بابتسامة امتنان أضفت مؤكداً: «تستطيعين أن تراهني بعمرك على أن لديك موهبة».

ـ هل ستنشرها؟ سألت بلهفة، وهي تظهر رأس لسانها من بين شفتيها المنفرجتين. يا إلهي!

ـ ربما! هذا أمر يعتمد عليك أنت. هكذا أجبتها بصوت مشبع بالتلميح المصطنع «القصد المتخفي».

وعليّ أن أعترف عند هذه النقطة بأنني كنت لا أزال أظن أنني أستطيع أن أخرج من الأمر بالغنيمة مع الحفاظ على الشرف، أي أن أنام مع الشاعرة دون أن أطبع لها هراءها. ولكنني كنت مخطئاً إلى أبعد الحدود، فيوم الأحد التالي كانت تحتل ركن الشعراء الشباب كله مع تعليقات إطرائية مني: «آنا مرسيدس: أعظم اكتشاف أدبي في العصر الحديث» ولم أستطع أن أحقق ما يزيد على بضع قبلات وتحسس عرضي لنهديها وبعض الوعود. ولابد من التوضيح بأن القصائد الثلاث التي نشرت تحمل توقيعها وقد كتبت كلها تقريباً من قبلي. والشيء الوحيد الذي استخدمته مما كتبته آنا مرسيدس هو كلمة «سوبيلا توريوم» وهي كلمة لطيفة لم أسمع بها من قبل وتعني الشرج. والحقيقة أنه يمكن القول أن إنتاج آنا مرسيدس الشعري كله لي بالدرجة الأولى ثم لإيلدازيو تافييرا. وذلك حينما تعبت القحبة من غيرتي فهجرت سريري لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها الأدبية وفيما بعد تركت إيلدازيو وتعلقت بموسيقى البوب برفقة مؤلف الأغاني تونينهولينس: برفقته في الفراش أكثر مما هي في الكلمات والموسيقى.

وحين وصل ليفنسون إلى باهيا كانت علاقتي بآنا مرسيدس قد وصلت إلى أوجها من حيث العاطفة المتوقدة والحب الخالد. فمنذ عدة أشهر عديدة لم تتبق لدي عيون أو قوة للاهتمام بأية امرأة أخرى. وإذا كانت في بعض الأحيان غير أمينة على عهود حبنا فهذا ما لم أستطع إثباته ـ أيمكن أن يكون لأنني لم أكن أريد ذلك؟ فما الذي يمكن أن يفيدني فيه الدليل إلا بالوصول إلى نقطة اللاعودة ـ وهذا ما لاأفكر فيه أبداً ـ أو بالفقدان المضجع لآخر فوائد الشك، أصغر وأرق غلائل الشك؟

وهكذا كنت مليئاً بالشك والغيرة وتواقاً للنوم معها، بينما أنا أفكر في أنها في الفندق مع ليفنسون في هذه الساعة من الليل، ومصلوباً على جنبي ولكن بأجر جيد وبالدولار، وهكذا ذهبت لأخفي رأسي ولأرجم في «حيث تبول الملائكة»، وهي قاعة ملائمة غير مزدحمة لايذهب إليها أحد ممن أعرفهم.

وماكدت أجلس، أو حتى قبل أن تصلني جرعتي من الكاشاشا الصرف، من سأرى في حديث ودي مع شمطاء عجفاء، إما أنها مومس أو عشيقة قديمة العهد مهترئة إلى حد يفوق الوصف بارزة العظام وشعرها كبة شعثاء، ومن سيكون معها إلا البروفسور لويز باتيستا، حامي الفضيلة والعائلة، الأكثر تقوى بين مغني الترانيم الدينية، نصير القضايا النبيلة! أرتجف حين رآني. ولكن لم يكن أمامه خيار فأتى إلى طاولتي حيث غرق بدماثة قسرية في توضيح أكثر تشوشاً من توضيحات آنا مرسيدس.

في الثانوية عانيت الكثير من دروس البروفسور باتيستا، من خطاباته الرنانة، ومن تحفظه البليد، ورائحة فمه الكريهة، ودروس القواعد المليئة بالتفاصيل المرهقة. لم نكن على علاقة طيبة في حينها ولابعد ذلك في المناسبات القليلة التي كانت طرقنا تتقاطع فيها. والآن، ها نحن هنا معاً في هذا البار الموبوء الحقير، أنا المرهق بالهجر الجارح والآلآم الديوثية، وباتيستا متلبس في رفقة زوجية بذيئة، كان هناك عدو مشترك يربط بيننا: ليفنسون الباحث الأمريكي المثقف ونظيره البرازيلي بدرو أرشانجو غير المعروف.

وأعلن الأكاديمي الخطير عن شكوكه في ما يتعلق بليفنسون ومهمته في البرازيل ولم أقل شيئاً من شكوكي لأنها كانت ذات طبيعة شخصية، كانت شكوكه من جهة أخرى، متعلقة بالمصلحة العامة وبالأمن القومي.

«كم لدينا من المشهورين في باهيا؟ باهيا بلد العباقرة والأبطال منذ أيام روي باربوسا الخالد، نسر هاغو، ومن الذي يختاره هذا الأجنبي ليمجده على أنه الشخص الوحيد الجدير بثنائه؟ وغد سكير أسود».

واستولت عليه نقمته فنهض واقفاً واتخذ وضعية خطابية، مع نشوة دينية ظافرة، شبيهة بنشوة مؤمن شاب في الأكيتو تيريرو. ثم صار يلتفت إلي حيناً وإلى كبة الشعر المجيدة حيناً آخر ومرة ثالثة إلى النادل الذي ينكش أسنانه، وهو يقول:

«لو نظرنا إلى المسألة بدقة أكبر فأنا واثق من أننا سنكتشف أن هذا الحديث عن الثقافة كله ليس إلا مؤامرة شيوعية لنسف النظام». ثم غرق صوته في همس تآمري: «أعرف أنني قرأت في مكان ما أن هذا المدعو ليفنسون كان قد استدعي للمثول أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا، وأعرف من مصدر لا يتطرق إليه الشك أن اسمه على قائمة الاف بي آي».

وهز أصبعه نحو الهدوء الوقور الذي يلف النار، الذي كان متعوداً على أنواع السكر المضحكة كافة، وقال:

«وفي النهاية، ماهذا الذي يحاول أن يمرره علينا على أنه ذروة المعرفة العلمية؟ هراء فارغ مكتوب بلغة برتغالية ركيكة عن الرعاع، عن الدهماء العاديين الشائعين. ومن هذا الأرشانجو على أية حال؟ هل هو رجل مشهور في ميدانه؟ بروفسور؟ باحث ضليع؟ شخصية بارزة؟ رجل دولة عظيم؟ حتى تاجر غني؟ أبداً. ساع متواضع في كلية الطب، شحاذ، عامل مياوم من الناحية العملية».

كان الرجل المحترم قد بدأ يرغي وبدأ الزبد يظهر على فمه من الغضب. ولابد لي من الاعتراف بأنني لا أستطيع أن ألومه. لقد كرس حياته كلها من أجل إطلاق التحذيرات العلنية من التسيب ومن العادات الرذيلة، ومايوهات السباحة، وماركس، ولينين، وإسفاف اللغة البرتغالية «آخر زهور اللاتينية» وما الذي حققه في نهاية الأمر؟ لاشيء على الإطلاق. الإباحية (البورنوغرافي) متفشية في الكتب والأفلام والمسرح وفي الحياة اليومية. والعادات الرذيلة مألوفة وطبيعية. الفتيات يحملن حبوب منع الحمل جنباً إلى جنب مع سبحات صلواتهن، وصارت مايوهات السباحة كلها بيكيني وقد لاتتوقف عند هذا الحد، وكأنما ليس ماركس ولينين شريرين بما فيه الكفاية فأضيف إليهما ماوتسي تونغ وفيديل كاسترو، هذا عدا عن القسس الذين تملكهم الشيطان بشكل واضح. أما في ما يتعلق بالكتب واللغة البرتغالية، فإن مجلدات الأكاديمي الفذ، التي تطرح طروحاتها بنبرة أرستقراطية وقور والتي

نشرت على حساب المؤلف، فإنها تهترئ على الرفوف المغبرة، وقد تم تجاهلها تماماً، بينما من يخربشون التفاهات ويحتقرون قواعد اللغة ويحطون من شأن اللغة الكلاسيكية ليحولوها إلى لهجة فرعية من اللهجات الأفريقية فإنها تتحول إلى الكتب الأكثر مبيعاً وبحمولات الشاحنات.

كنت شبه خائف من أن ينالني أو ينال النادل بعضّة، لكنه لم يفعل، سحب رفيقته الجميلة واتجه نحو سيارته الفولكس فاغن ثم انطلق بحثاً عن زاوية بذيئة بحق يستطيع فيها رجل وطني بارز أن ينفذ فيها أولوياته الأساس التي يمكن أن تقوده للمرة الأولى في حياته لممارسة جماع جسدي مع غير امرأته المقدسة ودون أن يرى، خلال ذلك المشروع الممتع، من قبل أفراد ذوي شخصيات منحطة أخلاقياً وأدبياً.

نعم. شخصيات منحطة، فلو لم تكن كذلك، بدلاً من إغراق شكوكي في الكاشاشا والأشعار الرديئة المشبوهة الإلهام، لكنت اندفعت إلى الفندق وصعدت إلى غرفتها وضبطتها بالجرم المشهود، والدولارات في يدي، وأنا على استعداد لقذفها في وجه ذلك الوغد، وباليد الأخرى مسدس محشو: خمس طلقات في المرأة الخائنة تماماً في سرتها المبتذلة الخائنة مانحة المتعة، والطلقة الأخيرة في أذني أنا. ويا للأسف إن غيرتي قاتلة وانتحارية - وعاجزة.

كوبرا الديوث

نجم ملوث

سرر غريبة

مضاجعة باللاتينية

آه أيتها المرأة الملوثة

سآخذ خمائرك

سآكل فُتاتك

زهرات ليلة السهر المرهقة

هذا البرازيلي المتعب من الدنيا

سيأكل رائحتك السوسيولوجية

الفائحة من كولونيا الخزامى

حمام وسكي ورائحة غليون صابونية

نعم.

متعب جدير يستحقك

لا مسدس ولا سكين

لاشفرة حلاقة لاقيء

لادموع ولا تهديدات صارخة ذات أنين

الحب وحده

سآكل ما تبقى

-

ملك الديوثين

كوبرا- الملك كوبرا - الملك الديوث

حديقة من القرون

بحارة، قوات، شفرات، فروع، هُلب خشن

فوق الجبين، وصم وأقدام

وعبر عمودي الفقري

في السوبيلا توريوم

نقاطهم سوف تخترقك

أيها النجم النقي الملوث

إن سيدك ومولاك هو الذي يتكلم *(12)

فاوستوبنيا

(حيث تبول الملائكة)

وقت متأخر من ليلة 1968

---

*(12) - المفروض أن القصيدة رديئة ولم أستطع ترجمتها في صيغة أكثر رداءة.

حول أناس هامين وحسنى التربية ومثقفين من الدرجة العليا الذين أعرف ما يتحدثون به

-1-

كانت تصريحات ليفنسون كافية لإشغال كل زاوية جريدة ومكروفون إذاعة وكاميرا تلفزيون في إحياء ذكرى ابن باهيا الذي ظل طيّ الإهمال حتى ذلك الحين. والآن، وبشكل مفاجئ، صار مشهوراً وظهرت مواد إخبارية ومقابلات وتصريحات من كبار رجالات عالم الثقافة، ومقالات في الملحقات الأدبية، وزوايا، ومناقشات في موائد مستديرة في أهم برامج التلفزيون.

وكان هدف معظم المثقفين، الذين كتبوا المقالات أو أجريت معهم المقابلات في الإذاعة أو التلفزيون، هو إثبات معرفتهم الطويلة والحميمية بمؤلفات أرشانجو. وكما ترون فإن هناك فارقاً بسيطاً جداً، إن وجد، بين مثقفي باهيا (البضاعة المحلية) وبين مثقفي ريو وسان باولو. عجيب كيف أن التقدم يقضي على الفروقات والاختلافات الثقافية التي كانت، في ما مضى، تميز العاصمة عن الأقاليم. إننا اليوم متقدمون ومؤهلون ومثقفون وفي الطليعة بمقدار ما هو الأمر كذلك في المدن الكبرى في الجنوب. وشباننا الموهوبون ليسوا مدينين بأي شيء لأبيو كريا وغيره من العمالقة المثقفين في بارات إيبانيما ولبلون. ولكن يظل هناك اختلاف بارز واحد: هنا في باهيا لا تزال الرواتب وأجور المحاضرات متدنية جداً ـ إقليمية بحق.

ومما يثير الدهشة أن نكتشف بأن كل واحد بين شخصياتنا الموهوبة كان، منذ زمن طويل، قد صرح، وعبر كل وسيلة اتصال عرفها الإنسان، بالأهمية التي لاتحدها حدود والتي تتمتع بها أعمال المعلم بدرو أرشانجو. حتى أنهم رفّعوه من ساع في كلية الطب إلى حامل شهادة أستاذ من الجامعة ولم يكن يقابل إلا بالإهمال واللامبالاة من جهة زملائهم. وبقراءة ما كتبه هؤلاء الموقرون الذين لايمكن للمرء أن يظن أن اسم أرشانجو وأعماله قد سبق أن تركت للنسيان والإهمال الذين نبشها منهما ليفنسون بتصريحاته، بل ستظن أنها كانت دائماً محط أنظار الجميع وأن شهرتها كانت تذاع إلى الخارج من خلال المقالات والدروس والمحاضرات والمناقشات التي قام بها حشد كامل من الأتباع المؤيدين لأعمال وفلسفة مؤلف «الحياة اليومية في باهيا». يا له من اجتماع فكري مثير ويالها من شهادة مؤثرة! من كان يخطر له أن بدرو أرشانجو كان له هذا العدد الكبير من التلاميذ؟ لقد كانوا يشكلون رابطة. وهذا يعني أن باهيا كانت دائماً غنية جداً بالمختصين في علم الأقوام وعلم الاجتماع وعلم الأحياء والفولكلور وغير ذلك من الاختصاصات النادرة. وكل منهم أغنى بحثاً وأكثر براعة من الآخر. احفظنا يارب!

ولكن من العدل أن نستثني من هذا الخليط المعرفي المضحك عدداً قليلاً من المساهمات الجادة والقيّمة ونذكر منها على سبيل المثال المقابلة الشاملة التي أعطاها البروفسور أزيفيدو لمجلة «تريد»* (13).

بما أن البروفسور عميد كلية علم الاجتماع فإنه لم يكن لديه ما يجمعه من المتعطشين للشهرة ضمن

الإطار العام للمثقفين. لقد كان على صلة حقيقية بأعمال أرشانجو: وكان قد تعاون مع البروفسور راموس من ريو دو جانيرو على مجموعة من الملاحظات التي تجعل هذه الأعمال أكثر وضوحاً وعصرية. وبذل كل مافي وسعه من أجل إثارة اهتمام المختصين الشبان في هذه الكتيبات. لكن المختصين كانوا مكتفين بأنفسهم وبمعرفتهم ولا يريدون لها زيادة. وبعد أن ظهر في المشهد حامل جائزة نوبل، جيمس د. ليفنسون، عندها فقط صاروا من الأتباع المتحمسين وتسلموا مواقع القيادة في موكب انتصار أرشانجو المتأخر.

وبما أنه لم يكن سهلاً الحصول على مؤلفات أرشانجو، التي كانت قد طبعت على نطاق ضيق جداً ومنذ زمن طويل، فإن المقابلة مع البروفسور أزيفيدو صارت هي النبع الرئيسي الذي اضطر موقعو المقالات الطنانة في الملحقات الأدبية وفي المقالات النقدية أن يشربوا منه. وكان أزيفيدو، المهووس بالتفاصيل، قد شرح وحلل وعرض بالتفصيل عمل مؤلف «المؤثرات الأفريقية في عادات باهيا» مؤكداً بذلك جهده الذاتي في التعلم وإخلاصه العلمي وشجاعته وهي من الأمور المدهشة للعصر الذي يعيش فيه، وأورد عناوين ومقتطفات ومراكز بحوث وأسماء وتواريخ كما قدم بعض المعلومات عن الرجل نفسه الذي كانت تجمعه به معرفة بسيطة والذي جاء للمشاركة في تشييعه.

كمية كبيرة من المقالات والزوايا والموضوعات جاءت من هذه المقابلة. وقلة منها حققت إعجاباً مقرفاً بكتّابها، إذ لم يذكر أي منهم البروفسور أزيفيدو ولكنهم كلهم استشهدوا بعبارات من كتابات ليفنسون وكتابات الكتاب الأوروبيين واليانكي*(14). وقد صنف أحد الكتاب وهو من الطليعيين، «الرسالة الأرشانجية» بأنها نتاج منعكس عن فكر ماو» وكتب آخر في محاولة لمضاهاة الأول: «أرشانجو وسارتر: شرطان للإنسان». كل منهم طفل معجزة!

قطعة كتابة واحدة غريبة تستحق استثناءها من هذا الهراء الفارغ كله. وهي زاوية كتبها غيرا، الذي كان بين القلائل الذين لم يدعوا أنهم مختصون في علم الأقوام أو أنهم من تلاميذ أرشانجو، وكان غيرا، الرجل ذو اللسان السليط، قد دخل المعمعة لسبب واحد فقط: كشف الانتحال المستمر الذي تعرض له الكتاب الوحيد بين كتب أرشانجو ـ الموجود في المكتبات منذ أكثر من ثلاثين عاماً ـ الذي لاقى نجاحاً معقولاً.

كان البروفسور أرشانجو شاهداً على التضحيات التي اضطر إليها الساعي الفقير، براتبه الضئيل وظمئه الهائل. من أجل نشر كتبه. وكان صديقه ومعاونه ليديو كورو، رسام المعجزات، وعازف الفلوت وزبون الحفلات، قد وضع آلة طابعة صغيرة في محله في شارع تابوان، وهناك كان يطبع النشرات والإعلانات للمحلات المجاورة ولدور السينما في حارة الحذائين، وكراسات تحتوي على أغنيات مغني الشوارع، والقصص الشعبية المثيرة التي تباع في الأسواق والمعارض. (هناك مقالة فيها جهد بحثي واضح عن ليديو كورو التي كتبها فالاداريس كمساهمة في الذكرى المئوية لأرشانجو بعنوان: «كورو، وأرشانجو وجامعة تافوان» تستحق القراءة). في هذه المطبعة المتواضعة رأت النور لأول مرة ثلاثة من الكتب الأربعة للمعلم المهمل، وكلها ذات طباعة من أسوأ ما يمكن.

ولكن واحداً من كتب أرشانجو طبع عند ناشر حقيقي في طبعة من ألف نسخة وهي كمية كبيرة في تلك الأيام، وهائلة بالنسبة لأرشانجو الذي لم تتجاوز كتبه الأخرى ثلاثمئة نسخة. والحقيقة أنه لم يستطع أن يطبع أكثر من (142) نسخة من كتابه الأخير والهام جداً «ملاحظات على تزاوج الأجناس

بين عائلات باهيا» بسبب انتهاء الورق المتوافر مئة واثنتان وأربعون نسخة ـ ليس هذا بالعدد الكبير، لكنه كان أكثر مما هو مطلوب لكي يثير الفضائح وأعمال الإرهاب والعنف. وعندما حصل ليديو على بعض رولات الورق وكان على وشك أن يدير المطبعة ليكمل الطبعة تدخلت الشرطة في الموضوع.

أما «المطبخ الباهي ـ أصوله وآفاقه» فقد كان حظه أفضل. شخص اسمه بونفانتي، مشكوك في نسبه وذو مصداقية مهزوزة، أبرز نفسه في براشاداسي في محل لبيع الكتب المستعملة وتخصص في الأدوات المدرسية وفي استغلال طلاب الثانوية والجامعة، الذين كان يشتري منهم الكتب بأسعار زهيدة ثم يبيعها ثانية بربح كبير: كتب علم الأقوام وجداول اللوغاريتم وقواميس وملخصات طبية وقانونية. وسرعان ما صار بدرو أرشانجو زبوناً دائماً.كان يقضي ساعات وهو يتحدث مع (المبتز الصغير). ولكنه ذات مرة كان مديناً له فعلاً ببعض السنتات لقاء نسخة مستعملة ولكنها كاملة من «مذكرات طبيب» لدوماس بير، الأمر الذي يدل على تقدير كبير من بائع الكتب إذ أنه لم يعتد أن يبيع بالدين لأي إنسان.

وكانت لدى بونفانتي بعض الترجمات التي تساعد الطلاب المقصرين في «جمناز يوم باهيا» والمدارس الثانوية الخاصة في النجاح في امتحاناتهم: ترجمة «فيدروس» لأفلاطون التي كان من المؤكد أن يأتي منها في الفحص التحريري للغة اللاتينية، وحلول مسائل في الجبر والهندسة، وأسس القواعد وتحليل «لوزياد» و «هذه كلها في كتيبات صغيرة الحجم يمكن أن تحمل سراً وينظر إليها خفية في قاعة الامتحان، ولكي يكمل هذا الإيطالي تثقيف الشباب، الذين تهمه سعادتهم كثيراً، كان يطبع، ويبيع، كتيبات إباحية تتيح له أن يحسب حساب نخبة من الزبائن المحترمين.

الأكلات الطيبة كانت رابطة أخرى بين خلاسي باهيا، والإيطالي ذي السحنة البرونزية. كان كل منهما يتمتع بشهية طيبة وحنك ذواقة. وكل منهما كان طباخاً سخياً. كان أرشانجو لا يجارى في تحضير بعض الطبخات الباهية. ولايمكن وصف يخنته من سمك الراي إلا بأنها رائعة. بينما بونفانتي، الذي يتذمر دائماً من أن المواد الملائمة غير متوافرة في باهيا، فإنه يستطيع أن يحضر طبخة «باستاسكيوتا أي فونغي سيكشي» تأكل أصابعك وراءها. وقد انطلقت فكرة إعداد كتاب مشترك عن مطبخ باهيا. وهو عبارة عن مجموعة من الوصفات لاتزال حتى الآن تتداول شفوياً أو أنها مدونة بإيجاز في دفاتر المطابخ، من هذه المحادثات ومن عشاءات أيام الأحد.

ولم يتم وضع الكتاب بسهولة. فبونفانتي كان يريد الاكتفاء بذكر الوصفات مع مقدمة من نصف صفحة على الأكثر، بينما أصر أرشانجو على نشر الكتاب كله كما كتبه هو دون أي حذف: «أولاً نتائج بحثه ثم تعليقاته المتأنية وبعد ذلك تأتي الوصفات. وفي النهاية طبع الكتاب كاملاً. ولكن بيع الطبعة الأولى استغرق عامين، وذلك إما لأن «كتب الطبخ موجهة لربات المنازل ويجب أن لا يكون فيها علم أو أدب» كما كان يصر بونفانتي، وهو يتذمر من حجم خسارته ويرفض أن يدفع حقوقاً لأرشانجو، وإما لأن «المحتال الإيطالي طبع ما يزيد عن ألف نسخة» وإما لأن الناس، ببساطة، غير مهتمين، وحين توفي أرشانجو كانت لا تزال هناك بعض النسخ عند بونفانتي.

ولكن إذا كان عدم الاهتمام في البداية هو السبب فإنه مع مرور الزمن واتساع المدنية وبداية التصنيع وفوق هذا كله ازدهار السياحة بدأ المطبخ الباهي يتمتع بالشهرة الوطنية وبالشعبية اللتين كان يستحقهما دائماً، ولقد طبعت بعض الكتب التي تحتوي على وصفات في ريو وسان باولو، وبعضها في طبعات أنيقة جداً، كاملة من حيث التصميم ومزودة بصور ملونة لطبخات متعددة، وقد حقق عدد

كبير من الكتاب الهواة ـ الصحافيين وسيدات المجتمع الراقي، والفرنسي الذي لديه مطعم في كوريدور دافيتوريا ـ وناشروهم مكاسب مادية لابأس بها من كتبهم «مطبخ باهيا»، «مئة طبخة شهيرة ومقبلاتها في باهيا»، «زيت النخيل والفلفل وجوز الهند»، «المطبخ الأفرو ـ برازيلي» و«أوس كونيدنس دويايا» وغيرها وغيرها.

وكان رأي (غيرا) المشاكس أن هؤلاء المؤلفين كلهم كانوا منتحلين قليلي الحياء قاموا بنسخ كتيب أرشانجو دون إضافة أي شيء جديد أو أصيل. والأسوأ من ذلك أنهم قد حذفوا معتقدين بعدم فائدتها وبتفاهتها ـ وهتف كاتب الزاوية غاضباً: «أغبياء!» الدراسة والتعليقات والاستنتاجات، ولم يستخدموا إلا الوصفات. ولكن أحد مراسلي ريو، بعد إقامة قصيرة في باهيا، وكن أكثر وقاحة وأقل حياء من الآخرين انتحل الكتاب كله، صفحة بعد أخرى، باستثناء أنه كان حين يحس بجرأة شرح نظريات أرشانجو، كان يسخّفها ويتفهها وهو يفعل ذلك. وكشف غيرا، وهو رجل أدب شريف، هذه الحيلة وأضاف من أجل منفعة القارئ: «تذكر أنني لست مختصاً بعلم الأقوام أو خبيراً في الفولكلور».

أما بخصوص المقابلة مع الميجور داميان دو سوزا، البطل الشعبي في عدد لا يحصى من المعارك الجدلية والحملات المشهودة، فإن نتائجها كانت بعيدة المدى وغير متوقعة إلى درجة أنها تستحق فصلاً مستقلاً.

---

*(13) ـ الحرفة.

*(14) ـ الأمريكيون الشماليون.

- 2 -

قلة، وقلة قليلة، من الناس يملكون الحق في تدوير أكرة الباب للدخول إلى مكتب الدكتور زيزينهو بينتو، ناشر (سيتي نيوز) وصاحبها، ذلك المكتب الذي ينزوي فيه الرجل العظيم من أجل التأمل وتقرير الأمور. لم يكن لديه الوقت للتفكير وهو في البنك أو في شركة البتروكيماويات، وخاصة وهو في مقر قيادة تجمع الصناعيين، ولكن في هذا المكتب الذي لا يسمح لأحد بدخوله، في الساعة الثانية بعد الظهر، وقبل أن نبدأ الجلبة اليومية في غرفة الأنباء أو غرفة التنضيد، هنا كان يستطيع أن يجد الهدوء المريح الذي يحتاج إليه من أجل شغله الفكري المجهد أو لغفوة قصيرة منشطة.

ولكن ليس هناك باب يغلق في وجه الميجور داميان دو سوزا، وضع يده النحيلة على الأكرة وأدارها ثم دخل.

ـ «دكتور زيزينهو»، يا صديقي العزيز، أرجو أن تكون وزوجتك الرائعة بصحة جيدة، جميع من في البيت بخير؟ وأنت؟ بصحة جيدة؟ وتزداد غنى يوماً بعد يوم؟ أليس كذلك؟ هذا ما أحب أن أسمعه وهذا ما يجب أن تسير عليه الأمور، المهم الآن. جئت إليك للتحدث حول بدرو أرشانجو. الشباب في جريدتكم يستمعون لكل مايقوله أي إنسان آخر، أي توم أوديك أو هاري يحب أن ينشر صورته في الجريدة. ولكن خادمكم المتواضع، هذا، الرجل الوحيد في باهيا الذي يعرف بالفعل كل شيء عن أرشانجو، قد نسي وأهمل ودفع إلى الزاوية. ما الأمر يا دكتور زيزينهو؟ ألا يعجبك الميجور العجوز؟».

لقد ضرب على وتر حساس فالدكتور بنتو كان يستريح الآن من عناء الغداء الشهري الذي يلتقي عليه سادة الصحافة الثلاثة في باهيا، وهم عظماء الصحافة في السلفادور، ويحرصون على التواجد في هذا التوقيت. لقد كانوا أصدقاء قدامى. وكانت جلسات الغداء احتفالية ترافقها الخمرة الفاخرة والويسكي المهربة. وإضافة إلى تبادل الأخبار وتحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية، كانوا يضحكون ويثرثرون ويشنع كل منهم على الآخر دون أن ينسوا التنديد بالزلات الصغيرة التي وقعت فيها صحفهم. وفي هذا اليوم كان الدكتور زيزينهو هو الضحية، بسبب التغطية السطحية التي قدمتها صحيفة سيتي نيوز لحدث الساعة الكبير: بدرو أرشانجو فمع توافر الموهبة الريبورتاجية العالية ووجود خيرة المثقفين، لكن الريبورتاج الذي نشر عن هذا الموضوع الكبير لا يمكن أن يقارن بإنجازات «تريد» المقابلة مع البروفسور أزيفيدو على سبيل المثال فقط ـ وإنجازات «مورننغ نيوز» في الملحق الخاص الذي أصدرته باسم «أرشانجو باهيا» ـ هذا إذا لم نذكر التصريح الشامل الذي أعطاه ليفنسون لآنا مرسيدس، الذي نشر في صحف ريو وسان باولو وبورتو اليغري وريسيف.

ـ خلصنا يا بريتو. ولنتكلم بصراحة. إن كنت ستنصاع لهذه الأساليب.. من ذا الذي لا يعطي آنا مرسيدس مقابلة شاملة في غرفة فندق؟ أنا نفسي كنت سأعطيها مقابلة. فإن لم تكن تلك منافسة غير متكافئة فإنني لا أعرف ماذا اسميها. أتعرف ماذا يسميها الصحافيون؟ «المؤخرة الذهبية».

ـ هل هي من الذهب فعلاً يا بريتو؟ يجب أن تتحقق من ذلك، قال كارديم منكّتاً.

الثلاثة ضحكوا وشربوا الخمرة الألمانية الفاخرة. لكن الحدث علق في حلق الدكتور زيزينهو. كان متفانياً في حماسته لجريدته وغيوراً على سمعتها. وفي حصيلة الأمر كان قد دفع مبالغ طائلة لأولئك الكتاب الشباب المكتفين بأنفسهم الحاملين شهادات الدكتوراه وتركهم ينشرون أفكارهم الهرطقية في جريدته، وبالتحديد من أجل أن تصير «سيتي نيوز» حاملة لواء الثقافة. والآن حين تأتي قصة ذات أهمية كهذه يتقلصون خارج قوس في المنافسة الشريفة. سيستدعي اليوم هؤلاء المسؤولين ـ بعد غفوة استراحة قصيرة في مكتبه المكيف.. ويشد لهم أذنابهم المتعلمة المذهبة، لقد كان يدفع لهؤلاء أكثر مما يستحقون. فسبقت الصحف الأخرى صحيفته. لا. لن يسكت على هذا.

ـ أرشانجو؟ أنت كنت صديقاً لأرشانجو يا ميجور؟

هل كنت صديقه؟ من تظن أنه قد علمني القراءة؟ ومن عثر عليه مرمياً هناك في بيلورتيهو؟ السبب الوحيد الذي منعه من أن يكون والدي هو أن سينها تيرينشيا، أمي، لم تلتق به إلا بعد أن رحل سوزا الأحول وصار عليها أن تفتح دكاناً في السوق الذهبية. لقد اعتاد أرشانجو أن يتناول إفطاره عندها كل صباح وصدقني أنه كان سيركاً كاملاً مؤلفاً من شخص واحد. لم يسبق لك أن سمعت هذا العدد الهائل من القصص والقصائد والأقوال الطريفة. وحتى اليوم مازلت غير واثق من أن سينها تيرينشيا لم تكن متساهلة مع أرشانجو العجوز، ولكن لم يكن قد تبقى منه الكثير. هو الذي رباني وعلمني الأبجدية والتمييز بين الصح والغلط.

وحب الروم والنساء، لكنه لم يضف ذلك، ولم يعد الدكتور زيزينهو يسمع ضغطاً على الجرس واستدعى الحاجب.

ـ هل هناك أحد في غرفة الأخبار؟ من؟ آري؟ قل له إنني أريد أن آراه حالاً.

واستدار إلى الميجر وابتسم ابتسامته الشهيرة: «ياميجور. أنت أعظم إنسان في العالم كله دون استثناء». وابتسم من جديد وكأنه يقدم له هدية، «أنت الأعظم».

وفعلياً كان كذلك. ففي عشية عيد ميلاده الخامس والسبعين كانت شعبية الميجور لاتجارى وكان الشخصية الأكثر أبعاداً في باهيا كلها. فهو محامي الشعب، وحليف الفقراء، وهبة الله للتعساء، وكلما ظهر في المحكمة أبطل التقارير والشهادات كافة في دفاعه عن موكليه وأخرجهم أحراراً أبرياء. وظل طيلة ما يقرب من خمسين عاماً يدافع عن حشد لا ينتهي من البائسين وعن قضايا على حافة الانهيار، وذلك في معظمه بلا أجر. كان كاتباً له فسحته في كل جريدة. وهذه الجرائد كلها نشرت (السطران) الواسع الانتشار والمتضمن النداءات والطلبات إلى السلطات وإدانات العنف والظلم، والحملة ضد الفقر والجوع والأمية. وبعد انتخابه ذات مرة إلى مجلس المدينة (تحت إشراف حزب صغير كان قد انتخب أيضاً نذلين سارقين متعطشين للسلطة وهما رئيس الحزب وسكرتيره الأول في أوج شعبية الحزب) حوّل مجلس المدينة إلى مجلس الحرية للفقراء وجمّد فعالية أعضاء المجلس الآخرين وخاطر بمقعده في المجلس عند تدفق الغزاة الذي ولّد جيلاً جديداً، ولم يظهر اسمه بعد ذلك على بطاقات الحزب. وكان الميجور خطيباً فذاً، ليس فقط أمام القضاة ومحاكم النقض، بل وفي أي حفل أو مجال يجد نفسه فيه. وكان صوته يُسمع في المناسبات المدنية الهامة وفي صباحات الأعراس والأعياد السنوية وفي حفلات التعميد، وعند افتتاح المدارس العامة والمصحات، وأيضاً كلما فتح حانوت أو بقالية أو مخبز أو بار

أبوابه، في جنازات الوجهاء والمهرجانات السياسية، في الأيام الخوالي حين كان ذلك مسموحاً به. كان الميجور يرى أنه في ما يتعلق بالدفاع عن مصالح الناس أو رفع احتجاج ضد الفقر والبطالة وقلة المدارس فإن أي جهد مهما صغر، أية ورقة عليها أي كلام يمكن أن تفيد، وأي منبر يكون ملائماً. ولم يكن يحسب حساب النتائج.

وكان الأمر يستحق أن يحول الإنسان طريقه لكي يستمع إلى خطاب منه. آه! يا لذلك الخطاب المحكم الذي كان يلقيه في كل ثان من تموز في ساحة الكاتدرائية وهو يقف أمام تماثيل كابوكلو الرجل والمرأة ولا تابوت وماريا كويتيرا وجوانا أنجيليكا وهو نفسه يصبح تمثالاً للخطابة الشعبية المهرجة، كم من المرات رفعته الجماهير المهتاجة على الأكتاف.

وكان صوته، المخرش بفعل الروم والتبغ، ملائماً تماماً للعبارات البليغة والجمل المألوفة التي كانت دائماً تثير التصفيق، والاستشهادات عن رجال عظماء ووطنيين وأجانب أيضاً. يسوع المسيح وروي باربوسا وكليمنصو كانوا مفضلين عنده. وكانت العبارات والأفكار المنسوبة إلى مشاهير أحياء أو أموات أو مخترعين من قبله، تتلامع مثل التبر في خطابات الميجور، وحين كان يتحدث أمام محلفين كان يلقي بهذه العبارات في وجه المدعي العام فيغفر هذا فاه من الجرأة اللامحدودة. وفي إحدى المناسبات وبعد أن استشهد بعبارة من «القاضي الخالد برنابو، فخر إيطاليا والعقل اللاتيني» لتأييد نظرية غريبة حول القتل المبرر تحداه المدعي العام الأجرد، الذي كان يتقد بشعلة الحماس للفضيلة، وقرر أن يفضح هذا الدّعي وأن يكشف قناع هذا السافل الكذاب على الفور:

ـ اعذرني يا ميجور. لكنني لم أسمع من قبل بهذا العالم في ميدان الجريمة الذي ذكرته حضرتكم. هل هذا البرنابو شخص حقيقي؟

وأرخى الميجور عينيه بإشفاق على الشاب الغر الوقح:

ـ حضرتكم لاتزال شاباً ولم تقرأ بما فيه الكفاية. ومن الطبيعي أن لاتكون قد عرفت بأعمال برنابو الكلاسيكية، وليس هنا من يصر على ضرورة أن تكون قد قرأتها. ولو كنتم حضرتكم في مثل عمري. وقد أوشكت أن تفقد بصرك، وقد أرهقت عينيك بالقراءة الدائمة فإن جهلاً كهذا ما كان ليغفر لك..

كان نظره قوياً ولم يسبق له أن لبس نظارات طبية. وفي العمر الذي يكون فيه معظم الناس قد وضع كل منهم قدماً في القبر وقدماً خارجه وقد استقالوا وراحوا ينتظرون الموت، كان الميجور قد حافظ على نفسه منتصب القامة أنيقاً مثل قضيب البندقية «بتخليل نفسه في الروم» وأكل نقانق الدم عند منتصف الليل في سان جاكويم والأبواب السبعة أو نزلة السوق وإلقاء نفسه فوق امرأة كلما سنحت له الفرصة. «إذا دخلت فراشي دون أن أكون مستنزفاً لا أستطيع أن أنام» سيجار رخيص في فم مليء بالأسنان المنخورة، ويدان كبيرتان مليئتان بالعقد وقبة عالية وبذلة بيضاء، ابن أوكسالا، لم يكن يلبس إلا الأبيض على الرغم من أن القبة والكمين كانت أحياناً متسخة بالشحم قليلاً.

نظرياً كان مكتبه خير مكان للعثور عليه لأن الميجور لم ير أبداً وهو يسير وحده. ولم يكن يستطيع أن يضع قدمه على الرصيف دون أن يصحب حوله ثلاثة أو أربعة من التعساء طالبين رعايته، وما يكاد يتكئ على البار في مقهى ما طلباً لكأس (وصفة صحية دائماً لمقاومة البرد أو الحر) حتى تبدأ القصص والشكاوى والطلبات. وكان يسجل ملاحظات على قصاصات من الورق يحشوها في جيب سترته، لكن مكتبه الرسمي حيث يقدم المشورة كل صباح، يقع وراء باب مبني من طابقين من أيام الاستعمار في

رودوليشو حيث كان ميغيل ناحت القديسين. فحين مات ميغيل استأجر المكان أحد الحذائين ووضع فيه أدواته وقوالب أحذيته. غير أن مكتب الميجور ظل مكانه، وظل الصانع الجديد، الخلاسي الطيب ذو الوجه المنمش. يزوده بالروم وبالصداقة.

في الصباح الباكر من كل يوم يحتشد عدد كبير مدهش من الزبائن حول الباب، زوجات محكومين، محاطات على الأغلب بأطفالهن، وأمهات مع أولاد في سن الدراسة لكنهن لايجدن مدارس لهم، ورجال عاطلون عن العمل، ومومسات ومشردون ومرضى بحاجة إلى طبيب، ومستشفى ونقود للدواء، ولصوص مطلقو السراح بكفالة وينتظرون المحاكمة، وأقارب موتى عاجزون عن دفع تكاليف الجنازات، ونساء تخلى عنهن أزواجهن، وبنات فقدن عذريتهن، وأخريات حوامل من مغررين ولايردن الأمومة، وكافة أنواع البشر الذين تلاحقهم المحاكم الشرعية والشرطة وكبار الموظفين، ثم يأتي السكيرون الذين يكونون سكرانين كالعادة ويأملون في جرعة صباحية تغسل أفواههم ـ مواطنون بائسون جائعون عطاشى وكان الميجور يصغي إليهم كلهم واحداً بعد الآخر.

كانت لديه بيوت في ليبرداد وكوزم دوفاريا واتياباجيبي، وفي كل بيت عشيقة محبة تنتظره بشوق حتى الفجر حين يكون دورها مع الميجور.

في ليبرداد كانت تعيش أميرينشيا. وهي امرأة سوداء، بدينة وديعة في الأربعينات من عمرها، وقد رزقت بسخاء فيما يخص الردفين والبطن، وكانت تعد طبخات باهية نموذجية لموائد الأغنياء، وترفه عن زبون له خصوصيته، إنها أكبر عشيقات الميجور المعاصرات وقد هربت معه قبل خمس وعشرين سنة.

وفي كوزم دوفاريا كانت دالينا اللطيفة تخيط وتطرز ما تبيعه ـ لها يدان رشيقتان جميلتان ووجه عليه آثار الجدري. في الثلاثينات من عمرها شقراء ومريحة، لقد ذهبت في البداية طالبة عون الميجور بعد أن طردها والدها المستبد من المنزل عندما رأى انتفاخ بطنها، وكان الرجل الذي ارتكب الغلط بحقها، وهو عريف متزوج، قد تدبر نقلاً عاجلاً إلى الجنوب. أمن الميجور مستوصف توليد وطبيباً لدالينا ثم أخذها مع الطفل: لا يستطيع أن يتركهما يموتان جوعاً.

وفي إيتاباجيبي، في كوخ مدهون بالأخضر وله نوافذ وردية، كانت تعيش مارا، الهندية المولدة ذات الثمانية عشر ربيعاً والفم المليء بالأسنان الذهبية، وتصنع أزهاراً ورقية لمحل خردوات في أفينيدا تبيعه كل ما تستطيع صنعه. وكان صاحب المحل قد عرض ترتيباً أكثر مغامرة، وكذلك فعل الفنان فلوريانوكويلهو الرجل الأنيق الدمث.

كان كل منهما يسعده أن يعتني بها. ولكن مارا كانت مخلصة لأزهارها ولرجلها. وحين كان الميجور يصل إليها كانت تنحشر بين ذراعيه النحيلتين وتتشمم أنفاسه القوية وتستمع إلى صوته الأجش المعهود في الليل.

ـ كيف حال عصفورتي الصغيرة؟

ثلاثة بيوت؟ ثلاث عشيقات؟ ورداً على التشكك الطبيعي لدى الكثيرين الذين سمعوا بالجميلات الثلاث ـ «كذب لايمكن أن يكون الأمر صحيحاً» ـ كان الميجور يطلب التفهم والغفران: «تذكروا أنني كبرت ولدي شغل كثير حتى انه ليس لدي وقت أتفرغ فيه لنفسي». فحين كان أكثرشباباً ولديه وقت

أكثر لم يكنّ ثلاثاً فقط. كانت هناك بيوت ونساء لايعرف عددها أو عددهن: والبعض بشكل دائم، وغيرهن بشكل متقطع وبعضهن حسب المصادفات.

ـ «كان لدى أرشانجو دائماً كثيرون حوله. وما كانت البنات يتركنه وحده» قال الميجور متذكراً بينما كان آري، المحرر الرئيسي يسجل المعلومات في دفتره بخط غير مقروء. وكان الدكتور زيزينهو يستمع باستغراب إلى المقابلة.حشد من الناس والحوادث والأماكن والتواريخ، فذاكرة الميجور بئر لاقاع لها. خيمة المعجزات، ليديو كورو، بوديان، كيرسي، كشك تيرينشيا، ايفون، روزا، روزاليا، إستر، نساء ونساء ونساء، مهرجان أبناء باهيا، ملاحقة بروكوبيو، و«ذلك الحيوان» المفتش بدريتو غوردو، شركة الكهرباء وإضراب عام 34 ««الأفضل ألا تتحدث عن الإضرابات في هذه الظروف، اكتب هذا الموضوع يا آري» قال الدكتور زيزينهو محذراً المحرر المتهور الذي كان يستطيع أن يجعل القصة تتمركز حول الإضرابات فيورطه مع الرقابة, والسيرانات، وميغيل ناحت القديسين، نعم. لديه مادة غنية، لكن لسان الميجور المتلعثم أنهك الناشر: فكل هذه الثرثرة لا تحمل قيمة الأخبار ولا شيء علمي فيها.

وسأله آري: «لقد مات جوعاً. أليس كذلك؟».

لم يكن أرشانجو ذا كبرياء مصطنعة، لكنه كان عنيداً ومعتزاً بنفسه وماكان لأحد أن يسيره، وما أكثر ماعرض عليه الميجور (ليس الميجور وحده بل العديد من الأصدقاء الآخرين أيضاً) أن يأتي ليعيش في واحد من بيوته بعد أن صار العجوز عاجزاً عن العمل.

(هل كنت ستقبل؟ هو لم يقبل. «أستطيع أن أتدبر أموري. لا أريد شفقة أو إحساناً من أحد» يا للعجوز الخرف).

ـ مات قبل خمس وعشرين سنة. وفي كانون الأول القادم. قبل عيد الميلاد بأسبوع، في الثامن عشر من كانون الأول يكون قد مر مئة عام بالتمام والكمال على ميلاده.

وبدا الاهتمام على الدكتور زيزينهو. لقد حصل أخيراً على ما كان يريده.

ـ ما هذا يا ميجور؟ قبل مئة سنة؟ هل لك أن تعيد ذلك؟

ـ صح. سيكون عيد الميلاد المئوي لأرشانجو. وحين احتفل بعيد ميلاده الخمسين يا دكتور زيزينهو، كانت حفلة أعظم من كل الحفلات. استمرت أسبوعاً كاملاً.

ونهض الدكتور زيزينهو، وهو يرتعش انفعالاً، ثم هتف:

ـ «أسبوعاً؟ الأسبوع لا شيء. يا ميجور. سنحتفل بالعيد المئوي لأرشانجو على مدار السنة، واعتباراً من نهار الغد، ونختتم باحتفال شعبي كبير في الثامن عشر من كانون الأول. يا آري. صحيفة سيتي نيوز سترعى مئوية بدرو أرشانجو الخالد. هل فهمت؟ التقطت الفكرة؟ أنا الذي سيضحك أخيراً. وسأرى كيف يصبح وجها بريتو وكارديم. قل لفرينينها وغولدمان أن لدينا اليوم اجتماعاً لكي نبدأ أكبر حملة دعائية رأتها هذه المدينة منذ سنوات. وسنرتبها بأسلوب خاص. سندعو الحكومة والجامعة، بدءاً من كلية الطب، ومعهد التاريخ، وأكاديمية الآداب، ومركز الدراسات الفولكلورية والبنوك ومديريات التجارة والاقتصاد وسنرسل بعثة شرف لدعوة شخصيات من ريو, آه يا ولد! سنعلم هؤلاء

التافهين كيف يصنعون الأنباء. سنتجاوزهم إلى حيث لا يرون غبارنا».

وأثنى آري على الفكرة:

ـ تحتاج هذه الجريدة إلى حملة كبيرة. فقد انخفض التوزيع منذ أن توقفنا عن مهاجمة الحكومة.

والتفت الدكتور زيزينهو إلى الميجور:

ـ لقد أعطيتني يا ميجور فكرة إطلاق حملة العام الإعلامية: مئوية بدرو أرشانجو. أنا فعلاً عاجز عن الكلام، ولا أعرف كيف أشكرك.

وابتسم الدكتور زيزينهو. بالتأكيد ليس هناك جزاء أفضل، ولا مكافأة أسخى من الابتسامة المشعة التي تقدمها الشخصية البارزة. ولكن الميجور، آه، هذا الميجور داميان دوسوزا، ارتد إليه مثل البرق:

ـ لا تشغل بالك بالأمر يا دكتور زيزينهو. فلنذهب إلى بار الفتيان وهناك تستطيع أن تقدم لي كأس براندي ـ ولتجعله اثنين غير كأسك أنت. سأشرب كأساً عني وكأساً عن أرشانجو: فالعجوز كان مغرماً ببراندي التفاح. هيا بنا. فالوقت الآن ملائم.

لا يمكن أن يكون لائقاً بالصحافي البارز أن يُرى وهو يتجرع البراندي المحلية في بار مقهى من الدرجة الثالثة. وخاصة في أكثر ساعات النهار قيظاً. ولكن في نوبة من نوبات الكرم طلب من المحاسب أن يقدم للميجور ثمن شرابه، لكل شيء ثمنه في هذه الأيام. سقى الله الأيام السالفة.

- 3 -

لم يعرف ليفنسون العظيم بمقابلة الميجور داميان دوسوزا، والتي نشرت بعد مغادرة العالم لباهيا، وبعد عدة أشهر جاءت من سكرتيره رسالة موجزة إلى الدكتور زيزينهو نبتو تعبر أن أسفه لاضطراره لرفض دعوة الصحيفة الموقرة له لإلقاء محاضرة في «الحفل الكبير المكرس لذكرى بدرو أرشانجو الخالد» والذي سيكون نهاية الاحتفالات بمئوية ابن باهيا المثقف. «يرغب الدكتور ليفنسون أن يعبر عن شكره لسماعه أنباء هذا التكريم لبدرو أرشانجو ويضيف أطيب تمنياته. لقد سره أن يعرف أن الشعب البرازيلي يظهر تقديره واحترامه لهذا الكاتب العظيم». ولسوء الحظ لن يستطيع الحضور بنفسه، فلديه التزامات مسبقة، لايمكن إرجاؤها، في الشرق الأقصى، في اليابان والصين. ومعها حاشية غريبة بخط العالم وتحمل توقيعه مما أعطى قيمة لاتقدر للأوتوغراف المضروب بالآلة الكاتبة الذي وقعه السكرتير:

«ملاحظة. الصين المذكورة أعلاه هي بالطبع الصين القارية، جمهورية الصين الشعبية» أما الصين الأخرى، جزيرة فرموزا، فهي ليست إلا اختراعاً غريباً وخطراً قام به مثيرو الحروب.

حامل جائزة نوبل يحيي مبادرة سيتي نيوز

هكذا جاء العنوان الرئيسي فوق الخبر حول التأييد الحار من قبل جيمس د. ليفنسون «أشهر علماء الولايات المتحدة الأمريكية» لحملة هذه الصحيفة وحول النبأ المؤسف عن عدم حضوره. «ويسعدني أن أضيف أطيب تمنياتي إلى أعمال التقدير الأخرى لبدرو أرشانجو» هذا ما اقتطفته الجريدة من الرسالة وحذفت رسالة السكرتير والحاشية.

ولم يستطع الدكتور زيزينهو أن يخفي إنزعاجه. كان واثقاً من مجيء ليفنسون. وها هو يرى حملته التكريمية تتقلص إلى مستوى الكفاءات الوطنية المألوفة والمواهب المحلية. لقد وعد البروفسور راموس أن يجيء من ريو، لكن هذا ليس إلا عزاء ضعيفاً عن غياب الحائز على جائزة نوبل «القادم من عملاق الشمال، الجبار الأمريكي» كما كان الإعلان المتلألئ يقول.

ولم يستطع زعيم صحافة باهيا أن يخمن كيف أن ليفنسون قد تردد وأخذ قراره بالقول فليذهب إلى الجحيم ذلك المنهاج في جامعة طوكيو وتلك الدعوة من بكين، سأعود إلى باهيا وإلى رؤية ذلك المحيط الأزرق المخضر وأشرعة قوارب الصيد والمدينة القائمة على التل، وأولئك الناس المتحضرين اللطفاء وتلك الفتاة الفارعة ـ ماذا كان اسمها؟ ـ مثل نخلة منتصبة ذات الشفتين والثديين والردفين والبطن التي لا تنسى، مولدة حقيقية خارجة من أحد كتب أرشانجو ـ هذا الأرشانجو المزعج الذي لم يستطع أن يلتقط أكثر من ومضة من آثاره وسط غموض المدينة.

كان قد قرر البقاء يومين فظل ثلاثة أيام ـ ثلاثة أيام وثلاث ليال ـ ولكن زيارته القصيرة خلفت في ذهنه فكرة غامضة وشاعرية: كان أرشانجو ساحراً. هو يعرف ذلك، وأرشانجو هو الذي اخترع هذه الفتاة له، هو ليفنسون، لكي يقدم له دليلاً حياً على كل ما كتبه. ما اسمها، مرة أخرى؟ آن . نعم . آن ـ آن الجريئة ذات الذراعين المفتوحين. وخطيبها الأبله الذي يمشي في إثرها.

أشار الرجل المتعلم إلى الشاعر فارستوبينا الذي كان يلحق بنا أينما ذهبنا؟ معجب بك؟ شرطي، كادر سياسي؟» كان معتاداً على هذه التصرفات في البلدان المتخلفة وعلى الديكتاتوريات التي تحكمها.

ـ «هذا؟» وضحكت آنا بوقاحة. «خطيبي. بالمناسبة، ألم تقل إنك ستستأجر شخصاً ما للبحث عن بعض المعلومات المتعلقة ببدرو أرشانجو؟ إنه الرجل المناسب لهذا العمل. إنه مختص بعلم الاجتماع وشاعر، وهو ذكي بشكل معقول ولديه الكثيرمن الفراغ.

ـ إذا وعد بمباشرة العمل فوراً وتركنا وحدنا فاعتبريه مستأجراً.

كانت ثلاثة أيام مليئة. طاف ليفنسون الجريء في المدينة بصحبة آنا مرسيدس، في الحواري والطرقات المتحدرة وآلاغادوس المستنقعية، والمناطق المضاءة بالأحمر والكنائس المزخرفة بذهبها وقرميدها المدهون. وكان يتحدث مع كل إنسان: كاميو الأوكساسي وأدواردو دواجيكسا، وميستر باستنها ومينينها ومايزينها وميغيل دوسانتانا أوبا آري. كان يتهرب من المشهورين وتدبر التخلص من حفلة العشاء المقامة على شرفه بالادعاء باضطرابات معدية رافضاً أن يأكل معه الوجبة الفاخرة أو أن يستمع إلى خطاب الترحيب الذي ألقاه الأكاديمي البارز لويز باتيستا، وبدلاً من ذلك ذهب ليأكل الفاتابا والكورورو والإيفو ـ القريدس والأعشاب والأرز والزيت والسلطعانات المسلوقة ذات الذيل الطري، وحلوى جوز الهند والصنوبر ـ فوق سوق الموديل في المطعم الذي كان ذات يوم ملكاً لماريا دوسان بدرو، الميتة الآن، حيث كان يستطيع الفرجة على زوارق الصيد بأشرعتها المرفوعة وهي تعبر الخليج وأكوام الفاكهة الملونة البراقة على المنحدر المطل على البحر.

في ألاكيتو، ووسط الطقوس السحرية بإشراف أولغا، بنت لوكوويانسان، عرف الأوريكساس، الذين كان قد قرأ عنهم في كتب أرشانجو، وسلم عليهم كأنهم أصدقاء قدامى. بينما كان يعطي أذنه المرهفة للشروخات المرهقة التي يقدمها تابع الفتاة. جاء أوكسالا يرقص باتجاههم وهو ينحني على الباكسورو المتلامع ثم عانقه. «أبوك أوكسالا عجوز، أوكسولا فان» قالت أولغا وهي تسحبه لرؤية معابد البيجيس. لقد كانت ملكه، هذه الأولغا، بفستانها الطويل المكشكش وعقودها الباهية وهي محاطة بحاشيتها من كبيرات النساء والتلميذات المتدربات، كان بدرو أرشانجو قد كتب: «إن ملكات شوارع المدينة بصوانيهن المليئة بالطعام والحلوى، هن ملكات مرتين، أمهات وبنات للأرواح على الأرض».

وكلما خيم الظلام في تلك الليالي الباهية الثلاث القصيرة كانا يذهبا إلى الفراش والحب، ولم يكن يستطيع أن ينسى ساقي الفتاة الطويلتين وردفيها ونهديها الأسمرين وعطرها الاستوائي وضحكتها الجريئة الوقحة.

«حسن يا غرينغو، دعنا نرى إن كان فيك خير أم أن كل ما لديك هو وجهك» هذا ما قالته في الليلة الأولى، وهي تخلع الملابس القليلة التي ترتديها: «سأريك ماهي الخلاسية البرازيلية».

عيد. مهرجان من الضحك والتنهدات. مهرجان. كيف يوصف بغير ذلك؟ لقد ماتت الكلمات. وكان

ليفنسون المتعلم، يا عزيزي زيزينهو، على وشك أن يلقي بكل شيء بما في ذلك اليابان والصين - الصين القارية، لاتنس! - وأن يقول نعم ملبياً دعوتك لرؤية مدينة أرشانجو الغامضة والسحرية مرة أخرى.

آه لو أن الدكتور زيزينهو كان يعرف، لوضع عنواناً رئيسياً مختلفاً لجريدته: «في نيويورك، ليفنسون العظيم يحس بالسودادا - الشوق - لباهيا».

- 4 -

فئة من معاصري أرشانجو، الخجولين المتواضعين العجائز، الذين اكتشفهم الصحافيون مصادفة أكثر مما اكتشفوهم نتيجة للبحث المنهجي، كانوا لايكادون يستطيعون أن يتذكروا شخصاً كان جاراً طيباً وبوهيمياً وممسوساً إلى حد ما، ومهووساً بتسجيل الملاحظات عن كل شيء وماهراً في طرح الأسئلة ورواية الحكايات ومستمعاً جيداً وموسيقياً موهوباً، كان يعزف على الغيتار والكافاكوينبو، عدا عن البيريمبو في مباريات كابويرا وطبول طقوس آتاباك ـ آلات لم تستطع أن تخفي سراً عن رجل اعتاد على العزف عليها في مهرجانات الشوارع وطقوس الفودو منذ نعومة أظفاره.

كانت تلك التصريحات وجلة من شهود خجولين عقدت ألسنتهم أمام التساؤلات المتلهفة لصحافيين تواقين للتفاصيل الحسية للجنس الفاسق والتعيس، والعنف من أجل العنف. وكان هؤلاء العجائز يذكرون زماناً وأناساً لاجاذبية لهم بالنسبة للصحافة، زماناً وأناساً مازالوا قريبي العهد لكنهم بعيدون في عاداتهم وعواطفهم، وطريقة حياة وصفها بيشانها، أحد الصحافيين، لجمهوره وهم يجلسون في ناد ليلي رخيص:

ـ تعرفون؟ ها أنذا، تحت ـ تحت التي منذ زمن وهي تبدو فوق ـ وهاهوذا هذا الملون الذي مات ودفن منذ عشرين سنة دون أن يفهم، وهو يعطيني هذا الهراء الذي ظنه أعظم مافي الدنيا، كل شيء عن نفاية اسمها خيمة المعجزات..»

ظل بيشانها تحت فترة طويلة حتى بدا فوق، وكذلك كان شأن كافة الصبيان والبنات، وكل منهم في حضيض أدنى من الآخر، وكل من لم يكن تحت لايكون في أي مكان يا رجل.

ـ أنا، تحت، في الحضيض، رجمت ولم أعد أشعر بشيء، وهاهو هذا الأبله يعطيني هذا الخيط عن خيمته المهلهلة التي اعتاد أرشانجو المغفل أنه يتمشى بزهو فيها وكأنه ممثل وهو يلقي الشعر. حقارة، يارجل. أتعرف ما أفكر فيه؟ لم يكن هذا الأرشانجو إلا مهرجاً».

حيث يحكى لنا عن الكرنفالات وقتال الشوارع، وحوادث سحرية أخرى مع الخلاسيات والزنجيات، والفتاة السويدية التي كانت في حقيقتها فنلندية

-1-

جاء الناس راكضين لرؤية العرض، وهم يصفقون ويهتفون ويتقافزون ويرقصون بحماس كبير، رأوا الكرنفال من بدايته حتى نهايته، فرق الإيقاع، والمهرجون والمعربدون والطبول النحاسية، والملابس الغريبة، ومجموعات من الأصدقاء بملابس متشابهة. ولابسو أسمال، ورؤوس مصبوغة وأقنعة مضحكة، وحين اندفعت مجموعة «آفوكسي» أمام مسرح بوليتيما، قوبلت بعاصفة من الهتاف والتصفيق وبصرخة موحدة: فيفا، فيفا، فيفوووو.

المفاجأة حولت الفرجة إلى هيجان، ألم يمنع الدكتور فرانسيسكو أنطونيو دوكاسترو لوريرو، الرئيس المؤقت للشرطة، بوضوح تام الأفوكسي من المسيرات في أي مكان من المدنية وتحت أي عذر كان، بعد عام 1904 «الأسباب عرقية واجتماعية، ومن أجل عائلاتنا وآدابنا وأخلاقنا، ومن أجل المصلحة العامة والتصدي للجريمة والغواية والفوضى؟» من الذي تجرأ على مخالفة القانون؟

أبناء باهيا تجرأوا، لم يسبق لموكب كرنفالي مهيب كهذا، كوكبة من البهاء والجمال، أن شوهدت أو حلم بها أحد: هذا القرع الموزون على الطبول، هذه الألوان المدهشة، هذا الترتيب الرائع، والزوجي، الملك العبد المتمرد بكل أبهته!

لقد كانت جرأتهم في اختيار هذا الأسلوب مزدوجة، لأن جمهورية بالماريس كانت قد أخرجت إلى الشوارع مسلحة للحرب بمقاتليها الأبطال ورئيسها زومبي، أعظم المحاربين، الذي هزم لتوه ثلاثة جيوش وهاهو على استعداد لهزيمة الرابع مهدداً بذلك الإمبراطورية البرازيلية والإمبراطور نفسه - زومبي المنتصر فوق تلة النار والحرية.

هوذا زومبي واقفاً على القمة ممسكاً بحربة عاري الصدر وجلد نمر مرقط يغطي عورته. صرخة الحرب التي أطلقها هي إشارة البدء لرقص المطاردين السود - بعيداً عن مزارع السكر والسياط والمراقبين والسادة، بعيداً عن حالة البهائم، نحو حالة البشر والمحاربين لكي لا يعودوا بعدها عبيداً. في أحد الصفوف كان المحاربون أنصاف عراة وفي الآخر المرتزقة يقودهم دومنغوس جورج فيلهو تاجر الرقيق القاسي والجنرال العنيد الذي لايحكمه قانون: «أريدهم أحياء، جميعاً بلا استثناء ليكونوا رقيقاً» هكذا أعلن في خطابه إلى شعب باهيا وهم يحيون الكرنفال، كانت لحيته طويلة ويرتدي سترة وحمالة سيف وقبعة مترهلة، وسوط متعدد الأطراف في يده.

هتف الناس للسود المتحررين ولتحديهم الشجاع، هل سبق لك أن رأيت شيئاً كهذا يا سيد فرانسيسكو أنطونيو دو كاسترو لوريرو، أيها الشرطي المؤقت، أيها الأبيض ذو المؤخرة السوداء. من ذا الذي سمع بكرنفال دون أفوكسي؟ إنها التسلية والمسرح والبالية لأفقر الفقراء. ألا ترى أنه يكفيهم تحمل الفقر وندرة الطعام والعمل وتحمل الأمراض - الطاعون والحمى الصفراء والملاريا والدايزنتري

التي تطير أولادهم مثل الذباب؟ ولكن لا. أنت يا سيد فرانسيسكو أنطونيو (كون القاتل) تريد أن تجعلهم أكثر فقراً. ارفع قفاك أيها الزعيم، صرخات استهجان وصفير وسخرية، اذهب وانكح نفسك تصفيق وهتاف للمعربدين الشجعان.. فيفا .. فيفا فيفووو..

كل من في حشد الكرنفال جاء لتحية أبناء باهيا وللهتاف لجمهورية بالماريس الحرة. حتى أفوكسي السفارة الأفريقية لم يسبق لها أن كسبت تصفيقاً مشجعاً كهذا حين ظهرت للمرة الأولى عام 1895 وهي تصور محكمة أوكسالا الشنيعة، ولا الجماعة ذاتها بعد ثلاث سنوات حين قدمت للمدنية بلاط آخر ملك في داهومي صاحب الجلالة السوداء الفحمية آغولي آغبو. ولاحتى المهرجون الأفارقة مع زعيمهم لوبوسي من غرب أفريقيا بطقوسه الأنغولية. ولا (أبناء القرية) عام 1998 عندما قدموا أفوكسي كابوكلو، الجديدة المدهشة، التي أثارت استحساناً متحمساً. في سنة المنع ما من شيء آخر يمكن أن يكون أكثر قرباً من أبناء باهيا.

طاف الكرنفال في الشوارع، والشرطة والفرسان وسطه بينما الناس يقاتلون دفاعاً عن الأفوكسي التي تخصهم. فليسقط شيتي شيكو! وليسقط التعصب! وعندما اتسعت المعركة وراح الجنود على خيولهم يضربون بسيوفهم، وحوافر خيلهم تدوس الناس وتلقيهم أرضاً، ذابت الأفوكسي بين الحشود، صرخات وتأوهات «مورا» و «فيفا». حشود تتلاطم، أناس ينجرحون، سقطات، ضربات. القبض على بعض المتمردين على أيدي مشايعي الشرطة والحشود تطلق سراحهم من جديد، مما جعل اللهو يختلط بالقتال.

هكذا كانت الأفوكسي الأولى والخيرة لأبناء باهيا. هكذا كان موكب المهرجان الذي أنزل زومبي البالماري وجماعته الشجاعة إلى الشوراع.

وصرخ شرطي: «أمسكوا بالأصفر! إنه «رأس البلاء!»

ولكن رأى البلاء الأصفر، بدرو أرشانجو، مع اثنين آخرين اختفوا في زقاق شديد الانحدار. لابد أن أحد الاثنين الآخرين هو سكرتير زومبي، لأنه كان يلف حول وسطه مئزراً ويحمل قلماً وورقاً وخطوطاً وزجاجة حبر أزرق على كتفه. ومن يمكن أن يكون الناسخ إلا ليديو كورو؟ أما الهارب الآخر فقد دلت بذلته وبشرته البيضاء على أنه دومنغوس جورج فيلهو، مامل العبيد، على الرغم من أنه في حمى المعركة فقد حربته وقبعته المهلهلة. ولم يكن هذا في حياته المدنية إلا الغالي باكو منوز، صاحب بار يدعى «وردة كارمن».

اندفع الرجال الثلاثة راكضين كالأبطال. ولكن بغتة أوقف السباق بدرو أرشانجو، المحارب البالماري البسيط وزعيم الموقف، وانفجر ضاحكاً، ضحكة عالية صافية صاعدة من قلب رجل عصا أمراً ظالماً وصاح: «العرض ابتدأ الآن. يسقط الاستبداد. يحيا الشعب!» وموجة أخرى من الضحك الشفاف المرح اللامتناهي: «انقلعوا عنا! روحوا انكحوا أنفسكم. فيفا. فيفا، فيفو..».

- 2 -

كانت باهيا آخر سكرات بدرو أرشانجو الكرنفالية الحقيقية: في عام 1918 عادت الأفوكسي بعد ثمانية عشر عاماً من المنع، ولكن أرشانجو لم يعد يهدر عليها الكثير من الوقت والجهد كما كان يفعل سابقاً، على الرغم من أنه، وبناء على طلب الأم أنينها، شارك في توجيه المهجرين الأفارقة حين رفعت رايتهم المجيدة فوق الكرنفال من جديد بيد بيبيانو كوبيم، أكسوغون العيد السنوي للغانتوس.

لكل أفوكسي تعويذة، وأول تعويذة استخدمت في كرنفال أعطتها الأم ماجي باسان لبدرو أرشانجو. وكان أرشانجو قد ذهب إليها لاستشارتها في قرار اتخذه وليطلب منها المباركة والنصح، وكان ليديو كورو، وخوسيه أموسا، ومانويل دوبراكسيدس وبوديان وسابينا وأرشانجو نفسه قد قرروا، بعد الاتفاق مع بعض الراقصين المتحمسين من تورورو، أن ينظموا أفوكسي كرنفال سيشرّف متطوعي الحفل السنوي (كاندومبلي) بتسميته (السفارة الأفريقية) وسيعرضون للمعربدين نموذجاً للحضارة التي أفرخت الزنوج والخلاسيين.

ألقت الأم ماجي باسان بالودع لكي تعرف أي إله سيشرف على «السفارة» وأي شيطان سيحميها. وتبين لها أن سيرينه البحر، ييمانجا، ستقوم بالإشراف وأن إكسو أكسان سيحمل مسؤولية نجاتها. وهكذا جلبت إيالوريكسا، الروح الأم الدليل، قرن الحمل الصغير الملبس بالفضة، والمحتوي على أكسي، السر، أساس العالم، قالت: «هذه تعويذتك، ولن تجرؤ أية أفوكسي على الخروج إلى الشوارع من دونها أو دون أي شيء مشابه».

وكررت: «هوذا الأكسي، التعويذة» وهي تضعها في يد أرشانجو.

في عام 1895 انطلقت «السفارة الأفريقية» أول أفوكسي لكي تكسب إعجاب الناس وتهليلهم في الشوارع فتحدت «المنظمات الكبيرة»: «الصليب الأحمر» القوي و «مؤتمر فولكان» الجبار، و«دمى يوتيرب» و«أبرياء التقدم» وكان ليديو كورو سفيرها. سيد الاحتفالات، ومدرب الرقص الذي لا يضاهى. وعندما أعطى إشارته أوقف فالدلوار، الراقص الشاب من تورورو، الموكب وبدأ الغناء:

أفوكسي لوني

إي لوني

أفوكسي إي لوني إي

وحين استأنفت الجوقة رقصها غنى:

إي لوني أو إيما لي كسي

قالوا: إن هناك سحراً اليوم. اليوم يوجد سحر. كان موكب أوكسالا وحاشيته والنغمة التي اختاروها نموذجاً للنجاح حتى أن المهرجين الأفارقة في العام التالي، الذين أوجدهم ونظمهم واحد من أنغولا في سانتو ـ أنتونيو ـ بيوندا ـ كارمو، انضموا إلى «السفارة». وفي العام الذي تلاه كان هناك خمس جماعات تغني أغنيات الزنوج والخلاسيين التي كانت حتى ذلك الحين كامنة في احتفالات الفودو. الآن صارت السامبا ملكاً للجميع وهيمنت على الشوارع.

وبما أن الجميع كانوا يستمتعون كثيراً بغناء الزنوج ـ يستمتعون بحلقة السامبا، والرقصات وإيقاعات الطبول وجمال الأفوكسي الآخاذ ـ فلابد أن يصدر منع له بالتأكيد.

احتجت الصحافة اليومية على «الطريقة التي تأفرقت فيها عطلة الكرنفال، ذلك العيد العظيم للمسيحية». وشنت حملة عنيفة ومنظمة على الأفوكسي. واحتج أقطاب التجارة والأطباء المثقفون والأغنياء بذعر على الانتصارات السنوية التي يحققها المعربدون الأفارقة والهزائم الشنيعة التي تتكبدها منظمات الكرنفال الكبيرة ـ اليونان القديمة، لويس الخامس عشر، كاترين دوميديشي. «يجب على السلطات أن تضع حداً لهذا التطبيل ولطقوس الفودو التي تنشر ضجيجها المزعج وصخبها في الشوارع، إن هذا يعيدنا إلى جو الغابة أو المزارع القديمة. الرعاع المقنعون بالتنانير والعمائم وهم يغنون ألحان السامبا الكريهة يصبحون نشازاً على هذه المرحلة من تطورنا الحضاري». هكذا صرخت مجلة «نيوز جورنال» الناطقة القوية باسم الطبقات المحافظة.

نعم. لقد انتشرت الأفوكسي في الشوارع. كانتشار النار، مفسدة ومهينة لكل ما تلمسه، وبعد أن استولت نقرات السامبا المهزهزة على الناس، لم يعودوا ينظرون بدهشة وإعجاب إلى مسيرات «المنظمات الكبيرة» بأنغامها الفرنسية الملوكية. لقد ولت منذ مدة تلك الأيام السالفة «التي كانت تنطلق فيها صرخات الحماس عند مرور كل ناد مظفر في موكبه وتتعلق فيه الأبصار» ودعت «نيوز جورنال» لإجراءات جذرية «ماذا سيحدث لكرنفال **1902** إن لم تعمل الشرطة على منع تحول شوارعنا إلى تيريرو، إلى بُدّية متفشية بمواكب الأوغان بقرقعاتها البدائية ويقطينها ودفوفها؟» سيطرت الأفوكسي على الشوارع والساحات العامة وأمام مسرح بوليتيما وكامبوغراند وفي روابيكسا وبراشادو تياترو. وكل أفوكسي تتفوق على سابقتها في غزارة ألوانها وأغانيها الجذلة وإيقاعات السامبا المبتكرة. راحت تحقق نصراً تلو الآخر وتكسب الهتاف والتصفيق وحتى الجوائز. وكالنار الضارية انتشرت في الشوارع. وباء من السامبا والأفوكسي. ولن ينفع معهما إلا العلاج القاسي.

وفي عام **1903** سارت ثلاثة عشرة أفوكسي زنجية وخلاسية في تظاهرة مدهشة. (بوّاقان سيعلنان بدء التظاهرة، يهزّان الجو بنفحات من بوقيهما ويرتديان زياً تونسياً لطيفاً كدليل على أن الحضارة في القارة السوداء حقيقية وليست طوباوية كما تقول «ألسنة السوء» وهذا ما جاء في البيان الموزع على الشعب والذي قامت بتوزيعه أول أفوكسي).

في عام **1903** حين انتهى الكرنفال ذرَّ كاتب الافتتاحية الذي كان قد طالب بإجراءات صارمة الرماد والعار على رأسه: «إن المراقب الذي يريد أن يحكم على باهيا من خلال كرنفالها لا يمكن له إلا أن يعتبرها من أفريقيا. ولنأخذ بعين الاعتبار، ويا للعار، إن لجنة من العلماء النمساويين تزور مدينتنا هذه الأيام. وما من شك في أن الأقلام الجاهزة في أيدي هؤلاء المثقفين قد سجلت الآن هذه الواقعة التعيسة وسوف تنشرها في صحف أوروبا الحضارية». أين كانت الشرطة؟ ماذا كانوا يفعلون للتدليل على أن الحضارة موجودة بحق وحقيق في هذه المدينة الجميلة؟ وإلى متى يمكن أن يستمر تراثنا اللاتيني إذا

ظللنا نسمح لهذا الاستعراض الأفريقي المخزي بالاستمرار والتطبيل، وسلالات الهجائن من كل صنف ولون ابتداء بالكريبولين *(15) الأثرياء إلى الخلاسيين الذين خبا بياضهم، والسامبا المنحدرة بإيقاعها، وهذه التعاويذ والرقي والسحر؟ نحن لاتينيون، كما يجب أن تعرفوا جميعاً وتتذكروا دائماً، وإن لم تعرفوا فإن جلدة مرتبة أو ضربة على الرأس قد تعلمكم.

أخيراً جاءت الشرطة لإنقاذ الحضارة المحاصرة والقيم وسلامة الأسرة والنظام الاجتماعي، ونظام الحكم، والمنظمات الكبيرة بمركبات عروضها ومسيراتها المخصصة للنخبة.. ونفيت الأفوكسي إلى العتمة الخارجية مع طبولها وسامباها «واستعراضية النوادي التي يرتدي أعضاؤها الملابس الأفريقية». حسن. لقد آن الآوان لذلك. تأخرنا. ولكن لم يفت الأوان. الآن يستطيع المثقفون النمساويون والألمان والبلجيكيون والفرنسيون والألبيون (الإنكليز) أن يرسوا على شواطئنا بملء حريتهم. نعم الآن لم نعد نخجل منهم إن جاؤوا.

ولكن أول من جاء كانت كيرسي، الفتاة السويدية، تصحيح: لم تكن سويدية على الرغم من أن الجميع ظنوا ذلك وقالوا ذلك حتى خضعت للأمر وصار من الممكن اعتبارها كذلك. لقد كانت فنلندية في الحقيقة: فنلندية صغيرة مذعورة شقراء بلون القمح. مليئة بالخوف ومبللة بالمطر كانت تقف بباب السوق الذهبية صبيحة أربعاء الرماد بوجهها المستاء الصغير الخائف وعينيها الزرقاوين بلا حدود.

نهض بدرو أرشانجو عن الطاولة التي كان يتناول عليها البطاطا والكوسكوس وابتسم ابتسامته الجريئة ثم تقدم منها مباشرة وكأنه كان موظفاً للاستقبال الرسمي ومد لها يده: «تعالي افطري».

وسواء فهمت هذه الدعوة الصباحية المبكرة أم لم تفهم فإن هذا لايهم. قبلتها وجلست إلى المائدة عند كشك تيرينشيا وراحت بشراهة تلتهم جذور المينهوت والبطاطا والخبز والكوسكوس.

في حانوت ميرو كزت إيفون العصبية على أسنانها غيرة وأطلقت لعناتها المنتقاة:

«صرصور مقشر!» وتطلعت تيرينشيا بحزن إلى المائدة، هل كانت عيناها أكثر حزناً من قبل؟ وبعد أن شبعت الضيفة قالت بضع كلمات بلغتها ثم ابتسمت للجميع. واستسلم داميان، العربي، ابن الشوارع، أخيراً بعد أن كان متراجعاً وصامتاً، ورد لها ابتسامتها: «لم أر في حياتي بياضاً كهذا. هذه سنووايت»*(16).

ـ هذه سويدية. وأوضح مانويل دوبراكسيدس وهو يتقدم لتناول القهوة وبعض الشراب. «لقد نزلت من سفينة الشحن السويدية التي تنقل الخشب والسكر. جاءت في المركب ذاته الذي جئت فيه» ـ مانويل يعمل في تفريغ السفن. «بين حين وآخر تهرب سيدة غنية مجنونة على سفينة شحن لكي ترى الدنيا».

لم يكن وجهها وجه امرأة غنية ولا وجه مجنونة، على الأقل لم يبد عليها ذلك وهي في ذلك الفيء. كان شعرها المبلل ملتصقاً بوجهها البريء الرقيق. وجهها الطفولي الحلو.

«السفينة تغادر في الثالثة. لكنها تعرف أن عليها أن تكون على متن السفينة قبل ذلك. لقد رأيت القبطان يحدثها حين نزلت إلى الشاطئ».

قالت الفتاة وهي تلمس صدرها بإصبعها: «كيرسي» وكررت الكلمة وهي تفرد كل مقطع لحاله.

«اسمها كيرسي» فهم أرشانجو ولفظ الاسم: كيرسي.

صفقت السويدية فرحة ولمست صدر أرشانجو وهي تسأل سؤالاً بلغتها. وتحداه مانويل: «تفضل. قل لنا ماذا تحكي المرأة إن كنت ذكياً».

«سأقول لك يا صاحبي، اسمي بدرو» أجاب وهو يلتفت إلى الفتاة. لقد خمن سؤالها وقلد الغريبة وراح يكرر: «بدرو، بدرو، بدرو أرشانجو، أوجوبا».

قالت: أوجو، أوجو

كان أربعاء الرماد، في ثلاثاء المرافع، فرَّقت أفوكسي أبناء باهيا بضربات السيوف وحوافر الخيول أمام مسرح بوليتيما ولكن ليس قبل المسيرة الظافرة للحرية والسامبا واستطاع داميان أن يلقي بضابط من الفرسان عن حصانه وأخذ قبعته العسكرية تذكاراً ولم يرها لترينشيا لأنه خشي أن تعاقبه. ولكنه الآن ينطلق راكضاً لجلبها من المزبلة التي تخبئ فيها عصابته أشياءها. وحين رجع كان أرشانجو والفتاة السويدية قد ذهبا.

ولكن ظل لديه مستمع متحمس، في شخص مانويل دوبراكسيدس، الذي لعب دور زومبي نفسه في الليلة السالفة. وكان ملائماً جداً للدور بشكله المتعملق، ستة أقدام ونصف، وصدره البرميلي، لقد قضى المساء في المهرجان والمعركة، وقبل الفجر كان في مركب التفريغ وفي طريقه إلى الشغل في عنبر السفينة التي رست أثناء الليل. لم يجد الوقت حتى لإخبار أرشانجو وليديو أوفالد لواروأوسا بما حدث في الليلة الفائتة. لقد شق طريقه وسط الزحام ملقياً عدة رجال شرطة أرضاً في طريقه ثم أطلق العنان لضحكته على الشاطئ وهو ينتظر مركب التفريغ. ربت مانويل على رأس الولد بيده الحديدية.

«أنت شاب جسور»

«سأعلمه كيف يكون جسوراً» قالت تيرينشيا مهددة بصوت منخفض وقور وهي تحدق إلى البعيد.

«خلصينا يا ست تيرينشيا. من ذا الذي كان يستطيع أن يبعد نفسه عن القتال يوم أمس؟ أنت تعرفين أن الحق كان معنا».

«ليس إلا ولداً. لم يكبر لممارسته هذه الأشياء»

مجرد ولد؟ لقد كان داميان أصغر محارب في جماعة زومبي من مقاتلي العصابات، ولقد تدرب في المعركة، وها هو الدليل، قبعة الجندي، وأطلق مانويل ضحكة مجلجلة هزت السوق الذهبية من أساساتها.

وضحك أرشانجو والفتاة السويدية معاً بدلاً من الكلام وهما يسيران مبتعدين تحت الرذاذ باتجاه تابوان، ولسبب ما ساد صمت مزعج في الظلال، والتقط مانويل دوبراكسيدس خيط الحديث:

- هل رأيت الكرنفال يوم أمس يا ست تيرينشيا؟

- ولماذا؟ لاحاجة بي إلى الكرنفالات وغيرها يا خواجا مانويل.

- لترينا. لتري الأفوكسي. كنت أنا وزومبي، وداميان كان في هيئة محار أفريقي، والمعلم بدرو

أرشانجو كان سيسر جداً لو رآك هناك.

- لاأحد يحتاج إليّ وخاصة رفاقي. إن لديه من النساء حوله ما يكفي لجعله ينسى أنني موجودة. والآن هاهي امرأة بيضاء خارجة من سفينته. اتركني لمشاكلي في هذه الزاوية يا خواجا مانويل.

ونقل النسيم أصداء الضحك. فهناك على الكثبان الرملية كان أرشانجو والفتاة السويدية يمسك كل منهما بيد الآخر ويضحك.

---

*(15) - المولود من أصل أوروبي أو إسباني.

*(16) - بياض الثلج: اسم الأميرة في ((الأميرة النائمة والأقزام السبعة)).

- 3 -

كان كل منهما يفهم ضحكات الآخر وإشاراته بسهولة وهما يتمشيان متماسكين بالأيدي. ذهبا إلى قداس أربعاء الرماد في كنيسة القديس فرانسيس الذهبية ثم مرة أخرى إلى الكاتدرائية الحجرية، وبعدها إلى كنيسة العبيد الزرقاء لسيدتنا صاحبة السبحة. وكانت أشباح الصباح، المشكلة من عجائز ورعات محنيات بثقل الذنب الوثني للكرنفال وخطايا الرجال، عليها بقايا رماد التوبة. من الذي يستحق رحمة الله أكثر؟ وانتقلت الفتاة السويدية من كنيسة إلى كنيسة ودهشتها تتزايد وعيناها تتسعان ويدها تضغط على ذراع أرشانجو.

نزلا إلى الشوارع وصعدا إلى التلال إلى أن وصلا إلى خيمة المعجزات ولكن الباب كان موصداً. كان ليديو كورو قد أفرغ ما لايقل عن برميل من الكاشاشا على شرف احتفالات اليوم السابق ولم يكن من المتوقع أن يستيقظ قبل العصر. بعد ذلك وبفضل إرشادات كثيرة وضحكات أكثر سألت كيرسي أرشانجو أين يقطن. ولم يكن المكان بعيداً . كانت لديه علية تطل على البحر وتستقبل القمر والنجوم ليلاً. لقد استأجر هذه العلية تحت الإفريز من سيرفينو الإسباني قبل خمس سنوات وسيستمر في العيش فيها ثلاثين سنة أخرى.

كانت الفئران تروح وتجيء على الدرج المعتم. وحين قفز واحد منها بشجاعة على الفتاة ارتعدت خوفاً ـ أو تظاهرت بذلك ـ فوجدت نفسها بين ذراعي أرشانجو وقدمت له شفتيها اللتين كان لهما طعم البحر والملح، حمل الطفلة الضعيفة وسار بها صاعداً الدرج.

كانت للغرفة رائحة البرازيل، أوراق الكرز والروم المعتق في برميل من الخشب المعطر. وفي إحدى زوايا العلية كان هناك مذبح غريب وفيه أدوات ورموز للآلهة الأفريقية بدلاً من القديسين المسيحيين كان بيجي (إكسو) مع رموزه، إيتا، أول شراب من الكاشاشا كان دائماً شراب إكسو.

قال بعضهم إن أرشانجو أبن أوغون وظن الكثيرون أنه ابن كسانغو، الذي له في بيته مكان ومكانة. ولكنه حين ألقى الدرع وظهر حظه كان أول من يجيب هو إكسو الأكبر سيد التغيير والحركة. لقد جاء كسانغو من عيني مليكه، ولم يكن أوغون بعيداً أبداً. وجاءت بيمانجا أيضاً. ولكن في المقدمة كان إكسو الضاحك، المتهور الذي يحب النكات، ولم يبق مجال للشك: أرشانجو رجله.

وقفت كيرسي أمام بيجي ثم أشارت من خلال النافذة إلى سفينة الشحن الراسية وراء الحصن. وكان خيط من الدخان يتصاعد من المدخنة «سفينتي» قالت بلغتها، وفهم وتطلع إلى ساعته. كان الوقت ظهراً وفي وسعهما أن يسمعا أصوات الأجراس. ومع وصول الصوت ألقت عنها ملابسها بطبيعية وبساطة، دون خجل أو استعراضية بل فعلت ذلك مع ابتسامة وكلمة بالفنلندية ـ عهد؟ مثل؟ من يعرف؟ كانت الأجراس لا تزال ترن وكانا معاً. وأبحر العصر غرباً دون أن يحسا به.

ولم يعد يُسمع صوت جرس السفينة. ولكن نعيباً مزعجاً أعلن عن رحيلها. وأبعد صبيان الخدمة والبحارة عن المنطقة المضاءة بالأحمر. وفيما كان الدخان يتصاعد من المدخنة كانت صافرة طويلة تنادي المسافرة المتأخرة. في العلية كان الاثنان قد صارا واحداً، ينامان مع الحلم ذاته. لقد علمها أرشانجو الدغدغة واللحمسات المهدئة. وبلغتها الغربية والموسيقية هدهدته لكي ينام على ترنيمة شمالية.

استيقظا معاً على نداء سفينة الشحن الملحاح، وكانت الساعة الثالثة والنصف. نهض أرشانجو مشتاقاً إليها ومترعاً بالرغبة، وخلال ومضة قصيرة من الزمن انتهى كل شيء. السفينة والقبطان والبحر كانوا ينادونها، ارتدى أرشانجو بنطاله وضحكت مرة أخرى.

نهضت بعريها الأبيض ولوحت تلويحة وداع للسفينة من النافذة. والتمعت يدها على البشرة الخلاسية المخملية لصدر أرشانجو حتى توقفت عند خصره. من أين جاءت تلك الفكرة السخيفة حول ارتداء الملابس؟ قالت الفتاة الغريبة أشياء كثيرة، وعرف أرشانجو، دون أي شك، أنها تقول كلمات حب.

«غرنيكا ـ يا غريبة» قال لها: «هيا بنا لنصنع خلاسياً، أنت وأنا. إن جاء ولداً فسيكون أذكى وأشجع رجل في الدنيا ـ سيكون ملكاً على سكنديناڤيا أو رئيساً لجمهورية البرازيل. وإذا كانت بنتاً فلن يكون لها ند في الجمال والسحر. فلنبدأ».

ظلت السفينة فترة طويلة وهي تصفر طالبة مسافرتها الضائعة. وأبلغت الشرطة بالأمر. ولكن في النهاية أعطى القبطان أمره برفع المرساة. لم يعد من الممكن الانتظار أكثر من ذلك. كان مالك السفينة قد حذره حينما رأى كيرسي على متن السفينة. «هذه الفتاة المجنونة ستسبب لك الكثير من المشاكل. اعمل معي هذا المعروف ولا تعطل الرحلة حين تقفز مغادرة السفينة في أول مرفأ توقف». ولم تكذب خبراً. قفزت لتغادر السفينة في باهيا حيث تختلط الشعوب وتتمازج.

هيا يا غرينغا، ليس بهذه السرعة، أسرعي. وتقاطعت كلماتهما في الجو وكانت كلها كلمات حب.

- 4 -

ذاب ضوء العصر في الظلال، ولم يكن شارع تابوان المهجور المتحدر قد ارتاح جيداً من الكرنفال. انحنى المعلم ليديو كورو على ورقته يرسم معجزة. كا قد بدأ يشتغل بها قبل الكرنفال ولابد أن تنتهي اليوم. كان يحس بالتعب والتراخي لكن ابتسامة تغضنت على وجهه.

كانت المعجزة متميزة، تستحق النذر والامتنان اللذين كان ليديو كورو، فنان الفرشاة، يعطيهما شكلاً محسوساً، بألوان مزجها بنفسه، ولكن لم تكن عظمة هبة السماء ـ وهي عظيمة لدرجة أنها صارت معجزة فعلاً ـ هي التي تجعل ليديو يبتسم. كان رضاه نابعاً من فعل الرسم ذاته، تأثير الضوء الذي حققه، والألوان والتشكيل الصعب بأشكاله البشرية، والخيول الجامحة، والروح القدسية، والغابة العذراء. وكان مسروراً بشكل خاص من النمر الاستوائي.

ضربة ريشة هنا وضربة أخرى هناك لإبراز خضرة الغابة، وانخفاض سماء الليل وشحوب الوجوه البشرية، كان المشهد مترعاً بالدراما الإنسانية وقد تحقق، بشكل تقريبي، شغل المعلم ربما كان عليه أن يضيف شعاعاً أو اثنين عبر العتمة لإعطاء المشهد قوة درامية أعلى.

كان ليديو كورو ـ الأربعيني القصير المدكوك والخلاسي الذكي اللماح ـ قد أمسك ريشته دون حماس لإضافة اللمسات النهائية إلى المعجزة، لقد أفرط في الشراب ليلة أمس، هو وبوديان ضيعا عدد من الكؤوس التي شرباها خلال الرقص في بيت سابينا. وعند تجاوز نقطة محددة لم يعد ليديو قادراً على تذكر أي شيء، ليست لديه أية فكرة عن كيفية انتهاء الحفلة ولا عن جلبه إلى البيت، وحين استيقظ كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر وقد وجد نفسه بملابسه كلها، بما في ذلك حذاؤه، مستلقياً عى المصطبة التي كان ينام عليها وحيداً. وإذا كان معه أحد ينام في الغرفة الخلفية من الحانوت، كانت الخيمة حانوتاً ومسكناً في وقت واحد، ومعها مطبخ ومحل حنفية يستحم فيه بارتياح، وساحة صغيرة كانت روزا تحب أن تزرع فيها الأزهار ثم تقطفها. يا للحديقة التي تستطيع يداها أن تصنع، لو أنها تأتي للإقامة هنا نهائياً، أعد ليديو قهوة مركزة لنفسه. لم ير أحد روزا دو أوكسالا أثناء الكرنفال.

كانت الرغبة الوحيدة لراسم المعجزة هي أن يعود إلى السرير وينام حتى الليل. ثم أن يفتح بعدها باب الخيمة يستقبل أصدقاءه للمحادثة، كان هناك الكثير مما يمكن التحدث عنه، كل ما حدث يوم أمس وما زادته عليه نميمة كاملة من الشائعات المزيفة والثرثرة المهذارة، جلب أحدهم خبراً عظيما إلى بيت سابينا: الدكتور فرانسيسكو أنطونيو دوكاسترو لوريرو، الرئيس المؤقت لدائرة الشرطة، مرض بغتة حين علم أن فوكسي للزنوج والخلاسيين قد عصت أمره وخرجت لتلهو وتلعب في الشوارع.

كان الدكتور فرانسيسكو أنطونيو، ابن العائلة المحترمة والسلالة العريقة، ذا إرادة قوية ومزاج سيء وكان عنيداً جداً، وحين أعطى أمره كان يتوقع الطاعة العمياء والتنفيذ السريع والشامل، ولم

يخطر بباله أبداً أن أحداً سيتجرأ على تجاهل، فكيف بعصيان، أي قانون قام بفرضه هو نفسه، أي أن أفوكسي يمكن فعلياً أن تنظَّم وتسيَّر في الشوارع، هذه المؤامرة المهينة الجريئة هي الضربة الأخيرة. يا للجسارة الوقحة! الحدث لا يصدق. إن تنظيم أفوكسي عملية معقدة ومجهدة، فيها تشعبات عديدة، يستغرق وقتاً ويستهلك مالاً ويتطلب تنظيماً وسرية تامة. ورأى رئيس الشرطة أنه مما لايصدق أن الغوغاء الرعاع، هذه الحفنة من المهجنين يمكن أن يتصوروا مشروعاً معقداً كهذا ثم أن ينفذوه دون مساعدة. كان واثقاً أنه يستطيع أن يبتر يد الفساد والدهاء التي يمدها الملكيون وأن يبطل مؤامرة للمعارضة القذرة. ولكنه حين يتعلق الأمر بالهجناء وحدهم، الزنوج ولا أحد غيرهم، فليس أمامه خيار مشرف إلا الموت، أو ما هو أسوأ من ذلك: الاستقالة من منصبه.

بهذه الصورة كانت شهرة شجاعة الدكتور فرانسيسكو أنطونيو الصارمة وقسوته بحيث إن المجرمين العتاة كانوا يفقدون كل تماسك في حضرته وأكثر المجرمين شهرة، وأكثرهم خطراً على الناس، كانوا يتبولون في سراويلهم. والآن يُسخر من هذا البطل في الشرطة، هذا التاجر للعبيد، في الساحة العامة، ويصبح هدفاً للتصفير والتحقير والبعبصة ويصبح مضغة في أفواه المشاكسين وأولاد الأزقة، انظروا كيف صارت حالته، وهو في سريره، محاطاً بالأطباء والأدوية، جريحاً في كبريائه مشحوناً بالكراهية والمهانة وعلى وشك الاستقالة من وظيفته.

فيما كان ليديو يرسم المعجزة العظيمة ترك العنان لمخيلته: من يعرف ما يمكن أن تكون أسرة الرئيس المؤقت للشرطة تصلي به في هذه اللحظة بالذات لرب البونفيم لإنقاذ حياته ووظيفته، ومن يعرف مايمكن أن يقع عليه، هو المعلم كورو ـ سفير الأفوكسي، وسكرتير الملك زومبي ومعلم الرقص ـ إذ يرسم الدكتور في سريره مخضراً من الغضب والعجز وقلبه مريض يخفق من وقع السامبا وأغاني الزنوج ـ ذلك القلب الذي لم يحتو إلا على الغرور والصلف والاحتقار للناس، لم يسبق لنكتة أن انطبقت مثل هذه، ولم يسبق للقوانين والمراسيم التي سنها الأقوياء أن تم تحديها بهذه القوة والجرأة. حين اقترح أرشانجو تلك الحيلة بعد أن قرأ في الصحيفة أن الأفوكسي والسامبا وفرق الإيقاعات قد منعت قال له كورو نفسه: «لايمكن تنفيذها». ولكن من يستطيع مقاومة لسان أرشانجو الذهبي وهو يسوق الحجة المجلجلة بعد الأخرى؟ في النهاية تحمل كورو قسطاً كبيراً من المسؤولية عما حدث بعد ذلك. هو وبوديان وفالدلوار وأوسا كانوا المحركين الأساسيين ودون أن نذكر أرشانجو الذي كان زعيم الحلقة دون شك.

لقد أمسك ليديو اليوم بفرشاته وهو معبأ بالحقد. كيف يمكن لمعربد كرنفال يحترم نفسه أن يشتغل بالرماد في هذا الأربعاء الميت الذي كان يفترض أنه يوم الراحة؟ ولكن الصورة يجب أن تكون منجزة بتمامها في التاسعة تماماً من صباح الخميس لأن الرجل الذي كرست له المعجزة، مزارع قصب سكر وتبغ مليئاً صافياً من داخل البلاد واسمه أسيس، قد استأجر قساً لإقامة قداس في الحادية عشرة مع موعظة وموسيقى وماشابه، ولقد نذر أسيس إلى الله نذره وسينفق مبلغاً كبيراً من المال، حصيلة موسم كامل من التبغ لإنجاز ذلك. وطلب دزينتين من الشموع طول كل منها ياردة كاملة. والألعاب النارية ياأخ كورو! إن عائلة بأكملها تقضي أسبوعاً في المدينة، وهم عدد غفير، وجميعهم سيكونون في الفندق: «وأنت مدعو. لاتنس. سنقيم لأنفسنا حفلة حقيقية بعد القداس بمشيئة الله».

ـ آه يا سيدي. ربما لن أتمكن من إنجازها يوم الخميس. لا أستطيع فعلاً. سيكون هناك كرنفال ولا أستطيع أن أعد بشيء خلال الكرنفال. وخاصة هذه السنة. فإذا كنت مستعجلاً إلى هذه الدرجة أبحث

عن شخص آخر.

لكن الرجل لايريد أن يسمع بفكرة الذهاب إلى شخص آخر. ليديو كورو وحده يستطيع أن يفعل ذلك، فشهرة ليديو كرسام للمعجزات قد وصلت إلى الجنوب. وحتى إلى المناطق النائية. والزبائن يتوافدون إلى الخيمة من إيلهيوس وكاشويرا، من بلمونت وفيرادو سانتانا، من نشواس وحتى من أراكاجو وماكيون. والأخ أسيس لن يقبل جواباً بالرفض: «أنت الوحيد الذي يستطيع أن ينفذها. سمعت أنه ليس هناك أحد بمهارتك. وأنا أريد الأفضل يا صديقي. أنت ترى أنها معجزة من الدرجة الأولى يا أخ كورو. صدقني نحن لم نر سنوراً. بل رأينا غولاً جباراً له عينان من النار» وإذا صدقت ما يقوله المزارع فإن رب البونفيم قد تفوق على نفسه هذه المرة. وتحت سماء مشؤومة مشحونة بالفأل السيئ قفز الوحش الرشيق الجائع من الغابة المفروشة بالخضرة، خطوطه السوداء والصفراء تطغى على الأرض والسماء وعلى رسم ليديو، وإلى جانب جسده الضخم بدا البشر مجرد أقزام، وأشجار الغابة شجيرات صغيرة في حديقة. توهج عينيه، تينك العينين المشعتين الماكرتين، كان هو الضوء الوحيد، فالمعلم كورو بعد أن أعمل فكره في الأمر رأى أن الصواعق ستكون زائدة فألغاها، كانت عينا الحيوان مخيفتين بما فيه الكفاية بلمعانهما المغناطيسي المتوهج - كانتا كافيتين لاختراق العتمة ولشل العابرين وتجميدهم في أماكنهم.

كان زئير النمر قد أيقظ الأربعة الكبار والأطفال الثلاثة حيث كانوا ينامون في العراء. وأبرزهم ليديو ملتصقين بالأرض بفعل الرعب. وكانت الخيول مندفعة بجموح وصهيل: كل ما يمكن رؤيته منها هو المؤخرات الجامحة هنا هنا معجزة من الدرجة الأولى، أعجوبة لم يسمع بمثلها من قبل. وكانت هناك تفاصيل أكثر مما يمكن أن تحتملها لوحة واحدة. ولهذا السبب بالذات - لأن ذلك كان صعباً - فإنها شدت ليديو كورو من استرخائه وأشعلت حماسه. الأشياء السهلة لا تجتذبه، فهو فنان، في النهاية ، ولديه كبرياؤه واحترامه لنفسه. وهل الدكتور فرانسيسكو أنطونيو، وحده، له الحق في الكبرياء واحترام النفس والإحساس بالكرامة؟.

ما كل يوم يتم رسم معجزة بهذا الكمال. كتب ليديو بيد متأنية في أسفل اللوحة: «معجزة كبرى حققها ربنا (رب بونفيم) في الخامس عشر من كانون الثاني **1904** لصالح راميرو أسيس وعائلته حين كان مسافراً من أمارغوسا إلى مورو بريتو مع زوجته وأخته العزباء وأولاده الثلاثة مع مربية وقد تعرضوا في الليل إلى هجوم من نمر في العراء حيث كانوا ينامون، وحين استنجدوا برب بونفيم هدأ النمر وصار طيعاً وتركهم دون أن يلحق بهم أذية».

بعد اختصار القصة إلى أربعة أسطر بدت بسيطة. ولكن ضع، يا معلم بدرو، في اللوحة قلقنا وذعرنا وآلامنا ويأس العائلة والأم التي جنت خوفاً، والسلاح الوحيد الذي كان في يد راميرو أسيس هو سكين لقطع التبغ لأن بندقيته كانت في سرج الجواد الهارب.

بيّن النمر وهو يتسلل بغدر نحو الطفل الأصغر، الذي مازال يحبو، والذي يبتسم ببراءة للهر الكبير. ففي هذه اللحظة أطلقت جاكوينا، زوجة أسيس، وأم الصغار، صرختها التي تجمد الدم في العروق: «يارب بونفيم أنقذ ولدي!».

وكان رد ربنا أسرع من البرق، توقف الوحش على بعد خطوة من الطفل وكأن يداً سماوية قد شدته. وانطلقت صرخات مذعورة من الكبار والصغار، ولكن الطفل الذي ما زال وثنياً، هو وحده الذي قرقر

بمرح نحو الوحش. بصوت واحد استنجدوا بالقديس الخيّر «أنقذنا يا رب بونفيم» ونذر راميرو أسيس نذره السخي.

«كان عليك أن تراه يا سيد كورو لكي تصدق: القط البري المتوحش لفّ ذيله ومضى عائداً إلى الغابة. واندفعنا نتعانق. الجميع يقولون إنك أشهر رسام معجزات في باهيا. أريد منك أن ترسم لي لوحة تحتوي على كل شيء وتماماً كما حكيتها لك»

أياً كان من حكى لك عن المعلم كورو يا أخ أسيس فإنه لم يتجاوز الحقيقة. إن رسامي المعجزات كثر في باهيا. وبين شارع تابوان وبيلورينهو فقط هناك ثلاثة رسامين غير ليديو ولكن ليس له شبيه في أي مكان. الآخرون هم الذين يقولون ذلك! وليس ليديو الذي يقول عن نفسه فهو ليس الذي يتبجح ويتباهى: «طيب . سأبذل جهدي. لقد فاز بها».

بجهد كبير كان المعلم كورو قد رسم المسيح مصلوباً وإحدى يديه متحررة تشير نحو النمر وأسيس مع عائلته. وفي رأس اللوحة حيث يحقق المسيح المعجزة كان الضوء قد بدأ يقهر العتمة عند إطلالة الفجر.

تطلع ليديو كورو مرة أخرى إلى شكله المحبب، الهر المخطط المرعب، الضخم القاسي، بعينيه المتوهجتين وفمه، آه، يا لهذا الفم المخيف وهو يبتسم للطفل. لقد بذل الفنان جهده لكي يمحو البسمة ونظرة العطف. أعطى نمر البراري إيحاء النمر وضراوة التنين. لكنه لم يستطع شيئاً حيال ذلك، كلما جعل النمر أكثر شراسة اتسعت ابتسامة النمر أكثر، كان بين الوحش والطفل رابط سري، إلفة قديمة، وصداقة خالدة. واستسلم ليديو فوقع اللوحة، وعلى الإطار الأحمر المحيط باللوحة كتب اسمه وعنوانه بالحبر الأبيض، المعلم ليديو كورو، خيمة المعجزات، شارع تابوان، 60.

وفي ما تبقى من ضوء ذاك المساء، وفي الغسق الأرجواني المتألق، كان المعلم كورو يقف منفعلاً بصدق، كان معجباً بالعمل المنجز، نعم، إنه جميل فعلاً. ها هنا رائعة أخرى من الروائع التي خرجت من محله. هاهنا في خيمة المعجزات (خيمة روزا والمعجزات إذا وافقت روزا على ذلك) يعيش ويكافح فنان متواضع يتقن عمله. وموهبته لا تكمن في رسم المعجزات فقط. ولا في رسم النذور، بل في أشياء أخرى أيضاً، كل ما عليك أن تفعله هو أن تسأل أي عابر عمن يكون ليديو كورو وكم من الأشياء ابتكر وأنجز.

ولم يكن ليديو وحده. هناك اثنان. ليديو كورو وبدرو أرشانجو اللذان لا يفترقان. وما من مخلوق حي يصلح نداً لهذين الاثنين. رفيقان وأخوان بل أكثر من أخوين، توأمان، رجلان جامحان أفلتا في المدينة، وإن أردت أن تعرف المزيد تستطيع أن تذهب إلى المخفر وتسأل الدكتور فرانسيسكو أنطونيو.

تراجع المعلم ليديو نحو الباب ليستطيع تأمل عمله بشكل أفضل، كان الضوء يخبو والليل يكاد يخيم.

ـ جميل جداً، جاء صوت أرشانجو. ولو أنني غني، يا صاحبي، لما تركت أسبوعاً يمر دون أن أطلب منك معجزة واحدة على الأقل، لمجرد وضعها في البيت والتطلع إليها كلما أحببت.

التفت الرسام مبتسماً في الظلمة ورأى الغريبة، رأى بياضها الشفاف ووجهها الطفولي وشكلها العام.

ـ هذه كيرسي. قدمها أرشانجو باعتزاز واضح.

ـ سعيد بلقائك، قال ليديو ومد يده، ادخلي واعتبري نفسك في بيتك، والتفت إلى أرشانجو وأضاف: لم لا تطلب منها أن تجلس؟ وأنت لم لا تشعل الضوء؟

ودون أن يبدو عليه الاستغراب لاستقبال ضيفة غير متوقعة، وضع اللوحة أمام الضوء، وتطلع إليها ملياً وهو يحتويها في قلبه. كانت الغريبة طويلة ونحيلة، فراحت تتطلع إلى اللوحة من فوق كتفه باقتناع متحمس وهي تشد يديها بقوة وتهتف هتافاً غير مفهوم.لم يكن ينقص المشهد إلا وجود روزا الجوالة، ومن يدري؟ لعلها تظهر بغتة بلحمها وبدمها. في خيمة المعجزات كل شيء يمكن أن يحدث. وقد حدث.

- 5 -

الزبائن يدخلون إلى الخيمة ويخرجون طوال النهار. لكن الحركة صارت أكثر حيوية في الليل. فقد دبت حياة جديدة في خيمة المعجزات حين أشعلت الأضواء إشارة إلى أن العرض على وشك أن يبدأ. وبعد أن انتهى ظل الأصدقاء الحميمون وحدهم مع رفيقاتهم الجميلات وأطلقت الألسنة من أعنتها.

حتى في أربعاء الرماد كان هناك الكثير من الزبائن لأن عرض المصباح السحري ومسرح العرائس قد أقيما في المطبخ. هل كانت فكرة ليديو كورو أم فكرة بدرو أرشانجو عرض أفلام لهؤلاء البدائيين؟ من الصعب أن تحكم. ولكن لابد أن كورو هو الذي قص الأصابع المضمومة من كرتونة قاسية. ولابد أن أرشانجو هو الذي كان مسؤولاً عن الحركات والإرشادات والسيناريوهات والبهارات والأخذ والرد.

حين أطفئت الأنوار لم يبق إلا الضوء الخافت للفانوس المضاء على الستارة الخلفية السوداء، الذي أسقط الأشكال المضخمة للشخصيات الغريبة والمبتكرة على الجدار الأبيض. كان الأمر بسيطاً وهيناً وكانت أجرة المشاهدة بنسين. وقد اجتذب العرض الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء البحارة والعمال المياومين عاملي المحلات وأصحابها، حتى إن بعض النساء جئن خلسة.

شاهدوا على الجدار صديقين حميمين، هما تريغر ودنغ دونغ، يتعانقان ويتعاهدان على دوام الصداقة. وتخطرت الفاتنة ليلي تيتي في المشهد فاحترقت الصداقة الخالدة وبدأ الرجلان يتبادلان اللكمات والشتائم من أجل المغازلة. ضرب كل منهما الآخر بعنف على الرأس والمعدة وترافسا وتماسكا وسقطا. كان قتالاً جميلاً. وصفق الجمهور بحرارة.

وانتهى المشهد بفحش بعد أن تغلب دنغ دونغ على تريغر وبدا هياجه الجنسي واضحاً فألقى بنفسه على ليلي تيتي وفتح لها ساقيها وأعطاها إياه، وجن جنون الجمهور للعرض الهزلي والإيقاع الصاخب واللحظة العليا، الذروة العاطفية للإنتاج الفني الفخم. ولكن لا. مازال هناك المزيد، مشهد كوميدي كان وحده يستحق البنسين المدفوعين. فحين وصل المتعانقان إلى لحظة الذروة الجنسية ها هو تريغر في مؤخرة المشهد يستعيد وعيه وهياجه الجنسي. وبتصميمه على الانتقام وبغفلة من خصمه امتطى ظهره ونكحه.

حين انتهى العرض كان الزبائن على وشك المغادرة وهم غارقون في الضحك، ولكن سرعان ما جاء المزيد، واستمر العرض من السادسة مساء حتى العاشرة ليلاً، إن الأمر يستحق البنسين.

- 6 -

كان يحدث أحياناً، حين يرسم المعلم ليدو كورو إحدى معجزاته بفنية عالية وجهد كبير، أن يحس بالرغبة في رفض الثمن والإبقاء على اللوحة لنفسه. كان يود لو احتفظ بالقليل من أفضلها على الأقل لكي يعلقها على حائط المحل. ولكن لم يكن هناك إلا لوحة واحدة معلقة على حائط خيمة المعجزات.

وكانت تصور شخصاً شاحباً هزيلاً ضحية سل متفاقم نجا من الموت في مناسبة معينة وذلك أنه حين كان على وشك أن يقذف الدم مع سعاله لآخر مرة ظهرت عمته التي لا تؤمن كثيراً بالطب وتؤمن كثيراً بمريم العذراء واستنجدت بسيدة عيد التطهير وفوق بحر من الدم سُلِّم مصير أبن أخيها إلى العذراء.

العمة نفسها هي التي جاءت وطلبت اللوحة، سيدة بدينة ذات موهبة آسرة في الكلام. كانت أكثر ثرثرة من أسيس بجموحه، وإضافة إلى ذلك تهز ردفيها بطريقة مثيرة. مانويل دوبراكسيدس الذي تصادف وجوده في المحل أشبع عينيه منها، كان مغرماً بالنساء الممتلئات: «أحب أن أتحسس بعض اللحم الحقيقي بيدي. الكلب يكتفي بالعظم إن أجبر على ذلك. ولكن جرب أن تقدم له كفل خنزير أو قطعة من لحم العجل المحمر وانظر ماذا يحدث».

السيدة المفضلة كانت فخورة بمعجزاتها إلى درجة أنها لم تستطع الامتناع عن المباهات والتفاخر بموقعها المتميز مع مريم العذراء، وقال لها مانويل دوبراكسيدس إنه هو أيضاً مؤمن بسيدة التطهير - لم يفوت أبداً أي عيد تطهير. كل عام يحتفل به. سواء كان الطقس ماطراً أم مشمساً. إنها فعلاً إحدى القديسات العظيمات وهي صانعة معجزات يعتمد عليها. تستطيعين الاعتماد عليها في كل آن، فهي خيّرة كالمطر لا تخذلك أبداً.

وأصرت العمة. وهي تتغاوى أمام محمل السفن ذي الحديث العذب، على أن تدفع نصف ثمن الصورة سلفاً، وكان هذا من حسن الحظ لأنها لم ترجع بعد ذلك أبداً. وحين عاود المريض قذف الدم رفضت العذراء بوضوح أن تحقق المعجزة للمرة الثانية، الله وحده يعرف لماذا. ولكن لابد أنه كان هناك سبب هام. وكان الرأي المعتبر لروزيندا باتيستا دوس ريس، التي حكى لها كورو عن الحادثة، هو أن العذراء قد استاءت من التهريج الذي دار بين العمة البدينة ورجل الشاطئ المحزّم، وبحجتها لذلك فقد عاقبتها بترك المسلول في حالته الصعبة يسعل ويبصق الدم، وكانت روزيندا محترمة من أجل حكمتها الحقيقية الصائبة. وهي تعرف عن المعجزات بقدر ما تعرف عن تعاويذ الفودو.

في الصورة التي على الحائط غرفة نوم قاتمة، دون منظور وبألوان شجية كالحة باستثناء الدم المقذوف. المحتضر، الهزيل، ناشف الدم نصف متكئ على سريره الفردي. جلد وعظم، ممتقع كالشمع، والموت على محياه. والعمة التقية والمرحة بثوبها المطرز بالزهور ووشاح أحمر فوق شعرها

الملفوف، تتطلع إلى صورة سيدة التطهير طالبة منها الرحمة. الدم يلوث الشراشف ويسيل عن السرير ويغطي الأرض ثم يرتفع نحو السماء . وعلى مقربة من النزيف وعاء خزفي يحتوي على ورود خضراء وحمراء وقرمزية شبيهة بالورود التي تزين ثوب العمة وهيكل السرير. ربما أراد المعلم كورو أن يظهر الجو القذر المشبع بالموت واليأس. آه يا سيدتي. ما من قديس في السماء يستطيع أن ينقذ التعيس البائس. كل ما عليك أن تفعليه هو أن تري اللوحة وتلقي نظرة واحدة على وجهه.

ولأن هذه المعجزة خابت، فإنها وحدها كانت معلقة على جدار المحل بين نقش للقديس جورج على حصانه الأبيض، وهو يقتل التنين نافث النار وصورة من الطاحونة الحمراء في باريس. وكان مشهداً غير محتشم يحمل توقيع تولوز لوتريك . نساء فرنسيات يرفعن فساتينهن لإظهار أفخاذهن وجواربهن وحمالاتهن وكشاكيشهن، كيف جاءت هذه اللوحة إلى هنا بحق الشيطان؟.

طيب. ليديو كان يحب أن يحتفظ ببعض أفضل معجزاته المرسومة بفن وجهد وحرص، ولكن كيف له أن يفعل ذلك وهو المحتاج دائماً إلى المال؟ كان يحتاج إلى الكثير من المال حاجة ماسة. لديه القليل من المدخرات، أي مال يحصل عليه يذهب إلى يد الأخ هرفال، بائع الجملة وسط المدينة. والطباعة، مهما كانت متواضعة، تكلف أكثر من هذه البنسات القليلة. إنك تحتاج إلى مال كثير لكي تبدأ مشروعاً كهذا.

لقد كان هدف ليديو الوحيد في الحياة هو تملك مطبعة ذات يوم. وكان مصمماً على ذلك. حلمه الآخر، المتعلق بروزادو أوكسالا، لم يكن يقوم على المال ولا على الشغل المتعب، ببساطة كان حلماً مستحيلاً. ولتحقيقه يجب أن يوحد رب بونفيم وسيدة التطهير جهودهما وقواهما في معجزة خارقة . وحتى لو فعلا ذلك سيتطلب الأمر تضحية طقوسية لأوكسولوفان، أوكسالا العجوز، أقوى الأرواح على الإطلاق.

- 7 -

هكذا تكون المعجزة يا حبيبتي ـ روزا ترقص وسط دوران فستانها الأبيض المنشى وشلحاتها السبع. ذراعاها وكتفاها عاريان تحت تخريمة ثوبها مع حليها وعقودها وأساورها وضحكتها الصاخبة. لكي أحكي لك كيف هي روزا، روزا دو أوكسالا، روزا الزهرة السوداء، لكي أصفها بخفيها المخمليين وعبيرها الليلي ورائحتها الأنثوية وعطرها، تلك البشرة السوداء المزرقة التي هي مزيج من الحرير والطلع، القوة الطرية المترقرقة من الرأس إلى القدم، الأناقة والشموخ، زينتها الفضية ونعاس عينيها اليوروبيتين ـ آه، يا حبيبتي، شاعر عبقري فقط هو من يستطيع، شاعر حقيقي مع قيثارة وخصلات شعر مجعدة، وليس الشعراء الجوالين في باهيا بأشعارهم ذات المقاطع السباعية، إنهم يعزفون ويغنون بشكل رائع حين يتحدى كل منهم الآخر لمعركة الذكاء في الغناء.. لكن هذا غير كاف من أجل روزا!.

ذات يوم كانت تنزل الشارع في ثوب للحفلات وهي ذاهبة إلى كازابرانكا، كان يوم جمعة، وكانت قد اشترت ديكاً رومياً أبيض كالثلج نذراً لأبيها أوكسولوفان. تطلع رجلان ثريان من نافذة منزل فخم في المدينة مؤلف من طابقين، أحدهما عجوز والآخر شاب، رأياها تمر ومعها نذرها وهالتها الملكية، لابسة حسب آخر موضة. وصندلها يخلف وراءها سحبة من الموسيقى وهي تمشي، وفي شعرها زهرة ـ شعرها الشبيه بطحالب الصباح ـ ومؤخرتها تتأرجح مثل زورق يبحر في بحر هائج، وفسحة صغيرة من صدرها تلمع تحت الشمس.

تنهد الرجلان، الشاب، ولد مُفسد مدلل، سليل زواج أبناء عمومة متولدين من زنى الدماء النقية. مخنث مقزوم مصاب بالكساح خرع تافه، نعق متلعثماً: «انظر إلى هذه الفتاة السوداء يا كولونيل. يا إلهي، آه لو أنني ألقيتها تحتي وأنبطح فوقها»، فرد عليه الملاك ـ الذي كان سنديانة صلبة في أيامه، فحلاً جامحاً،هزة أرضية. نهراً هداراً ـ بأن حول نظره عن الفتاة السوداء وثبته على الخرع الصغير الواهن ذي الدم المائع وقال: «يا دكتور هذه المرأة تحتاج إلى رجل يعبئ العين. هذا الفرج ليس من أجل أنبوب ماء نصف مهترئ ليبول فيه، ولا من أجل قضيب عجوز ناشف. إنها كثيرة علي الآن، وستظل دائماً كثيرة عليك أنت».

تناول ليديو كورو مزماره وأيقظ النجوم بصوته، وبحث بدرو أرشانجو عن النجوم بغيتاره وأعادها معه ـ لاشيء يصلح لروزا التي ولدت السامبا في خيمة المعجزات. ناح المزمار وأجهش حباً.

دائماً تجيء روزا على غير توقع، ودائماً تختفي دون توقع. لا أحد يقع نظره عليها طوال أسابيع أو أشهر، على الرغم من أنها تنجز التزاماتها في الكاندومبلي بدقة حين تستقبل أوكسالا في البيت الأبيض في المزرعة القديمة، وباستثناء تواجدها وسط دائرة المؤمنين في تلك الاحتفالات المهيبة فإنها كانت دائماً اعتباطية في كل ما تفعله.

أحياناً تجيء كل يوم وطوال أسبوع كامل من الاثنين حتى السبت. تصل مساء قبل الجميع وتغادر عند الفجر مليئة بالغناء والحيوية والضحك، تمزح وتتحدث مع ليديو كورو. تتكئ على ذراعه وتريح رأسها على كتفه،عشيقة حنونة، ربة منزل بارعة، ترتب كل شيء في نظام جميل، لدرجة أنه كان يظن أنها قد جاءت لتبقى نهائياً ولتصبح امرأته المتعارف عليها أو زوجته الشرعية ـ كيفما شاءت، ولكن له. ثم بغتة وحين يكون كل شيء قد بدا محسوماً تغيب روزا ثانية وتنقطع أخبارها طوال شهرين كاملين مخلفة وقتاً فارغاً لا متعة فيه.

حين حدثت المعجزة قبل أكثر من سنة ـ بغتة ودون توقع ودون تمهيدات أو تلميحات حول الموضوع ـ أراد ليديو، الذي كان يشتهيها منذ زمن طويل، أن يجعل ارتباطهما رسمياً وعلى الفور: «هيا. اجلبي أغراضك وادخلي».

كانا عائدين من إحدى الحفلات ذات ليلة، حين عرض ليديو مرافقتها في الطريق الخطر المهجور. وكانت قد طلبت منه أن يأخذها لمشاهدة عرض العرائس الذي سمعت عنه الكثير، كادت تموت من الضحك على دينغ دونغ وشربت كأساً من طحين الرز المخمر، ثم منحت نفسها بتوهج، ألقت بنفسها عليه وكأنها تحس بالحاجة الماسة، ظلت ثلاثة أيام وثلاث ليال تأتي وتذهب. رتبت المحل وغرفة النوم. لمّعت كل شيء وملأت البيت بغنائها. وضحك ليديو في سره ممتناً. ولكن في اللحظة التي طلب منها أن تجلب رزمة أمتعتها، تصلبت وصارت جدية وصار صوتها تحذيراً قاسياً: «لا تقل ذلك مرة أخرى وإلا فلن أعود أبداً. أنت كنت تستلطفني أو تحبني فهكذا ستسير الأمور، حين تخطر لي الفكرة وحين أقرر المجيء بملء اختياري لن أطلب منك شيئاً إلا أن تهتم بشغلك. لا تراقبني ولا تتجسس علي. فإن فعلت ذلك وسمعت فأقسم أنك لن تراني ثانية».قالت كلماتها هذه بلهجة لم تترك له المجال لقول أي شيء إلا: «إذا كنت أستطيع أن أراك وأصطحبك مقابل أن آكل العلجوم والأفاعي فسأفعل».

وظل عند قوله. لم يعد يطرح عليها أسئلة، ولم يعد يستمع للأقاويل، أقاويل أو مواعظ أو كلام حساد، لأنه ما من أحد يعرف شيئاً عن روزا باستثناء أنها تعيش في بيت مريح في برّيس له حديقة أمامية وستائر على النوافذ وكلب حراسة. قلعة لا تخترق ـ لا يرى منها شيء إلا فتاة صغيرة أنيقة اللباس تلعب مع الكلب الكبير بين الأزهار، خلاسية صغيرة تصلح خادمة مذبح في كنيسة، كأنها روزا وهي صغيرة، لكن شعرها حريري مرسل، خوخة صغيرة بنية القشرة.

ماجي باسان، وحدها كانت تعرف الخصوصيات كلها، الروحات والجيئات في حياة روزا، وظل السر مصاناً في صدرها الضخم، صدر القديسة الأم يجب أن يكون واسعاً، مثل صدر ماجي باسان، لكي تستطيع العناية بأولادها وأولاد الأجانب والغرباء أيضاً، صندوق مقفل مليء باليأس والامتعاض والآمال والأحلام، خزينة للحب والكراهية.

ماجي باسان، وحدها، الأم الحلوة الرهيبة، كانت تعرف كل شيء في حياة روزا. وما يقوله الآخرون ليس إلا كلاماً. «إنها تعيش مع أبيض ثري، نبيل عجوز، كونت أو بارون، دوق هذه الدوقية أو تلك، وهو والد ابنتها الصغيرة». «سبق أن زوّجها قس وقاض لتاجر برتغالي، والطفلة ابنته». كانت الحكايات مجرد ثرثرة عجائز، وهذر فضوليين، شائعات وتقولات حباً في التقول. ولم يكن ليديو يريد أن يعرف. ولم يسأل أبداً.

كانت روزا تأتي مبتهجة لاهية وكان وجودها كافياً له. ما أهمية الباقي؟ كانت تتحدث وتضحك

وترقص وتغني بصوتها الرنان الحالم. إنها ملفعة بالظلال في ضوء الخيمة المتراقص حيث يئن مزمار ليديو ويشكو، لمن كانت ترقص؟ ولمن حركات فخذيها الراقصة وتأرجحات ردفيها؟ لليديو العاشق الدائم والعرضي؟ لشخص آخر غائب ومجهول؟ لزوج؟ لعشيق؟ لغني؟ لنبيل؟ لوالد طفلتها؟ لأرشانجو؟

هذا هو ما يسمى المعجزة يا حبيبتي - روزا بأغنياتها، مثل الأغنية القديمة المليئة بالوعود والتلميحات الذكية والغنية في لهجتها ومصطلحاتها:

فلنذهب وراء الكنيسة

إلى بيت تيتي في سينها

باكايومبا

كان المعلم ليدو كورو يسكب روحه في المزمار وعاطفته، كما هو واضح، تحطم قلبه المعذب. نعم، من أجل نيل روزا مرة بين حين وآخر كان مستعداً لأكل العلجوم والسحالي والأفاعي المجلجلة. وهي كانت ترقص وتغني أمام الرجلين، تمنح نفسها وتتراجع. ولم يكن بدرو أرشانجو يظهر شيئاً مما يحس به، وما من أحد كان قادراً على معرفة النار التي تأكله. يجب ألا يشك ليديو بشيء، وروزا خاصة يجب ألا تشك بشيء. ولذا ظل وجهه صخرياً دون تعبير. أحجية أرشانجو هذه، لغزه الذي ظل دون جواب، لن تحل رموزه ولا حتى من قبل ماجي باسان.

صفقت النساء واتسعت دائرة السامبا وارتعش المزمار وبدأ الغيتار يخفق بقوة أكبر. لكل من هؤلاء الموجودين سره، وأشواقه، وعذاباته. عند قدمي أرشانجو تتكئ الفتاة السويدية ببياضها وشقارها. لكنها لم تكن لوحدها، فإلى جانبها تقف سابينادوس أنجوس، أجمل الملائكة، ملكة سبأ، كما كان المعلم بدرو يسميها. كانت بطنها منتفخة، ولكنها وهي حامل لم تتوقف ليلة أمس عن الرقص. وهاهي تبدأ الرقص من جديد مع روزندا باتيستا دوس ريس من مويتيبا، الساحرة وارثة تعاويذ ماندي. وحين انبطحت عند قدمي أوجوبا خلال مهرجان أوكسوس، رفعها ولمس نهديها الصلبين برؤوس أصابعه، وقرب الكرسي، مثل قصبة طرية، كانت تقف ريزوليتا، زهرة الشعب الهندي - موركوروميم - الممتزجة بالدم الأبيض والإيجيكا الأفريقية، افترت شفتاها عن ابتسامة: لقد رأت أرشانجو وراء الكنيسة وعرفته.

الوحيدة التي غارت من الفتاة البحرية الغريبة، الوحيدة التي لم تضمها ذراعا أرشانجو ولم تقبلها شفتاه، الوحيدة التي كان قلبها يحترق كراهية والتي كانت تصلي لكي تموت الفتاة البيضاء - هي روزا دو أوكسالا التي ترقص أمام الرجلين بنهديها الطليقين تحت شلحتها المخرمة وردفيها غير المنضبطتين تحت التنانير السبع. تنهد ليديو وابتسم، لن يمر وقت طويل قبل أن يضم هذه النار المتأججة بين ذراعيه. وظل أرشانجو محاصراً في أحجيته.

هذه معجزة، يا قديستي الصغيرة، معجزة بونفيم، معجزة التطهير، أعجوبة أوكسالا - روزا ترقص وتغني في خيمة المعجزات في ليلة من الأحاجي ووجع القلب.

- 8 -

حلم أرشانجو حلم وحشة وعزلة، جاءه كابوس. وجد نفسه على شاطئ المرفأ، في صحراء باردة وحارقة معاً، مثل حمى الملاريا، أرشانجو المتصارح مع نفسه والمتهيج تحول إلى دنغ دونغ وتحول ليديو كورو إلى تريغر. تعانقا وتعاهدا على الصداقة الأبدية ثم عزفا على المزمار والغيتار.

ثم جاءت ليلي تيتي دون تنورة، دون شلحات، دون ثوب مخرم، ليس عليها إلا حليها وعقودها وأساورها، روزا دو أوكسالا، عارية تماماً، سوداء مزرقة زهرة ناعمة الطلع، مع عطرها، وصوتها منخفض ومخملي. وكان الليل هائلاً وقارساً، والسماء بعيدة. رقصت أمام الرجلين عارضة كل ما لديها، وفي ومضة عين تحولا إلى خصمين، عدوين، بئرين عميقتين من الكراهية، وتحول الغيتار والمزمار إلى خنجرين عسكريين. تبارزا عند الركن الذي يقوم فيه المستودع، ثم ظهر جسد ليديو تريغر، فاقد الحياة، غارقاً في البحر، ظهرت شمس في الليل حين سقط أخوه، فاحترق في الجير الحي المربوط إلى خيوط المزمار الميتة.

الآن جاءت اللحظة التي يمتلك فيها روزا، يفتح فخذيها ثم يستلقي على الطحلب الناعم، أرشانجو، السابح في عرقه، التواق، اليائس، المختنق بالحر والبرد والحمى، راح يقاوم حلمه بضراوة، فيما الصداقة ميتة عند قدمي المغوية.

لست مهتماً بالرجل النبيل، ولست مهتماً بالرجل الثري، يا روزا، ولا أقل اهتمام، وسواء كان نبيلاً إسبانياً من كاشوبيليتا أو بقالاً برتغالياً فسيسرني أن أركّب له قرنين. ولكن اسمعيني يا روزا ولا تتطلعي إلي هكذا، لو أن ليديو كان ابن أبي وأمي، فلن يكون أخاً لي أكثر مما هو الآن ولن يستحق إخلاصي ووفائي أكثر مما يستحق الآن.

لا. لا يمكن أن يحدث ـ حتى لو مت حباً، حتى لو تحطم قلبي، لو تشردت من ميناء إلى ميناء، باحثاً عن طعمك الليلي وعن رائحتك في كل امرأة أقابلها دون أن أحل شفرة رموزك في أي منهن.

يا روزا، نحن لسنا مثل العرائس، إن لدينا شرفاً ومشاعر: يا روزا نحن لم ننحط إلى مستوى التناكح القذر مثل الحيوانات، أو ربما أسوأ، مثل المجرمين، نعم يا روزا، هذا ما يقولونه: «المولدون ينحطون ويتمرغون في التناكح القذر الدنيء» هذا ما قاله بروفسور وطبيب. لكن هذا كذب يا روزا، كذب حقير كتبه عارف لا يعرف شيئاً.

بجهد كبير اقتلع أرشانجو نفسه من حلمه وفتح عينيه، كان النهار قد أطل على البحر وكانت الزوارق قد بدأت انطلاقها. كانت الفتاة السويدية مصنوعة من الياسمين وكانت تفوح منها رائحة صباحية ناعمة، وركض ولد أسود في الثلج، فذابت صورة روزا العارية في الآفاق.

ستساعدني هذه الغريبة على أن أنساك، يا روزا، وكذلك ستساعدني سابينا وروزيندا وريزوليتا، ستساعدني نساء أخريات على أن أنساك، وسأتحرر من هذا العذاب والبؤس. أتحرر؟ هل سأنساك ما حييت؟ أم أنني سأبحث عنك طوال عمري دون جدوى؟ أبحث عن سوادك في حقول القمح والياسمين، وفي كل امرأة، يا روزا أوكسالا، سأبحث عن لغزك الذي لم يحل وعن حبك المحرم الخالد.

- 9 -

في مدخل يقع عند أسفل شارع الهضبة كان لدى إيموكورو، رتل طويل من الزبائن، وهو في كرسيه البحري. وكان يحتفظ أيضاً بصندوق طبي مخبأ مع علاجات منزلية وكلاّب لاقتلاع الأسنان. لقد علم حرفة الحلاقة وكذلك ما يعرفه عن الطب، لولديه ليديو ولوكاس، وسرعان ما هجر ليديو المقص وموسى الحلاقة وتقبل عرضاً من عرابه، كانديدو مايا معلم الطباعة، فالتحق بمعهد الفنون والحرف ليتعلم ما يستطيع تعلمه. وبما أنه كان غراً نجيباً ومتحمساً فقد أتقن حرفة الطباعة وسرعان ما ارتقى من مرتبة المتمرن إلى مرتبة المعلم.

وفي المعهد التقى برجل غريب وحيد صموت اسمه أرثر ريبيرو. وكان ريبيرو قد قضى فترة من السجن ولم يكن يسهل عليه أن يجد عملاً ثابتاً. ولكن كانديدو مايا وبعض الأصدقاء الآخرين استطاعوا أن يجدوا له عملاً عرضياً في المعهد الفني. لم يكن له ند في الشمال كله، في مجال حفر المعادن والخشب. ومنذ عام 1848 كان قد دخل في شراكة مع لبناني وروسي لفتح مطبعة سرية، ولم يكن أحد يستطيع أن يميز بين العملة المزيفة التي يطبعها آرثر وبين العملة الأصلية المطبوعة في إنكلترا لصالح الحكومة البرازيلية.

نجح الشغل تماماً: كان ريبيرو يهيء التصميم واللبناني والروسي يوزعان العملة المزيفة في السوق. وكان من الممكن أن يستمروا طويلاً، دون شك، لولا حماقة اللبناني، لقد تملكته روح البذخ فاستسلم للحياة الصاخبة: نساء وشمبانيا وحتى العربات التي تجرها الكلاب. فلم يكن من الممكن الاستمرار، ووجد السر طريقه إلى قيادة الشرطة. أودع ريبيرو ومخول اللبناني السجن, ولم ير أحد الروسي بعد ذلك أبداً. لقد خرج من البلاد في الوقت المناسب ومعه حقيبة مليئة بالنقود ـ نقوداً حقيقية مطبوعة في إنكلترا.

آرثر ريبيرو، الصامت المنطوي الكئيب، الذي لا يزال وراء قضبان الخجل والعار على الرغم من أنه، عملياً، لم يعد في السجن، أثار اهتمامه الولد المشرد الذكي الميال للرسم, فعلمه كيف يرسم المعجزات ـ وتلك مهارة أخرى كان ريبيرو البارع قد اكتسبها في النهاية العفنة من حياته ـ وكيف يحفر على الخشب، وليس حفر المعادن لأنه وهو في السجن، كان قد أقسم أنه لن يلمس صفيحة نحاسية بعد اليوم. وفي يوم من الأيام النادرة بين الكاشاشا والثقة الخالصة أخبر ليديو أن لديه في هذه الدنيا رغبة وحيدة: أن يقتل ذلك الأبيض بيديه. كان الروسي قد عرف بما توصلت إليه الشرطة، فهرب مع الغنيمة دون أن يكلف نفسه عناء تحذير زميليه.

أعاد ليديو إلى المقص وموسى الحلاقة والكلاّب موت شقيقه لوكاس. وكانت يد إيمو قد فقدت ثباتها مع تقدم السن وكثرة الشراب وصار لابد من شخص ما ليدعم معيشة العجوز وزيزينها، عروسه ـ زوجته الثالثة، وهي صبية في الثامنة عشرة من العمر. صحيح أن يديه قد بدأتا ترتجفان وبصره بدأ

يضعف وربما ثقل سمعه، ولكن الذي يهم فعلاً ظل في حالة جيدة. «هذا كل ما بقي لي» كان إيمو يشرح للآخرين وهو يقدم لهم زوجته الجديدة.

ولم يقف تدريب ليديو في شوارع باهيا والبيت العتيق الذي يشغله المعهد الحرفي عن الطباعة ورسم المعجزات والحفر على الخشب، بل تعلّم الرقصات ومبادئ الموسيقى والشطرنج والداما والدومينو وتعلّم العزف على المزمار الذي أتقنه أكثر مما تبقى، وكان ليديو واثقاً وبارعاً في كل ما تنطّع له. فقد كان لماحاً وعملياً وكانت قدماه على الأرض.

ظل لبعض الوقت مقتصراً على حلاقة اللحى والشعر وقلع الأسنان وتقديم الوصفات الطبية ـ سم الأفاعي وذوات الأجراس وشراب البقلة المائية، من تحضير منزلي (لشفاء حمى الدق برمشة عين) لحاء عجيب من أشجار متجددة، أعواد لرفع المعنويات وأشياء أخرى ومسحوق (أبو بريص) للربو. ثم التقى بدرو أرشانجو الذي صار زميله في المدرسة المهنية. وكان لدى بدرو أرشانجو من الفضول والتصميم مثل ما لدى ليديو، ولكنه كان أصغر منه بثماني سنوات، كان هو الآخر، قد انتقل من مشغل إلى آخر، مطيلاً العمل في المطبعة، على الرغم من أن تفوقه لم يكن في الطباعة قدر ما كان في الخط والقراءة. كان قد درس القواعد والحساب والتاريخ والجغرافيا، وكانت كتابته ـ من إنشائه الخاص أم من نسخه ـ تلاقي الإعجاب.

ذات يوم اختفى ولم يعد يسمع عنه أحد شيئاً لعدة سنوات. كانت أمه التي من أجلها بقي في باهيا قد توفيت. لم يعرف من هو أبوه أبداً، فهو بحق زُجّ به في الحرب مع البرغواي، فترك نوكا حاملاً بطفلها الأول. ولم يكونا قد عاشا معاً فترة طويلة، وقد فارق الحياة وهو يجتاز مستنقعات شاكو دون أن يعرف بولادة الطفل.

انطلق أرشانجو لكي يتعرف إلى الدنيا ـ وحيثما كان يذهب كان يجد ما يتعلمه. ولم يكن انتقائياً بالنسبة للعمل الذي يقوم به ـ خادم كابينات في سفينة، ساق في بار، مساعد في أعمال البناء، كاتب رسائل يتم إرسالها إلى مناطق بعيدة في البرتغال مع أخبار المهاجرين المغفلين. وحيثما ذهب كان يحاط دائماً بالكتب والنساء. ما الذي كان يجعلهن يرينه جذاباً؟ ربما دماثته الداخلية وطريقة استخدامه للكلمات. ولكن لم تكن النساء وحدهن من يغرق في جاذبيته، فحينما كان لا يزال شاباً صغيراً كان الجميع يستمعون بصمت وانتباه شديدين لأي شيء يقوله.

وحين عاد من ريو كان عمره واحداً وعشرين عاماً، شديد التأنق في لباسه وبارعاً على الغيتار والكافاكوينهو. أمّن عملاً في مطبعة الزير. وذات ليلة بعد عدة أشهر عثر على ليديو كورو يمرن الراعيات في مهرجان رقص عيد الغطاس، وهو عمل يحسد عليه. وصار الاثنان صديقين متلازمين. وشيئاً فشيئاً تحول صالون الحلاقة إلى خيمة للمعجزات.

بعد ثلاث سنوات من لقائهما في منظمة «نجم الصباح» خليت الشقة الأرضية في مبنى رقم (60), فاستأجرها ليديو وكتب اسماً معتنى به، كل حرف بلون «خيمة المعجزات» وكان المفروض أن دخلهما الأساسي من رسمه للمعجزات.

أرشانجو هو الذي انتقى الاسم. كان قد ترك المطبعة ليعلم الأطفال المعاقين الحساب والأبجدية وصار شريكاً لكورو، وبشكل ما كان شريكاً في العمل وفي العزف، وبحرص شديد كان كورو ينمي مرابحه البسيطة من أجل فائدة صغيرة. وكان طموحه أن يمتلك المطبعة الديمقراطية حيث كان استيفان

داس دوريس يطبع أي شيء يصل إلى يده، أغنيات مطربين، أغنيات شعبية، تحديات شعرية، وكل ما يقع ضمن الفضاء الواسع للأدب الشعبي. وكانت نقوش ليديو تزين الأغلفة، والأخ استيفان، بشعره الأبيض وروماتيزمه وقدميه الثقيلتين قد وعد بأنه حالما يقرر التنحي عن العمل فسيبيع لليديو الحانوت بكل ما فيه وبالتقسيط.

وبانتظار مطبوعات الديموقراطية وزبائنها تحولت خيمة المعجزات إلى قبلة للجوار حيث يخفق قلب باهيا بقوة من ساحة الكاتدرائية وتيريرو ويسوع إلى أبواب كارمو وسانت أنتونيو بما في ذلك بيلورينهو وتايوان وماسيال العليا والسفلى وسان ميغيل وحي الحذائين وسوق يانسان (أو القديسة بربارا إذا كان القارئ يفضل ذلك).

ليديو كورو بنقوشه ورسومه للمعجزات وقلعه للأسنان وبيعه للأدوية وعرضه عرائس مصباحه السحري، استطاع أن يجمع نقوده الغالية شيئاً فشيئاً، ولكن أي قدر من المشاكل الأخرى كان يناقش ويبت في أمره في تلك الغرفة بالذات. وكانت الأفكار تولد وتتحول إلى مشاريع تنفذ في الشوارع وفي الحفلات وفي المعابد. وكانت أمور العاقبة تناقش ويختلف بشأنها مثل تتالي الأرواح الهادية، والإيقاعات الاحتفالية والخصائص السحرية لمختلف أوراق الشجر، صيغ الماكومبا وتعاويذها. وتشكلت فرق عيد الغطاس وأفوكسيات الكرنفال ومدارس الكاوبويرا وتم التخطيط للحفلات والأعياد السنوية. واتخذت الخطوات الكفيلة بإنجاح تنظيفات كنيسة بونفيم والنذور لييمانجا، ربة المياه. كانت خيمة المعجزات نوعاً من مجلس الشيوخ، مكان تجمع للمشاهير بين الفقراء ولتحشّد الكثيرين والمهمين. إيالوريكساس وبابالاوس، والمطربون والراقصون المثقفون والسطحيون، خبراء الكابوميرا ومعلمو كل فن وحرفة كانوا يختلطون هناك. وكل منهم مصحوب بموهبته الخاصة. في تلك الأثناء تملكت أرشانجو، الولد في العشرين من عمره، أهمية تسجيل القصص والحوادث والمصطلحات الجديدة والأفكار الهامة والأسماء والتواريخ والتفاصيل التافهة كافة وكل ما له علاقة بحياة الناس. ولم يستطع أحد أن يفهم لم كان يفعل ذلك. كان بدرو أرشانجو مليئاً بالأفكار وشذرات المعرفة العميقة. وبالتأكيد لم تكن مصادفة أن يتم اختياره، وهو في هذا العمر، لتسلم مركز مرموق في بيت كسانغو. وتم ترفيعه وتنصيبه أوجوبا، عيني الملك. لأنه كان مفضلاً لدى كثيرين من الطامحين بما في ذلك الكبار في السن المحترمون والحكماء، فقد منح اللقب مع كل ماله من حقوق وواجبات، ولم يكن قد بلغ الثلاثين حتى كان القديس قد قرر خياره وأعلنه. ولم يكن من الممكن أن يكون هناك خيار أفضل لدى كسانغو دائماً أسباب وجيهة لما يفعله.

وانتشرت القصة بين أهل المعابد ثم تدفقت إلى شوارع المدن وهي تقول إن أوريكسا نفسه هو الذي أبلغ أرشانجو بأن يرى كل شيء ويتعلم كل شيء ويسجل ذلك كله على الورق. لهذا سمي أوجوبا، عيني كسانغو.

في عام 1900 كان عمره اثنين وثلاثين عاماً، فاستؤجر بصفته ساعياً في كلية الطب، وتسلم منصبه في المعبد. وسرعان ما صارت له شعبيته بين الطلاب، ولم يضيّع أي وقت دون تعليمهم مبادئ الدروس، ولقد أعطي هذا المنصب بفضل وساطة من ماجي باسان، التي كان لها أصدقاؤها ومعارفها في كل مكان. وكانت محترمة حتى لدى أصحاب المناصب البارزة في الحكومة، وكثيراً ما كانت الأم باسان، حين تسمع باسم شخصية متنفذة في التجارة أو السياسة أو حتى في الكنيسة، تهمهم: «هذا واحد من صبياني». ولكن بين صبيانها كلهم، الشباب والعجائز، الأغنياء والفقراء، كان بدرو أرشانجو

هو المفضل وهو الزعيم.

- 10 -

كانت كيرسي تتمرن مع الراعيات الأخريات، كانت تتهيأ لأن تكون نجمة الصباح الجديدة والحقيقية. وكانت إيرين، سلفها، قد تركت وذهبت لتعيش مع الساعاتي في ريكونكافو. ولو لم توافق على الذهاب لظلت مدينة (ستو أمارو دا بوريفيكاشان) دون روزنامات ودون عقارب ساعات أو دقائق لمطاحن السكر ومعامل التقطير فيها، فحين قام الساعاتي بزيارة إلى باهيا ورأى إيرين ترقص نسي كم الساعة.

كانت الراعيات ينظمن خطوات رقصة لوندو الأفريقية، وهن يرقبن إشارات ليديو كورو، معلم الرقص. تقدمت كيرسي إلى المقدمة والتقطت ابتسامة أرشانجو المشجعة ونظرته. وراءها تماماً ألقت ديدي نظرة إلى ثديها المتأرجح. ديدي الصغيرة الحبوبة، الفتية والعذراء، تواقة للانضمام إلى الرقص:

أدخلي الحمار الصغير

لئلا يبلله الندى

السرج مصنوع من المخمل

والدثار أكثر حريرية.

الذين جاؤوا إلى التدريبات، رأوا شعاع كيرسي مثل نجمة الصباح، لكنهم لم يروها في المسيرة، فلم يكن هناك وقت. جاءت سفينة أخرى فانطلقت معها بعيداً بعد ستة أشهر في باهيا حيث كان الجميع يسمونها السويدية، قلة فقط كانوا يعرفون أنها فنلندية، لكنهم كلهم، أحبوها، قوبلت بترحاب دون طرح أسئلة وجعلوها واحدة منهم.

وحين رست سفينة الشحن في الميناء قالت لأرشانجو ببرتغالية ضعيفة وبلهجة أقرب إلى لهجة التجار: «آن آوان ذهابي. إنني أحمل ابننا في أحشائي. كل ما هو جيد لا يدوم أكثر من ذلك. وهو ينتهي دائماً حين يئين الآوان إذا كنا نريد له أن يستمر إلى الأبد. إنني آخذ معي هذه الشمس، موسيقاك ودمك، وحيثما أكون ستكون معي في كل لحظة، شكراً يا أوجو».

أخذها مانويل دوبرا كسيدس إلى سفينة الشحن التي رفعت مرساتها في منتصف الليل. ووقف بدرو أرشانجو في ضوء النجم ووجهه كالحجر. وانطلقت صافرة السفينة حين عبرت بوابة المكوس في البحر، لن أقول لك وداعاً. إن طفلاً برونزياً، خلاسياً من باهيا سوف يركض ويلعب على الثلج.

وثبتْ ديدي على طرف البحر وغنت أغنيات عيد الغطاس:

آه أيتها الفتاة ذات السلة الكبيرة

أعطيني قطرة واحدة فقط لأشرب

لا تفعليها يا سيبريانا

وإلا لن تعودي كما كنت أبداً

بعيداً وراء الجزر، كان اللغر (المركب الشراعي) يبحر نحو الشمال البارد عرضة للعواصف الثلجية وتحت النجوم الشاحبة، وهو ينقل معه نجمة الصباح.

كانت ديدي تريد أن تشجعه وأن ترى فمه المشدود يفتر ويسترخي، وملامحه الصخرية تلين في ابتسامة. ستكون ديدي نجمة الصباح الجديدة، إنها لا تملك تلك الهالة الوضاءة المشعة، والشعر المحترق مثل نيزك، لكن لها حرارتها المدارية الخاصة وترخيها المخدر ورائحتها الخزامية. ديدي الفتاة صاحبة السلة الكبيرة.

ـ «أنتم أحسن الناس في الدنيا والأكثر تحضراً يا خلاسي باهيا» هذا ما قالته الفتاة السويدية حين ذهبت إلى خيمة المعجزات لتودع ليديو وبوديان وأوسا. لقد جاءت من بلاد بعيدة وعاشت معهم وهي تعرف ما تتحدث عنه ـ معرفة حقيقية دون حدود أو شكوك. فلماذا إذاً قام الدكتور نيلو أرغولو ـ رئيس دائرة الطب الشرعي في الجامعة والمعلم الخاص في الجمعية الطبية، المشهور بعلمه وبمكتبته العظيمة ـ لماذا قام بكتابة تلك الصفحات الرهيبة، تلك الكلمات اللاذعة، الحامية مثل الحديد المحمى، عن خلاسيي باهيا ومهجنيها؟.

مضمون الكراس، وهو تقرير قدم في مؤتمر علمي وطبع فيما بعد في مجلة طبية، يشف عنه هذا العنوان: «الانحلال المادي والعقلي للمولدين، مثال تطبيقي من باهيا» يا رب السماوات من أين خرج البروفسور بهذه المقاولات التصنيفية؟ «العامل الأساس لتخلفنا ودونيتنا هو المهجنون الذين هم شعب عاجز من أنصاف البشر» أما الزنوج فقد كانت قناعة البروفسور أرغولو هي أنه مازال أمامهم أن يسعوا لكي يصبحوا بشراً: «هل هناك بلد في العالم استطاع فيه السود أن يقيموا دولة ذات حضارة ولو بسيطة؟» هكذا سأل زملاءه في المؤتمر.

في عصر أحد الأيام كانت الشمس ساطعة والنسيم لطيفاً، وكان أرشانجو يتمشى وقد شمر عن ساقيه في منطقة معبد يسوع. لقد ذهب لإيصال رسالة من سكرتير المعهد الطبي إلى رئيس دير الفرانسيسكان، وهو رجل ملتح أصلع وهولندي دمث. وحين وصل أرشانجو كان يشرب قهوته، فقدم فنجاناً للمراسل المبتسم، وقال بنبرة واضحة: «أعرفك».

ـ أكون هنا كل يوم تقريباً في المعهد أو الساحة العامة.

* ولكنني لا أعرفك هنا. ضحك الراهب ضحكة كبيرة صافية، أتعرف أين كان ذلك؟ في الماندومبلي. لكنك لم تنتبه إلي لأنني كنت منزوياً في ركن ولا أرتدي ملابس الكهنوتية وكنت تجلس على كرسي خاص قرب القديسة الأم.

ـ أنت يا أبانا؟ في الكاندومبلي؟

* «إنني أذهب إليه بين حين وآخر. ولكن لا تقل ذلك لأحد. أنا ودونا ماجي صديقان قديمان. وهي قالت لي أنك تعرف كل شيء عن الماكومبا. أود أن نتحادث معاً ذات يوم إذا منحتني تلك الفرصة

السعيدة..» وأحس أرشانجو أن كل سلام العالم موجود هنا، في هذا الدير، بأشجاره اليانعة وأزهاره وآجره. وكل سلام العالم في رفقة هذا الفرانسيسكاني المضياف.

- سآتي في أي وقت تريدني يا أبانا.

وراح يجتاز حمى المعبد عائداً إلى الجامعة وهو يفكر: «كاهن، راهب من دير، يذهب إلى الكاندومبلي. هذه مفاجأة، شيء جديد فعلاً». وأحاط به عدد من الطلاب.

بدرو أرشانجو يتمتع بعلاقة رائعة مع طلاب الصف. كان المراسل لطيفاً مُعِيناً ومرحاً وعلى استعداد دائم لمساعدة الشبان في مشاكلهم عند فقدان المخطوطات أو تفويت الدروس. كان يحتفظ لهم بكتبهم ودفاترهم ويقدم لهم العديد من المساعدات الصغيرة. وكانت تربطهم به صداقة حميمة دائمة على ساعات طويلة من المحادثة. المبتدئون والذين على وشك نيل شهادتهم كانوا يبحثون عنه في خيمة المعجزات أو في أكاديمية كابويرا عند المعلم بوديان، وقد ذهب اثنان أو ثلاثة منهم إلى احتفالات كاندومبلي.

وكان أرشانجو مؤدباً ومدققاً مع الطلاب والأساتذة على السواء، لكنه لم يكن أبداً ذليلاً أو متذللاً. فالباهيون لا يمكن أن يكونوا كذلك. إن أفقر الناس في المدينة من خلال كبرياء رجولته، مساو لأقوى الوجهاء وأكثر منه تمدناً.

وتحولت محبة الشبان للموظف المؤدب إلى عرفان حين اعتبرت شهادة بدرو أرشانجو عاملاً أساسياً في إنقاذ أحد الطلاب من الطرد وهو في سنته السادسة بسبب مسألة شائكة وغامضة تمس شرف عائلة أحد الأساتذة. وحين بدأت التحقيقات الرسمية بناء على اتهامات الأستاذ الثائر غضباً، فإن شهادة أرشانجو الذي كان على رأس عمله في الأرشيف هي التي برأت الشاب. كان الطلاب كلهم متضامنين مع زميلهم، ولكن لم يكن لديهم أمل وأرشانجو جديد في العمل وهو في حاجة إليه. ومع ذلك فإن أرشانجو لم يكن ينحاز ولم يكن يسمح لنفسه بأن يخوّف أو يهز موقفه، وهذا ما أكسبه احترام الشبان وعداء البروفسور الذي ترك التدريس، بالمصادفة، في منتصف الفصل الدراسي.

وحين كان أرشانجو يصل إلى النبع في وسط الساحة العامة تكون حوله جماعة كبيرة. وقف أحدهم وهو طالب وسيم في السنة الرابعة يحب اللهو والمرح ويقدر براعة أرشانجو في العزف على الغيتار والكافاكوينهو - وهو نفسه يحب العزف عن الماندولين - وأمسك بأطروحة في يده وقال: «ما رأيك بهذا يا معلم بدرو؟» فضحك الآخرون قاصدين إغاظة الخلاسي الأنيق الطيب.

قلّب أرشانجو الصفحات وضيق عينيه ثم احمر وجهه. كان واضحاً أن الزنوج والمهجنين، حسب رأي الدكتور نيل أرغولو، عار على البرازيل.

وقال طالب السنة الرابعة ممازحاً:«البروفسور يسلخك حياً، ولايترك لك جحراً تختبئ فيه. يقول عنك إنك لص وقاتل وأسوأ من ذلك يطلق عليك كل تهمة في الكتاب. أنت على الحد الفاصل بين الحيوان الأبكم والحلقة المفقودة (هوموسابين) ويكفي أن ترى هذه: يقول إن الخلاسيين أسوأ من السود. هذا الغول يلتهم أبناء شعبك بأكمله وهم أحياء وأنت معهم يا معلم بدرو»

استيقظ بدرو أرشانجو من شروده واستجمع نفسه:

ـ «هل أنا الوحيد الملتَهم يا صاحبي؟» قال وهو يتطلع إلى شعر الفتى وفمه وشفتيه وأنفه. «إنه يلتهمنا جميعاً. كل مولود بيننا يا صاحبي. أنت وأنا ـ وألقى نظرة سريعة على الآخرين ـ «ليس في هذه المجموعة واحد سينجو، ولا واحد».

في البدء انطلقت موجة من الضحك المكتوم ثم ضحك اثنان أو ثلاثة عالياً. واعترف طالب السنة الرابعة بطيبة:

ـ لا أحد يستطيع التغلب عليك يا معلم بدرو ولقد اقتلعت أشجار عوائلنا من جذورها.

وفصل أحد الشبان نفسه عن المجموعة بتعال:

ـ إلا أنا. قال ذلك وهو يطرح الأسماء الأربعة الأخيرة ولقبين نبيلين. «دم عائلتي نقي. الحمد لله. نحن لم نمتزج مع السود.

كان غضب أرشانجو قد تلاشى. وصار الآن يتسلى، كان يعرف معرفة جازمة، ودون أي شك، أن نظريات الدكتور نيلو ـ هذا الغبي الجاهل، هذه المبولة المليئة بالخراء ـ خطأ مطبق وافتراء قائم على الجهل الموروث، وتطلع إلى الشاب: «هل أنت متأكد يا صاحبي؟ لقد ماتت جدتك قبل أن تولد أنت. هل تعرف ماذا كان اسمها؟ ماريا ياباشي، وكان هذا اسم قبيلتها. لقد كان جدك رجلاً شريفاً فتزوجها.

ـ سألكمك على وجهك أيها العبد*(17) الوقح.

***وماذا تنتظر يا صاحبي؟ تقدم.**

ـ احذر يا أرماندو. إنه بارع في الكابويرا. حذره أحد زملائه.

وحرّض الآخرون زميلهم السخيف: «هيا يا أرماندو. دعنا نرى شجاعتك، ذات الدم الأزرق»

ـ «لن أهدره من أجل ولد مراسل». تراجع الإسباني النبيل وهو ينسحب من الحلبة فانتهت المجادلة.

ضحك طالب السنة الرابعة: ليس إلا نمراً من ورق، يا معلم بدرو، منفخته كلها لأن جده كان وزيراً أيام الإمبراطورية. إنه أبله.

وانضم فتى يرتدي قبعة من القش ونظارة إلى الحديث!

ـ كانت جدتي خلاسية. وهي أطيب من عرفت.

وبدأ أرشانجو يغادرهم:

ـ هل تعيرني هذه الأطروحة؟

*** تستطيع الاحتفاظ بها.**

لم يحاول بعد ذلك أي طالب أن يمتحن صبر أرشانجو بملامسة موضوع العرق ولا حتى بعد عشرين عاماً، حين سقط ظل غوبينو على معبد المسيح وصارت الآرية موضة سائدة ومبدأً رسمياً في كلية

الطب. وحين انفجرت الفضيحة كان الطلاب قد تغيروا، لكنهم جميعاً انحازوا إلى صف الساعي ضد الأساتذة.

في فرقة نجمة الصباح كان البيض والسود والخلاسيون يرقصون معاً، دون أن يقيموا وزناً لنظريات الأساتذة. وكيرسي وديدي صفق لهما الجمهور بحماس متشابه دون الاهتمام بمن منهما هي نجمة الصباح، ليس هناك أولى وثانية، أعلى أو أدنى، بين النجوم.

الآن يبتلع المحيط والليل والسفينة. وديدي توقفت عن الغناء وتمددت على الرمل برغبة واستعداد واضحين. تنصت بدرو أرشانجو إلى ريح البحر، وصوت الأمواج والأبعاد. «أنتم خير الناس في الدنيا» في سومي الباردة سيمارس طفل برونزي مصنوع من الشمس والثلج دور ملك السيد وهو يمسك بيده اليمنى باكسورو إله أفريقي.

---

*(17) - nigger كلمة تحقير محورة عن negro التي تعني الزنجي.

حيث فاوستو بينا حديث النعمة الذي لا يعرف التعب
يتلقى أجراً صغيراً ودروساً وعرضاً

-1-

يؤسفني أن أقول ذلك. لكن الصفاقة والحسد منتشران بين صفوة مثقفينا. ولا مجال لإنكار هذه الحقيقة المأساوية لأنني شعرت بعواقبها في كياني. ويبدو أنني ضحية مفضلة للضغينة المنحطة المراوغة ولأسوأ أنواع الافتراءات. فلأنني كُرمتُ من قبل ليفنسون العظيم بعقد (لفظي) من أجل القيام ببحث عن بدرو أرشانجو، فإن زملائي سمموا حياتي وبدأوا يتقولون بأشياء فظيعة عني وعن آنا مرسيدس، مرغوا سمعتي في الوحل، وخنقوني بالافتراءات القذرة.

ولقد سنحت الفرصة قبل قليل لذكر المكائد السياسية أو المحاولات المشبوهة لإظهاري بمظهر التابع الخانع للإمبريالية الثقافية الأميركية. كسبوا لي عداء اليساريين. الأمر الذي أعترف أن له بعض المزايا في الوقت الحاضر، وأعاقوا ترفيعي إلى المراكز ذات الأهمية القصوى بالنسبة لأي شخص يريد أن يبني اسمه وحرفته ـ مثلما كنت أفعل ومثلما أفعل الآن ـ ويحتاج إلى أناس يدعمونه وينفخون له بوقه. ولقد استطعت أن أحبط هذه المؤامرة في حينها. وإذا كنت أربأ بنفسي عن طرح قناعاتي الراسخة فلأنني، في النهاية، باحث علماني، ولست معتوهاً أو مغامراً يتوق إلى شجار أو إلى حكم بالسجن. إنني أفضل أن أخوض معركتي بسلاح شعري غير المرئي، والذي قد يكون غامضاً إلا أنه راديكالي متطرف في الوقت ذاته.

ولم تتوقف جهود الحثالة عند اليساريين، بل تمادوا أكثر من ذلك وأغلقوا في وجهي أبواب الصحف ـ وأنا من المحررين القدامى في سيتي نيوز، كما أنني أكتب دون أجر أيضاً ـ ومن يملك الجرأة على الطلب من الدكتور زيزينهو أن يدفع لقاء شعر ينشر في صحيفته؟ علينا أنا والشعراء الآخرين، أن نشكر حسن حظنا لأنه لم تخطر له فكرة جعلنا ندفع لقاء الفراغ الذي نأخذه من الصحيفة ولقاء طباعة مدائح كل من المقرضة لشعر الآخر. ولم يحدث أن غابت مساهمتي عن ملحق الأحد القديم والممتاز لسيتي نيوز، البيت المضياف للثقافة. فنحن مدينون لهذه الصحيفة من أجل الحملة العظيمة على شرف الذكرى المئوية لولادة بدرو أرشانجو، وفي الملحق الأدبي لهذه الصحيفة الموقرة استحدثت مع زينو باتيل، زاوية الشعراء الشباب ـ أو بالأحرى أنا قمت بالعمل ثم تقاسمنا المدائح والشاعرات.

ولما كنت غير مكتف بنشاطاتي المعهودة كشاعر وناقد متعاون مع سيتي نيوز ونشاطي الحالي كعالم اجتماع «في البحث عن المادة الحية ذات الأهمية العالمية» (التعبير من زاوية سيلفينهو الودودة التي قدمت لي «أقواس قزح الكتابة والجواهر الملائكية») فقد أسرعت لرؤية رئيس التحرير حالما سمعت بالحملة الصحفية الجديدة.

والآن، أسألكم بالله، ولتكونوا محايدين: من المؤهل للمساهمة، إن لم يكن للتوجيه والإشراف، في هذه الحملة أكثر من المساعد الخاص، كما لو أنه وكيل، لعبقري جامعة كولومبيا الذي انتقاني ـ أنا ولا أحد غيري ـ للتحري عن حياة ابن باهيا الخالدة؟ ليس فقط أنني قد عهد إلي بهذا العمل ووقعت تحت

مسؤولية عقد، بل إنني قد دفع إلي. «دفع إلي» دعوني أكتب ذلك بأحرف بارزة لكي أمسحها بالأوجه الشاحبة الجائعة لجوقة ضفادع الحسد والصفاقة، متى دفع لأي منهم بهذا السخاء وهذه السرعة والفورية، من أجل عمل جدي، ومن قبل عبقرية عالمية وبالدولار؟ إنهم يعيشون على الفتات الذي يستطيعون الحصول عليه من الحكومة أو الجامعة، وهم دائماً يتذمرون ويقولون بكلمات كبيرة، لكنهم ضعفاء كالحملان حين يمرر العشب الأخضر قربها. من يبدو عليه أنه محط الاختيار المنطقي من كل وجهة نظر تتبناها ـ من؟ أسألكم أنتم ـ لكي يشتغل مستشاراً ولقاء أجر صغير، وقدر كبير من الشهرة، في حملة سيتي نيوز العظيمة؟ وبدرو أرشانجو، في نهاية الأمر، ابن بلدي. ولقد أثبت انتمائي إليه إذا جاز التعبير.

هل ستصدقون أنهم ظلوا يحومون حول الجريدة ويضعون أنواع العراقيل كافة في طريقي حين حاولت التوصل إلى تفاهم مع الدكتور زيزينهو. لقد خيل إلي أنني لن أستطيع رؤيته على الإطلاق. ولقد بذلت جهوداً كبيرة فأبعدت بكثير من الأعذار الواهية، الثلاثة الأساسيون المسيرون ـ الثلاثة السفلة الأقوياء ـ استمعوا إلي بنفاذ صبر، أو بالأحرى واحد منهم استمع إلي، ثم أبعدني بوعد غامض: «في الوقت الراهن لا نحتاج شيئاً أيها العجوز، ولكن حين تمشي الحملة قليلاً. ربما كانت لك فرصة لكي تجري مقابلة أو تكتب قصة أو شيئاً ما». على الأقل كان لدي من الوعي ما جعلني أقفل فمي عن العمل كمستشار: اكتفيت بعرض معونتي.

لكنني لست الذي تسهل المناورة عليه فعدت مرة ثانية. وأخذت معي مادة لأريها لهم. وهذه المرة جمعت العصابة كلها لكي تسمعني. قدموا لي مبلغاً هزيلاً مضحكاً لقاء الوثائق. ولكن كان واضحاً تماماً أنهم لا ينوون منحي أية فرصة في القفز إلى مسيرتهم الظافرة.

وقررت أن أعطيهم حصتهم مقابل نقودهم ثم أجرب الصحف الأخرى. وحاولت آنا مرسيدس التوسط لصالحي في (مورننغ نيوز) ولكن دون جدوى. سادة الصحف هؤلاء لديهم موقف عام متفق عليه وهم يعملون دائماً كأنهم فريق واحد.

وبما أنه لم يبق لدي خيار فقد عدت إلى سيتي نيوز لإلزمهم بعرضهم الحقير، العرض الوحيد الذي لدي، وأبيع أفضل المواد لدي لقاء مردود تافه. طرقت باب الدكتور زيزينهو بشجاعة ولدها اليأس فاستمع إلي الزعيم الأكبر بارتياح. ولكن حين قدمت له مذكراتي كادت تجيئه جلطة. «هذا بالضبط ما لا أريده. قلة الاحترام هذه لرجل عظيم ذي عقل راجح، هذا الاستهزاء والتحقير لشخصية أرشانجو. لن آخذها. السبب الوحيد الذي جعلنا نشتري هذه السلسلة من الأكاذيب والثرثرة هو الرغبة في إحراقها، لكي تحول دون تشويه صورة بدرو أرشانجو، فكر في تلاميذ المدارس يا عزيزي فاوستو».

فكرت في تلاميذ المدارس وبعت صحتي لقاء مبلغ زهيد. وزعق الدكتور زيزينهو موبخاً، وهو لا يزال ثائر الأعصاب يرتجف غضباً: «متعدد الزوجات! يا للسماء! وهو الذي لم يتزوج. يا شاعري العزيز. احفظ هذا الدرس: يجب أن تكون للرجل العظيم استقامة أخلاقية. وإذا صدف أن خرج عن الطريق مرة أو مرتين أو كذب بين حين وآخر- فإن مسؤوليتنا هي أن نلمع صورته. العظماء هم ميراث بلدنا، وقدوة للأجيال الشابة، يجب أن نضعهم على مذبح العبقرية والفضيلة ونتأكد من بقائهم هناك».

شكرته ثم انسحبت آخذاً معي درسي وتعهدي بالذهاب للبحث عن تلك النصائح الباهظة: آنا مرسيدس والوسكي.

وهكذا قدر لي ألاّ أساهم في المجد الصحفي لبدرو أرشانجو، علي أن أقنع بشهرة بسيطة مبعثرة تأتيني من كتّاب زوايا أصدقاء: سيلفينهو ورينوت وجولاي وماتيلد.

كما كان يهتم بي عدداً لا بأس به من الشبان العاملين في المسرح، والأعضاء في فرقة طليعية جداً تعرف باسم: «لا نصوص ولا أضواء بعد الآن» ـ والاسم يدل على مسماه. إنهم يريدون مني أن أساعد في مسرحية عن بدرو أرشانجو، أو بالأحرى، عرض، فهم لا يحبون كلمة «مسرحية». سأفكر في الأمر وإذا سمحوا لي أن أكون شريكاً موجهاً فقد أقبل العمل معهم.

كيف عم المجتمع الاستهلاكي مئوية بدرو أرشانجو مستغلاً مجده ومعطياً إياه المعنى الحقيقي والمناسب؟

-1-

أقر منصب الأمين العام للجنة التنفيذية للإشراف على الاحتفالات المئوية وعهد إلى البروفسور كالازانس. ولم يكن بالإمكان الوقوع على خيار أفضل.

إن اسم كالازانس، المؤرخ، قد اجتاز حدود ولاية باهيا منذ زمن طويل وصار مشهوراً في البرازيل كلها. ودراساته المبتكرة والقيمة عن كانودوس وانطونيو كونسيلهير وقد لاقت التقدير والإطراء من قبل العجائز الصغار في معهد التاريخ الوطني وكذلك، إن لم أكن مخطئاً، جائزة من الأكاديمية البرازيلية للآداب. وإن كانت معلوماتي خاطئة وكان كالازانس لم يفز بإكليل الغار فليكن اقتراحي مفاجئاً لهم: لم يفت الآوان بالنسبة للخالدين لتصحيح هذا الإغفال الفاضح.

البروفسور كالازانس الضليع في ميادين عديدة كان يقضي نهاره من صف إلى آخر، وهو دائماً منشرح ومزود بكمية كبيرة من الأحداث التاريخية، لكي يكسب عيشه بعرق جبينه. ومع كل مشاغله فإنه يجد الوقت والرغبة لارتداء عدد من القبعات المختلفة والألقاب، التي بعضها شرفي، وكلها تتضمن الكثير من العمل الشاق، ولا حاجة للقول إن أياً منها لا يعود عليه بسنت واحد. فهو سكرتير أكاديمية باهيا للآداب، وخازن المعهد التاريخي والجغرافي في باهيا، ورئيس مركز الدراسات الفولكلورية ومركز سيرجيب، هذا إذا لم نذكر عضويته في لجنة المبنى الذي يعيش فيه، التي يمثلها بالتناوب مع غيره.

كثير من النشاطات المظفرة ، ومهام كثيرة دقيقة تنفذ، إضافة إلى الدراسات الخاصة والأبحاث والمقالات والزوايا التي يكتبها ـ ويظل البروفسور يبدو عليه الانشراح والمرح والارتياح، هذا السعي الدؤوب، وهذا اللهاث والركض، يبدو غريباً لمن لا يعرف الظروف التي ولد فيها البروفسور كالازانس في ولاية سيرجيب شبه الأسطورية، فابن سيرجيب المولود في فقر مدقع في مجتمع إقطاعي قائم على ملكيات الأراضي وحيث الفرص والموارد معدومة، ابن سيرجيب الذي ينجو من وفيات الأطفال القدرية، ومن الأمراض المستوطنة من كل نوع ابتداء بالملاريا وحتى الطاعون، إضافة إلى قيود ومتاعب أكثر من أن تحصى، إن بطلاً كهذا لن يكون شيء بالنسبة إليه صعباً ولابد أن يتوافر لديه كل الوقت والقدرة في الدنيا. ولهذا فإن إشراف البروفسور كالازانس على الاحتفالات المئوية ضمانة لنجاحها.

بعثة الشرف الكبرى (بشك) هي ذاتها قد قدمت نموذجاً مبدئياً لعظمة الاحتفالات التي ستتم. (بشك)، برئيس الشرف فخامة محافظ الولاية، كانت تضم كبير الأساقفة وقادة القطعات العسكرية، والرئيس الأعظم لجامعة باهيا، ورئيس بلدية العاصمة، سلفادور، ورؤساء بنوك باهيا ومعاهدها الثقافية، ومدير بنك البرازيل، والمدير العام لمؤسسة أراتو الصناعية، ورئيس غرفة التجارة، ورؤساء تحرير الصحف اليومية الثلاث، وممثل الحكومة للتربية والثقافة، والميجور داميان دوسوزا.

وباستثناء أولئك الذين توجد أسماؤهم كتحصيل حاصل، لأن أي نشاط لا يحوز على موافقتهم ورضاهم سيموت عند ولادته، فإن جميع أعضاء (بشك) الآخرين قد دعوا للمساهمة، لأسباب وجيهة ومحددة. وقد أوضح الدكتور زيزينهو الأمر في مكتبه حيث كان محاطاً بسكرتيره والمدير الإداري لستي نيوز وقد دعا إلى الاجتماع لجنته التنفيذية المصغرة «المصغرة قصداً لكي تستطيع التصرف بسرعة وفاعلية».

وعل الرغم من صغرها لم تكن جاهزة. فبالإضافة إلى الدكتور زيزينهو نفسه، والذي كان الرئيس بالطبع، والأمين العام كالازانس، ضمت اللجنة رؤساء المعهد التاريخي والجغرافي وأكاديمية الآداب وعمداء معاهد الطب والفلسفة، وسكرتير مركز الدراسات الفولكلورية، ومدير السياحة، والمدير الإداري لفرع باهيا من (اس ـ إي) لمؤسسة دوبنغ للدعاية والإعلان.

اجتمع أعضاء اللجنة اجتماعهم الأول في مزاج من يحيي عيداً دينياً. كان الجو احتفالياً. وكان هناك خادم ـ الحارس الليلي لستي نيوز ـ يقدم كؤوس الويسكي المسكوبة سلفاً مع الثلج والصودا والغوارانا.

«وسكي محلية» قال فيرنينها المكتئب، محرر شؤون المدينة، بعد أن رشف الرشفة الأولى.

بوجود «الشخصيات الهامة التي تتشرف سيتي نيوز بحضورها هذا المساء» لخص الدكتور زيزينهو حملته الدعائية بإيجاز، ولكن بخطاب بارع، وامتدح بحرارة زملاءه في بعثة الشرف الكبرى، من المحافظ حتى الميجور. وفي الوقت ذاته أشار بإسهاب إلى المساهمة المتوقعة من كل منهم. وبالتالي فإنها ستكون بادرة رائعة من رئيس بلدية باهيا التقدمي إذا ما قام بتسمية أحد شوارع باهيا باسم بدرو أرشانجو، بينما ينتظر من ممثل الحكومة للتربية والثقافة أن يطلق اسم أرشانجو على مدرسة تشع منها ذكراه إلى الأبد «يقدره الصغار الذين سيكونون قادة الغد، قادة برازيل المستقبل الرائعة». أما العميد العظيم فسيقدم دعم الجامعة المادي والثقافي، والذي لا يقدر بثمن ولا يستغنى عنه، للحملة وخاصة في ما يتعلق بالندوة المقترحة، وممثل السياحة سيغطي نفقات السفر والإقامة بالنسبة للضيوف من الشمال والجنوب. أما رئيسا التحرير الآخران «غير المتنافسين بل المتعاونان» فإن الدكتور زيزينهو يتوقع منهما تغطية إخبارية موسعة، وتأييداً غير مشروط، ليس فقط في الصحافة، بل وفي الإذاعة والتلفزيون اللذين يسيطران عليهما. ومن جهة مدراء البنوك والصناعيين والتجار فسيدير عملهم الموظفون النشطون والفعالون في (إس ـ إي) لمؤسسة دوبنغ للدعاية والإعلان. هل نسي ذكر أحد الأعضاء؟ آه ـ نعم. الميجور داميان دو سوزا، نصير القضايا العامة، والرمز المعنوي لعاصمتنا! بما أنه كان صديقاً شخصياً لبدرو أرشانجو، فإنه الممثل الحقيقي للشعب في لجنة الشرف العظمى. «ويجب أن لا ننسى أن أرشانجو خرج من صفوف الشعب، من الطبقة العاملة المتواضعة. ثم ارتقى إلى قمة العلوم والآداب». (تصفيق).

وبين الويسكي والقهوة «وسكي عفنة، أرخص ماركة في السوق، كان أرشانجو يستحق شيئاً أفضل، نوعاً من الكاشاشا المقبولة على الأقل» وهكذا نكّت ماغالهايس نيتو العجوز الشهير، رئيس معهد التاريخ، وهو يستبدل كأس غسيل الصحون بفنجان قهوة. لخصت اللجنة برنامجاً للاحتفال بالمئوية وركزت على ثلاثة بنود رئيسية يجب ألا يتم التحول عنها أياً كانت الاقتراحات التي يمكن أن تقدم:

أ ـ سلسلة من أربعة ملحقات خاصة لستي نيوز عن أرشانجو وأعماله. وستصدر هذه الملحقات أيام

الآحاد الأربعة السابقة على 18 كانون الأول وستكون مادتها من مساهمات بارزة من أنحاء البرازيل كافة، إضافة إلى مساهمات باهيا، وحتى الإعلانات، كما أوضح مندوب فرع دوبنغ، ستضيف قيمة إلى اسم أرشانجو. ووضعت قائمة مؤقتة بالمساهمين، وكلهم من الدرجة الأولى. والمسؤولون عن الملحقات سيكونون رؤساء المعهد التاريخي والأكاديمية وسكرتير مركز الدراسات الفولكلورية والبروفسور كالازانس. ولولا البروفسور لما استطاعوا أن يجمعوا صفحة كاملة.

ب ـ ندوة دراسية في كلية الفلسفة تحت رعاية المغفور له بدرو أرشانجو نفسه. وسيكون موضوعها «الديمقراطية البرازيلية والتفرقة العنصرية (أبارثيد): تأكيد الإنسانية واستلابها». وقد جاءت فكرة الندوة من البروفسور روموس من ريو دو جانيرو، الذي قال في رسالة إلى الدكتور زيزينهو: «إن بدرو أرشانجو أفضل مثال ممكن على القيمة الفريدة للحل البرازيلي للمشكلة العرقية: انصهار، وامتزاج، وتوالد واختلاط ـ وليس هناك تقدير لذكراه، تلك الذكرى التي ألقيت طي النسيان طوال تلك السنوات أفضل من جمع حشد من العلماء والباحثين للتأكيد على الفرضية البرازيلية، ولاستنكار جرائم الآباربين العنصرية والكراهية بين البشر».. وقد أوكلت مسؤولية تنظيم الندوة إلى عميدي كليتي الطب والفلسفة وممثل الحكومة في السياحة، وبالطبع سيرجيبانو كالازانس المؤثر والفعال.

ج ـ اجتماع مركز مغلق، يعقد مساء 18 كانون الأول في القاعة الكبرى في المعهد التاريخي والجغرافي. وهو بالطبع أفضل مكان ممكن: مقر قيادة جمعية خيرية شهيرة. وهي غرفة صغيرة مهيبة وأنيقة، حيث إن، كما قال الدكتور زيزينهو بتعقل، «غرفة صغيرة تغص بالمستمعين أفضل من قاعة كبيرة مليئة بالمقاعد الفارغة». واقترح ممثل وزارة السياحة، المتفائل دائماً، قاعة الاجتماعات الواسعة في كلية الطب، أو لماذا لا يكون مدرج الجامعة، وهو أكبر وأفضل؟ ولكن الدكتور زيزينهو اعترض: «هل هناك فعلاً عدد كبير من المواطنين الأوفياء في باهيا ممن يرغبون في التضحية بالاستماع، ليس فقط إلى البروفسور روموس من ريو، بل لممثلي كلية الطب وأكاديمية الآداب ومركز الدراسات الفولكلورية وكلية الفلسفة والمنظمة المضيفة، كلية التاريخ ذاتها؟ خمسة خطابات طويلة، مهما كانت محملة بالفصاحة والجمال والبحث الرائع؟ ستكون روائع خطابية، لا بل ـ إنها ستكون مللاً طناناً مطولاً بدرجة لا تصدق. والدكتور زيزينهو، بخبرته الكبيرة في الحياة والناس، لم يعد متفائلاً. وفي رأيه فإن مندوب السياحة لا يعرف ما يتحدث عنه. إن الاستعدادات لهذا العمل الجليل تقع على عاتق البروفسور كالازانس. فإذا لم يستطع أن يملأ قاعة المعهد بالمئتي كرسي الملائمة فإن أحداً غيره لن يستطيع.

لقد ضاعت دقائق من هذا الاجتماع التمهيدي دون مسوّغ، ولكن الدكتور زيزيهو لديه قائمة مطبوعة بالبنود الثلاثة، كاملة بكل تفاصيلها ـ الأسماء والموضوعات والخطباء والنظريات وكل ما تبقى نقطة بعد نقطة. كان يريد أن يلقي نظرة متفحصة على مخططاتهم «قبل إعلانها على الملأ». ابتسم ابتسامته الآسرة ـ ربما كان بذلك يخبئ محادثيه أو يعرض ماله ـ وأضاف: «سننشر جزءاً كل حين، فنعطي بذلك جديداً كل يوم. بهذا نثير الاهتمام والتشويق».

ـ «سيطلب موافقة الرقابة» همس فيريرينها المكتئب إلى غولدمان المرح، مدير الشؤون التجارية للجريدة، الذي يعرف مئة طريقة للرفض. لا. ليس هناك ميزانية أو اعتمادات.

ـ موافقة من؟ المكتب الوطني للإعلام؟ أم قائد الشرطة؟

ربما موافقة الاثنين.

سجل المصورون «الاجتماع الودي والمثمر» للأجيال القادمة وللصفحة الأولى من طبعة الصباح التالي، وصورته كاميرات التلفزيون من أجل أخبار المساء، إشارة عفوية لحسن النية من قبل الدكتور بريتو الذي لم يكن «منافساً بل هو زميل ودود» وقد فعل الدكتور زيزينهو نبتو ذلك من جديد.

وتقرر موعد الاجتماع القادم ثم قام المدير الهمام بمصافحة الجميع. وكان الدكتور ماغالهايس مازال يتساءل: «إنني أتساءل ما إذا كان يقدم هذه الويسكي النتنة لضيوفه في بيته. كلا بالطبع. لابد أن لديه كمية من الويسكي الحقيقية. ولكن مرة أخرى.. لا يعرف المرء كيف يتصرف المليونير من هؤلاء».

- 2 -

بوجه ممتلئ يوحي بالصحة والعافية، مفتراً حيناً عن ابتسامة، وحيناً عن كلمة بذيئة، وبشارب كث وشعر خفيف، دلالة على بدانة مبكرة، وقميص مبلل بالعرق هكذا كان غاستان سيماس مدير فرع باهيا لشركة دوبنغ للإعلان والدعاية (إس - إي) يخاطب مساعديه، وهم مجموعة مختصرة من خمسة رجال موهوبين، خمسة متفوقين، خمسة خبراء لا يضاهون، وحكى لهم عما تمخض عنه الاجتماع الأول للجنة التنفيذية للاحتفال بمئوية بدرو أرشانجو. ولذا فإن عليهم الآن، وهم الخمسة عقول التي تتقاضى أجر وفائها، أن يستلموا الطرف الآخر من الحملة، الطرف الأكثر أهمية: الإعلانات والتجارة التي ستدر الأرباح، ودَوَّرغاستان سيماس كلمة السر في فمه وتحت شاربه. الأرباح - وكأنه يتذوق طعام الآلهة أو الكافيار أو خمرة رائعة:

«خمس صفحات من كل ملحق من ثماني صفحات ستخصص للإعلانات، والملحق الرابع والأخير سيكون (12) صفحة وستكون لنا فيه سبع صفحات أو سبع ونصف، وربما ثماني صفحات إذا كنا نستطيع أن نملأها، وإضافة إلى ذلك ليس علينا أن نوقف جهودنا على الملحقات. السماء هي الحد النهائي. نحن أحرار في إطلاق العنان لمخيلاتنا، في أن نكون خلاقين، فنانين! فلنكن على قد الحمل يا شباب ولا نضيع وقتنا، أريد نتائج طيبة ملموسة. كلمة السر في عملنا هي الفعالية والنوعية لا تنسوا ذلك».

قال كلمته وعاد إلى مكتبه ثم غرق في كرسيه. غاستان سيماس رجل فعالية ونوعية، مجد وذكي وذو خيال واسع. ولكن حين يتوقف لفحص ضميره كان مضطراً للاعتراف بأن الإعلان ليس المهنة التي ولد من أجلها، وليس الطريق في الحياة: الذي يثير حماسه كلهِ. لقد سار فيه من قبيل الحاجة والبطالة، فهو طريق مربح مالياً، كما أنه قدم له وجاهة. وربما كان سيسعد أكثر، دون شك، في كشكه القديم لبيع الصحف حيث كان يعشق عيشة الكفاف ولم يكن عليه أن يلبس قناع الشخصية البالغة الأهمية الذي لم يكد يلائم وجهه الودود الصريح. كانت متعته الحقيقية في الحياة لعبة دومينو في السوق الذهبية وبضع كؤوس في حفلة، أو حديثاً ممتعاً دون التزامات تقلقه «أنا ابن باهيا بأكثر مما يتلاءم وهذه اللعبة». هكذا اعترف ذات يوم لأحد موظفيه، أرنو الشاب الكاريوتي الوسيم ورجل الإعلانات الناجح، بل أفضل رجاله. وماذا أستطيع أن أفعل؟ إيه. خلصنا يا غاستان لا تسأل أسئلة غبية، اقبل الأمر كما هو وخذ دواءك، فكونك مدير فرع دوينغ يعني الراتب الضخم والوضع الاجتماعي الذي تحسد عليه. خادم قاصر في مكتب مترف يتطلع منه غاستان سيماس إلى الخليج، وبرج البحر، والجزيرة الخضراء والسفن التي تعبر خط الأفق بهدوء. كانت الغرفة خزانة عرض للثروة والجاه - أثاث من خشب الورد، تنجيد جيرانو لطائر تجريدي متغطرس، إحدى الحشرات المعدنية القاسية لماريو كرافو وسكرتيرة سمراء، من الفنون كلها ومن الحرف كلها فإن الحرفة الوحيدة التي مارسها غاستان سيماس هي الفن الأمثل لعصرنا.

حتى أكثر النقاد فظاظة وقسوة لن تبلغ به الحماقة حداً ينكر فيه أهمية فن الدعاية. فما من فن آخر يقارن به ـ لا الشعر ولا الرسم ولا من كتابة الرواية ولا الموسيقى ولا المسرح ولا حتى السينما. أما بالنسبة للإذاعة والتلفزيون ففي وسع المرء أن يقول أنهما جزء أساسي من الإعلان ولا حياة مستقلة لهما.

وما من رسام استطاع أن يتمكن من تقنيات إبداعية متعددة مثلما يفعل فنانون التشكيل الدعائي، البيكاسوات (ج بيكاسو) أكثر من البراغيت في كل وكالة إعلان. وما من كاتب حي يضاهي كاتب الإعلانات، وما من كاتب متميز في مجال الشعر أو النثر يستطيع السيطرة على منابع الخيال وعلى الواقعية والسريالية، وله القوة التواصلية التي للوكالات التي فيها عشرات الهمنغويات الذين يخلقون أدباً جديداً، لم تحاول إخفاء الحقيقة وهي واضحة أمامنا تحت ضوء الشمس.

وحتى البيكاسوات والهمنغويات الحقيقيون يعتمدون على الإعلان، وكثيرون منهم في الحقيقة، خلقتهم وكالات الصحافة وجعلتهم مشهورين بين عشية وضحاها. على الأقل خلال عدة أشهر يصبح اسم الرسام أو الكاتب المفضل أمام أعين الناس يحصد تصفيق المغفلين. بعد مدة من الزمن يتلاشى من المشهد طبعاً. ففي النهاية الله وحده هو الذي يستطيع أن يخلق الأدباء والفنانين من الفراغ ثم يبقيهم على ظهر الموجة وفي زوايا الصحف إلى الأبد! لكن الذي يكون موضوعاً لحملة الشهرة له وقته وفرصته طالما هو قادر على الدفع للحملة. وبعد ذلك يظل الأمر عائداً له هو. يجب أن تعرف كيف تنفخ بوقك في هذا العالم. اذهب إلى دار الغرور والأباطيل والق نظرة على الأذكياء والموثوقين الذين فقسوا في حاضنات الوكالة والذين تعزز ببراعة نقص الموهبة لديهم. هناك يعيشون المسألة ويحصلون على المال بسرعة فائقة. إنك لا تراهم يقتلون أنفسهم، أو يعملون في مدرستين في وقت واحد ـ هذا النوع من الشغل اليومي للشرفاء والمغفلين، من أمثال كالازانس، الذين لم يتعلموا فن التسلق الاجتماعي والطعنات البارعة في الظهور ـ التعبير الأمثل عن عصرنا وعن مجتمعنا المدهش الموقر الاستهلاكي الذي لا مديح يكفيه.

آرنو، الكرة النارية الفتية المستوردة من ريو، ذو القلم المغموس في الويسكي الأصلية هو أول فتيان غاستان سيماس الذي أدهش معلمه بنتائج يومين أو ثلاثين من التفكير الممعن والخيال الجامح. مد ورقة على المقعد وعليها بأحرف كبيرة هذه الكلمات الخالدة:

«سواء قلتها بالإنكليزية أم بالألمانية أم بالروسية

بدرو أرشانجو مصدر دخل

قيمته بالملايين بالنسبة للبرازيل

وماذا غيره قيمته الملايين للبرازيل؟

تعاونية مصدري الكاكاو»

ـ هائل. هتف غاستان. أنت رائع.

وتلت ذلك عروض رائعة أخرى. ولكن آرنو، ذا الشعر الأشقر، أمير الدعاية الشاب، الذي يكسب أكثر من نصف دخل كلية في الجامعة، كان قائداً للجماعة.

وربما كان من المفيد هنا أن نقتطف بعض أكثر الإعلانات نجاحاً من أجل تثقيف قرائنا:

«اشرب نخب مئوية أرشانجو ببيرة بولار»

« لو كان بدرو أرشانجو حياً اليوم لكتب كتبه بآلة زولمبيكوس الكهربائية الكاتبة».

« في سنة مئوية أرشانجو يقوم المركز الصناعي ببناء باهيا جديدة»

« في عام 1868 ولد عملاقان في باهيا: بدرو أرشانجو وشركة ضمان أرشوت»

ولأن آرنو لم يكتف بانتصاره الأولي، فقد ابتكر أعجوبة أخرى ننقلها هنا طالما أن أي وصف لها لن يعطيها حقها:

أرشانجو نجم ملائكي

نجم ستيلا ستيلا

كاساستيلا كاساستيلا

ألبس الأحذية لأربعة أجيال

من الملائكة والملائكة العليا

بخمس دفعات بسيطة

وحمل آرنو الإعلان للزبون نفسه وهو يدندن سعيداً بابتكاره. وكان صاحب شركة الأحذية في مزاج سيء حين وصل إليه آرنو ـ كان يتبع حمية خاصة ولا شيء أسوأ من هذا للمزاج. رجل في الخمسينات من عمره ذو حاجبين كثيفين وخاتم مدرسي في إصبعه، تطلع بنظرة عدائية إلى الأحمق الفتي المغرور المتأنق ثم قال وهو يهز رأسه: «لست إلا عجوزاً ضعيفاً مستهلكاً وأنت شخص فتي جميل قوي ووسيم غارق في الويسكي والحلويات مجتمعة بشكل جيد ـ لكن آمل أن لا تستاء إذا قلت لك شيئاً صغيراً: إعلانك هذا تافه».

بدأ بذلك التواضع الكاذب وانتهى بهذا العنف الجامح حتى أن آرنو بدل أن يحس بالإهانة انفجر ضاحكاً. وانتقل الزبون إلى أسلوب أكثر هدوءاً:

«هناك ثلاث شركات اسمها كاساستيلا يا صاحبي وليست شركة واحدة فقط كما قد يظن أي قارئ لهذا الإعلان. وأنت لم تقدم عنوان أي منها. وإعلانك لا يذكر الأحذية ـ أنا أشتغل بالأحذية إن كنت لا تعرف. لقد ذكرت الموضوع ذكراً عابراً بفعل «ألبس الأحذية» في صيغة الماضي، وهذا قد يلتبس مع صناعة الصوف*(18). والكلام بيننا أنا أستطيع أن أفعل أفضل من هذا الإعلان وسيكلفني أقل بكثير.

لم يصلا إلى الغرب. وخاب أمل عمال المكتب الذين يحومون حول معلمهم والمستعدين لضرب أي شخص بعنف، أعاد مع آرنو كتابة الإعلان ثم خرج جامعاً بعد أن حل الظلام، فيما النسيم العليل يهب على البحر ويمر على الشوارع المتحدرة. «هل أنت مهتم بالأثريات؟» سأل صانع الأحذية. «أحب الأشياء الحديثة أكثر» اعترف آرنو. لكنه ذهب برفقة العجوز الفظ إلى بعض حوانيت الأثريات المفضلة

لديه والمنزوية في الزواريب والأزقة. وكانت تلك أول مرة يدخل فيها آرنو إلى محل تحف في حياته. رأى مصابيح قديمة ومباخر فضية، وخواتم ومجوهرات متقنة الصنع ومساند أقدام وأرائك بمقاعد خيزران وثريات من الكريستال وصوراً منقوشة للندن وأمستردام، ومقعد صلاة برسم يدوي وقديساً من الخشب قديماً وحقيقياً. وأحس آرنو ميلو بغتة بلمسة عصا الجمال السحرية.

وفي اليوم التالي في المكتب وهو يقدم النتائج المصممة لنيل موافقة غاستان سيماس، قال:

- تعرف يا غاستان. كنت على حق، باهيا ليست المكان الملائم لهذا الشغل. لن يمشي الحال. لو كان بيدي حيلة لتركت هذا كله واكتفيت بالتجول في الشوارع. غاستان، هل سبق لك أن تطلعت إلى كنيسة الأخوية الثالثة؟

- يا للمسيح. يا ولد، أنا ولدت هنا.

- طيب. أنا أعيش في باهيا منذ سنة ولابد أنني مررت بتلك الكنيسة ألف مرة دون أن أجد الوقت لإلقاء نظرة جادة عليها. أنا حيوان يا غاستان، أحمق وغبي وعامل إعلانات ابن قحبة!.

تنهد غاستان سيماس، لن يصل الولد إلى أي شيء بهذا الموقف.

---

*(18) - صيغة الحاضر التام هي المقصودة وفيها يستخدم اسم المفعول shod وهذا قابل للالتباس مع shoddy نسيج صوفي.

- 3 -

كان الاجتماع الثاني للجنة التنفيذية أصغر بكثير من الأول، وهذا أمر طبيعي. فالاجتماعات الثانية لا تصور للصفحات الأولى. وأكثر ما ينالها سطران في صفحة داخلية.

رئيسا الأكاديمية والمعهد مثلهما البروفسور كالازانس الذي كان عضواً في الهيئة التدريسية في المكانين. وعميدا كليتي الطب والفلسفة وممثل السياحة اعتذروا بحجة انشغالات سابقة مع تقديم موافقتهم وتأييدهم لكل قرار وأي قرار يتخذ.

بروفسور واحد من كلية الفلسفة حضر، وهو البروفسور أزيفيدو الذي جاء بمبادرة شخصية وقد اجتذبته مخططات الندوة. كان متحمساً للفكرة. وكان البروفسور راموس قد كتب له من (ريو) طالباً مساعدته في تنظيم الملتقى، «من الممكن أن يتحول إلى نقطة علام حقيقية في تاريخ الثقافة البرازيلية ـ الندوة الأولى الحقيقية الممنهجة والعلمية حول مشكلة الأعراق وهي المشكلة الأكثر حيوية الآن والأكثر إلحاحاً مما سبق لها أن كانت. إنها مشكلة أن تتفجر عنفاً في كافة أنحاء العالم، وخاصة في الولايات المتحدة، حيث القوة السوداء عامل جديد يجب أن يحسب حسابه، وفي جنوب أفريقيا، حيث يبدو أن التراث النازي قد جعل المشكلة تتفاقم». وقد خطط البروفسور أزيفيدو لتقديم أطروحة موثقة عن مساهمة أرشانجو في الحل البرازيلي للمشكلة العرقية في المؤتمر الذي، كما يقترح إلى البروفسور راموس، يمكن أن يكون شعاره عبارة من كتاب المعلم بدرو أرشانجو «ملاحظات حول التزاوج بين عائلات باهيا» وهي: «إن كانت البرازيل قد ساهمت بأي شيء ذي قيمة في الحضارة العالمية فهو التزاوج ـ تلك هي تقدمتنا إلى خزينة الإنسانية».

وجاءت سكرتيرة مركز الدراسات الفولكلورية إلى الاجتماع. وهي مستكشفة مغامرة عصامية في تعليمها، كان عليها أن تستخلص بحثها دون مساعدة من أحد، وقد كافحت بشجاعة لكي تحتل مكاناً تحت الشمس إلى جانب كافة علماء الأقوام والأنتروبولوجيا وعلماء الاجتماع ذوي الشهادات الجامعية والبعثات في الجامعات والملاهي الأجنبية، وحولهم كتائب من الطلاب والمساعدين في عملهم. كانت مصممة على أن لا تفوت فرصة كهذه. إيدلفايس فييرا، الفتاة الطويلة القوية المتوقدة حماساً من القلائل في باهيا الذين عرفوا كتابات أرشانجو معرفة حقيقية، وهي العضو الوحيد في اللجنة، إضافة إلى البروفسور أزيفيدو والبروفسور كالازانس، الذي تحمل المسؤولية بجدية.

جاء مدير شكة دوبنغ (إس. إي) مزوداً بحقيبة جلدية، وأوراق وخرائط ومخططات وجداول، وأغلق الباب على نفسه في مكتب مدير التحرير. وأرسل الدكتور زيزينهو رسالة إلى كلازانس وزملائه بأن «يصبروا قليلاً.. رجاء» فجلسوا في غرفة الأخبار يتحدثون دون تركيز إلى أن يكون جاهزاً لاستقبالهم.

فيريرنها المكتئب سحب الأمين العام للجنة نحو النافذة وهمس له بهواجسه: الأمور لا تسير على ما يرام «للإمبراطور وجه كالجنازة». وبما أن سيرجيبانو كان يعرف جيداً أن السكرتير موسوس فإنه لم يلق بالاً لهذا الكلام. فهذا هو وقت الشائعات اللامسؤولة والتخمينات المتشائمة والسوداوية واللحظات القلقة، وحين فتح باب المكتب، أخيراً وظهر غاستان سيماس ومدير التحرير لاحظ كالازانس أن الدكتور زيزينهو يبدو قلقاً ومتوتراً على الرغم من جهوده لكي يبدو منشرحاً وودوداً، «اعذروني إذا جعلتكم تنتظرون. تفضلوا إذا سمحتم».

وقبل أن يجلسوا قال كالازانس:

«لم يستطع الدكتور نيتو أن يأتي والسناتور في برازيليا (كان رئيس الأكاديمية قد انتخب سناتوراً اتحادياً) لكنه خولني أن أمثله. وعميد كلية الطب وممثل..»

- «لقد اتصلوا وقدموا أعذارهم». قوطع القطب البارز. «لا يهم، هكذا أفضل، نستطيع أن نتحدث بشكل أحسن في لجنة مصغرة وأن ننظم أفكارنا ونحل كافة المشكلات المتعلقة بحملتنا العظيمة هذه. فلنجلس يا أصدقاء».

وقف البروفسور أزيفيدو خطيباً وقال بزهو خطابي:

«اسمح لي أن أهنئك يا دكتور بنتو لمبادرتك القيمة في الدعوة للاحتفال بالذكرى المئوية. وأحب أن أشير إلى إطراء خاص بالملتقى حول التزاوج والتمييز العنصري. سيكون هذا حدثاً ذا أهمية قصوى لصلته الوثيقة بالأيام التي نعيشها: إنه أهم مشروع علمي جدي يحدث في البرازيل منذ سنوات عديدة. التهنئة يجب أن توجه للّجنة كلها ولك أنت يا دكتور زيزينهو بشكل خاص».

تقبل الدكتور زيزينهو الآراء بتواضع من لا يفعل أكثر من واجبه نحو الثقافة وأرض الوطن. وهو مستعد لتقديم أية تضحية:

- «شكراً جزيلاً يا بروفسور، إن كلماتك مشجعة فعلاً. ولكن بما أنك طرحت الآن مسألة الملتقى فإنني أحب أن أقول بعض الكلمات بهذا الخصوص، لقد كنت أفكر بمضامين برنامجنا وتوصلت إلى بعض النتائج التي أحب أن أطرحها أمامكم لكي يتم تفحصها بما عهدناه فيكم من روح وطنية ووعي. في البدء أريد أن أعبر عن إعجابي بالبروفسور راموس والعمل العظيم الذي قام به. وخير دليل على تقديري هو أنني أنا الذي طلب منه التعاون في تكريم بدرو أرشانجو. ولكن المؤتمر الذي اقترحه، وهو على الرغم من أهميته الكبيرة للعلماء، فإنني لا أراه ذا أهمية ملائمة في الظروف الحالية».

أحس البروفسور أزيفيدو بقشعريرة في ظهره. في كل مرة يسمع فيها هذه الكلمات القاتلة: «الظروف الحالية» يحدث شيء كريه. إن السنوات القليلة الأخيرة لم تكن سارة للبروفسور أزيفيدو وزملائه في الجامعة. ولهذا السبب بالتحديد قاطع الدكتور زيزينهو قبل أن يسمع الأسوأ الذي كان سيأتي:

- بالعكس يا دكتور بنتو. لا يمكن أن يكون هناك وقت ملائم أكثر من الآن، الآن حيث النزاع العنصري في الولايات المتحدة قد كاد يصل إلى حدود الحرب الأهلية، الآن حيث بدأت، الدول الأفريقية الحديثة تمارس دوراً هاماً في السياسة العالمية، والآن حيث..

ـ تلك هي المسألة يا عزيزي ويا صديقي البروفسور. إن الحجج التي أقنعتك بأن الندوة ستكون ملائمة هي ذاتها التي أقنعتني بأنها ستكون مجازفة، لا بل خطرة.

ـ خطرة ؟ قطعه كالازانس: لا أفهم لماذا؟

ـ خطرة جداً يا صديقي العزيز. إن ندوة حول موضوع متفجر ـ التزاوج والأبارثيد ـ سيكون الشرارة التي تشعل حريقاً لا تعرف عواقبه، فكر في طلبة الجامعة وفي طلاب المعاهد العليا. أنا لا أنكر أن بعض مطالبهم عادلة وجريدتنا كان لديها الشجاعة لقول ذلك. ولكن لابد أنك توافق على أن المثيرين المحترفين للقلاقل سيستغلون أية حجة للتغلغل بين صفوف الطلاب لإثارة الفوضى والقلاقل.

لا أمل، قال البروفسور أزيفيدو لنفسه، لكنه تابع القتال قليلاً، ففكرة راموس تستحق محاولة أخرى:

ـ ولكن بحق السماء يا دكتور بنتو، إن الطلاب كلهم، والطلاب اليساريين أيضاً يؤيدون الندوة بقوة. لقد تحدثت مع بعضهم وكانوا جميعاً، مهتمين ويرون أننا يجب أن نقيمها. وفي النهاية، المسألة علمية خالصة.

ـ أترى يا بروفسور؟ كل ما تقوله يدل على أنني محق. هنا بالضبط يكمن الخطر، في تأييد الطلاب. إنها قنبلة موقوتة. قبل أن نحس بالأمر ستتحول هذه الندوة العلمية إلى مسيرات وتجمعات احتجاجية تأييداً للزنوج الأمريكيين وضد الولايات المتحدة. إذا أقمنا هذه الندوة فإنهم قد ينتهون بإشعال النار في القنصلية الأمريكية، أنت نفسك، يا بروفسور، قلت أنها ندوة يسارية.

ـ لا . لم أقل ذلك. العلم هو العلم. ولا علاقة له باليسار أو باليمين. قلت إن الطلاب..

ـ والنتيجة ذاتها: قلت إن الطلاب اليساريين، وجماهير الطلبة، يؤيدون الفكرة، وهنا يا بروفسور، يكمن الخطر.

ـ ولكن في هذه الحالة ألا نستطيع..» ومرة أخرى تقدم كالازانس لنصرة زميله.

وبقلق واضح قرر الدكتور زيزينهو وضع حد نهائي للمسألة:

«اسمح لي بمقاطعتك يا بروفسور كالازانس فنحن نضيع وقتنا، فحتى لو أقنعتني أنك على حق ـ وليس من الصعب إقناعي ـ» وانفجر مرتبكاً بشكل واضح. «حتى لو أقنعتني لا يمكن أن تقام هذه الندوة» وتابع باستنكار متزايد «لقد كنت.. طيب.. كان عندي ضيف.. ولقد أتيحت لي الفرصة للنظر إلى المسألة من كافة الزوايا».

ـ زائر؟ من هو؟ سألت سكرتيرة مركز الدراسات الفولكلورية، التي لا علاقة لها بتاتاً، حين يتعلق الأمر بالدقة السياسية.

«شخص يملك الحق في زيارتي يا سيدتي العزيزة. وأرجو أن يكون الدكتور أزيفيدو قد تفهم موقفي الآن. والحقيقة أنني أتمنى أن تشرح هذا كله للبروفسور راموس، لا أريده أن يسيء الظن بي».

وتطلع عبر النافذة إلى البار في الطرف الآخر من الطريق حيث كان المراسلون يتناولون القهوة والحليب مع سندويتش الزبدة.

«لا نستطيع دائماً أن نرى الصورة الكبيرة. فهناك تفصيل صغير يمكن أن يجعل ما يبدو فكرة جيدة في الظاهر يتحول إلى شيء غير مرغوب فيه في وقت معين. وسأفضي لكم بمعلومة على غاية السرية: في هذه اللحظة بالذات، إن سياسيينا يسعون الآن للتوصل إلى اتفاقية تجارية هامة مع جنوب أفريقيا. وسيكون من مصلحتنا أن نصل إلى روابط قوية مع دولة قوية حققت معدلات عالية في النمو. وحتى قيام تحالف سياسي مناهض للشيوعية احتمال وارد. وفي النهاية نحن حلفاء في الأمم المتحدة، إننا ندافع عن نفس وجهات النظر. والخط الجوي الذي يربط بين ريو وجوهانسبرغ سيفتتح خلال أيام قليلة. أتدركون ما يعني هذا؟ كيف نختار هذا التوقيت لعقد اجتماع للعلماء البرازيليين ضرب الأبارثيد، أو بالأحرى جمهورية جنوب أفريقيا، على الرأس؟ ولن أذكر الولايات المتحدة والتزاماتنا نحو هذه الدولة العظمى. الآن بالتحديد وفي الوقت الذي يسبب لهم زنوجهم المشاكل هل سنكون نحن من يصب الزيت على النار؟ إنها خطوة واحدة تفصل بين العنصرية وبين فيتنام. خطوة صغيرة واحدة. هناك حجج قوية وجادة ومهما بلغت رغبتي في دعم خطتنا فإنني لا أستطيع الوقوف في وجه هذه الحجج».

ـ «تعني أنهم لن يسمحوا لنا بإقامة الندوة؟» أصرت سكرتيرة مركز الدراسات الفولكلورية، فوقعت في الرذيلة الشائعة المتمثلة في استخدام اللغة البسيطة المباشرة.

تمالك الدكتور زيزينهو نفسه ورفع ذراعيه:

ـ «أرجوك يا دونا إيدلفايس. لم يقل أحد شيئاً عن عدم السماح بعقد الندوة. هذه ديمقراطية. لا أحد يقول أنك لا تستطيعين أن تفعلي أي شيء في البرازيل. الأمر متروك لتقديرنا. نحن الذين قررنا إلغاء هذه الندوة، بعد مناقشة الأمر على قاعدة المعلومات التي وصلتنا ـ نحن، اللجنة التنفيذية، وليس أي شخص آخر، وهذا لا يعني، طبعاً، أننا لا نستطيع أن نحتفل بمئوية بدرو أرشانجو، لقد تم تجميع مواد الملحقات الأربعة وغاستان جلب لي أخباراً مشجعة، فالأمور التجارية ممتازة. والاجتماعي الختامي المهيب سيعطي لمسة علمية من خلال الحكايات التي لابد منها. وإضافة إلى ذلك ليس هناك ما يمنعنا من التوصل إلى فكرة أخرى طالما أنها ليست لها منعكسات هدامة مثل فكرة الملتقى والندوة».

ووسط إحدى وقفات الصمت المميزة لحالة كهذه نهض الدكتور زيزينهو مثل فينيق من رماد الموضوع المختلف عليه:

«مثلاً ما رأيكم في مسابقة كبيرة بين طلبة المعاهد العليا يكتبون فيها موضوعات إنشائية حول موضوعات وطنية أو معاصرة؟ يمكننا أن نقدم جائزة «جائزة بدرو أرشانجو» جائزة ذات قيمة فعلية تجعل الجميع راغبين في كسبها، رحلة جوية إلى البرتغال وإقامة أسبوع مع نفقاتها كلها تدفع للفائز، ومن يرغب في اصطحابه، ما رأيكم! أرجوكم. أسمعوني أفكاركم . وشكراً جزيلاً لكم»

وهذه المرة لم يقدم لهم حتى الويسكي البرازيلي.

«جمعية كتّاب الطب» مكتبها الرئيسي في باهيا، ولها فروع في محافظات أخرى، أصدرت بياناً صحفياً تعلن فيه تأييدها للاحتفالات. وبدرو أرشانجو، الذي لم يكن يحمل شهادة في الطب، كانت له علاقة وثيقة بمهنة الطب من خلال الحبل السري لأكاديمية باهيا للطب «التي خدمها خدمات جلى وبإخلاص مؤثر».

وكان رئيس هذه المنظمة النشطة خبير أشعة مشهور، ورئيس مستوصف ناجح، وسبق له أن كتب

سير حياة أطباء بارزين. وبعد ترشيحه للتحدث ـ السادس! ـ في الاحتفال النهائي انطلق يبحث عن تفاصيل دقيقة وحميمية متعلقة ببدرو أرشانجو، عن شيء سيضيف لمسة إنسانية لخطابه العلمي الجاف. وراح مصدر معلومات يحيله إلى الآخر، وأخيراً وصل إلى الميجور داميان دوسوزا في غرفة الاستشارة المخصصة له منذ سنوات في بار بيزاريا، في زقاق قذر بعيداً عن بيلورينهو.

بار بيزاريا، أحد البارات القليلة المتبقية في باهيا التي لا تزال تقدم لزبائنها موائد وكراسي وتمكنهم من التمتع بالحديث، وكان ذات يوم يتمتع بأفضل موقع في براشادوسي. وهو ملك لغاليسي دمث جاء من بونتيفيدرا منذ أكثر من نصف قرن، وقد أقام أبناؤه الآن كافتريا خدمة ذاتية وأكل على الواقف في الركن المرغوب ذاته. كانت هذه الفكرة الجديدة مدهشة، وقد نجحت نجاحاً سريعاً وفورياً، فبأسعار معتدلة يأخذ الزبون طبخة اليوم في صحنه وما يختاره من المرطبات ثم يركنهما على رف على طول الجدار وخلال عشر دقائق ينتهي ويخرج متخلصا من عبء الأكل ـ لا وقت يضيع، الوقت الذي يستطيع فيه أن يكسب مالاً. الغاليسي العجوز، الذي كان مغرماً بزبائنه وبكأس الخمرة الجيدة (ليس أنه يأنف من الكاشاشا، إن كانت من ماركة فاخرة) سلم المكان الثمين لأولاده المتحمسين المتقدمين، لكنه تشبث بباره وكراسيه وموائده والحديث الحار الذي لا يحدده زمن. وقد أقامه مرة أخرى في زقاق تتردد عليه المومسات وأبقى على رعاية مدمني الشراب والحديث الذين كانوا أصدقاءه وزبائنه معاً. وأحد هؤلاء المداومين الأبديين، الذي له كرسي محجوز كل مساء. هو الميجور الذي لم يتغيب أبداً عن المقبلات قبل العشاء.

وأحس خبير الأشعة، المحافظ نسبياً، بالغرابة، إن لم يكن بالامتعاض، في هذا المكان المهجور، كأنه قد عاد إلى الوراء في الزمن نحو مدينة محرمة ! الأرض السوداء المرصوفة بحجارة الشوارع، الضوء الخافت، الجدران التي عمرها قرن من الزمان، الظلال والروائح الشرقية.. ووجد أنه لم يكن الوحيد الذي جاء يبحث عن الميجور من اجل الذكريات المتعلقة ببدرو أرشانجو ذلك المساء: غاستان سيماس الشهير وأحد نفايات الوكالة الإعلانية كانا هناك. كان ينهيان كأسين من خميرة الجعة القوية، المعروفة منذ زمن طويل باسم «التيس الفظ» وكان الدلوع الشاب (الذي عرف اسمه فيما بعد آرنوميلو) يأكل الحلويات ـ «التي لا مثيل لها في القدرة على إظهار طعم الأشياء الأخرى». وكانت الباهية نفسها تأتي كل ليلة منذ عشرين عاماً لكي تجلس مع صينيتها وكانونها عند باب البار، وقد انتقلت مع الغاليسي من براشاداسي. كل شيء كان جديداً ومثيراً لرئيس جمعية كتاب الطب. كان عالمه محدوداً بالمستشفى والإقامة فيه وغرفة الاستشارة في (رواشيلي) وبيته في غراشا، ولقاءاته العلمية الأدبية وحفلات العشاء والاستقبال. أيام الأحد كان يسمح لنفسه بالدلال من خلال لحم لخنزير مع فول (فيجوادا) والسباحة في البحر.

ـ خبير أشعة؟ قال الميجور وهو يقرأ بطاقة الدكتور. «جميل. كنت أبحث عن خبير. فالدكتور ناتال في إجازة والدكتور همبرتو خارج البلد. اجلس، هذا المكان لنا، فتصرف وكأنك في بيتك. ماذا تأخذ؟ مثلنا؟ أنا أوصي به. لا شيء أفضل منه لإنعاش شهيتك. باكو!» نادى وهو يلتفت إلى الإسباني «دورة أخرى من التيس الفظ. وأريدك أن تأتي لتتعرف على الدكتور بينيتو الذي يسعدنا برفقته هذا المساء».

من قبيل النشاط المحض تناول الدكتور بينيتو الكأس وتذوق متخوماً هذا المزيج غير المعقول. آه لذيذ، كان سيماس وآرنو. وقد تابعا في طريق أرشانجو المتعرج، قد سبقاه كثيراً وصارا في الكأس الرابع والخامس على الأقل، ومج الميجور الفذ مجة من سيجارة ذي الرائحة الكريهة: «يقولون إنه

ذات يوم سمعت إيابا بأساليب بدرو أرشانجو في مطاردة النساء وقررت أن تلقنه درساً بأن تجعله يبدو مثل المجانين، فحولت نفسها إلى أجمل فتاة صغيرة وملونة في باهيا..

وسأل آرنو! ما هي الإيابا؟

ـ شيطانة ذيلها مطوي.

تناولوا العشاء في البار: سمك مقلي بزيت النخيل الأصفر مع الكثير من البيرة المثلجة لإطفاء السمك في البطن، وحين انتهوا مصمصوا شفاههم، مرتين، وهم يأكلون طلب الميجور دورة من الكاشاشا «لنر البيرة من المعلم»

خلفوا العشاء وراءهم وعبروا الطريق إلى الطابق الثاني حيث قلعة استر، اليوم هي ملك لروث هونيبوت، ولكن مازال من الممكن الحصول على براندي خاصة من تعتيق أرشانجو. فيما بعد غنى غاستان سيماس «أرض متلامعة بالنجوم» لجمهور حالم ومقدر وألقى آرنو ميلو خطاباً، مشوشاً من الناحية الأيديولوجية، لكنه قيل بعنف عن الرأسمالية والمجتمع الاستهلاكي.

في الثانية صباحاً، وبقوة إرادة عظيمة استطاع الدكتور بينيتو أن يقتلع نفسه من الجو. ألقى بنفسه في سيارة تاكسي تاركاً سيارته مصفوفة في البلازا، لم يسبق له أن شرب بهذا المقدار في عمره كله ولا حتى أيام التلمذة، ولم يسبق له أن سمع بالتأكيد سلسلة مضحكة كهذه من الحكايات المجنونة: «اعذريني يا عزيزتي ولكني اختلطت مع أكثر الناس غرابة! والشيء الوحيد الذي عرفته عن أرشانجو هو أنه ذات مرة عاش الخطيئة مع شيطانة».

ـ مع شيطانة؟ قالت زوجته وهي تعد له كأساً من عصير الفواكه.

وحين ذهب الدكتور بينيتو إلى مكتبه في اليوم التالي وجد ثلاثة مرضى أرسلهم الميجور ومع كل منهم مذكرة: «هذه المذكرة للتعريف بحاملها المحتاج ولتقول إن الميجور داميان دوسوزا سيكون ممتناً إذا تلطفت بفحصه بأشعة إكس وسيعوضك الله أضعافاً مضاعفة»

فحصان بأشعة إكس للرئة وواحد للكلية. وهذه الفحوص الثلاثة هي القطرات الأولى من طوفان الفقراء.

- 5 -

بين المؤسسات التي قدمت مساهمتها لمئوية بدرو أرشانجو كانت كلية باهيا للطب هي الأكثر حماساً. وفي مقابلة لستي نيوز تمت بعد قليل من بدء الحملة الإعلانية وحين كان لا يزال البحث جارياً عن تصريحات مؤيدة، أعلن ناطق باسم الكلية «بدرو أرشانجو يخص كلية الطب. وكتاباته جزء من ميراثنا المقدس الفريد الذي ولد في الساحة الموقرة الملحقة بمعبد يسوع في كلية الجزويت المبجلة، والتي تابعت ازدهارها بإشراف الأساتذة المخلصين من كلية الطب منذ أن أقيمت على أسس أول مؤسسة للتعليم العالي في البرازيل، إن كتابات بدرو أرشانجو التي تلاقي التقدير الآن خارج حدود بلادنا، ما كانت لتكتب لولا أن مؤلفها، الموظف الإداري في معهدنا، قد أغرق نفسه في روح المؤسسة العظيمة التي، وإن كانت الأولى والسباقة كأم راعية لعلم الطب، لم تتخلف أبداً عن رعاية العلوم الأخرى، وبشكل خاص الفنون الجميلة، إن بعض أعظم خطباء البرازيل قد رفعوا أصواتهم في هذا المعهد الموقر، ورجالات الأدب المشهود لهم بقوة الأسلوب ونقاء اللغة كان لهم دورهم أيضاً. العلم والأدب، الطب والبلاغة، قد ساروا جنباً إلى جنب في هذه الساحات وهذه القاعات. ولقد طرّق بدرو أرشانجو فولاذ تصميمه في جو الطموح الودود هذا، وغط قلمه في مبادئ هذه المدرسة المقدرة على مر الزمن.

وبفخر له ما يبرره نعلن في هذه المناسبة الكريمة إن كتابات بدرو أرشانجو نتاج كلية الطب في باهي». وبشكل ما كان الناطق مصيباً.

حيث يتحدث الكاتب عن الكتب والفرضيات والنظريات لأساتذة وشعراء جوالين أو عن ملكة سبأ والكونتيسة والإيابا، ووسط هذا الخليط من الموضوعات يطرح لغزاً ويغامر برأي خاص له.

- 1 -

يقولون، يا حبيبتي، أن إيابا، ذات يوم، مرت في باهيا فأغضبها فجور بدرو أرشانجو وفسقه ودعارته الاستعراضية؛ ذلك الرجل الذي صار سيداً على عدة نساء وليس عبداً لأية امرأة، ذكر لديه من الإناث أكثر من حاجته، راع لقطيع طيّع ومخلص. كان من الأفضل له أن يكون زعيماً لقبيلة في غرب أفريقيا محاطاً بحريمه؛ فالمخجل أن النساء حوله تعرض كل منهن عن الأخرى، يتبادلن الزيارات وتعتني كل منهن بأبناء الأخرى، وكلهن ملك لأرشانجو. تنادي كل منهن الأخرى كومادر أختاً، ويرقصن ويغنين ويثرثرن ويمرحن كلما وجدن أنفسهن لسن متحلقات حول النار لإعداد أكلات طيبة للإمبراطور لكي يأكل.

كان بدرو أرشانجو يزورهن جميعاً، واحدة بعد الأخرى، ويسعدهن وكأنه ليس لديه ما يفعله في حياته إلا الأكل والنوم. لورد، باشا، سيد مطاع مستعد دائماً للقفز إلى السرير، أو للجلوس إلى مائدة. كان يعيش حياة رغدة هانئة لا هم له فيها. ما من امرأة حية سبق أن جعلته يعاني الألم أو الشهادة أو الخوف من عدم القدرة على الحصول عليها أو من فقدانها؛ فالنساء قليلات الحياء المتملقات ليس لهن كبرياء وهن يركضن وراءه أو يتعلقن برقبته للتملق والإثارة؛ ولم يخطر لهن حتى في أقصى أحلامهن أن يتركنه أو يظهرن غيرتهن أو يركبن له قروناً. تلك هي متع بدرو أرشانجو؛ فمه وذراعاه ممتلئة دوماً

هذه الحالة لا يمكن التسامح معها بالنسبة لإيابا وهي حالة مهينة لجنس النساء، ولذا فقد قررت أن تعاقب المعلم أرشانجو بقسوة، أن تلقنه درساً قاسياً ومريراً عن آلام الحب، الشوق والانتظار، التوسل والرفض، الاحتقار والإهمال، الخيانة والعار والحزن للحب غير المتبادل. مطارد النساء، المغوي المسترخي على سرير لا حدود له على سجادة صوفية مزغبة أو على سرير خشبي، على ضفة رملية أو على أرض غابة، في الفجر أو في الغروب لم يجرب هذا الألم في حياته. طيب. سوف يتألم الآن. وتعهدت إيابا أن تتحدى لا مبالاة أرشانجو العبثية: ستكون أضحوكة باهيا والعالم كله، يا رجلي، وعضوك متراخ وقلبك كتلة من الأوجاع ورأسك محتشد بالقرون، محط السخرية والاستهزاء - بدرو أرشانجو. إنك لم تعرف ذلك بعد. ولكنه قد جاءك!

وهكذا تحولت إيابا إلى أجمل امرأة سوداء شوهدت في أفريقيا أو كوبا أو البرازيل، أو عرفت في قصة أو أغنية أو أسطورة؛ أقصى ما تصل إليه الزنجية، كهرمان أسود متلألئ. عطر الورود منشور عليها لإخفاء رائحة الكبريت، وصندل مغلق ليخفي حافريها المشقوقين أما ذنبها فقد تحول إلى مؤخرة متأرجحة مليئة تهتز تلقائياً. ولإعطاء القارئ فكرة بسيطة عن جمالها لا أحتاج إلا إلى القول إنه طوال الطريق بين وسط المدينة وخيمة المعجزات طارت عقول ستة خلاسين وزنجيين واثني عشر رجلاً أبيض حين رأوها تتخطر، وانفض عقد حفل ديني حين مرت أمامه. وقد شوهد الكاهن وهو يمزق

قلنسوته ويتخلى عن إيمانه حتى أن القديس أونوفر التفت من محفته وابتسم لها.

ضحكت إيابا سعيدة في فستانها المنشى: سيدفع الأحمق الوقح غالياً ثمن عجرفته وتباهيه على أنه حصان نكاح، فحل في حقل مزهر من النساء. ستجعل محركه المتبجح يتوقف بسرعة. ستجعله يتراخى ويذبل ويصبح بلا فائدة قطعة متحف مهترئة وسخة. هنا يوجد قضيب بدرو أرشانجو: كان شهيداً ذات يوم ولكن إيابا قضت عليه. ولن يكون هذا إلا البداية.

كانت الشيطانة واثقة من انتصارها من جهة محددة: فقد كان من المعروف تماماً أن الإيابات يمكنهن التحول إلى نساء جميلات بشكل غير مألوف ولديهن فتنة لا تقاوم، وعاشقات متوهجات متأججات مع مداعبات خبيرة؛ كما أنه من المعروف على نطاق واسع أنهن عاجزات عن الوصول إلى النشوة في المتعة ـ لا يصلن إلى ذروة جنسية، ولا يحسسن بالاكتفاء، حلت عليهن اللعنة الأبدية في حالة سعار محبط. قبل أن يستطعن الوصول إلى أبواب الرحيق الإلهي ليعبرنها إلى الفردوس فإن عضو شريكهن المخصص للمتعة يتهاوى ويصبح عديم القيمة، مجرد قطعة ذاوية من اللحم. لم يسمع أحد أبداً عن عضو استطاع أن يعصف بجدران هذا السعار العبثي وينقل إيابا عقيماً ملعونة إلى ساعة صيحة التهليل والتمجيد.

ولكن انتقام إيابا لن يتوقف عند إصابته بالعجز. إخفاق أرشانجو في الفن الحلو والعنيف لن يكون النهاية؛ يجب أن يجرح قلبه ويتحطم أيضاً، فإيابا مصممة على أن تتصرف معه على هواها، ستحوله إلى متسول تعيس، وإلى عبد بائس، وشحاذ محتقر. فأي نوعي العار أكثر تخويفاً وأكثر ازدراء؟

سارت المرأة المزيفة راضية سعيدة في الشارع وقد ترتبت مخططاتها كلها: بعد أن تتركه يتذوق فرجها وتراقبه وهو يتلاشى متخدراً ألف مرة؛ بعد أن تتأكد من أنه قد وقع في شباكها، عند ذلك ستتركه دون اهتمام ودون حتى أن تقول له وداعاً. كم سيكون جميلاً أن تراه يزحف وأن تجعل الجميع يرونه، متضرعاً عند قدميها، يلعق غبار الطريق، يقبل آثار أقدامها، الرجل كله يتحول إلى خرقة قذرة، نفاية من الخارج وديك وديوث خانع من الداخل، يطلب منها نظرة واحدة، إشارة واحدة من أصبعها أو من كاحلها ـ آه أشفقي علي وأعطيني حلمتك، حبة العنب السوداء الممتلئة في حلمتك.

بعد جعله عرضة للاحتقار والاستهزاء ستنزل به إيابا إلى حضيض أحط، إلى فقدان الشرف ـ تقدم نفسها للآخرين بالحديث الشيق والوعود وبمغازلة الجيران تحت أنفه. وسيراه الجميع وهو يعض طرف الجرس وغطاء المبولة وحتى الحجارة في الطريق. سيرونه ملتجئاً إلى نفسه، وخنجره مشهر وسكينه خارجة من غمدها: عودي وإلا قتلتك، عليك اللعنة؛ إن منحت زهوتك لرجل آخر ستموتين، وبعدها سأقتل نفسي.

انظروا إليه يزحف في أنحاء باهيا كافة في ضوء النهار والجميع يرونه وهو يبكي ويتوسل، ديوث بلا شرف، مجرد من آخر غلالات الأدب والكبرياء، تحول إلى دودة في الطين وهو يحس أخيراً بالعار، بالموت، بألم الحب. عودي! واجلبي معك عشاقك، اجلبي رجالك، ركبي لي كل القرون التي تريدينها. غطيني بالقيح والبراز، أريدك أحتاج إليك، عودي، وسأكون ممتناً.

الإيابات لا يصلن إلى الذروة الجنسية كما نعرف، ولكنهن أيضاً، لا يعرفن الحب ولا الألم، لأن الإيابات، كما تبين بالدليل القاطع، لا قلوب لهن ـ صدورهن خاوية، خاوية بطريقة لا براء منها. ولذلك، ولأنها شريرة ومحصنة، ضحكت في سرها وهي تتابع طريقها ومؤخرتها ترتج بطريقة مثيرة والرجال

يقتلون أنفسهم من هذا المنظر، يا مسكين يا أرشانجو.

ولكن يحدث، يا حبيبتي، أنه حين تضيء الليل نجمة المساء، ويغادر القمر بيته في إيتاباريكا ويأتي ليطل على البحر الزيتي الناعم، الأزرق المخضر، يكون بدرو أرشانجو مسترخياً عند مدخل خيمة المعجزات بانتظارها. كان ينتظر هذا القمر وهذه النجوم وهذا البحر الصامت، وأغنية:

شكراً يا سيدتي شكراً

للطفل

أرى أنك رائعة

وجميلة، وتمرين غريبة

كبر قضيبه كثيراً وهو ينتظر متشوقاً حتى أنه اتكأ عليه كعكاز؛ عبير ذكورته كان قد فض العذراوات وحبلهن على بعد فراسخ.

وقد تسألين يا حبيبتي: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف عرف أرشانجو بمؤامرة الإيابا الحاقدة؟ حل لي هذا اللغز! لكن الأمر في غاية البساطة: أوليس بدرو أرشانجو الابن المدلل لإيكسو، رب الطرق والمصلبات؟ وهو عينا كسانغو - نظره يصل إلى مسافات بعيدة، وهو يستطيع أن يرى باطن الأشياء.

إيكسو هو الذي حذره من حماقة بنت الشيطان المستبدة ومخططاتها الشريرة وهي التي لا قلب في صدرها. حذره إيكسو وعلمه ما يجب أن يفعله: «خذ حمام عشب أولاً، ولكن ليس أي نوع من الأعشاب. اذهب إلى أوساين الذي يعرف بالنباتات واسأله عن نوع الأوراق التي يجب أن تستخدمها. ثم أعصر بعض الكرز البرازيلي وامزج العصير بالملح والعسل والفلفل وحمّم أبا الدنيا به، وحمم التوأم أيضاً - الخصيتين. سيؤلمك ذلك، ولكن تحمل، كز على أسنانك كرجل، وراقب ما سيحدث؛ سيكون لك أفضل قضيب في الدنيا من حيث الحجم والطول والصلابة والمتعة والجمال والإثارة. ما من فرج امرأة أو إيابا، سيتعبه، أو حتى أن يصمد أمامه».

ولكي يكمل التعويذة أعطى أرشانجو كيلي وكساورو - العقد والخلخال المخصصين للعبيد «أربط هذا العقد وهذا الخلخال عليها وهي نائمة لكي تثبت رأسها وقدمها وستصبح أَمَتك إلى الأبد. وكسانغو سيخبرك بالباقي».

أمره كسانغو أن يضحي باثني عشر ديكاً أبيض واثني عشر ديكاً أسود مع اثنتي عشرة دجاجة هندية ملونة وحمامة بيضاء ذات صدر مدور جميل وهديل منغم. وفي نهاية الأضحية أعد كسانغو سحر ماندنغو خاصاً: أخذ قلب الحمامة النازف العاشق وصنع منه كرة حمراء وبيضاء. وأعطاه لأرشانجو وهو يقول بصوته المزيج من البرق والرعد: «استمع إلي يا أوجوبا واحفظ هذه التعويذة عن ظهر قلب: حين تُثَبّت الإيابا من يديها ورجليها، وتكون نائمة وعاجزة، ضع هذه الكرة في شرجها: ثم انتظر وانظر ما يحدث. لا تهرب مهما حدث. ابق حيث أنت وانتظر» لمس أرشانجو الأرض بجبهته وقال: أكسي.

بعد ذلك استحم بالأوراق التي اختارها له أوساين واحدة واحدة، وبالعسل وبماء الكرز الأسود، الممزوج بالملح والفلفل المدغشقري زَيّت مسدسه ورآه يكبر بحجم عصا الحجاج. ثم خبأ الكيلي

والكساورو وقلب الحمامة، كرة كسانغو الحمراء والبيضاء، في جيبه. وبعدها جلس في باب خيمة المعجزات ينتظرها.

بدأ الأمر منذ أن دارت المنعطف دون حياء ودون تهيئة أو مقدمات. ما إن ظهرت الإيابا حتى تقدم قضيب أرشانجو لملاقاتها ورفع تنورتها المنشاة ليملأ فرجها تماماً: النار ضد النار، والعسل ضد العسل، والملح ضد الملح، والفلفل ضد الفلفل الأحمر الحار. من يستطيع أن يحكي قصة تلك المعركة، ذلك الحب، تلك الحرب بين الخصمين البارعين، اصطدام المهرة بالفحل، مواء قطة تنزو، وعواء ذئب، ونخير دب بري، وشهقة العذراء التي تصبح امرأة، وهديل الحمام واصطدام الموج، من يا حبيبتي يستطيع أن يصف ذلك؟

تدحرجا على الطريق وهما متشابكان وتوقفا على رمل المرفأ فيما الليل ينقضي. جاء المد والجزر وحملاهما بعيداً فاستمرا في جموحهما الهائل في قاع البحر.

لم تتوقع الإيابا أن تصطدم بمقاومة كبيرة كهذه. في كل مرة يقضي فيها أرشانجو شهوته تقول المرأة الشيطانية لنفسها يائسة خائفة: «الآن سينكمش ويسترخي!» ولكن شيئاً من هذا لم يحدث: بدل الكماش والموت يصبح قضيبه أكثر قوة ودغدغة.

لم تحلم في حياتها بمتعة كهذه؛ هذا القضيب من العسل والفلفل والملح، نشوة النشوات، الظاهرة السيركية، آه، فقط لو أنني أستطيع... ولم تستطع.

استمر التصادم الملحمي، والعربدة القصوى، ثلاثة أيام وثلاث ليال دون توقف؛ عشرة آلاف مرة اعتلاها في مضاجعة واحدة طويلة؛ واستمر سعار الإيابا القاحل طوال ذلك؛ ثم بغتة تحطم السحر وانفجرت نشوتها كما تنفجر السماء بالمطر. امتلأت الصحراء بالماء وتحطمت التعويذة الجافة وغُلبت اللعنة. المجد لله. هللويا!

وأخيراً نامت، مثل أنثى حيوان لم تصبح امرأة بعد. وهيهات لها ذلك!

تمددت الإيابا نائمة في غرفة أرشانجو ذات الروائح والظلال المختلطة، على بطنها: جميلة جمالاً مستحيلاً وسوداء سواداً حالكاً. حين انتظم تنفسها وهدأ ثبت أرشانجو الكيلي حول عنقها والكساورو حول كاحلها وجعلها أسيرة له. ثم وبكياسة ابن باهيا أصيل أدخل في شرجها قلب الطائر، كرة كسانغو المسحورة.

وبغتة أطلقت صرخة وتجشأت بصوت قوي. كلا الأمرين كان مخيفاً وشاذاً ومرعباً؛ تحول الهواء إلى كبريت خالص. رائحة نتن قاتل ودخان. لمع البرق فوق البحر، وارتفع صدى مخنوق للرعد، وانفلتت الرياح من عقالها ولفت الكون من طرفه إلى طرفه عاصفة عاتية. وتعالى القطر في السماء فخبأ الشمس.

ولكن كل شيء عاد إلى سكونه وهدوئه من جديد: نشر قوس قزح ألوانه، وأعلن أوكسوماري الفرح والسلام. وبعد رائحة الكبريت جاء عبير الأزهار المتفتحة. ولم تعد الإيابا إيابا بل صارت دوروشيا السوداء. لقد زرعت فنون كسانغو في صدرها أكثر القلوب رقة وليونة وحباً. دوروشيا السوداء بفرجها الناري، ومؤخرتها الجريئة وقلب الحمامة الهادلة.

انحلت المشكلة وفسر اللغز وجاء جواب الأحجية ـ وهنا، يا حبيبتي، تنتهي الحكاية. وما الذي ظل ليُحكى أصلاً؟ اختارت دوروشيا قديساً حامياً وصارت الابنة الباسلة ليانسان، ربة العواصف، حلقت شعرها وتعلمت المبادئ: صارت كاهنة وراحت ترقص في طقوس إكسو لتستهل التزاماتها الاحتفالية. وتؤكد بعض الشائعات عند من عرفوا قصتها إنه كان بالإمكان تشمم رائحة الكبريت حين كانت دوروشيا تقود الرقص في أرض الطقوس، ظلت هذه الرائحة من أيام كانت فيها إيابا وكانت تحاول أن تهزم أرشانجو من خلال لعبته.

لكن الخلاسية كانت جوزة صعبة الكسر. لقد حاول معها آخرون في خيمة المعجزات وفي شارع تابوان وفي كلية الطب في منطقة يسوع، ولكن أحداً لم ينجح معها ـ ما لم تكن روزا. إن كان هناك من استطاع أن يعلم أرشانجو معنى الأم فهي روزا. ولا أحد غيرها، حتى إيابا الشيطانية ذات القفا الأسود، وحتى بروفسور الجامعة بكل علمه وسترته المفصلة تفصيلاً جيداً. لا أحد استطاع ذلك.

حاول خادم المطبعة أن يخفي النعاس الذي استولى عليه أمام الرجلين المنحنيين على آلة الطبع. يجب أن يكون موجوداً حين تصدر الصفحات الأولى. لقد توقد حماسه طوال أشهر وفي كل خطوة مثل حماس أرشانجو وحماس ليديو. وكان ليديو هو الأكثر حماساً بينهما، حتى ليظن أي إنسان أن ليديو كورو هو مؤلف كتاب أرشانجو الأول: «الحياة اليومية في باهيا».

نام آخر السكارى وتوقف آخر غيتار عن عزف السريناد الهادئ. وتردد صياح الديكة في الشوارع؛ بعد قليل ستدب الحياة في المدينة. وسمع المتمرن الفصول تقرأ له بصوت عال وساعد في صف الصفحات وتهيئة الآلة الطابعة من أجل هذه السطور الأولى. حاول أن يخفي تثاؤبه وعينيه المتألمتين وجفنيه المرتخيين، لكن ليديو لاحظ الأمر وطلب منه أن يذهب للنوم.

ـ ليس بعد يا معلم ليديو. لست نعساناً.

ـ إنك تنام وأنت واقف. اذهب ونم.

ـ أرجوك يا عرّابي ـ كان الصوت اليافع أكثر من رجاء. كان دافئاً ومليئاً بالتصميم ـ أرجوك قل للمعلم ليديو أن يتركني هنا حتى النهاية، لم أعد نعساناً».

يجب أن ينتهي الكتاب هذه الليلة لأنهم سيحتاجون الآلة الطابعة العتيقة والمطبعة في الصباح التالي لأعمالهم المألوفة: كراسات مغني الشوارع والنشرات لمحلات الخرداوات وللبقاليات. وفي آخر الشهر سيكون على ليديو كورو أن يدفع لاستيفان قسطه وهذا التزام مقدس. كان كفاحاً من الزمن وضد آلة الطبع اليدوية الصغيرة التي كانت معلولة وعنيدة ومزاجية. كان ليديو يسميها «الخالة» ودائماً يطلب بركتها ودعاءها وتعاونها. وفي هذا اليوم جاءتها إحدى نوباتها المؤقتة وقد اشتغلوا طوال الليل في إصلاحها.

كان اسم المتمرن تادو. وكان يحب عمله. فحين رغبت استيفان داس دوريس في التنحي وبيع معداته كان ليديو قد اتخذ من ابن الشارع داميان مساعداً له. ولكن لم يدم الأمر طويلاً فالحبر والمطبعة لم يجتذبا ذلك الولد البري الجموح. كان يريد الحركة العنيفة والحرية في الشوارع. أمن لنفسه عملاً في المحكمة لمراسل ليزرع الشوارع حاملاً الأوامر القضائية والدعاوى ومذكرات الإحضار والاستدعاءات راكضاً وعائداً بين القضاء والمحامين والحجاب والكتّاب في المحاكم. ومنذ بداية عمله

كان داميان تجسيداً للشطارة والملعنة. وراح المتدربون يتتابعون ولكن واحداً منهم لم يستمر طويلاً في المحل الصغير المزدحم بالعمل ولم يحب أي منهم هذا العمل. وكان تادو أول ولد يقنع المعلم ليديو.

هلّل لموافقة معلمه بصرخة ورش الماء على وجهه ليطرد النعاس. كان قد تابع عمل أرشانجو يوماً بيوم. وصفحة بعد صفحة. ولم يكن يخمن مدى فائدته للرجل الذي يعتبره عرابه، كم من التشجيع كان يمنح أرشانجو في تلك المهمة الجديدة والصعبة، فن الدقة والإحكام، إبراز الحروف أو تحقيقها ووضع الحقيقة على الورق، حرفة الكلمات ومعانيها.

كان بدرو أرشانجو قد كتب من أجل هذين الاثنين وبسببهما؛ من أجل صديق العمر والرفيق والشريك ـ أخيه التوأم ـ ومن أجل هذا الولد النحيل الحيوي المجد ذي العينين الفاهمتين. والآن انتهى العمل أخيراً واستطاع ليديو أن يجلب ورقاً بالدين.

جاءت الفكرة الأساس من فالدلوار، مصارع الكابويرا وراقص الكارنفال من توروro: ولكن إشارات وتلميحات أخرى جاءت في الوقت ذاته، فتحمس بدرو أرشانجو وتناول قلمه. كان يحب أن يقرأ دائماً في كتاب يقع بين يديه وأن يسجل بعض الحقائق الهامة والحكايات والأحداث. كل ما له علاقة بعادات أهل باهيا وطبائعهم؛ لكنه لم يكن يطمح لأن يكون كاتباً. على الرغم من أنه، أكثر من مرة، قد خطر له أن هذه الملاحظات التي يدونها يمكن أن تشكل رداً ساحقاً على النظريات التي يؤمن بها بعض أساتذة الجامعة ـ النظريات التقليدية التي كان قد سمعها تتكرر في الصفوف والباحات وممرات كلية الطب.

وقد جاءت الفكرة في أمسية كانت الكاشاشا تتدفق بسخاء. وكانت هناك مجموعة كبيرة مهتمة تصغي لأرشانجو وهو يحكي قصة بعد قصة، وكل قصة أجمل وأكثر إيحاء من الأخرى؛ بينما كان ليديو كورو وتادو يربطان رزماً من كراس يحكي فيه جوان كالداس «شاعر الشعب وخادمه» بهزلية أبيات من سبع مقاطع قصة زوجة حافظ مقدسات الكنيسة التي سلمت نفسها لكاهن وتحولت إلى بغلة بلا رأس وراحت تجمح منذ ذلك الحين في الأزقة وفي الغابة طوال الليل وهي تنفث النار من رقبتها وتخيف الجوار. وعلى الغلاف كانت لوحة لليديو. وكانت موجزة لكنها غنية بالتعبير وتظهر البغلة التي لا رأس لها، مصدر رعب الطريق، والناس المبعثرين خوفاً؛ بينما رأسها المقطوع والذي ما زال حياً، يقبل شفتي الكاهن الفاسقتين. وكما قال مانويل دوبراكسيدس إنهما يستمتعان بوقتهما.

«المعلم بدرو يستطيع أن يحكي الكثير من القصص مثل هذه ويعطيها للمعلم ليديو ليطبعها. إن لديه كمية كبيرة من الحكايات الطويلة، ومن المؤكد أنه يعرف كيف يحكيها»، قال لفالدلوار راقص الأفوكسي، والسامبا ومصارع الكابويرا والقارئ النهم لأنواع القصص والأشعار كافة.

كانوا يتحادثون في ما يشبه الكوخ الذي كان ليديو قد بناه في الباحة بجدران خشبية وسقف من التنك. فيما أن المطبعة قد احتلت كل الفراغ في الحانوت صار على المحادثات وعروض العرائس أن تنتقل إلى الباحة.

وكان ليديو يشتغل ليل نهار لترتيب جهاز الطباعة ولعملية الطبع ورسم المعجزات وإعداد القوالب الخشبية لأغلفة الكتيبات، وبين حين وآخر يقلع سناً. كان مديناً لاستيفان بجهاز الطباعة وهذا التزام شهري مرهق مستمر لأكثر من عامين. وصار عليه أن يبني الكوخ لأن عروض العرائس تدر مالاً، وأيضاً لأن أرشانجو ما كان سيرضى أن يتوقف عن إلقاء شعر كاسترو ألفيس وكازيميرو دو أبرووكونسالفيسا دياس وقصائد عن الحب أو الاحتجاج على العبودية، أو رقص السامبا ضمن دائرة

والإعجاب بحركات الرقص الجميلة عند ليديو وفلدلوار وصوت ريزوليتا الدافئ ورقص روزادو أوكسالا، وما كان سيتخلى عن عروض العرائس حتى لو كانت مجانية؛ فالملصق على باب خيمة المعجزات ومازال يقول: العرض الحالي كل خميس.

استمر هطول المطر أسبوعاً متواصلاً. كان شهر العواصف والرياح الجنوبية. وهذه الريح رطبة وقارسة، تنغرز كالأبر وتُعول بصوت جنائزي مبلل بالرذاذ. ولقد انقلب قاربا صيد وظلت جثث ثلاثة من السبعة الذين غرقوا لم يعثر عليها أحد؛ تركت الجثث تسبح في بحث لا متناه شاطئ آيوكا الذهبي في طرف الدنيا. أما الجثث الأخرى فقد جرفت إلى الشط بعد عدة أيام وكان منظرها مرعباً، تقريباً بلا عيون ومليئة بالسلاطعين. دق الأصدقاء باب (الخيمة) وهم يرتعشون من البلل مرهقين بالحاجة إلى كأس، في أوقات المآسي مثل هذه تثبت الكاشاشا تأثيرها الفلكي. في تلك الليلة، وبعد أن قدم فالدلوار اقتراحه. وقف مانويل دوبراكسيدس واقترح تصحيحاً: «صحيح، أن المعلم أرشانجو يعرف الكثير وهناك قدر كبير من الأفكار في رأسه أو مكتوبة في تلك القصاصات التي يحملها. لكن ما يعرفه أفضل من أن يضيع في نشرات تستطيع شراءها ببنس: إن ما لديه يحمل قيمة حقيقية وليس هناك كثيرون ممن يعرفون هذه الأمور. ما عليه أن يفعله هو الذهاب إلى الجامعة وتقديمها لأحد الأساتذة. أحد هؤلاء العظماء الذين يعرفون كيف يكتبون ـ أنتم تعرفون أن البلد مليئة بالعظماء ـ ودع ذلك الشخص يضعها كلها على الورق لكي يستطيع الناس قراءتها والتثقف بها. أراهن أن هذا سيحيي هذه الأمور حولنا».

بعينين هادئتين متأملتين حدق المعلم بدرو أرشانجو إلى مانويل دوبراكسيدس العملاق حسن الطوية، وهو يتذكر ـ آه، أي قدر من الأشياء حدث مؤخراً. هناك تابوان، في الجوار. وفي معبد يسوع.. وشيئاً فشيئاً عادت البسمة الهادئة إلى وجهه، فلطفت الحدة غير المعهودة في ملامحه، واتسعت البسمة وعيناه تنتقلان من واحد إلى آخر في الدائرة المحيطة به ثم التقتا بعيني الكومادر تيرينشيا، أم داميان، الجميلة جداً:

ـ ولماذا نطلب من أستاذ جامعة أن يفعل ذلك يا صاحبي؟ سأكتبها بنفسي. أم أنك تظن، يا مانويل، أنه لمجرد أننا فقراء فإننا لا نعرف كيف نفعل أي شيء له قيمة، إننا لا نستطيع أن نكتب أي شيء إلا الشعر المكسور. طيب. سأريك شيئاً أو شيئين يا صاحبي يا رفيقي.. سأكتبها بنفسي.

ـ ليس الأمر أنني أظن أنك لا تستطيع. بدرو، يا صديقي، باشر. المسألة أنه إذا طلبت من أستاذ أن يفعلها فستضمن أنه سيفعلها بشكل صحيح. هؤلاء الذين يقرؤون دائماً يعرفون كل شيء من الألف إلى الياء.

أهناك من يحرف الأشياء أو يشوهها أكثر من هؤلاء الذين يقرؤون دائماً؟ أهناك من ينقصه التعليم أكثر من المتعلمين أنصاف الناضجين؟ لم تتح الفرصة لمانويل دوبراكسيدس ليعرف ذلك! كان عليك أن تعمل حوالي الجامعة لكي تعرف وأنت تسمع. الخلاسي والمجرم مترادفان في رأي بعض هؤلاء الأساتذة يا مانويل. أعد هذا مرة أخرى يا بدرو. أنا لا أعرف معنى كلمة مترادف، ولكن أياً كان معناها فهذه كذبة حقيرة.

ولم يكن خادم المطبعة تادو يستطيع أن يظل هادئاً، فحيا الرد بضحكته وبتصفيقة من يديه: «عرابي يعرف الكثير ويستطيع أن يعلمه لهؤلاء الأساتذة وكل من لا يعرف ذلك أحمق مغفل».

ولكن هل سيكتب الكتاب حقاً؟ هل سيفي بما وعد هذه الليلة التي ثارت فيها العاصفة وساحت فيها

الكاشاشا ـ أم أنه سينسى المسألة كلها في خضم حياته الحافلة بالحفلات والنساء والتدريبات على احتفالات الشوارع وفي مدرسة بوديان للكابويرا والتزاماته للمعبد؟ ربما نسي، بالفعل، هذا الموضوع لو لم يتلق نداءات عاجلة من الأم ماجي باسان بعد أيام قليلة.

كانت ماجي باسان جالسة على كرسيها أمام المعبد، العرش العتيق الذي لم يقلل ذرة واحدة من قلقها، حين قدمت لأرشانجو الجرس ليدقه وراحت تغني أغنية للقديس، وبعد ذلك، ألقت الودع دون أن تسأله وكأنه لا ضرورة للعب، قالت:

«سمعت أنك ستكتب كتاباً وأعرف أنك لم تبدأ بعد. إن إنجازك كله في فمك. تفكر في الأمر وتتحدث عنه وهذا يكفيك. إنك تقضي وقتك كله في طرح الأسئلة وحشر أنفك في شؤون الناس ثم تكتب ذلك كله. ولكن من أجل ماذا؟ أهذا كل ما تريد أن تفعله؟ إنك تعمل لكي تستطيع أن تأكل ولا تريد أي شيء آخر، ولكن هذا لا يجعلك تهدأ وليس هذا كل ما عليك أن تفعله. هل ستظل طوال حياتك ساعياً للأطباء؟ ليس من أجل هذا أنت أوجوبا».

وهكذا أخذ بدرو أرشانجو قلمه وكتب.

وكانت مساعدة ليديو في انتقاء المادة لا تقدر بثمن، وكذلك الاقتراحات التي كانت اقتراحات ممتازة، لأنه كان ذكياً ومستمعاً جيداً. ولو لم يرعَ العمل بتحصيل المال لشراء الحبر واستدانة الورق، ودفع صديقه دفعة تشجيعية بين حين وآخر، وخاصة في البداية حين كان الاستمرار أكثر صعوبة، لتخلى أرشانجو عن العمل في منتصف الطريق، أو على الأقل لاستغرق وقتاً أطول بكثير لإنهائه؛ لأنه كان لا يزال مرتبطاً باهتمامات أخرى وظروف أخرى، ولا يزال موسوساً من ارتكاب أخطاء في القواعد. كان أحياناً يصعب عليه التخلي عن رقصة في الضواحي، أو سكرة يوم الأحد، أو امرأة جديدة شهية. المبدأ والتنظيم لليديو، والحماس للعامل المتدرب، أما المعرفة فللمعلم أرشانجو الذي، بهذه المعونة، استطاع في وقت معقول أن ينهي المهمة التي فرضتها عليه ماجي باسان.

حين بدأ الكتاب، كانت صورة بعض الأساتذة المتزمتين وأصداء نظريات التفوق العرقي تحتل ذهنه وتؤثر في كلماته وجمله فتخلطها وتشوشها وتقيد حريتها وتثقلها. ولكن حين صارت الكلمات فصولاً نسي بدرو أرشانجو الأساتذة والنظريات . لم يعد يهتم في مناهضتهم في معركة جدلية، لم يكن مستعداً لها على أية حال، فركز على سرد الكيفية التي يعيش بها الناس العاديون في باهيا، مآسي ومعجزات تلك الحياة اليومية المليئة بالفقر والإيمان، وعلى إظهار كيف أن الناس المظلومين المضطهدين في باهيا قد صمموا على أن يسودوا رغم كل شيء بنبش ميراثهم من الرقصات والأغاني والمعادن والأخشاب والتشبث به وبمزايا الثقافة والحرية والمحفوظتين في أكواخ العبيد ومخابئ العبيد الفارين.

حين توصل إلى هذه المرحلة صار يكتب متعة لا توصف، بمتعة كانت شبه حسية، تأخذ وقته كله وتجعله يكرس كل دقيقة من وقته للعمل. لم يعد يفكر في البروفسور نيلو أرغولو الفظ الجلف، بعينيه العدائيتين؛ ولا بالدكتور فونتيس المتبسط، الذي كان مهذباً، ومخبأ للتنكيت، ولكنه إضافة إلى هذا كله ربما كان نصيراً، أكثر عدائية لنظريات التمييز العنصري. الأساتذة وتلاميذهم، سواء كانوا مثقفين أم جهلة، لم يعودوا ينغلون في ذهنه. حبه لشعبه الذي كان يوجه يده؛ وقد ساعد حماسه على إعطاء كتابه لمسة من الحرارة والشعر. ولهذا السبب بالذات صارت الوثيقة التي خرجت من تحت يده أكبر من أن يرد عليها.

كانت ليلة أرق في المحل، ليلة أذرع متعرقة ترتفع وتنزل، وآلة طباعة بطيئة تئن فوق الورق، واستثير تادو حتى نسي إرهاقه حين رأى الصفحات الأولى مغطاة بحروف مطبوعة وشم رائحة الحبر الطازج. رفع الرفيقان قطعة الورق وقرأ أرشانجو ـ هل قرأها أم أنه كان يحفظها غيباً؟ ـ الجملة ذاتها، صرخة الحرب التي أطلقها، حقيقته، وخلاصة معرفته: «وجه الشعب البرازيلي وجه مهجن وثقافته ثقافة هجينة».

أحس ليديو كورو، وهو الرجل العاطفي، بضغط في صدره وفكر بصمت: سأموت من الإثارة ذات يوم. واتخذ أرشانجو موقفاً جدياً لوهلة: ظل محايداً مكتئباً، وشبه وقور. وبغتة تحول وجهه حين انفجر في ضحكة عالية صافية سعيدة، تلك الضحكة الطليقة التي يضحكها؛ تخيل وجه البروفسور أرغولو ووجه الدكتور فونتيس، هذين المتعالمين اللذين لا يعرفان شيئاً عن الحياة. «وجوهنا هجينة وكذلك هي وجوهكم؛ ثقافتنا هجينة لكن ثقافتكم مستوردة». فليموتا بالسكتة القلبية. اشتعلت ضحكته وخمدت فأضاءت مدينة باهيا.

- 3 -

ذات ليلة، قبل أشهر، حين كان الاحتفال في المعبد في أوجه وكان الأوريكسا يرقصون مع أولادهم على إيقاع طبول الأتاباك والتصفيق؛ ظهرت دوروشيا وهي تمسك صبياً بيده، فتى في الرابعة عشرة. وحاولت يانسان أن تمتطيها حتى قبل أن تجتاز العتبة، لكنها اعتذرت وتقدمت لتركع أمام ماجي باسان طالبة منها البركة لها وللصبي. ثم جلبته إلى أوجوبا وأمرته: «اطلب منه أن يباركك».

ورأى ارشانجو ولداً نحيلاً ولكنه قوي، له ملامح داكنة في وجه جميل التقاطيع جريء وواضح، وشعر مرسل أسود متلامع، وعينان متراقصتان وكفان طويلتا الأصابع وفم شهواني ـ صبي وسيم وفاتن. أوغان الأوكسوسي، خوسيه أوسا، الذي كان يقف إلى جانبه، قارن بين الاثنين وهو يبتسم ابتسامة سريعة غريبة.

ـ ما علاقته بي؟ سأل الشاب.

ابتسمت دوروشيا نصف ابتسامة غامضة شبيهة بابتسامة أوسا:

ـ إنه عرابك

ـ يا عرابي! امنحني بركتك من فضلك.

ـ اجلس هنا بقربي يا صديقي الصغير.

وقبل أن تستسلم دوروشيا ليانسان التي كانت تناديها بنفاذ صبر، قالت بصوتها الناعم الحازم:

«يقول أنه يريد أن يدرس. هذا كل ما يتحدث عنه. لن يكون شيئاً ذا أهمية. لا يصلح لأن يكون نجاراً أو بناء. كل ما يستطيعه هو العمليات الحسابية ويعرف جدول الضرب أكثر من الأساتذة والكتب. ولكن بم يفيدني هذا؟ إنه يكلفني مالاً للإبقاء عليه، وليس هناك ما يمكنني أن أفعله من أجله. لا أستطيع أن أخون المصير الذي ورثه من دم غير دمي، ولا أستطيع جعله يشق طريقاً ليس طريقه، لا أستطيع ذلك لأنني أمه ولست خالته زوجة أبيه. عليّ أن أكون الأب والأم وهذا كثير عليّ حيث يجب أن نعيش معاً مما أبيعه في الشوارع بمدفأتي الفحمية ومقلاة الطعام. جلبته لكي أعطيك إياه يا أوجوبا. فخله يرى الطريق الذي يجب أن يسلكه».

أمسكت يد ابنها وقبلتها. ثم قبلت يد أرشانجو وتطلعت إلى الاثنين بنظرة طويلة. ثم استسلمت ليانسان مطلقة صرختها التي تخيف الموتى. رفعت السوط (إيروكسيم) والسيف المعقوف وبدأت رقصة الطقوس. وحياها الرجل والولد فوراً: «إيباري!».

في المحل، في أرشانجو وكتبه، وجد تادو ما كان يبحث عنه. ورأى المعلم بدرو نفسه في ابنه

بالمعمودية: التوق الجامح ذاته والفضول ذاته والتهور ذاته. الفرق الوحيد هو أن اليافع يبدأ طريقه للتو. رأى ممراً أمامه، لم يدرس عشوائياً أو لمجرد متعة الدراسة. كان يتعلم وغاية محددة نصب عينيه. إنه يريد أن يصير شيئاً معتبراً. ممن ورث طموحه؟ من أي سلف بعيد؟ إن عناده وإرادته القوية من أمه، هبة الشيطانة.

وذات يوم أحد قال لأرشانجو: «امتحانات التأهيل للجامعة اقتربت يا عرابي!» ورفض دعوة للذهاب في نزهة «لدي دروس كثيرة. لكنني أظنني قادراً عليها، إذا ساعدتني باللغة البرتغالية والجغرافيا. لا أحتاج إلى شيء في الحساب. وقد وجدت من يعلمني التاريخ البرازيلي».

ـ تعني أنك ستقدم الامتحان هذا العام؟ الامتحانات الأربعة دفعة واحدة؟

ـ أستطيع أن أقدمها إذا ساعدتني يا عرابي.

ـ فلنبدأ فوراً إذاً يا بني.

كانت النزهة مقررة إلى ريبيرا. وكان بوديان قد سبقه مع اللوازم والفتيات إحداهن، دورفالينا، لها قوام تمثال. وكان بدرو أرشانجو قد وعدها بأن يعزف لها السيريناد على الغيتار والكافاكوينهو، وحين تصل الحفلة إلى ذروتها سينقلها على قارب إلى بلاتا فورما. آسف يا دورفالينا. لا تغضبي. سنفعل ذلك في مناسبة أخرى.

- 4 -

الشعراء الشعبيون، وخاصة زبائن ليديو كورو، لم يكونوا يفوتون فرصة نزاع بين الأساتذة الجامعيين والمعلم أرشانجو. إنه موضوع ذو أهمية بالغة:

لقد حدثت بعض التغييرات

في معبد يسوع

ومع مرور السنوات، صار الموضوع مادة لستة أو سبعة كتيبات. وكلها منحازة إلى أرشانجو. كسب بكتابه الأول أشعار ومدائح فلوريسفالدوماتوس، وهو شاعر مرتجل له جمهوره الدائم في كل حفلة تعميد أو عرس:

أحب أن أعرّف قرائي

بكتاب يجعلكم تفكرون

إنه يحكي عن الحياة في باهيا

والمؤلف هو المعلم أرشانجو

قلمه الموهوب كتب الكلمات

وشجاعته قدمت الحبر

وحين هاجمت الشرطة كاندومبلي بروكوبيو، صار بدرو أرشانجو بطل ثلاث كراسات مليئة بالأغاني المادحة. وكلها تسابق القراء لاقتنائها، وهم الفقراء في الأسواق والحارات والحوانيت والمخازن. كاردوزينهو بيمتيفي، «المغني الرومانتيكي»، تخلى عن أغنيات الحب التي كانت ميزته وامتيازه، لكي يكتب «صدام المفوض بدريتو مع بدرو أرشانجو في معبد بروكوبيو» الأغنية ذات العنوان الطويل المغري. وعلى غلاف كتيب لوسندو فورميغا «هزيمة بدريتو على يد بدرو أرشانجو» ظهر المفوض ينسحب عشوائياً: وسوط جواده ملقى وراءه على الأرض وبدرو أرشانجو يقف أمامه منتصباً وأعزل. لكن أعظم نجاح كان من حظ دورفال بيمنتا وقصيدته الملحمية العظيمة «بدرو أرشانجو يتحدى الوحش في دائرة الشرطة».

أما بالنسبة للمراجع المتعلقة بالجدل حول العرقية، فقد كانت أعظم الضربات من جوان كالداس وكاتيانو جيل. الأول مغن كان له في ذلك الحين ثمانية أطفال ثم صاروا أربعة عشر وبعدها تفرعوا إلى كم هائل من الأحفاد، قدم لجمهوره رائعة عنوانها «الساعي الذي لقن الأساتذة درساً».

حين لم يتبق للأساتذة ساق يقفون عليها

قالوا إن بدرو أرشانجو

هو (نيك) العجوز الشرير نفسه.

وحين استهلك النزاع نشرت «ملاحظات» بدرو أرشانجو ودخل اللائحة غاينانو جيل الشاب، وهو مؤلف أغان متمرد وشجاع. لم يكن يهتم كثيراً بالأصول، لكنه كان يستدر الأشعار والموسيقى من غيتاره نفسه ومن السامبا والمودينها التي تغني الحب والحياة والأمل:

المعلم أرشانجو تكلم فقال

إن الخلاسيين يستطيعون القراءة والكتابة

هل سبق لكم أن سمعتم بشيء كهذا؟

الأستاذ البروفسور قفز وقال

«من سبق له أن سمع بكاتب أسود؟

ومن سبق له أن سمع بطبيب أسمر؟

أيها الضابط قم بواجبك

هل سمعت ما قاله هذا الوغد؟

هل سبق لك أن سمعت بشيء كهذا؟

البروفسور قفز وزعق

«أيها العبد! ستذهب إلى السجن!»

ولكن المعلم أرشانجو أجاب

«العبد يعرف القراءة

هل سبق لك أن سمعت بشيء كهذا؟».

- 5 -

في عام 1904 أقام البروفسور نيلو أرغولو، من دائرة الطب الشرعي في كلية الطب في باهيا، مؤتمراً علمياً في ريو دو جانيرو، ونشر مادته فيما بعد بشكل مستقل في تقرير بعنوان: «الانحلال العقلي والنفسي للمهجنين: مثال من باهيا». وفي عام 1928 كتب بدرو أرشانجو كتيباً بعنوان: «ملاحظات على التزاوج بين عائلات باهيا» طبعت منه 142 نسخة. خمسون منها أرسلها ليديو كورو إلى المكتبات والجامعات والمدارس في البرازيل وخارجها، وللباحثين وأساتذة الجامعة وغيرهم من المتعلمين. وخلال تلك العشرين عاماً نشب نزاع عنيف وراء الكواليس في كلية الطب حول المشكلة العرقية في العالم ككل وفي البرازيل بشكل خاص. واشترك في هذا الجدل كتّاب ورؤساء دوائر وممثلو سلطات علمية وسياسية. ونشرت كتب وتقارير ومقالات وكتيبات ورسائل علمية، وتمت تغطية الموضوع بشكل واسع في الصحافة، وشنت حملات ضارية على مقومات بعض جوانب الحياة في باهيا وعلى الحالة الناجمة عنها في الثقافة والدين.

وكانت كتب أرشانجو الثلاثة الأولى مرتبطة بشكل مباشر بهذا الجدل، ولذلك فإن اقتراحاً تلخيصياً يمكن تقديمه: في الربع الأول من هذا القرن نشبت في باهيا حرب أفكار ومبادئ بين بعض أساتذة الجامعات في كلية الطب، المتخفين في كلياتهم المتخصصة بالطب والتحليل النفسي الشرعيين، وبين معلمي الجامعة الحية في بولورينهو، الذي لم يكن كثيرون منهم يعرفون بما يجري - وحتى لو عرفوا فمعرفتهم جزئية - إلى أن تم استدعاء الشرطة فتدخلت.

عند بداية القرن كانت كلية الطب قد أصبحت عرضة لصدمات النظريات العرقية. وشيئاً فشيئاً لم تعد ذلك المركز القوي للدراسة الطبية الذي أسسه خوان السادس، أي المصدر الأساسي للمعرفة العلمية في البرازيل، والبيت المضياف للأطباء في الحياة وفي الطب، وصارت مرتعاً لأدب ثانوي لا يمكن تصور ما هو أكثر منه وقاحة وتكلفاً وتفاهة وتحذلقاً ورجعية. وارتفعت رايات الحق والكراهية والتحامل فوق ما كان ذات يوم جامعة.

كانت أياماً محزنة، صار فيها كتاب الطب مهتمين بقواعد اللغة أكثر من اهتمامهم بقوانين الطب، وأكثر مهارة في وضع الضمائر في مواقعها مما هم في معالجة المكروبات أو التعامل بالمباضع. وبدل محاربة الأمراض راحوا يخوضون المعركة ضد المصطلحات الفرنسية، وبدل التقصي عن أسباب مرض مستوطن ومكافحته اخترعوا الألفاظ الجديدة المولدة، منذ الآن سيكون على الناس أن يرتدوا الملابس اللامائية (أنهيدرو بودوتيكاس) بدلاً من الكلوش *[19]. وكان نثرهم سليماً وموجزاً وكلاسيكياً، أما عملهم فكان زائفاً متدنياً وانكفائياً.

وليس من قبيل المبالغة القول أن بدرو أرشانجو، من خلال كتبه المجهولة وكفاحه ضد العلمانية الرسمية، هو الذي وضع النهاية لتلك الفترة المحزنة من حياة الكلية الشهيرة. فالجدل حول المسألة

العرقية هز كلية الطب وأخرجها من حذلقتها الرخيصة ونظرياتها المشوشة وأعاد لها اهتمامها الأصلي بالعلم وبالبحث الجدي المبتكر، وبالحقائق والمشكلات الحقيقية.

ولكن الجدل كان يتميز ببعض الصفات الغريبة.

فمن جهة أولى ليست هناك وثائق عنه على الإطلاق. لا شيء في الأرشيف, ولا معلومات من أي نوع، على الرغم من أن المجادلات أدت إلى العنف وإلى تظاهرات طلابية. سجلات الشرطة وحدها لديها ملف بدرو أرشانجو ابتداء من عام 1928: « مثير شغب سيئ السمعة يتصادم مع أساتذة جامعة متميزين». ولن يعترف الأساتذة المتميزون الذين شاركوا في الجدل بأنهم أخذوا ما فيه الكفاية من الكلمات المتقاطعة وأقل من ذلك استعدادهم للقول أنهم قد دخلوا في مناظرة أو جدل مع ساع في الجامعة. ولم يحدث في أية مرة، في مقال أو زاوية أو دراسة أو تقرير أو أطروحة أن قام هؤلاء الأساتذة العظماء بذكر كتب بدرو أرشانجو أو الاقتباس منها أو مناقشتها أو تنفيذها. وفي «الملاحظات» وحدها شن أرشانجو هجوماً مباشراً على الكتب والرسائل التي قام فيها البروفسور نيلو أرغولو و أزوالدوفونتس بمناقشة مقالات للبروفسور فراغا، وهو طبيب شاب عاد مؤخراً من إقامته في ألمانيا والعضو الوحيد في الكلية الذي ناقش أياً من أطروحات زملائه البارزين.

وكان أرشانجو في كتبه السابقة لم يستشهد بأعمال المنظّرين الباهيين حول الأجناس.

وبدلاً من الرد عليهما بشكل مباشر فضل أن يكذّب نظرياتهما عن التفوق الآري بكمية كبيرة من الحقائق التي لا تدحض، خلال دفاعه الحار عن الاختلاط بين الأجناس.

ومن جهة ثانية، وعلى الرغم من أن صدى الخصام قد انتشر ووصل إلى كل طالب وعضو كلية في الجامعة أو حتى إلى الشرطة، فإنه لم يستطع أن يثير الرأي العام، المثقفون جميعاً تجاهلوه، فظل محصوراً في كلية الطب. ولم تأت إلا إشارة واحدة لإحدى القصائد قدمها لولو بارولا؛ وهو صحافي كان له امتياز كبير في زمانه. وكانت زاويته اليومية شعرية تظهر في إحدى الصحف المسائية، وقد علق فيها بفصاحة وبمرح لاذع على أحداث الفترة. وكانت إحدى نسخ «الملاحظات» قد وصلته فاقتبس تمثيلية هجائية من عملية كشف القناع عن «ذوي الدم الأزرق» وتباهي «الخلاسيين الغامقين» (غامضين لأنهم كانوا يخفون حقيقة كونهم مهجنين) وامتدح «الخلاسيين الفاتحين» (لأنهم حجبوا ضوء النهار باعترافهم أنهم مهجنون وكانوا فخورين بذلك). وهكذا كسب أرشانجو الإلهام الشعري إلى صفه: الشعر العامي، والرنديلات*(20) في كتيبات رخيصة وشعر الشاعر التقليدي في الصحف المصغرة وفي محلات الحلاقة.

أما عامة الناس فلم يسمعوا الكثير عن الموضوع، كانوا ساخطين على إرسال أوجوبا إلى السجن. ولكن بعد ذلك لا شيء. فهم متعودون على حماقة الشرطة. ومن كل الهرج والشجار والصخب والعراك الذي خاضه بدرو أرشانجو كان أكثره أهمية ما لم يساعد في تكريس أسطورته.

فقد وجد أرشانجو نفسه غارقاً، في الوقت ذاته، في الجدل حول التزاوج، وفي شجار بين مفوض الشرطة بدريتو غوردو وبين المتعلقين بالكاندومبلي. وحتى هذه الأيام في الأماكن المقدسة وفي أحواض السفن والأسواق وفي الأزقة والحواري في المدن يمكنك أن تسمع روايات متعددة، وكلها بطولية، عن الصدام بين بدريتو وأرشانجو وذلك عندما قام ممثل السلطة الصفراوي بالهجوم على

تيريرو بروكوبيو، ويحكي الجميع كيف وقف في وجه الشرطي العاتي الذي كانت نظرته وحدها تجعل أعتى المجرمين يرتجف.

إن قمع تفلي الكاندومبلي نتيجة طبيعية للدعاوة العنصرية التي بدأت في كلية الطب والتي تلقفتها بعض الصحف. ولم يفعل بدريتو غوردو أكثر من وضع النظرية موضع التطبيق وكان هذا نتاجاً طبيعياً لنيلو أرغولو وأوزوالدو فونتس ومعطى يمكن التنبؤ به من معطيات حججها.

وهكذا فإن الجدل كله راح طي النسيان، لكن يمكن القول أنه كان يمثل نقطة انعطاف حاسم، فقد استطاع أن يدفن النظرية العرقية في ركام اللاعلمانية ويجعلها مرادفاً قبيحاً للزعرنة والرجعية، وهذا سلاح ارتد ضد مجرى الأحداث الذي دفعته الطبقات والفئات التي كان قد حكم عليها مسبقاً وربما كان بدرو أرشانجو لم يقض تماماً على العنصريين ـ ففي كل مجتمع وفي كل فترة زمنية هناك حمقى وأوغاد ـ لكنه وسمهم بالحديد المحمى وكشفهم في الشارع: «هؤلاء هم أعداء البرازيليين يا ناس» وذلك حين أكد على عظمة الشعب المهجن.

فهل سبق لكم أن سمعتم بشيء كهذا؟.

---

*(19) ـ حذاء مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي ـ المورد.

س
*(20) ـ قصيدة ذات 13 بيتاً وقافيتين.

- 6 -

- «لا. لا يا صديقي العزيز. لا أقول إنه كان عديم الأهمية تماماً». قال البروفسور نيلو أرغولو وهو غارق في التفكير. «لقد كان من الحماقة بالطبع توقع أي عمل له أهمية حقيقية يأتي من قلم خلاسي. إنك تستطيع أن تتجاهل تماماً دفاعه المتحمس عن التزاوج، من حيث أنه هراء مضحك. ومن الطبيعي أن يحاجج مهجن بهذه الطريقة، مثلما أنه سيكون أمراً لا يمكن التسامح معه أن يفعل ذلك أناس بيض لديهم اطلاع على المصادر العلمية. إنس الجانب الهزلي من الموضوع، وانس استنتاجاته، وركز على غزارة المعلومات الفائضة حول العادات المحلية، أعترف بأنني لم يسبق لي أن سمعت ببعض الممارسات التي وردت في هذه الثرثرة».

«طيب. أستطيع أن أقرأه في ما بعد، لكنني أعترف بأنني لا أستسيغ ذلك ووقتي محدود جداً. هاهو يأتي، وأنا عندي درس». قال البروفسور أوزوالدو فونتس وهو يغيب خارجاً من الباب، على الرغم من أنه كان صديقاً للبروفسور أرغولو ووريثاً ثقافياً له ومن محمياته، إلا أنه كان يخافه قليلاً، فنيلو أرغولو لم يكن مجرد منظّر، إنه قائد ونبي أيضاً.

كانا يتحدثان عن كتاب بدرو أرشانجو، وكان البروفسور أرغولو قد أذهل أخاه في الدين بقوله: «إذا رأيت ذلك الزنجي دله على مكتبي. فأنا لا أهتم كثيراً بوجه خادم ما لم يكن خادمي بالذات. السعاة الوحيدون الذين أعرفهم بالنظر هم أولئك العاملون في دائرتي، الآخرون كلهم يبدون متشابهين تماماً بالنسبة لي. ولهم كلهم الرائحة ذاتها. الدونا أوغوستا، زوجتي، تحرص على أن يستحم الخدم يومياً».

حين سمع باسم الدونا العظيمة أوغوستا كافالكانتي دوس منديس أرغولو دو أراوجو ملخصاً باسم «دونا أوغوستا زوجتي» أدى البروفسور فونتس التحية غيابياً للزوجة العريقة النسب والصارمة لأخيه العظيم بهزة احترام من رأسه. دونا أوغستا، جدة المدرسة القديمة الناضحة بالنبل والعراقة، ذات الرأس الشامخ، والعصا في يدها، لم تكن تخيف الخدم وحدهم، بل إن أكثر السياسيين صلفاً كانوا يرتجفون أمامها. والبروفسور فونتس عنصري مخلص لرأيه: كان يرى الخلاسيين سلالة حقيرة من الدرجة الثانية من البشر، وبحقد كبير اضطر إلى الموافقة على أن الزنوج قرود تملكوا، بطريقة ما، موهبة النطق؛ ولكن على الرغم من قناعته كان يحس بالشفقة على الخدم في بيت أرغولو.

كان كل من القرينين، لوحده، قاسياً جداً في التعامل مع أي مخلوق؛ أما أن يجتمع الاثنان معاً في البيت ذاته - !

في ذلك النهار المشمس كان بدرو أرشانجو يمشي مرتاحاً في القاعة نحو الباب الخارجي وهو يهتز قليلاً لنغمة سامبا يصفرها بخفوت احتراماً لجلالة المحيط من حوله. وأوقفه صوت صارم قرب الباب حالما سمح للصفرة أن تعلو قليلاً، فالبهو كان خالياً من الموسيقى أو من أي نوع من الضجيج:

- يا ولد!

أوقف نغمته مرغماً والتفت، فعرف البروفسور. طويل منتصب القامة، ملفع بالسواد هيكل فضفاض جاف، وصوت مفعم قامع، البروفسور نيلو أرغولو، البرفسور المتقاعد للطب الشرعي، ومصدر اعتزاز كلية الطب، كان يشبه محققاً صارماً في محاكم تفتيش العصور الوسطى. الضوء الأصفر القاسي في عينيه الضيقتين كان يشي بالغموض والتعصب :

- تعال هنا!

تقدم أرشانجو ببطء، وقد طوى بنطاله طية مصارع كابويرا. ما الذي يريده منه البروفسور؟ أيمكن أن يكون قد قرأ كتابه؟

كان ليديو كورو المسرف قد أرسل نسخاً إلى بعض أساتذة الجامعة، وكان الورق والحبر يكلفان مالاً، ولسد هذه النفقات بيعت نسخ أخرى في المكتبات بمرابح ضئيلة وراحت تنتقل من يد ليد. ولكن المعلم كورو جمد حين ذكّره أرشانجو بالتكليف وانتقد تبذيره. « يا صاحبي، يجب أن نري هؤلاء الببغاوات ذوي الياقات القاسية العالية، هذه القمصان المحشوة المنفوخة، ما الذي يمكن أن يفعله خلاسي من باهيا».

بالنسبة لليديو كان كتاب «الحياة في باهيا» الذي كتبه خدينه ورفيقه بدرو أرشانجو، ذلك الأمير بين الأصدقاء، والمطبوع في مطبعته الخاصة، كان هذا الكتاب ببساطة بالنسبة له أعظم كتاب في العالم. لقد قدم تضحيات كبيرة لكي يطبعه، ولكن تحقيق الربح منه كان آخر اهتماماته. ما كان يريده بالفعل هو دعك الكتاب بوجوه «هذه الأطياز المهووسة بالقواعد» الذين يرون أن الخلاسيين والزنوج مخلوقات أقل قيمة تقع في مكان مابين البشر والحيوانات. ودون علم أرشانجو أرسل نسخاً إلى المكتبة الوطنية في ريو، وإلى مكتبة الدولة العامة، وإلى المؤلفين والمراسلين الصحافيين في الجنوب، ولبعض المؤسسات خارج البلاد. وكانت مشكلته الوحيدة هي الحصول على العناوين.

- « احزر أين أرسلت كتابك اليوم يا صاحبي! إلى الولايات المتحدة - إلى جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك. رأيت العنوان في مجلة» (كان قد أرسل نسخاً إلى السوربون وجامعة كومبيرا).

ولكن أرشانجو نفسه هو الذي ترك نسخاً من كتابه في الجامعة للبروفسور نيلو أرغولو والبروفسور أوزوالدو فونتس. وفيما هو يعبر القاعة، الآن، كان يتساءل ما إذا كان «الغول» قد قرأ الكتيب المتواضع الذي لا يلفت النظر من حيث مظهره، كان يتمنى أن يكون قد فعل. فبفصل هذا البروفسور، جزئياً، قرر أن يكتب، بعد قراءة كتابة نيلو أرغولو صار يغلي غضباً.

«الغول» هي تسمية الطلاب للبروفسور أرغولو، إشارة إلى سمعته من حيث الذكاء - «إنه غول، يقرأ ويكتب سبع لغات» - إضافة إلى طبيعته الشريرة ومزاجه القاسي. كان عدواً للضحك والمرح والحرية. وكان لا يعرف الرحمة أيام الامتحانات - «الغول يصل إلى النشوة الجنسية كلما أعطى صفراً لطالب». الهدوء الذي يخيم على صفه كان مثار حسد الأساتذة الآخرين، الذين كان معظمهم عاجزين عن ضبط طلابهم بمقدار نصف ما يفعل. محاضر ساحر، لا يطيق المقاطعة أو الاختلاف مع آرائه الحالمة، التي كانت جديرة بنبي في حالة نشوة.

كان الأساتذة الشبان، المشبعون بالأفكار الأوروبية الفوضوية، يتناقشون مع طلابهم، ويستمعون

للاعتراضات ويقبلون الشكوك، وكان البروفسور أرغولو دو أراوجو يسمي هذا «حرية لا يمكن التسامح معها». لن يسمح لصفه أن يتحول إلى «محل عام مليء بالهرطقة والمعربدين، مبغى يسمح لأي معتوه بدخوله». حتى الطالب جو، المتفوق بعلاماته في كل موضوع، ولكن «المفسد من خلال المثال السيئ للمعلمين الآخرين» حين اتهم الدكتور أرغولو بأن أفكاره رجعية، طالب الأستاذ بالتحقيق وبفصل الفتى الذي تجرأ على مقاطعة درسه بصرخته الرهيبة: «يا بروفسور نيلو أرغولو، إنك سافونا رولا ذاته وقد عاد من محاكم التفتيش حيا وسالماً في كلية الطب».

وحين منعه زميلان له في لجنة الامتحانات من ترسيب الشاب في نهاية العام كان لابد من إرضاء البروفسور أرغولو بالسماح له بإنقاص العلامات الكاملة لجو وجعلها علامة النجاح فقط. لكن انفجار الطالب المتمرد ضد التمييز الذي عبر عنه أرغولو دخل ضمن نطاق حكايات الكلية حول الأساتذة غريبي الأطوار ولم يرددها الطلبة وحدهم بل آثارت ضجة في المدينة. وعلى الرغم من أنه ليس مادة لتلك الكمية الوافرة من الحوادث المضحكة، كما هو حال البروفسور مونتينغرو، البطل السلبي لنكات لا تعد ولا تحصى بسبب استخدامه الحريص والموسوس للضمائر والأفعال والألفاظ المقعرة والمنطق الرمزي الجديد، فإن سمعة أستاذ الطب الشرعي قد كانت مصدر فيض وافر من «الكلمات الحلوة» المسلية والنقد القاسي (الذي لم يكن دائماً بذوق حسن) المتعلق بجموده المضحك في أسلوبه وفي تحامله.

إحدى الحوادث، وهي حادثة حقيقية، تقول إنه خطر للبروفسور ذات مساء أن يزور صديقه القديم ماركوس أندرادي، وهو قاض محلي في العاصمة، كما هي عادته كل شهر منذ عدة سنوات، وكان القاضي، بعد أن تعشى مع العائلة، قد ريّح نفسه، وهذا يعني: بما أن الليل حار والرطوبة خانقة فقد ظل مرتدياً بنطاله ذا الحمالات، وصدارته وقبته العالية القاسية ولفة عنقه وخلع سترته الفروك.

وعندما أخبرته الخادمة أن صديقه العظيم ينتظره في غرفة الجلوس أسرع القاضي لملاقاته وتحيته. وفي استعجاله للترحيب بالبروفسور أرغولو والاستمتاع بحديثه المثقف نسي أن يلبس السترة الفروك. وحين رآه البروفسور أرغولو في هذه الهيئة غير المهذبة والقليلة الحياء، حين رأى هذا اللباس المهمل الذي لا يصلح إلا لغرفة النوم نهض من مقعده:

«حتى اليوم كنت أظن أنني أحظى بتقدير فخامتكم. ويبدو أنني كنت مخطئاً». ودون أية كلمة أخرى مشى خارجاً من الباب، ورفض أن يقبل توضيحات فضيلة القاضي واعتذاراته وسحب معه حزنه وألمه واعتبره ميتاً منذ ذلك اليوم.

والقصة الأخرى التي تروى شعراً وبمرافقة الضحك حول معبد يسوع، قصة قاسية وغير محتشمة ولا شك إنه مشكوك في صحتها. إنها عن انتهازي حقير من جهة موندينهو كارفالهو، أحد الطلاب الذين رسّبهم الغول:

لتجنب الإيقاعات السوداء

سأغني الشعر الحر

عن شيء حدث ذات يوم:

الدكتور نيلو أرغولو

أستاذنا النبيل

لا يستطيع تحمل السواد كما تعرفون

ولذا جعل الكونتيسة دونا أوغوستا

تحلق كل شعر فرجها

صار لطيفاً، ولكنه آه. أسود جداً.

وحين كان بدرو أرشانجو يقترب لاحظ أن نيلو أرغولو يضع يديه خلف ظهره لكي يتحاشى أية محاولة للمصافحة باليد. فاندفعت موجة من الدم إلى وجهه.

راح البروفسور يدرس قسمات الساعي ومظهره بالترفع القرف لرجل يفحص حشرة أو شيئاً فاقد الحياة. ولم يحاول أن يخفي الدهشة على وجهه العدائي من نظافة ملابس الخلاسي وشخصيته ومن أناقته. كان البروفسور أحياناً وفي مناسبات نادرة يفكر في بعض المهجنين ويقول لنفسه: «هذا الشخص يستحق أن يكون أبيض، دمه الأفريقي هو سبب حظه السيئ».

ـ أأنت الذي كتب كراساً باسم «الحياة اليومية..»

ـ «.. في باهيا» خرج أرشانجو من تواضعه في البداية وصار راغباً في فتح حديث. «تركت لك نسخة في المكتب».

ـ «قل لي يا بروفسور» صحح له المحاضر الشهير بحدة: «لا تقل يا سيدي بل قل يا بروفسور ولا تنس ذلك. لقد حصلت على هذا اللقب في منافسة شريفة. ومن حقي أن أستخدمه، وأطالب بأن أخاطب به. فهمت؟»

ـ «نعم يا بروفسور». أجاب بدرو أرشانجو بنبرة باردة محايدة.. كل ما يرغب به الآن هو أن يمشي في حال سبيله.

ـ قل لي: تلك الملاحظات المختلفة عن العادات والعطل التقليدية والطقوس التي تسميها التزامات هل هي دقيقة؟

ـ نعم يا بروفسور.

ـ ذلك الجزء من الطقوس الذي يسمى كوكومبي مثلاً. هل هذا كله صحيح فعلاً؟

ـ نعم يا بروفسور.

ـ لم تخترعه أنت؟

ـ لا يا بروفسور.

ـ قرأت كراسك وبتذكر من الذي كتبه ـ وتفحص أرشانجو ثانية بعينين مصفرتين حاقدتين ـ لن أنكر أن فيه قيمة محددة، بالطبع، في بعض الملاحظات الوصفية، إنه يخلو من أية قيمة علمية، دون شك،

واستنتاجاتك حول التزاوج جنون خطر. لكن يظل الكتاب يستحق الاهتمام كمجمّع للوقائع. وجدته مسلياً في القراءة.

قام بدرو أرشانجو بمحاولة جديدة للقفز فوق الجدار الذي يفصله عن البروفسور من أجل استئناف الحديث:

ـ ألا ترى، يا بروفسور، أن هذه الوقائع ذاتها تتحدث لصالح استنتاجاتي؟

افتر الخط النحيل الذي بين شفتي البروفسور أرغولو عن ابتسامة. الضحكة الحقيقية أكثر ندرة، وهي غالباً تأتي نتيجة حماقة الآخرين أو بلاهتهم.

ـ «لا تضحكني أرجوك. هذا الهراء الذي أصدرته لا يحتوي على اقتباس واحد من نظرية أو كتاب أو تقرير لأي شخص آخر! إنه ليس مدعماً برأي أي نص محلي أو أجنبي. كيف تجرؤ على اعتباره علمياً؟ على أي شيء تبني دفاعك عن التزاوج لتطرحه كحل مثالي للمشكلة العرقية في البرازيل؟ كيف تجرؤ على اعتبار حضارتنا اللاتينية خلاسية؟ هذا تصريح هدام مشوه.

ـ إنه يستند إلى الحقيقة يا بروفسور.

ـ هراء. بماذا تفيد الحقائق ما لم تفحص على ضوء الفلسفة والعلم؟ هل خطر لك أنه سيكون مفيداً أن تقرأ شيئاً عن الموضوع الذي تناقشه؟ (وضحك ثانية بسخرية) أنصحك بقراءة غوبينو. كان دبلوماسياً فرنسياً وعالماً عاش في البرازيل وهو المرجع الأهم في مسائل الأعراق، تستطيع أن تجد كتبه هنا في المعهد.

ـ الكتب الوحيدة التي قرأتها هي كتبك وكتب البروفسور فونتس.

ـ ولم تنجح في إقناعك؟ إنك تخلط بين أصوات السامبا البشعة وتطبيل الباتوك وبين الموسيقى، والأشكال الفتيشية الكريهة المنقوشة دون أي احترام لقوانين علم الجمال تفردها أنت على أنها فن. وبالنسبة لك الطقوس المتوحشة شكل من أشكال الثقافة. إنني أرتعد خوفاً على هذه البلاد إذا كنا سنتمثل بربرية كهذه، إذا لم نتحرك في الوقت الملائم ضد هذا التدهور المرعب.

ـ لقد استخدم العنف يا بروفسور.

ـ ربما كان لا يكفي. وربما لم يكن النوع الصحيح من العنف، اتخذ صوت أرغولو الأجنبي حدة أعلى، والتمع الضوء المصفر لتعصبه القاسي في عينيه العدائيتين المتهمتين. «إننا نتعامل مع سرطان ويجب أن نقتلعه من جذوره. قد تبدو العملية الجراحية فعلاً قاسياً في المعالجة لكنها عملياً مفيدة وأحياناً لا مفر منها».

ـ ربما يا بروفسور لو أنك قتلتنا كلنا واحدنا بعد الآخر..

هل يتجرأ هذا الوغد على السخرية؟ ثبت مصدر اعتزاز كلية الطب عينيه المتشككتين المتوعدتين على الساعي، ولكن كل ما رآه وجه هادئ ووضعية صحيحة دون أية دلالة على قلة الاحترام. فتراخت تحديقته وصارت شبه حالمة. ورد على اقتراح أرشانجو بضحكة كادت أن تكون ودية.

ـ نقضي عليكم؟ ونبقي على عالم الآريين ولا شيء غيره؟

يا للعالم الجديد الشجاع! يا للحلم العظيم المستحيل! أين ذلك العبقري الذي لا يهاب ولديه الجرأة الكافية لوضع هذه الفكرة المذهلة موضع التطبيق؟ من يدري؟ ربما ذات يوم سينفذ هذه الرسالة السامية إله حرب غير منظور الآن. اخترق البروفسور المتنبئ أرغولو المستقبل واستشرف البطل الذي يقود الكتائب الآرية. ولم تدم الصورة المتألقة، اللحظة المجيدة، إلا قليلاً، عاد إلى الأرض وإلى الواقع البائس:

ـ قلما فكرت أنه من الضروري الوصول إلى هذا الحد سيكفي إصدار قوانين تحرم التزاوج وتنظم الزواج: البيض يتزوجون البيض، والسود يتلاقحون بالسود أو بالخلاسيين، ومن لا يطيع القانون يسجن.

ـ قد يصعب تمييز كل إنسان وتصنيفه يا بروفسور.

مرة أخرى أحس البروفسور بومضة سخرية في صوت الساعي الناعم ولفظه الواضح. آه! لو أنه يمسك به متلبساً!

ـ «صعب؟ لا أرى سبباً يجعله صعباً». وقرر أن ينهي المحادثة بأمر. «ارجع إلى عملك. لقد ضيعت وقتاً كثيراً. سأقول ذلك فقط! مع كل ما في كتابك من حماقات وسخافات تظل فيه أشياء قليلة تستحق القراءة». وعلى الرغم من أن لهجته لم تكن ودية فإنها كانت عطوفة. ومد رؤوس أصابعه للمهجن.

الآن كان دور بدرو أرشانجو في أن يتجاهل يد البروفسور النحيلة وأن يكتفي بهزة رأس تماماً مثل تلك التي حياه بها البروفسور نيلو أرغولو دو أراوجو في بداية الحديث، مع فارق أنها كانت هزة أخف ـ أخف بقليل ـ «حثالة» نخر البروفسور وقد ابيض وجهه.

- 7 -

كان بدرو أرشانجو غارقاً في التفكير وهو يمشي باتجاه شارع تابوان ويجتاز الزقاق المليء بالأولاد المتسابقين. أولاً هناك الدعاوة الحاقدة في كلية الطب، قريباً من البيت، في ميزيريكورديا، كانت دوروشيا تلتفت برأسها شاردة. الشرير طلب منها أن تترك بيتها في باهيا وحريتها وابنها وأن ترحل معه. منذ عدة سنوات لم يحدث تودد بين أرشانجو ودوروشيا! وإذا حدث شيء لطيف بينهما في مناسبة ما حين يصدف أن يلتقيا، فقد كان يحدث عرضياً، وبشكل يذكر بالعاصفة والهدوء الذي يليها. ولكن كان هناك تادو الذي يجب التفكير فيه، تادو حبة عين أرشانجو. وفي خيمة المعجزات تراكمت المشكلات المالية بعد طبع كتابه ولم يسبق لليديو كورو أن واجه متاعب كهذه.

استيفان داس دروسي، بسيجارته الموضوعة في مشرب من ساق الذرة، وعكازه وروماتيزمه، لم يتخلف مرة عن المجيء إلى الحانوت في أول كل شهر حين يستحق دفع ديونه. يجلس على كرسي قرب الباب طوال فترة بعد الظهر وهو يتحدث بهدوء. فإذا أحس أن لدى ليديو وتادو عملاً كثيراً يسند عصاه على الجدار ويقف ويداه على ردفيه «لكي تتماسك العظام العجوز» ثم يتقدم نحو لوائح الطباعة. وعلى الرغم من كونه مريضاً ومحزناً فقد ظل معلماً في حرفته! كان العمل يمر بسرعة بين يديه المدبوغتين بالنيكوتين، وحتى الآلة الطابعة العتيقة كانت تبدو أقل تعثراً وتباطؤاً حين يعمل عليها. وعلى الرغم من انه لم يكن يقول كلمة واحدة عن الديون والدفعات «أنا أجلس في بيتي فقط، لم تعد بي فائدة لأحد، لا شيء يرهق الجسد أكثر من بقائه بلا شغل. لهذا أحب أن آتي وأطق الحنك مع أصحابي» فإن منظر الدائن المنتظر كان يثير أعصاب ليديو.

«إنني أنتظر مبلغاً من المال يجب أن يدفع لي في أي يوم. وحالما يدفع لي أحدهم فإن أول مبلغ لك يا أخ استيفانو.

ـ لا حاجة للحديث في الموضوع، لم آت هنا لأضايقك.. ولكن اسمعني يا سيد كورو أنت تبيع كثيراً بالدين. وهذه حقيقية.

إنها حقيقة: مغنو الشوارع يطبعون كراساتهم بالدين، دافعين مستحقاتهم جزءاً فجزءاً وهم يبيعون. صار ليديو، عملياً، راعي المغنين الشعبيين. ولكن كيف بحق الله يستطيع أن يرفض تديين صديقه خوان كالداس، والد ثمانية، والذي مصدر دخله الوحيد هو وحيه الشعري؟ أو أيزيدرو بورووروكا، الضرير والفنان الطبيعي الأصيل في تصوير حياة الناس في الغناء؟

ـ سر الطباعة عظيم: خدمة سريعة ودفع نقدي فور الانتهاء. أقدم لك هذه النصيحة مجاناً.

وحالما يدفع له ويعد نقوده مرتين يبتعد استيفان مع نصيحته وروماتيزمه وسجائره من قصب الذرة وعكازه بحيث يجعل المتدرب يحس بالحسد. سيحصل على مثلها ذات يوم. إنها سلاح نحيف إذ تخفي

شفرة سكين وسط العصا المرنة.

ـ أستطيع أن أراه وهو يفتح هذه القصبة ويطعنني بالسكين التي فيها. قال ليديو وهو يعود إلى مرحه وسط متاعبه.

كان حل متاعبهما المالية زيادة العروض. في بعض الأسابيع كانا يقدمان ثلاثة عروض بمعونة بوديان وطلابه، وفالدلوار وأوسا وبحار اسمه ماني ليما، وليما الذي طرد من سفينة لويد لسلوكه الشائن وشجاره بالسكاكين، كان خبيراً في رقصة ماكسيكسي واللوندو، كما تعلّم التانغو الأرجنتيني والغوشو والباسودوبل في الموانئ. كان يسمي نفسه «الفنان العالمي» واختار فرناندا البدينة رفيقة رقص. وكانت بدينة جداً لكنها رشيقة الحركة مثل ريشة بين يدي البحار وسرعان ما صار الثنائي شهيراً. تركا خيمة المعجزات وذهبا إلى الكباريهات. وبعد سنين احتفي بهما في بنسيون مونت كارلو وبنسيون أليغانت وتاباريس. وباستثناء السفرات القصيرة إلى العواصم الشمالية ـ أركاجو وماكشيو وريسيف ـ لم يعد البحار راقص الفالس، ماني ليما، يغادر باهيا.

بدرو أرشانجو هو الوحيد الذي لم يتحمس لهذه العروض بعد أن صارت بكثرة. لم يعد لديه الوقت الكافي للقراءة والدرس.

ـ ولم هذه القراءة كلها يا معلم بدرو طالما أنك تعرف كل هذا الشيء؟

ـ يا صاحبي. أنا أقرأ لكي أفهم ما أراه وما يحكيه لي الناس.

وأحست النساء بتغير طفيف يكاد لا يلاحظه في شخصيته: كان لا يزال دمثاً وعاشقاً، مخلصاً ولطيفاً، يتنقل بفرح من امرأة إلى أخرى، لكنه لم يعد ذلك الشاب اللاهي الذي لا هم له غير ذلك. حتى الآن كانت حياته حلقة من الصخب الكرنفالي. وحلبات السامبا والأفوكسي والكابويرا والكاندومبلي والاستمتاع بالأحاديث وسماع القصص ورواياتها، وقبل كل شيء العمل المرح المتقن المجاني وهو مضاجعة النساء. الآن هناك شيء أكبر من الفضول يشده إلى الكاندومبلي والأفوكسي ومدارس الرقص والغناء ومدارس الكابويرا وبيوت العجائز اللواتي كن رقيقاً أو مومسات، وكان يجري معهن أحاديث شيقة. كان تغيراً جوهرياً، عل الرغم من صعوبة تمييزه، كأنه الآن فقط صار في الأربعين، صار أرشانجو على وعي تام بالحياة وبالعالم.

ذات يوم كان يمر ببيت سابينا دوس انجوس حين انطلق منه ولد شقي وهو يصيح: «بركاتك يا عرابي». رفع أرشانجو الولد بين ذراعيه. كان يحمل جمال أمه سابينا، ملكة الرقص، بجسدها العضلي المتين الناضج شهوة ونضجاً: ملكة سبأ. أنا الملك سليمان، يا سبأ. وقد جئت لزيارتك في مملكة غرفة نومك. ويردد بعض المزامير على مسامعها وهي مستلقية أريجاً من الياسمين وبلسماً للقلوب المرهقة.

«أعطني بعض النقود يا عرابي» ـ تماماً مثل سابينا ـ دائماً وراء النقود. أخرج قطعة نقدية من جيبه فتألق وجه الولد بابتسامة: ممن ورث هذه الضحكة الطليقة العابثة؟

جاءت سابينا إلى الباب حين ناداها ابنها وهو يمسك أرشانجو من يده، وضحكت الخلاسية للزائر المفاجئ.

ـ أنت هنا؟ ما ظننت أنك ستأتي اليوم.

كان صوتها كسولاً متراخياً مبتهجاً.

ـ كنت ماراً من هنا. عندي شغل كثير.

ـ ومنذ متى كان عندك شغل يا بدرو؟

ـ أنا نفسي لا أفهم الأمر يا سبأ، صارت الالتزامات مرهقة جداً.

ـ التزامات لقديس؟ أم لأكسو؟ أم شغل ما في كلية الطب؟

ـ لا هذا ولا ذاك، إنها التزامات نحو نفسي.

ـ لا أحد يفهم عليك حين تتحدث هكذا.

وانحنت على الباب، جسدها متوتر وصدرها بارز، وفمها تواق، غواية بعد الظهر، وأحس أرشانجو بذلك النداء في كل ذرة من كيانه وهو يحدق إلى المرأة الجميلة ويقترب ليحس بأنفاسها. مد يده في جيبه وأخرج مغلفاً عليه طوابع أجنبية جميلة. لقد جاء من طرف الدنيا، من القطب الشمالي حيث لا يوجد إلا الظلام والجليد الأبديان.

ـ هل تعيش كيرسي في الثلج؟

ـ نعم. في مدينة اسمها هلسنكي في فنلندا.

ـ كنت أعرف أن كيرسي سويدية. إنها جميلة جداً. هل هي التي أرسلت لك هذه الرسالة؟

سحب صورة الطفل من المغلف. لم يكن فيه رسالة، بعض الجمل بالفرنسية فقط، وبين حين وآخر كلمة برتغالية. أخذت سابينا الصورة. يا للمخلوق الصغير الرائع! ناعم وحلو بشعر مجعد وبعيني كيرسي. يا للوسامة! يا للجمال الرائع المذهل! رفعت سابينا عينيها عن الصورة وتطلعت إلى ابنها الذي يركض في الشارع.

ـ«وهو أيضاً جميل..» أي الاثنين كانت تعني؟ «الظريف في الأمر أنهما مختلفان ومتشابهان في الوقت ذاته. كيف يحدث أنك لا تنجب إلا الصبيان يا بدور؟».

ابتسم أرشانجو بالباب وهو يقترب من فم سابينا.

ـ «هيا ادخل» وكان صوتها دافئاً ومتثاقلاً.

ـ عندي شغل كثير

«منذ متى لا يكون عندك وقت تعمل فيه طفلاً؟» ـ ولفت ذراعيها حول رقبته.

«تحممت الآن. ما أزال مبللة»

أضاع بدرو أرشانجو صوابه أمام رائحة صدرها وجسدها الناعم ـ متى سيعرض في خيمة المعجزات حيث ينتظره ليديو وتادو؟ سابينا دوس أنجوس، أجمل الملائكة، ملكة سبأ في إمبراطورية سريرها. لكل دورها وأحياناً دون دور. كان هناك زمن كان فيه حراً كالهواء. وشغل الحب مهمته

الوحيدة، ولكن ليس بعد.

- 8 -

«قل لي يا صديقي كم سيكلفني؟ أنا أفقر من الفقراء. أنا محطّمة. أتعرف ماذا يعني هذا؟ مر وقت طويل وأنا أنفق المال مثل الماء. الآن علي أن أحسب كل بنس. اعمل لي سعراً معقولاً، لا تغتنم فرصة كوني امرأة عجوزاً فقيرة مقعدة».

لم يكن شغل ليديو رخيصاً. وما من أحد يقارن به في رسم المعجزات. كان يُفرح القديسين والزبائن معاً! لا أحد يتذمر، وهو المفضل عند مولانا في بونفيم. وكانت عنده طلبات أكثر من قدرته على العمل. وكانت تمر شهور تدر عليه فيها نذوره مالاً أكثر مما تدر المطبعة. لديه زبائن من ريسيف وريو. وذات يوم أوصى رجل إنكليزي على أربع لوحات دفعة واحدة.

ـ من هو القديس؟ وما هي المعجزة؟

ـ ضع كل القديسين الذين تريدهم وكل المعجزات التي تخطر لك.

ولم يكن الغريب مخبولاً أكثر من هذه العجوز الظريفة التي تهز مظلتها في وجهه، وشعرها أبيض كالقطن ووجها المجعد وجسدها المنحني الناحل وسنواتها الستون ظاهرة عليها. ولكن هل كانت في الستين؟ أم في الثلاثين؟ سليطة وثرثارة وعنيدة وذات إرادة حديدية وقصة عن قط فاجر مع جرب مقرف:

ـ أنا امرأة عجوز محطمة، ولكني لا أستطيع أن أشكو.

كانت في الماضي الأميرة الثرية ثراءً خرافياً في ريكونكافو، محاطة بأبهة وترف، سيدة مزارع السكر والطواحين والعبيد وبيوت حديثة في سانتو آمارو، وكاشويرا وسلفادور، وكان علية القوم يتأوهون لرؤيتها، كما قام ضابط بقتل خطيب الفاتنة المدللة المحامي في مبارزة، ودمر أصحاب البنوك والبارونات أنفسهم وهم يلاحقونها. وكانت تعيش حياة مليئة بالتغيرات والتقلبات وحوادث الحب العديدة. سافرت إلى كل أنحاء العالم. وكانت الألقاب والمناصب والثروات تلقى عند قدميها. لكنها لم تقدم نفسها مرة واحدة لقاء مال. والذين حاولوا كسب ودها ببذل المجوهرات والقصور والعربات لها لم يكونوا ينالون شيئاً ما لم يحدث إعجاب بهم. كانت معشاقة شهوانية وذات قلب متقلب.

وحين جاءت التجاعيد والشعر الأبيض والأسنان المستعارة بعزقت ثروتها بتقديم هدايا ملوكية لرجال تستأجرهم بالإسراف ذاته الذي تلقت به تلك الثروات حين كانت صبية. بدأ مجون الحياة يكلفها غالياً جداً، وكانت تدفع الثمن دون أن يرف لها جفن فالأمر يستحق. وأخيراً بعد أن جردت من كل شيء حتى صارت على العظم، جسدياً ومالياً، عادت إلى باهيا مع قطها وذكريات ليالي الفسق الماضية التي كانت قليلة لكنها كانت سريعة الزوال. لم كانت شديدة البخل إلى هذا الحد؟ ولم لم تفعل أكثر مما فعلت؟

والآن هي هنا لتحديد السعر والتوقيت والشروط لرسم معجزة. كان الهر الشهواني، الذي يحمل اسم أرغولو دو أراوجو، قد التقط جرباً كريهاً على أحد الأسطحة، وبعد عدة أيام بدأ شعره يتساقط، ذلك المخمل الأسود المزرق الذي كانت العجوز تحب أن تغرق أصابعها فيه. وهي تتذكر عشق الماضي. حتى أنها استشارت أطباء «لا يوجد طبيب بيطري واحد في المنطقة» وأنفقت مبلغاً لا بأس به في الصيدليات من أجل المراهم والأدوية دون جدوى. ولكنه شفي أخيراً بفضل القديس فرانسيس في أسيسي، الذي كانت مؤمنة به ـ في البندقية، بين القبلات علمها شاعر على أن تحب المتسول على باب الله، وحين تركها أخذ معه محفظتها، بوفيريللو!

وطرح المعلم ليديو، المشوش من كثرة الكلام والضحك، سعراً لعمله. وكانت العجوز أشبه ما تكون بممثلة فودفيل، تماحك وتجادل دون أقل حد من الوقار. لا تزال سيدة الفتنة غير المحددة، وفي بعض اللحظات كانت شيخوختها تختفي وتظهر ومضة من إغوائها الفتي، أميرة ريكوكافو المزهوة صارت فاتنة وأليفة، سيدة متقاعدة مع مسحة من الأناقة، استغرقت المساومة بعض الوقت، لأن العجوز كانت قد جلست لكي تتمكن من المماحكة بشكل أفضل أو حين جلست أثارتها رؤية «الطاحونة الحمراء ـ مولان روج» على الجدار.

ـ أو مون ديو! س مولان روج (بالفرنسية: يا إلهي! هذه هي الطاحونة الحمراء).

وانطلق اللسان الرخو بحمية يحكي كم كانت حياتها مزدحمة وعن العالم الذي عاشت فيه والعجائب التي رأتها أو تملكتها. استرجعت نغمات ومسرحيات ومعارض ونزهات وحفلات وأجباناً وخموراً وعشاقاً وأسلمت نفسها لمتعة الذكريات، كانت متعة مزدوجة، لأنها كانت فيما مضى جموحاً وغنية. وفي فورة حماسها كانت تتحدث بمزيج من الفرنسية والبرتغالية، مع تقطيع بشهقات إسبانية وإنكليزية وإيطالية.

عاد بدرو ارشانجو من مملكة سبأ في اللحظة التي كانت فيها البحارة العجوز المعقدة قد انطلقت في طوافها البحري، فرفع الشراع معها وسط موجة عارمة من الضحك المنشرح. رفعا المرساة في مونتمارتز، وتوقفا في الملاهي والمسارح والمطاعم والمعارض الفنية في باريس وضواحيها ـ أو في كافة أرجاء العالم. فأنتم تعرفون يا أصدقائي أن هناك باريس ثم هناك بقية أرجاء الدنيا. أوه، لالاسي لابانلو.

كانت سعيدة في أن تتاح لها فرصة رواية القصة كلها: أحفاد أخواتها كانوا تواقين للاستماع إليها، مطولاً في زياراتهم السريعة المتقطعة إلى خيمتها، البيت الصغير الخرب قرب دير لابا، حيث استقرت مع قطها وخادمتها المعتوهة: وكان الاسم الكامل للعجوز الطائشة هو سنيورا دونا إيزابيل تيريزا غونزالفس مارتينس دو أراوجو إي بينهو، كونتيسة أغوابروسكا بحق وحقيق، وبالنسبة لأصدقائها المقربين: زابيلا.

وسألها بدرو أرشانجو عما إذا سبقت لها زيارة هلسنكي، لا. لم تزرها. زارت بتروغراد وستوكهولم وأوسلو وكوبنهاغن، لكنها لم تزر فنلندا، ولكن يا صديقي الذي تتحدث بهذه المعرفة عن هلسنكي، هل زرتها كبحار؟ لكن لا. لا يبدو عليك جوّاب بحار. عليك سمة البروفسور أو خريج الجامعة.

ضحك أرشانجو ضحكته الودودة. لا تلميذ ولا معلم ـ ليس هذا من شأني يا مدام ـ ولا حتى بحار، إنني أنقل رسائل ومهمات في كلية الطب وأحب القراءة ـ من باب الفضول فقط. قصة حب تربطه

بفنلندا. وجعلها ترى الصورة فتفحصتها الكونتيسة بعناية وأبدت إعجابها بوجه الولد. ما أجمله! قطعة فنية. بخط جميل استطاعت كلمات كيرسي المشحونة بالعواطف أن تختصر المسافة في الزمن والمحيط: آمور، سوداد، باهيا. جميلة بأكملها بالفرنسية، وترجمتها إيزابيل تيريزا لكنها لم تكن في حاجة لأن تفعل، فأرشانجو يحفظها عن ظهر قلب ابننا يكبر جميلاً وقوياً واسمه أوجو مثل اسم أبيه، أوجو كيكونين، إنه يتآمر على الأولاد الآخرين، والبنات كلهن واقعات في هواه إنه ساحر صغير.

ـ هل اسمك أوجو؟

ـ اسمي المسيحي (اسم التنصير) بدرو أرشانجو لكنني أدعى أوجوبا بالنانجو.

ـ كم أود لو أحضر ماكومبا. لم يسبق لي أن رأيتها.

ـ في أي وقت تشائين سيسعدني أن آخذك.

ـ أيها التافه السعيد. لا تكذب. من ذا الذي يريد صحبة امرأة عجوز في آخر قوى ساقيها؟ وضحكت ضحكة عابثة، وهي تتأمل ذلك الخلاسي القوي الوسيم، عشيق الفتاة الفنلندية. «الولد يشبهك تماماً».

ـ «لكنه يشبه كيرسي أيضاً. سيصبح ملك السويد» وضحك أرشانجو بمرح وشاركته الضحك بفرح أميرة ريكونكافو (زابيلا بالنسبة لأصدقائها)

ـ قل للأخ ليديو أن يجري لي خصماً، لا أملك أن أدفع ما يطلبه، على الرغم من معرفتي أنه يستحق أكثر. كانت دمثة مثل كورو وأرشانجو، دمثة مثل أي مواطن شغيل في باهيا.

واغتنم ليديو الفرصة فوراً:

ـ أرجوك. قولي السعر بنفسك يا مدام.

ـ لا. لا. ولن أفعل ذلك.

ـ لا يهم إذاً. سأرسم لك المعجزة وحين تنتهي ادفعي لي كما تحبين.

ـ ليس كما أحب، بل كما أستطيع.

في هذه اللحظة دخل تادو ومعه كتبه ودفاتره ولاحظت زابيلا الشبه بينه وبين أرشانجو ومشيته المتزنة. الولد المتدرب كبير إلى يافع طويل قوي، وكان فاتناً لا يقاوم حين يبتسم.

ـ ابني بالمعمودية، تادو كانهوتو.

ـ كانهوتو؟ أعسر؟ فرع للشيطان؟ هل هذا اسمه الحقيقي أم لقبه التدليلي؟

ـ هو.. هو الاسم الذي سمته به أمه حين ولد.

وانسحب تادو إلى الغرفة الخلفية.

ـ هل هو تلميذ؟

ـ «نعم. إنه يعمل هنا في المحل مع صاحبنا ليديو ويدرس في أوقات فراغه. في العام الماضي قدم

أربعة امتحانات تمهيدية. وأخذ ثمانية وتسعتين وعشرة مع التقدير الكبير». وارتجف صوت أرشانجو فخراً. «هذه السنة سيقدم أربعة أخرى وفي العام القادم ينتهي. إنه يريد أن يدخل الجامعة.

ـ وماذا سيدرس؟

ـ يحب الهندسة. آمل أن نستطيع إرساله. ليس من السهل على ولد فقير أن يدخل الكلية يا سيدتي. يحتاج إلى الكثير من المال».

عاد تادو إلى الغرفة وفتح كتبه على الطاولة وحين فعل ذلك لمح الصورة.

ـ هل أستطيع رؤية هذه الصورة؟ من هذا يا عرابي؟

ـ قريب لي... قريب لي من بعيد، بعيد جداً. يعيش في الطرف الآخر من العالم.

ـ «هذا أجمل طفل رأيته» وانكب على دفتره. عنده وظيفة.

وبدأت كونتيسة أغوابروسكا، السنيورة دونا إيزابيل تيريزا كونزالفس مارتينز دو أراوجو أي بينهو، تتحول شيئاً فشيئاً إلى زابيلا. ساعدت تادو في درس الافرنسي (الأفعال) وعلمته بعض الكلمات بالأرغة. وارتشفت من مشروبهم المحلي المصنوع منزلياً ـ كريم دوكاكاو، رحيق رائع أعدته روزا دو أوكسالا ـ وكأنها ترتشف أفخم أنواع الشمبانيا. وحين راحت ما كانت تحب أن يروها وهي تغيب.

قالت وهي تمضي: «أفضل شيء يا أخ ليديو هو أن تأتي أنت إلى بيتي ذات يوم لرؤية أرتمولو دو أراوجو. وعندها ستستطيع أن تنصفه حين ترسمه. إنه أفضل قط في باهيا، ولكن له أسوا شخصية.

ـ بكل سرور يا مدام. سأذهب غداً.

ـ «وهل اسم القط أرغولو دو أراوجو؟ ظريف. نفس اسم البروفسور» قال أرشانجو محتاراً.

ـ هل تقصد نيلودافيلا أرغولو دو أراوجو؟ أعرف هذا المكروب جيداً. نحن أبناء عمومة من جهة أراوجو. وكنت مخطوبة لعمه أرنستو، لكنه حين يمر بي في الشارع يتظاهر أنه لا يراني. يقدر نفسه أكبر من قيمتها بكثير. إنه ينضح أرستقراطية من كل مسام جلده، ولكن بشرط أن لا أكون قريبة منه. فأنا أعرف الفضائح المستورة في العائلة جيدا ـ كل قصصهم الفاضحة وسرقاتهم. أوه، مون شير (يا عزيزي) كيل فامي (يا لها من عائلة) سأحكي لكم عنها كل شيء إذا أحببتم أن تسمعوا.

ـ إذا كنت أحب أن أسمع يا مدام! هذا اليوم هو يوم سعدي. الأربعاء يوم كسانغو، وأنا أوجوبا، عيناه الواسعتان المفتوحتان اللتان يجب أن تريا وتعرفا كل شيء: شؤون الفقراء باختياري، وشؤون الأغنياء إذا أتيحت الفرصة.

ـ خذني إلى ماكومبا وسأحكي لك عن أشراف باهيا كلهم.

وساعدها تادو في نزول الدرجتين أمام الباب.

ـ «لا فائدة لأحد من امرأة عجوز، لكنني لا أريد أن أموت مع ذلك» ـ وقرصت الولد تحت ذقنه بيدها ذات الأظافر المطلية بالمانيكير. «كان فتى أسمر وسيماً مثلك ذلك الذي جعل جدتي فرجينيا مارتيني تقع على رأسها حباً وتضيف أريجاً خاصاً لدم العائلة».

وفتحت مظلتها المزرقة وركزت مشيتها على منحدر شارع تابوان. كانت تمشي في شوارع باريس مشيتها «البيل إبوك» وهي تتنزه في بولفار دي كابوسين.

- 9 -

هناك شيء مؤكد واحد حتى لو كان كل ما عداه هراء:؛ كانت زابيلا موجودة في احتفال أوغون ليلة ألقيت فيها التعويذة. وتختلف القصة حسب من يحكيها. وقد شاهدوا المشاحنة كلهم وبعيونهم التي سيأكلها الدود - ستبتلعها الأرض - ذات يوم، لكن كل شاهد يفسر المسألة بطريقته. والأكثر إيجابية، بالطبع، أولئك الذين لم يكونوا هناك ولم يروا شيئاً، فهم الذين يعرفون عما جرى أكثر من الآخرين. هم الشهود الأساس.

ولكن من كانوا هناك ومن لم يكونوا يتفقون، كلهم، على شيء واحد!

- «إذا كنت لا تقبل كلامي فاسأل تلك السيدة الغنية من لابا، تلك المغطاة بالجواهر. إنها أرستقراطية حقيقية، فقد كانت هناك ورأت كل شيء».

لا شك في أنها كانت أرستقراطية المولد والنشأة، ولاشك أيضاً أنها كانت غنية، في الأيام الخوالي. ولكن كل مجوهراتها المتلألئة كانت من الزجاج البراق والخيطان الملفوفة وجدائل الحجارة المقلدة، الماي دوسانتو وحدها كانت ترتدي هذا الكم من العقود والأساور الذي ترتديه زابيلا. وحين غادرت في نهاية إحدى زياراتها الكثيرة خلعت كونتيسة أغوابروسكا أحد عقودها بطريقة مميزة وقدمته لماجي باسان:

- ليست له قيمة ولكن أرجو أن تحتفظي به.

وكانت زابيلا، وهي جالسة منتصبة القامة في الكرسي المخصص لكبار الضيوف، تتابع الاحتفال باهتمام، ولقد وقفت لكي تستطيع أن ترى بشكل أفضل، وراحت تقوم بحركات عصبية، فتضع يدها على قلبها هاتفة بالفرنسية: نوم دو! زوت، ألور! حينما نزلت الأوريكسا على إيقاعات الطبول المتسارعة، وحين اشتبكت السيوف في الأوغون، وعند رقصة أوكسوماري، تلوي معدة الكوبرا على الأرض نصفها ذكر ونصفها أنثى.

- ماذا حدث لتلك الفتاة الجميلة التي جاءت للتحدث معك ثم رقصت قليلاً بحيوية فائقة؟ كانت تقف بالباب ثم اختفت. ماذا حدث لها؟ لماذا لم تعد ترقص؟

لو أن بدرو أرشانجو يعرف سر الأحجية لما باح به للثرثارة العجوز! «لم أنتبه، يا مادونا».

- لا تحاول أن تستغلني. رأيت رجلاً يقف إلى جانبها وراء النار. رجلاً أبيض متعجرفاً، وكان قلقاً وعصبياً، هيا . قل لي أين هي:

- «ذهبت» ولم يعد راغباً في قول شيء آخر.

كل من شهدوا من الواضح أنهم متفقون على أن دوروشيا شوهدت في دائرة المتعبدين تدور في الخيمة وتنافس حتى روزا أوكسالا في جمالها وفي تعقيد خطواتها في الرقص. ستيلا دو أوكسوسي، وباو لادو أيوا وغيرها من الراقصات البارزات كن حاضرات أيضاً.

جاء أوكسوسي بذيل حصانه (إيرو كيري) واعتلى ستيلا. وإيوا دخلت باولا مثل نسيم في الهواء أو ماء يترقرق من نبع. وارتعشت روزا بتشنج ثم صارت أوكسولوفان (أو كسالا العجوز) ثلاثة أومولوس وأوكسوماريان وبامانجايان وأوساين واحد وكسانغو واحد ظهروا على التوالي ثم ستة أوغون في وقت واحد، فاليوم 13 حزيران عيد القديس أنطونيو. وفي باهيا أوغون والقديس انطونيو واحد. ونهض الناس وهم يهتفون: أغونيي!

وحين جاءت الإشارة من ياسان، وهي صفرة طويلة مثل صفير قطار أو باخرة، تقدمت دوروشيا مرتبكة لكي تقبل يد أرشانجو.

ـ لماذا لم تجلب ابني؟

ـ عنده الكثير من الدروس.

ـ أنا راحلة الآن يابدرو، هذه الليلة.

ـ هل هو قادم من أجلك؟ هل سترحلين نهائياً؟

ـ سأذهب معه وسأرحل إلى الأبد، لاتخبر تادو. ادهن فمك بالعسل وقل له إنني مت. هذا أفضل، ألم واحد فقط ثم ينتهي كل شيء.

ركعت وأحنت رأسها إلى الأرض. ولمس أرشانجو الرأس المجعد النضر. ورفع دوروشيا حتى استقامت في وقفتها. وما كادت تقف على قدميها حتى تملكتها يانسان بصرخة أيقظت الموتى. هناك شهود يقولون أن عويل الإيغون، الأسلاف الميتين، أثار القشعريرة حين انطلقت من الأعماق المظلمة للتيريرو.

قلة من الموجودين داخل الخيمة استطاعوا رؤية المشهد الذي سبق مجيء يانسان. لكن زابيلا تتبعته عن قرب من بدايته حتى نهايته. فكل ما فيه كان جديداً ومثيراً بالنسبة لها. المتفرجون حملوا المغمى عليهم إلى غرفة الملابس حيث غيروا ثيابهم قبل بدء الرقص على إيقاع الأغاني الاحتفالية. ويانسان، المحاطة بستة أوغون، رقصت أكثر من الأخريات. كان رقصاً وداعياً دون أن يفهم الموضوع أحد.

وفيما كان الراقصون يبدلون ملابسهم كانت مائدة حافلة قد أعدت في غرفة أخرى على شرف أوغون، وتذوقت زابيلا شيئاً من كل صنف فقد كانت تحب الطبخ بزيت النخيل، على الرغم من ضرره لكبدها. وحين انطلقت الصواريخ معلنة عودة أوريكساس، انطلقت العجوز شبه راكضة من غرفة الطعام وهي حريصة على أن لا يفوتها أي تفصيل من طقوس ماكومبا.

اقترب المركب المهيب لأولئك الذين احتلتهم آلهة وعلى رأسهم أوغون إيبرغانيا، كان هناك خليط من الطبول والناس قد وقفوا وراحوا يصفقون. أسهم نارية ومفرقعات وصواريخ مضيئة كانت تتلامع في الجو ـ شهر حزيران في باهيا هو شهر الذرة والألعاب النارية، ووسط تفجر الصواريخ وتلامع

الأضواء داخل الأوريكساس إلى الخيمة واحداً بعد الآخر، وكل مع شعائره وأسلحته وشعاراته. وبدأت الأم ماجي باسان الغناء وأوكسوسي قاد الرقص.

ولكن أين يانسان؟ لِمَ لم تعد إلى الظهور داخل الخيمة؟ كل ما سُمع عنها هو صدى صوت بعيد، صفرة، قطار، لا، بل سفينة، وبعد ذلك رأى الجميع دوروشيا كانت ترتديها، ويقسمون على إصابتهم بالعمى إن لم يكونوا قد رأوها، ولم تكن ترتدي الفستان المنشى والمعطف المخرم المعروف في باهيا. أبداً. كانت تلبس مثل سيدة رسمية بحلة أرستقراطية، اللباس من أحسن الأصناف مع ذيل طويل وجابوط العنق المكشكش. كان صدرها يضطرب وعيناها تحترقان مثل الفحم.

ولدى كل إنسان ما يقوله عن الرجل الذي كان يقف وراء دوروشيا، ويتفق الجميع على أن لديه قرنين صغيرين مثل الشيطان، على الرغم من عدم اتفاقهم على أي شيء آخر. بعضهم رأى له ذنباً مثل قصبة تمشي، وطرفه المعقوف ملفوف على ذراعه. ويتحدث الآخرون عن حافريه المشقوقين، ويصفه معظمهم بأنه حالك السواد. إيفاندرو كافي، رجل عجوز محترم ورفيق سابق، يقول إن العسراوي كان أحمر، قرمزيا متألقاً. أما بالنسبة لعيني زابيلا الغريبتين والحريصتين فقد كان جميلاً وأبيض، مع خصلتين على جبهته، نوعاً وسيماً الرجال، الكونتيسة والعبد والسائق، وكل منهما عجوز وصاحب خبرة، يمكن الوثوق بهما كشاهدين.

لقد حدث الأمر في أوج الألعاب النارية والتهاب المشاعل. وسط ذلك الضوء الباهر واللهب ووهج الفجر الكاذب المضاء بألسنة النار وبالرعد والبرق، ذابت دوروشيا وتحولت إلى هواء خفيف قبل أن تستطيع أن تلفظ بتعويذة، خلال لحظة كانت تقف بالباب، وفي اللحظة التالية كانت قد اختفت. ظل الباب الخالي وحده ورائحة الكبريت، وومضة البرق مع انفجار. أكانت قذيفة صاروخية أم قنبلة؟ الذين سمعوا الانفجار يعرفون أنه لم يكن كذلك.

ولم تُشاهد دوروشيا بعد ذلك أبداً، وكذلك بيلزيبوب. حدثت ضجة كبيرة، وبالنسبة لزابيلا كانت انطلاقة جواد وصوت حوافره، العاشقان هربا إلى أرض نائية، وبالنسبة لإيفاندرو كافي كان صوت الحوافر المشقوقة وهي تقرقع، جاء الشرير من أجل إيابا، ولكن أياً كان فقد اختفت دوروشيا.

ومرت أيام لم يقف فيها أحد على كشك شارع ميزيريكورديا، حيث كان يقف الزبائن، من أجل كعك الذرة مع أوبلا فلفل، أو حلويات جوز الهند وحلوى الدبس (قدم العبد)، حيث ظلوا سنوات وسنوات يترددون من أجل الشراء من دوروشيا السوداء بقلادتها اليانسانية ذات الطرفين الأبيض والأحمر التي كانت خاصة بكسانغو، وميكلينا الهادئة بعينها المخضرتين وصينيتها المليئة بالمربى وفي مكانها المعهود.

وبكى ولد، وهو مكب على كتبه في خيمة المعجزات، على أم ماتت بالنسبة له. وبالنسبة للآخرين كانت امرأة مفتونة عادت إلى حيث جاءت. لكل منا مصيره. وإذا كان مفتاح اللغز عند أرشانجو فإنه لم يخبر أحداً به.

حيث فاوستوبينا يعيد حكاية تجارية كمؤلف مسرحي وحوادث مؤسفة أخرى

-1-

كانت تجربتي في المسرح خراباً كاملاً، ولست أبالغ. كانت مدمرة وقاتلة ومأساوية. ومن أية زاوية أنظر إلى الأمر تأتي النتائج سلبية: خيبة أمل وصدمة وألم. ألم حقيقي ألم ديوث.

ولكن لم أحاول، أبداً، أن أخطو خارج المشاهد، لم أصل إلى الخشبة. ورعشة البقع الضوئية والجمهور والتصفيق والنقد لم تكن من نصيبي، على الرغم من أنني في أوج حماسي، كنت أحلم بهذا كله وبما هو أكثر. رأيت اسمي على بناء مسرح كاسترو ألفيس، وبالنيون على المسارح في ريو وسان باولو، وإلى جانبه اسم آنا مرسيدس السيدة الأولى المظفرة، آنا مرسيدس الفريدة الوحيدة. الانفجار الجديد في سماء النجوم الممثلات. رأيت قاعات حاشدة، وجمهوراً هائجاً ونقاداً متحمسين وأموالاً تنسكب من بيع البطاقات ومن الحقوق «للمؤلف» باختصار بدء مرحلة كاتب جديد مظفر.

أما الحقيقة فقصة مختلفة تماماً، لا مال لا كتابات متملقة ولا أسماء بالأضواء.

اسمي مدرج عند البوليس. كما سمعت، وأنا ملفع بغيمة بالمعنى المحدد للكلمة. لقد أنفقت آخر فلس وفقدت آخر شيء ذي قيمة مما أملكه.

تعلمت درساً دون شك، ولست أحمل لمرافقي في سوء الحظ هذا أي ضغينة: ولا حتى لإلداسيو تافييرا عدوي. بيني وبين القارئ بشكل خاص، أعترف أنني لا أستطيع تحمل رؤيته وأنني أنتظر الفرصة لأنتقم منه: من ينتظر نيل كل شيء. وأنا لست على عجلة. الآن ليس الوقت ملائماً لتخريب الأمور مع يهودا. مؤسسة الكتاب الوطني تريد منه أن ينشر «مختارات من شعر الشباب الباهي» وقد وعد بأن يضمنها بعض قصائدي ـ أكثر من قصيدة ولم يقل كم قصيدة. فإذا قاطعته نهائياً قد يستثنيني من المجموعة نهائياً وعندها أصير، نهائياً، خارج التيار الأدبي. ولهذا احتفظت بأفضل ابتساماتي له وامتدحت أشعاره بحماس ولطف دائمين، يجب أن تعرف متى تبتلع كبرياءك إن كنت تريد لنفسك مكاناً تحت شمس الأدب.

كان المفروض أن يشترك أربعة منا في كتابة المسرحية، وزملائي الثلاثة مثقفون من الدرجة الأولى، مبدعون على الأقل ـ الداسيوتافييرا بشاربيه المتدليين الكثيفين وقمصانه اللامعة هو الأكثر شهرة بيننا، فقد نشر قصائد في ريو وسان باولو وحتى في لشبونة، والآن يحقق ظهوره الأول كمؤلف مسرحي. والاثنان الآخران طالبا حقوق. تونينهو لينس، مؤلف موسيقى في السنة الثالثة في الجامعة. وقد سجلت إحدى مقطوعات السامبا التي ألفها ولا تزال منذ عدة سنوات مقطوعات أخرى تنتظر النشر. لقد كان يأمل بأن مهرجان الموسيقى الشعبية القادم سوف يطلق شهرته.

إستاشيو مايا، طالب السنة الأولى المزمن: من نوع مختلف: عدواني، شارب متطرف للكاشاشا مع لوثة وعم، جنرال، يحب أن يهينه عندما يشرب بين أصدقاء مقربين، شاب متقدم بمواهب أدبية وطاقة

لا حدود لها ولا استقرار ولا يمكن التكهن بها ويظل غامضاً ضمن كل أنواع التعقيدات، ولم يكن يتوقف عن لعب الأدوار: فحيناً هو إرهابي لا يهادن، وحينا متصوف يطلب الغفران لخطاياه. كان ممثلاً بائساً ولا فائدة منه في المجال الرومانسي، وكانت آنا مارسيدس قادرة على معرفة الدور الذي سيمثله اليوم حالما تراه قادماً: «اليوم هو مقاتل في حرب العصابات» في اليوم السابق ربما كان أحد أبطال دوستويفسكي، نسخة شعبية من راسكولينكوف *(21). إنه «كاراكتر» بكل معنى الكلمة.

كانت خطوتنا الأولى هي حجز مسرح كاسترو ألفيس لعرضنا القادم. وقد أوكلت هذه المهمة إلى استاشيو مايا، الذي وجد من المفيد أن يكون ابن أخ عمه في مناسبات كهذه، ثم بدأت المجادلات المطولة حول المسرحية، مع الصرخات واللعنات والتهديدات باللجوء إلى العنف الجسدي والكثير من الكاشاشا.

اختلفنا على مضامين المسرحية وعلى شخصية بدرو أرشانجو، استاشيو مايا، الذي أعلن نفسه مكافحاً لا يساوم في صفوف القوة السوداء، أراد أن يجعل بدرو أرشانجو من الفهود السود، ويريده أن يخرج عن المنصة وهو يردد خطابات وشعارات ستوكلي كار مايكل داعياً إلى الانفصال وإلى الكراهية المتأصلة بين الأعراق. أما نيلو أرغولو الذي له سمة البروفسور فقد قلب الأمور: السود من طرف والبيض من طرف ثابتون في عداء دموي ولا يسمح بالاختلاط أو التآخي! ولم أستطع أن أفهم كيف كان الداعية العنيف لترنجيتنا، بالأسلوب البرازيلي، سيتصرف مع الخلاسيين.

ولا أذكر ما إذا كنت قد قلت إن مايا كان أبيض بشعر أشقر وعينين زرقاوين وإن مفاتن النساء السوداوات والخلاسيات كانت تصيبه بالبرود. ويجب أن أكون ممتناً له من أجل ذلك على الأقل. فقد كان هناك تسعة عشر رجلاً ـ مخرج وممثلون وعمال إضاءة ومديرو مسارح ومصممو أزياء وغيرهم دون أن نذكر الثمانية المهووسين ـ وبين التسعة عشر كان استاشيو مايا الوحيد الذي لم يحاول تطبيق آنا مرسيدس.

ورفض إلداسيو التمشي مع أفكاره، وكذلك فعل تونينهو لينس. وهذا الأخير جاد، له تميزه الخاص بين زملائه الطلاب. وقد أصر على تقديم بدرو أرشانجو داعية إضراب من الدرجة الأولى. أراد أن يقدمه مقاتلاً ضد أرباب العمل والتروستات والشرطة: لجعل الصراع الطبقي الموضوع الأساس للمسرحية: «إن المشكلة العرقية، يا رفاق، هي نتيجة للمشكلة الطبقية» ويشرح مستشهداً بأفضل مراجعه دون أن يفقد اتزانه. «في البرازيل، يا رفاق، يضطهد الزنوج والخلاسيون بسبب شرطهم البروليتاري: فالفقير الأبيض عبد قذر، والخلاسي الغني أبيض ليلكي» «الفولكلور والصراع الطبقي» هي وصفته لمسرحية ستكون تقدمية مكافحة وشعبية معاً. وكانت مؤلفاته تعتمد على أنغام شعبية، ومن بين كافة الأغاني التي وضعناها للمسرحية الأغنية الوحيدة التي كتبت نوتتها هي الأغنية الجميلة التي كتبها تونينهو لينس من أجل جنازة بدرو أرشانجو. وفي وقت لاحق دخل في مهرجان الجامعة في ريو ونال الجائزة الثانية، ولكن رد الفعل الشعبي كان سيمنحه الجائزة الأولى.

أما إلداسيو، فيجب أن أعترف أن موقفه كان أقرب إلى بدرو أرشانجو الحقيقي، وهذا يعني إذا كانت هناك حقيقة «أرشانجية» (لكي أستخدم الكلمة الدارجة هذا العام) بين كل شخصيات أرشانجو التي طرحت خلال الذكرى المئوية. حتى صرنا نراه على جدران المدينة يعلن عن كوكاكوكو: «العادة الوحيدة التي لم تكن لدينا في باهيا على أيامي هي بمادة شرب الكوكاكوكو».

واتفق إلداسيو تافيرا مع تونينهو على أن المسألة الطبقية يجب أن تكون لها الأولوية على المسألة العرقية وقيل أن استاشيو مايا كان محقاً حين قال إن العنصريين والمتحاملين لونياً كثر في البرازيل: ولذا اقترح أرشانجو غير منحاز يدرك قوته وقوة شعبه ولذا كان يصر على أن الحل الوحيد للمشكلة في البرازيل: التزاوج والاختلاط، والخلاسيون والخلاسيات، حججه كلها كانت تبدأ وتنتهي عند آنا مرسيدس، التي كان يتعرض لها في الزوايا المعتمة من المسرح، ذلك الجرذ!

تناقشنا في البارات وفي النوادي الليلية أو كملجأ أخير، «حيث تبول الملائكة». ساعدت إلداسيو على اختيار مقاطع من كتب بدرو أرشانجو لكي يقيم عليها الحوار، ولكن إستاشيو مايا لم يقبلها: «صاحبنا رجعي!»، ووضع خطابات عنيفة على لسان أرشانجو، تهديدات مشؤومة بتدمير العرق الأبيض والغرب كله: «نحن السود سوف نقضي على الروس والأمريكان معاً، أنتم، كلكم، قتلة بيض»، وصار لابد من أن أتدخل أنا وتونينهو لينس. لقد ارتفعت حدة المتحاورين إلى درجة من الإثارة خفنا معها أن تنتهي المناقشة في نزال يدوي قاتل. إلداسيو، الذي لديه حس متدن بالفكاهة، لكز مايا الأشقر قائلاً: «كار مايكل بقة فراش» وعادا من جديد.

بعد تبادل الإهانات يتحملان معاتبات واحتجاجات الصداقة، ثم يبدأ الجدل من جديد ـ المزيد من الشتائم والمزيد من الشراب والمزيد من المعاتبات، أفرغا بارات بأكملها.

أما أنا فكنت أجهد للتوفيق بين الآراء المختلفة والهواجس والتحزبات والأيديولوجيات لتحويلها إلى كلام وحوار. كنت أريد تحقيق المسرحية ورؤية اسمي إلى جانب اسم آنا مرسيدس ـ المؤلف والديما (السيدة الأولى). آه كم ستكون ليلة افتتاح رائعة. آنا مرسيدس ستكون روزا دو أوكسالا ـ لا جدال حول ذلك على الأقل. عند هذا الحد من الحوار لم أكن أهتم بمصير بدرو أرشانجو المسرحي بعد الموت: قائد عمالي مضرب، أم عنصري من الفهود السود رافض للتزاوج وداعية للجهاد ضد البيض. أم ابن باهيا الخلاسي خالق الحضارة، كله عندي سواء كل ما كنت أريده هو فتح الطريق أمام ذلك العرض.

بفضل الصبر الذي لا حدود له استطعت تجميع مسودة فوضوية متناقضة وأخذتها إلى الرقابة. وقد كان من رأي الطليعي الضليع ألفارو أورلاندو، الذي دعي لإخراج المسرحية، أن النصوص ثانوية في أهميتها بالنسبة للمسرح ـ والحقيقة لا قيمة لها ولذا فإن التناقضات لا أهمية لها. وحصل استاشيو مايا على وعود بالدعم، واقترح أن ترعى الجامعة ليلة الافتتاح للطلبة. وكما قلت أن استاشيو مايا كان يلبس سترة ابن الأخ في هذه المناسبات.

قررنا أن نبدأ التدريبات دون انتظار الموافقة من الرقابة. ويشاء الحظ أن تقع اضطرابات بين الطلبة ذلك الأسبوع، اكتشفوا أن استفزازيي الحكومة قد تسربوا إلى كلية الحقوق، فأضربوا وأيدهم طلاب المعاهد الفنية الأخرى. وكانت مسيرة الاحتجاج الأولى منظمة، لكن الثانية فرقتها الشرطة بالرصاص والغاز المسيل للدموع. حدثت اعتقالات جماعية، وجرح العديد من الطلاب، وتم اقتحام دير بندكتين وأغلقت الحوانيت وحدثت أحداث عنف وحشية ـ باختصار فشلت التظاهرة.

اعتقل تيننهو لينس في رواشيلي حيث كافح الشرطة بإعلاناته قدر استطاعته. ظل أسبوعاً في السجن، لكنه خرج منه رجلاً. واستاشيو مايا غاب عن الجو طالما كان الظهور خطراً. فمسيرات الاحتجاج وقتال الشوارع والسجون لا تغريه كثيراً. إنه صاحب نظريات، لكن اسمه نشر في الصحف كمحرض، فاختفى تماماً، غاب عن النظر وسمعنا مؤخراً أنه انتقل إلى الجامعة في أراكاجو. وما يزال

في سيرجيب وأكثر وحدة مما كان من قبل، عاد إلى مقاومته الصوفية من جديد.

اعترضت الرقابة على مسرحيتنا، وقيل لي أنها أرسلت أسماء الكتاب إلى الشرطة. أي إلى غورغرقت؟! فبما أننا قد حجزنا المسرح، سرعان ما كتب إلداسيو مسرحية للأطفال، ودعا آنا مرسيدس لتكون الفراشة المتلألئة. وعارضت الفكرة بشدة وعبرت عن ذلك بشكل حاسم. ولتعويضها عن هذه الفرصة الضائعة أخذتها إلى ريو وسان باولو وأنفقت آخر دولارات ليفنسون العظيم على شهر العسل هذا المتأخر.

صارت الدولارات تذوب كمشة بعد أخرى في بوتيكات كوبا كابانا وفي روا أوغوستا في سان باولو، وفي المطاعم والنوادي الليلية وفي التعامل مع الأدباء المحليين. ولقد تبين أنها صداقات مكلفة. السوق العاملة مستحيلة هذه الأيام، إن ذكراً بسيطاً لاسم شاعر من الأقاليم في زاوية أدبية يجب أن يدفع ثمنه، إما على شكل غداء في متحف الفن الحديث أو عدة كؤوس من الوسكي في أحد البارات في إبانيما.

عدت خاوي الجيوب ولم تنفع التضحية. فبعد أن زودت بإبداعات لايس الباهظة صارت نافذة الصبر ومراوغة. ففي صباح يوم أحد فتحت الملحق الأدبي للمورننغ نيوز، وماذا سأجد غير قصيدتين موقعتين باسمها. ولم تكن قد قدمتهما لي لأراجعهما. قرأت الأشعار. إنني أعرف شيئاً ما عن الشعر. ومنذ المقطع الأول عرفت أسلوب إلداسيو تافييرا. وضعت يدي على جبيني فوجدته ملتهباً بالحمى وبتأثير القرون.

تألمت وما زلت أتألم. إنني أحلم بها ليلاً وأعض وسادتي حيث العبير الباني ما يزال يعطر السرير. ولكن حين التقيت بهما معاً في الطريق وكل منهما يحيط خصر الآخر لم أظهر شيئاً من آلام الديوث بينما كانت أحشائي تتقطع، وذكر إلداسيو المختارات وطلب مني أن أعجل بإعطاء قصائدي، فهو على وشك تقديم المخطوط إلى المؤسسة، وتطلعت العاهرة إلي بلا مبالاة فاترة.

حتى الكاشاشا لم تستطع أن تريحني في ذلك اليوم. وفي نهاية الليل. وكنت مخدراً لكن لم أزل متيقظاً صافي الذهن، أقدمت على كتابة قصيدة وداعية لآنا مرسيدس، بعض الأحزان لا يمكن الخلاص منها إلا بالانتحار أو بقصيدة، وبأسلوب كامنيس.

---

*(21) - بطل ((الجريمة والعقاب)).

حيث أصبح بدرو أرشانجو جائزة وموضوع جائزة والشعراء يضغطون على الوسطاء والمعلمات والمهرج التمساح

-1-

ـ «لا، بحق الله»، كان البروفسور كالازانس على وشك أن يفقد دماثته المعهودة وأن ينفجر. «ليس فرناندو بسوا! كل شيء إلا هذا».

كانوا مجتمعين في مكتب غاستان سيماس في شركة دوبنغ للدعاية والإعلان لاختيار موضوع لجائزة بدرو أرشانجو، فبعد انتهاء الذكرى المئوية وتحول غضب البروفسور كالازانس وخيبته إلى مرح، صار قادراً على أن يدرك بتسامح، كدلالة على هذا الزمن، إن أهم حدث ثقافي في ذلك العام قد نوقش وقرر في مكتب وكالة إعلان وكان سرده الظريف للأحداث يستحق أن يسمع.

ـ «ولكن فرناندو بسوا موضوع هام، وبدرو أرشانجو نفسه كان شاعراً بشكل أو بآخر». رد ألميرهيبوليتو، الشاعر المهاجر السابق، الذي هاجر إلى مجال الإعلان، وأراح عينيه العميقتين الحالمتين على سرجيبا الضخم: «ألم تقرأ مقالة أبيو كوريا «بدرو أرشانجو شاعر العلم» في المورننغ نيوز؟ كانت عظيمة».

«وماذا يعني؟ ما الذي اكتشفه كاتبك العظيم مما يجعل بدرو أرشانجو وبسوا في خانة واحدة؟». كان البروفسور كالازانس مستفزاً من كثرة استخدام صفة «عظيم» لقد ظل يسمعها بشكل دائم من ابنته وصديقاتها، وصارت تبدو ملازمة لأي شيء ولكل شيء، ولكن بشكل خاص لأحبائهن. «لقد كان بدرو أرشانجو مولعاً بتعاطي جرعة من الكاشاشا بين حين وآخر، ولا أظن أننا سنضع جائزة سيري أو جائزة التمساح لأفضل تركيبة لهذه الأنواع من الروم».

ـ «اسمع. هذه فكرة عظيمة!» قوقى غاستان سيماس. «يا بروفسور، لو أنك تأتي للعمل معنا لكنت مدهشاً في الإعلان. إن لديك أفكاراً عظيمة. وأراهن أن الإسبان الذين يملكون شركة التمساح سيلتقطون اقتراحك».

ـ «ألم يكفك إعلان الكوكاكوكو المخبل؟ بدرو أرشانجو إعلان للمرطبات وهذا كثير»

ترى دونا لوسيا زوجة البروفسور كالازانس أن زوجها يفقد أعصابه مرتين في العام على الأكثر. ولكن في عام 1968 كان يفقد أعصابه مرتين في اليوم على الأقل، بسبب الذكرى المئوية لبدرو أرشانجو: صار يصرخ، ويعرق تحت قبته ويناقش في التفاصيل الصغيرة. ولكن هل هي تفاصيل صغيرة؟ لا. إن بعضها إهانات فظيعة. إن استخدام اسم أرشانجو في الإعلانات قد صدمه بصفته تدنيساً مقرفاً، لكن الأسوأ من هذا استخدام كتاباته والإساءة لها في تقديمها من أجل تجميل بعض مظاهر الاستعمار، كما فعل كاتب للمقالات والزوايا عالي الأجر. نعم. إن هذا أحط أنواع الانحطاط والإهانة.

كان سرجيبا ميالاً إلى تفجيرهم جميعاً. والسبب الوحيد الذي منعه من ذلك هو أنه طالما قد تعهد

بأمر ما فلابد من الوصول به إلى النهاية القاسية. ولكن إذا غسل يديه من الموضوع. من الذي سيدافع عن بدرو أرشانجو، الذي كان يرغب في الابتعاد بعمله من أن ينزل إلى مستوى قطعة من الفولكلور الظريف، وأن يجرد بالضبط مما جعله حياً وهاماً؟ إن وصف أرشانجو للعادات والتقاليد الشعبية وصف هام، لكن ما هو أكثر أهمية هو طرحه المعادي للعنصرية وإعلانه للديمقراطية العرقية.

لقد صار كالازانس متطرفاً في انحيازه للفقير العصامي، الذي لا مصادر لديه وثقافته محدودة، والذي تجاوز كل عائق أمام التعليم والذي قدم كتباً أصيلة وعميقة ومعطاءة. إنه يمكن أن يكون مثلاً ملهماً للشباب في الاستقامة والشجاعة حتى في أسوأ الظروف وبسبب حبه لبدرو أرشانجو تشبث البروفسور بموقفه على خط النار.

- «إنه لأمر مضحك» قال هامساً لصديقه وزميله البروفسور أزيفيدو «لدينا كل هذه الصرعة، كل هؤلاء الناس يتراكضون، وكل هذه الضجة المثارة حول مئوية أرشانجو، ومع ذلك فهم يشوهون عمله وشخصيته بشكل لا يصدق، صحيح أنهم يبنونه آبدة لكن الأرشانجو الذي يبنونه ليس أرشانجو الذي نعرفه بل شخصٌ أجمل منه بكثير».

- هذا صحيح. وافقه البروفسور أزيفيدو «لقد ظلوا سنوات يهملون الرجل وكتاباته، ثم ظهر ليفنسون وأيقظهم من سباتهم. لهذا ينفضون الغبار عن أرشانجو وقد صغروه على مقاساتهم بإلباسه ملابس جديدة ومحاولتهم رفعه إلى أعلى مرتبة اجتماعية حيث يصير أكثر نفعاً لهم، ولكن أرشانجو أكثر صلابة من أن يشوه. وإضافة إلى ذلك، إن هذا التخبط كله قد يكون له جانبه الحسن. سيجعل اسم كاتبنا ابن شارع تابوان كلمة مألوفة ومنزلية».

- أحياناً أمتلئ بالقرف من هذا كله، فأفقد أعصابي».

«يجب أن تضبط أعصابك. بعض الشبان الممتازين فعلاً يقومون ببحث حول كتابات أرشانجو ويستخدمونها لإرساء أسس جديدة لتطور المجتمع البرازيلي. كتاب البروفسور راموس كتاب كبير. هذا هو الوصف الوحيد اللائق به. هناك نصب حقيقية لأرشانجو إذا كان هذا يرضيك، وكان ذلك بسبب الندوة التي لم يسمحوا لنا بعقدها».

ثم هناك كتاب البروفسور أزيفيدو الذي كان ناجحاً. «بدرو أرشانجو ابن باهيا» صدر أيضاً بفضل المؤتمر الذي لم يعقد. فالاجتماع الممنوع قد أثمر بوفرة في صيغة كتب وأبحاث.

- أنت محق بالطبع. حتى هذه الجائزة للطلاب وحدهم تعادل هذا الصراع كله.

بالتحديد كان اختيار الموضوع لجائزة بدرو أرشانجو هو الذي جعل البروفسور يفقد أعصابه في مناسبة أخرى في مكتب غاسان سيماس.

- « ليس فرناندو بسوا. هذه ستكون القشة التي تقصم ظهر البعير! كونوا منطقيين. إذا كنا سنختار شاعراً كموضوع فلم لا يكون كاسترو ألفيس؟ كان داعية لإلغاء الرق وهو على الأقل برازيلي!».

لوح ألميرهيبوليتو بذراعيه النحيلتين كإشارة وفورة على السخط. وكانت احتجاجاته العنيفة فاتنة:

- «أوه. بحق الله. لا تجر مقارنة كهذه! حين تتحدث عن الشعر أرجوك لا تذكر هذا الشويعر المبتذل كاسترو ألفيس. ولا تقارنه بفرناندو الذي أطرحه، فهو أعظم شاعر كتب باللغة البرتغالية!» - كاسترو

ألفيس زير النساء المدمن، كان يثير قرفه حتى القيء.

ابتلع البروفسور كالازانس عدة كلمات عنيفة واستطاع أن يتحدث برصانة:

ـ «الأعظم؟ مسكين كامنيز! وحتى لو كان فلن يكون موضوعاً ملائماً للجائزة»

ـ «قد يكون مفيداً» رد غولدمان، المدير الإداري لسيتي نيوز «قد يساعدنا في كسب المزيد من المال من الجالية البرتغالية».

ـ «حكموا عقولكم! هل نحن هنا لتكريم بدرو أرشانجو أم لابتزاز المال من البرتغاليين؟ كل ما تفكرون فيه أنتم هو المال».

ـ «بدرو أرشانجو هو المفتاح» قال أرنو الذي ظل صامتاً «مفتاح الخزينة».

وتدخل غاستان سيماس: «البروفسور كالازانس على حق. لقد طرح هيبوليتو فكرة عظيمة، ولكن يجب أن نتركها لفرصة قادمة نكون فيها راغبين في طرح شيء ما على الجالية البرتغالية ـ ذكرى اكتشاف كابرال للبرازيل أو الذكرى المئوية لغاغو كوتنهو. ما رأيكم في هذه؟ ومن كامنس إلى فرناندو بيسوا، من كابرال إلى غاغو كوتنهو ما رأيكم؟»، وعدل هندامه قليلاً «نستطيع أن نتحدث في هذا في وقت لاحق. دعونا الآن ننتهي من هذه الجائزة اللعينة. كان المفروض أن نكون قد أعلناها. لم نعد قادرين على أن نضيع دقيقة واحدة. من فضلك يا بروفسور هل يمكن أن تتقدم باقتراح محدد؟».

سحب البروفسور كالازانس مجموعة من الأوراق من جيبه وبسطها على الطاولة. لقد أوجد، وبالتفصيل، أسس جائزة بدرو أرشانجو وكان قد وضعها مع إلدفاس فييرا من مركز الدراسات الفولكلورية. وتأثر آرنو ميلو بالأوراق المبعثرة: أليس هناك حقيبة جلدية؟ حقيبة خاصة (007)؟ كيف يقوم هذا المسكين بأي عمل بهذه الطريقة؟ كمية كبيرة من الملاحظات على قطع من الورق نافخة جيوب سترته بطريقة غير مقبولة، دليل ملموس على التخلف. اشتر لنفسك حقيبة (007) يا بروفسور ودعها تمنحك شخصية جديدة ـ مقدامة وحاسمة ومدبرة وجاهزة للتقدم بفكرة عند أول لمسة للقبعة ولجعل آرائك راسخة.

ولكن البروفسور كانت لديه أفكاره ولم يكن بحاجة إلى (007) أو حقيبة جلدية لجعل آرائه راسخة، فإما أن يوافقوا على الموضوع وأسسه ومحكمي الجائزة كما كتباها هنا، وإما أن يفعلوا ذلك بأنفسهم ويحولوا أرشانجو إلى مفتاح خزينة ليفتحوا أيما خزينة لعينة يريدون.

- 2 -

يدين غاسان سيماس بمركزه كمدير لفرع باهيا في شركة دوبنغ (إس إي) لقدرته على إجراء المصالحات وكونه حلاّل العقد. إنه الرجل الذي يجني الابتسامات والوئام حيث يجني الآخرون العبوس والنزاعات. «هذا الأملس العجوز عبقري». كما يلخص الأمر آرنو المعجب به. وحين كان أحد الزبائن ينزعج لأن أحد الفتيان تحامق، أو يغضب بسبب خطأ متكرر في الإعلانات المدفوعة الأجر سلفاً ويهدد بتصفية حساباته، في حالة كهذه يعلو مقام غاسان سيماس ويبين ما هو جدير به.

الآن راح سيماس يهدئ البروفسور قائلاً: «سنفعل أي شيء تطلبه منا ياسيدي». وفي النهاية اكتمل مخطط جائزة بدرو أرشانجو. وتعرض اقتراح الدكتور زيزينهو بينتو الأولي الرائع لتغييرات بسيطة. فقد وسع الهامش للمرشحين المؤهلين لكي يشمل طلاب المدارس الثانوية إضافة إلى طلاب الجامعة. وبدلاً من الإنشاء المبسط نصت الشروط على مقالة لا تقل عن عشر صفحات على الآلة الكاتبة حول أحد جوانب الحياة الفولكلورية في باهيا. ويستطيع المتسابق أن يختار بين الموضوعات التالية: الكابويرا، الكاندومبلي، البحث عن كسارو، حلقات السامبا، الأفوكسي، لوحة الرعاة، مواكب البحارة، نذور السنة الجديدة ليمانجا، أبجديات لوكاس دوفيرا، بيسورو، وأشهر مصارعي الكابويرا، الرسام الكاريبي، ربنا في بونفيم، وغسيل كنيسته أو مآدب كونسيشان دو برايا والقديسة بربارة. وستظل الجائزة الأولى رحلة - وليس إلى البرتغال بل إلى الولايات المتحدة طالما أن شركة طيران أمريكية قد تبرعت ببطاقتين. وقد خطط غاستان سيماس للاحتفاظ بالرحلة إلى البرتغال لحملة الدعاية القادمة لتكريم بدرو ألفاريس كابرال وغاغوكو نتينهو التي كانت التهيئة لها قائمة والتي أمن أن ترعاها محطات التلفزيون وشركة طيران برتغالية ووكالة سياحية.

وعرضت جوائز إضافية: رحلة إلى ريو دو جانيرو، وأجهزة تلفزيون، ومسجلات وراديوهات وموسوعة الشباب في سبعة مجلدات وقاموس. ولأن البروفسور كالازان شعر بأنه قد كوفئ على بهدلة نفسه واضطراره للاستماع إلى تلك الثرثارات فقد أعلن في مقابلة مع سيتي نيوز أن «جائزة بدرو أرشانجو سوف تشجع شبابنا على القيام بالأبحاث، وستوقظ في نفوسهم التقدير للفولكلور، والاهتمام بجذور الثقافة البرازيلية».

أنهى البروفسور قراءة مقابلته على الصفحة الأولى من الصحيفة، وكان يبتسم راضياً حين رن الهاتف: كان غاستان سيماس يتساءل عما إذا كان يستطيع أن يأتي إلى مكتب دوبنغ لعدة دقائق. يجب أن يأتي بأسرع ما يستطيع. هناك أخبار طيبة.

أنهى استراحته القصيرة واندفع إلى الوكالة. وكان غاستان سيماس وموظفوه يشعّون سعادة. كانت هناك فرحة ذلك الذي تجاوزت قدرته حدود الاختبار.

«يا أستاذي العزيز أو اسمح لي أن أخاطبك كزميل متعاون مع دوبنغ. فالفكرة الأصلية في النهاية، فكرتك».

ـ «أية فكرة» سأل كالازان متشككاً وهو يتراجع خطوة، هؤلاء الخبراء الذين لا يهزمون، الجريئون ومعدومو الضمائر حين يتعلق الأمر بالدعاية والإعلان والربح، كانوا يزعجونه.

ـ أتذكر يوم الأربعاء الماضي في الاجتماع حين رتبنا تفاصيل جائزة بدرو أرشانجو؟

ـ أتذكر طبعاً.

ـ هل تذكر إشارتك لبعض أصناف الروم؟

ـ غاستان ! أكيد لم تجلبني إلى هنا لتخبرني بخطتك لجعل بدرو أرشانجو يبيع الكاشاشا. يكفي إعلان الكوكاكوكو الحقير.

ـ دعنا لا نضيع وقتنا الثمين. أما عن جعل بدرو أرشانجو يبيع الكاشاشا فلا تقلق لذلك. شركة التمساح لن تشتري هذه الفكرة لأن الكوكاكوكو قد سبقتها إليها. لكنها راغبة في تقديم جائزة لأولاد المدارس العامة في المرحلة الابتدائية. لم تمنحهم شيئاً من امتياز الذكرى المئوية لبدرو أرشانجو بعد. ما رأيك بذلك؟

ـ وأية جائزة ستكون؟

ـ ليس في الأمر ما يضير، ستطلب الشركة من كل ولد أن يكتب مقطعين عن بدرو أرشانجو، وسيختار المعلمون أحسن الكتابات وبعدها ستختار لجنة من المثقفين والكتاب الفائزين الخمسة لجائزة شركة التمساح لصناعة الروم.

ـ جائزة روم التمساح! يا إلهي!

ـ أتعرف ما هي الجائزة يا أستاذ؟ منح للمعاهد العليا، تعليم كامل على نفقتها حتى يصل الخمسة الفائزون إلى المعهد العالي. الشركة ستدفع كل شيء.

ذاب قلب كالازان: خمسة أطفال بؤساء ستكون أمامهم الفرصة للوصول إلى المعهد العالي.

ـ على الأقل أن شركة الكاشاشا تتصرف بلباقة أفضل من شركة المرطبات. إنها تستغل اسم أرشانجو، لكنها على الأقل تقدم شيئا ما بالمقابل. هذا أفضل مما فعلته شركة الكوكو. ولكنني لا أرى أين دوري في هذا.

ـ دورك في ملخص صغير يُعطى للمعلمين لكي يحكوا لتلاميذهم عن أرشانجو. نصف صفحة، صفحة على الأكثر. بعض المعلومات فقط عن بطلنا، يدرسها المعلمون لكي يأخذوا فكرة عمن هو أرشانجو ولكي يعطوا هذه المعلومات إلى الأولاد. وبعدها يقوم الأولاد بشرحها كل منهم بطريقته، أليس هذا عظيماً؟ لهذا نطلب منك أن تكتب الملخص أو بالأحرى نكلفك بكتابته.

ـ ليس الأمر سهلاً.

ـ نعرف ذلك يا أستاذ ولهذا نلجأ إليك، إضافة إلى أنها كانت فكرتك أولاً كما تعرف. أنت الذي ذكرت

الكاشاشا. وطالما أننا نتحدث عن الكاشاشا هل أقدم لك كأساً من الويسكي؟ إنه أصلي. وليس مثل ذلك الذي يقدمه الدكتور زيزينهو لضيوفه.

ـ لن يكون الأمر سهلاً. هذا أسبوع الامتحانات. ولا أعرف كيف سأجد الوقت للقيام به.

ـ نصف صفحة فقط يا أستاذ. بضع جمل بليغة, المعلومات مجردة. وبالمناسبة أحب أن أوضح أن هذا عقد: الوكالة ستدفع لقاء الملخص.

أحس البروفسور كالازان بالإهانة، وارتفع صوته:

ـ أكيد، لا. أنا أتعاون لأنني أحترم ذكرى بدرو أرشانجو وليس من أجل المال. لا تكلمني عن المال.

هز أرنوميلو رأسه، هذا الرجل مستحيل التفاهم معه، ولا أمل منه. ولا يعرف لماذا يحبه بهذا القدر. واعتذر غاستان سيماس:

ـ انس ما قلته عن الدفع لك يا بروفسور. أعتذر. هل يمكنني إرسال شخص ما لجلب الملخص صباح الغد إذن؟

ـ لن يكون لدي الوقت يا غاستان. لدي أوراق الامتحانات كلها، ويجب أن أصححها اليوم. وغداً سأكون في الجامعة من الثامنة حتى الظهر. فكيف بحق الله تظن أنني سأجد الوقت لكتابة ملخص لك؟

ـ أعطنا بعض الملاحظات على الأقل يا بروفسور. بعض المعلومات القليلة فقط لكي نبدأ بها.. وسننهي كتابتها هنا.

ـ معلومات؟ ملاحظات؟ ربما كنت أستطيع أن أفعل ذلك. سأتركها مع لوشيا ويمكنكم إرسال مراسل إلى بيتي غداً.

جلبت السكرتيرة السمراء الكؤوس وقطع الثلج، هادئة وصامتة ـ ولماذا نجهد فمها بالابتسامات والوعود من أجل الكلمات وحدها؟ لماذا تتعب نفسها، وليس المطلوب منها أكثر من أن تُشاهد ويُستمتع بها؟

- 3 -

معلومات في السيرة قدمها البروفسور كالازانس إلى دوبنغ (إس إي).

الاسم: بدرو أرشانجو.

مكان وتاريخ الولادة: 18 كانون الأول 1868 - باهيا - البرازيل.

الأبوان: ابن لأنطونيو أرشانجو ونعيمة دوي المعروفة باسم نوكا لونغونيدي. كل ما يعرف عن أبيه هو أنه جند في الحرب مع البرغواي ومات وهو يعبر شاكو، تاركاً زوجته حسب العرف *[22] حاملاً ببدرو، ابنه الأول والوحيد.

الثقافة: علم نفسه القراءة ثم التحق بمدرسة الفنون والحرف حيث تعلم المبادئ الأولى في مجالات متعددة بما فيها مهنة الطباعة. كان تلميذاً بارعاً في البرتغالية وصار مولعاً بالقراءة منذ صغره. وبعد بلوغه قام بدراسة مركزة لعلم الأحياء وعلم الأقوام وعلم الاجتماع، وتعلم الفرنسية والإنكليزية والإسبانية من أجل أن يستطيع متابعة تلك العلوم. كانت معرفته بحياة شعبه وعادات هذا الشعب بلا حدود.

المنشورات: طبع أربعة كتب - الحياة اليومية في باهيا (1907)، والتأثير الأفريقي في عادات باهيا (1918)، وملاحظات حول التزاوج بين عائلات باهيا (1928)، والمطبخ الباهي: أصوله ومبادئه (1930) - وتعتبر هذه الكتب اليوم مرجعاً أساسياً لدراسة فولكلورنا ولمعرفتنا بالحياة في البرازيل قبيل نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن. وفوق كل شيء لفهم المشكلة العرقية في البرازيل. كان مدافعاً عنيداً عن التزاوج، والاختلاط بين الشعوب. وكان بدرو أرشانجو، كما يقول العالم الأمريكي الشمالي والحائز على جائزة نوبل جيمس د. ليفنسون «أحد مؤسسي علم الأقوام الحديث». أعماله الكاملة أعيد طبعها مؤخراً في مجلدين في دار نشر مارتينيس في سان باولو ضمن سلسلة «معلمو البرازيل» مع ملاحظات وتعليقات البروفسور آرثر راموس من معهد الفنون والعلوم في جامعة البرازيل، طبعت الكتب الثلاثة الأولى لأرشانجو في مجلد واحد تحت عنوان عام «البرازيل، البلد الهجين» (والفنون من وضع البروفسور راموس) أما كتاب الطبخ فقد نشر بشكل منفصل.

إن أعمال بدرو أرشانجو، التي أهملت ظلماً طوال سنوات عديدة. تلاقي الآن شهرة وإعجاباً على مستوى العالم كله، ونشرت بالإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية كجزء من «موسوعة عن الحياة في البلدان المتخلفة» التي طبعت بإشراف جامعة كولومبيا، لقد كتب الكثير عن بدرو أرشانجو هذا العام (1968) ونحن نحتفل بالذكرى المئوية لميلاده. ويمكن أن نستخلص من كتاب البروفسور راموس من المقدمة التي كتبها الدكتور ليفنسون للترجمة الأمريكية الشمالية لكتبه: «إن بدرو أرشانجو مؤسس علم جديد».

متفرقات:

فقير، خلاسي، عصامي التعليم، أبحر كخادم كابينات على سفينة شحن وهو لا يزال ولداً، عاش عدة سنوات في ريو دو جانيرو. وبعد عودته إلى باهيا اشتغل منضداً وعلّم الأولاد القراءة والكتابة قبل أن يتوظف في كلية الطب. وفقد عمله هذا، بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من الخدمة الأمينة، بسبب المضاعفات المؤذية لأحد كتبه. ولما كان هاوياً للموسيقى، فقد كان يعزف الغيتار والكونكوينهو وشارك بعمق في حياة الناس. وقد ظل عازباً، ولكن يقال أنه قد عاش علاقات حب كثيرة، بما فيها العلاقة مع فتاة اسكاندينافية جميلة، سويدية أو فنلندية، لا أحد يستطيع أن يجزم.

تاريخ الوفاة: توفي بدرو أرشانجو عام 1943 عن خمسة وسبعين عاماً. وقد حضر جنازته جمع غفير من الناس كان بينهم البروفسور أزيفيدو والشاعر هيليو سيمونز.

من خلال طريقة حياته جعلنا بدرو أرشانجو نرى كيف أن إنساناً عاش في الفقر دون أب وفي وسط محدود الفرص، استطاع، وهو يقوم بأكثر الأعمال تواضعاً أن يتغلب على جميع العقبات وأن يرقى إلى قمم المعرفة حيث تساوى مع، وربما تفوق على، أبرز علماء عصره.

---

*(22) - أي دون عقد زواج رسمي.

- 4 -

الخلاصة التي أعدها أبرز المواهب في شركة دوبنغ للإعلان والدعاية (إس إي) ووزعتها على معلمي المدارس الابتدائية كافة في مدينة السلفادور:

إن الكاتب وعالم علم الأقوام الخالد، بدرو أرشانجو، ليس مفخرة وعزاً لباهيا والبرازيل وحدهما، بل إنه مشهور عالمياً أيضاً. وهو الذي نحتفل بمئويته هذا العام تحت إشراف سيتي نيوز وشركة التمساح لإنتاج الروم. لقد ولد في سلفادور في 18 كانون الأول 1868، ولداً يتيماً لبطل الحرب مع البارغواي. إن والده أنطونيو أرشانجو، قد لبى نداء الواجب فودع زوجته الحامل وانطلق ليموت في شاكو القصية، في معركة غير متكافئة مع عدو غادر.

ولأنه الوريث الجديد لتراث أبيه المجيد فإن بدرو أرشانجو بدأ كفاحه منذ نعومة أظفاره، لكي يسمو فوق الحدود التي وضعها لو الوسط التعيس الذي ولد فيه. فبدأ في دراسة الأدب والموسيقى وسرعان ما ميزته موهبته الأدبية البارزة عن زملائه في الصف. وسرعان ما أتقن عدة لغات كان بينها الفرنسية والإنكليزية والإسبانية.

أيام شبابه اندفع وراء نداء المغامرة، فهرب إلى البحر متخفياً لكي يرحل حول العالم. وفي ستوكهولم التقى بالفتاة الاسكندنافية الجميلة التي أصبحت أكبر حب في حياته,

وبعد عودته إلى باهيا دخل كلية الطب. وهناك، وخلال أكثر من ثلاثين عاماً، وجد الجو ملائماً للدراسة والبحث والكتابة التي جعلته مشهوراً كعالم وككاتب.

ألّف عدة كتب, درس فيها الفولكلور والعادات في باهيا، وحلل المشكلة العرقية، وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات عدة، وحققت له شهرة عالمية وبشكل خاص في الولايات المتحدة، فهناك قررت كتبه جامعة كولومبيا في نيويورك، وباقتراح من البروفسور الشهير جيمس د. ليفنسون، حامل جائزة نوبل الذي يعترف بأنه تلميذ لبدرو أرشانجو.

توفي أرشانجو في سلفادور عام 1943 في الخامسة والسبعين من عمره وهو محاط بإعجاب المثقفين واحترام الجميع. وقد حضر جنازته شخصيات شعبية بارزة وأساتذة جامعات وكتاب وشعراء.

فخر باهيا والبرازيل كلها الذي علا اسمه في بلدان أخرى، بدرو أرشانجو، يعلمنا من خلال أمثولته كيف أن رجلاً يولد في الفقر وفي وسط معاد لأي نوع من الثقافة يستطيع أن يسمو إلى ذرى العلم ويحتل موقعاً متميزاً في المجتمع.

وفيما نحن نحتفل بمئوية هذا النصير العظيم للعلوم والآداب، فإن أهل باهيا كلهم يتشاركون في تكريم ذكراه المجيدة ملبين نداء سيتي نيوز، التي تقوم بحملة أخرى من حملاتها الوطنية المشهودة.

ولا يمكن لشركة التمساح لإنتاج الروم أن تظل بمنأى عن هذا الاحتفال العظيم، طالما أنه جزء لا يتجزأ من فولكلور باهيا، الذي كرس العبقري الوطني حياته لدراسته. أليس هذا الروم الشهير هو مبدع مهرج التمساح الذي يجعل الأطفال الصغار يضحكون فرحاً مع إعلاناته التلفزيونية والإذاعية، هو المبدع الحقيقي للفولكلور الحديث بأنغامه وأغانيه المرحة؟

إن مهرج التمساح يرعى مباراة في المدارس الابتدائية في سلفادور، ومعلمونا الأحباء سيحكون قصة بدرو أرشانجو في صفوفهم، وكل طفل من الصف الأول حتى الخامس سيكتب انطباعاته الشخصية ويتنافس على إحدى المنح الخمس التي ستغطي نفقات تعليمه حتى الانتهاء من التعليم العالي. وهذه المنح التعليمية التي يستطيع الفائزون استخدامها في أي من المدارس الثانوية الخاصة في مدينتنا الرئيسية إنما تقدم كخدمة عامة من قبل شركة التمساح.

ومهرج التمساح، مصحوباً بصغارنا كلهم في مدارس سلفادور العامة، يغني بصوت مرتفع وصاف: «فليعش بدرو أرشانجو الخالد».

- 5 -

محاضرة الآنسة ديدا كويروز لطلاب الصف الثالث ، الدرس الصباحي، في مدرسة جيوفاني غويمارايس، الصحفية، في ريو فير ميلهو:

بدرو أرشانجو أحد مفاخر باهيا والبرازيل والعالم، ولد قبل مئة عام ومن أجل هذا فإن صحيفة سيتي نيوز وشركة التمساح لإنتاج الروم تحييان ذكراه المئوية بإقامة مسابقة للتلاميذ وتقديم جوائز قيمة مثل الرحلات إلى الولايات المتحدة وريو دي جانيرو وأجهزة التلفزيون وراديوهات وكتب وأشياء أخرى، أما بالنسبة لكم، أنتم تلاميذ المدارس الابتدائية، فقد رصدنا خمس منح تعليمية حتى انتهاء التعليم العالي في أية مدرسة من مدارس العاصمة. ومع ارتفاع أقساط التعليم في المدارس هذه الأيام فإن الجائزة فائدة حقيقية.

كان والد بدرو أرشانجو جنرالاً في الحرب الباراغوية. وقد مات وهو يقاتل ضد الطاغية سولانو لوبيز الذي هاجم بلادنا، كان بدرو الصغير طفلاً يتيماً فقيراً إلا أنه لم يستسلم لذلك. ولما كان لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة فقد ذهب إلى البحر في سفينة شحن واستطاع أن يتعلم لغات أجنبية، كان يتقن لغات عدة أي أنه يستطيع أن يتحدث بلغات إضافة إلى البرتغالية. نجح في امتحان القبول إلى كلية الطب وبعد أن تخرج منها قام بالتعليم كبروفسور لأكثر من ثلاثين عاماً.

كتب العديد من الكتب التي تدور حول الفولكلور - أي أنها كانت تحكي قصصاً عن الحيوانات والناس - لكنها ليست كتباً للأطفال، إنها كتب جادة وهامة يدرسها حكماء وأساتذة جامعات.

ارتحل كثيراً، فذهب إلى أوروبا والولايات المتحدة. وأنا أظن أن السفر أظرف شيء في الدنيا. وفي أوروبا التقى بفتاة اسكندنافية جميلة وعاشا بسعادة حتى النهاية.

في الولايات المتحدة قام بالتدريس في جامعة كولومبيا في نيويورك، وهذه أعظم مدينة في العالم. وكان يلقي محاضراته باللغة الإنكليزية. وكان أحد طلابه طبيباً أمريكياً اسمه ليفنسون، وقد تعلم هذا منه الكثير حتى استطاع فيما بعد أن يحصل على جائزة نوبل. وهذه جائزة كبيرة بالفعل. وإذا ما حصلتم على إحدى الجوائز المشابهة يضعون أسماءكم في كتب التاريخ.

كان عجوزاً حين توفي عام 1943، وقد أقاموا له جنازة كبيرة جداً دعوا إليها المحافظ ورئيس البلدية وأساتذة الجامعات.

إن مثال بدرو أرشانجو يرينا كيف أن ولداً فقيراً إذا ما استعد جيداً ودرس بجدية، يستطيع أن يرتقي إلى المجتمع الراقي ويعلم في الجامعة ويكسب مالاً كثيراً، ويسافر إلى أنحاء العالم كافة ويصبح زينة للبرازيل. كل ما عليكم أن تقوموا به هو أن تكون لديكم الإرادة القوية وأن لا تردوا في وجه معلميكم.

والآن تستطيعون جميعاً أن تكتبوا رأيكم في بدرو أرشانجو. ولكن في البداية سنغني جميعاً مع مهرج التمساح، الشركة التي تقدم المنح، «فليعش بدرو أرشانجو الخالد».

- 6 -

موضوع إنشاء كتبه راي، تسع سنوات، تلميذ في الصف الثالث، في مدرسة جيوفاني غويمارايس المذكورة أعلاه:

كان بدرو أرشانجو يتيماً فقيراً هرب إلى البحر مع امرأة غريبة مثل عمي زوكا وذهب إلى الولايات المتحدة لأن هناك أكواماً من النقود، لكنه قال لنفسه أنا برازيلي ثم عاد إلى باهيا ليحكي حكايات عن الحيوانات والناس وكان يعرف كثيراً، فلم يعط دروساً للصغار بل دروسه كلها للأطباء وأساتذة الجامعات، وحين توفي كان زينة للبرازيل وأخذ جائزة من الجريدة وكانت الجائزة حقيبة مليئة بزجاجات الروم، يحيا بدرو أرشانجو ويحيا مهرج التمساح.

عن معركة أوجوبا، بدرو أرشانجو المدينة وكيف احتل الناس الساحة العامة

-1-

أعلن البروفسور أريستديس كايريس دوكاسترو: «إن نستورسوزا يتحدث بالفرنسية الصحيحة التي لا تشوبها شائبة»، وكان يشير إلى عميد كلية الحقوق ، القاضي البارز والعضو في عدة جمعيات عالمية وكرر الاسم بنشوة مليئة بالإعجاب:

«نستورسوزا، يا له من مثقف»!

وأدلى البروفسور فونيسكا، رئيس كلية التشريح بدلوه:

«لاشك في هذا، لفظ نستور رائع، لكنني لست واثقاً من أنه مثل زينهو دوكار فالهو من حيث التمكن من اللغة. الفرنسية ليس فيها أسرار بالنسبة لزينهو يحفظ صفحات مطولة من «جيني دوكر يستيانيزم» لشاتوبريان، عن ظهر قلب، وقصائد لفكتور هيجو ومشاهد كاملة من «سيرانو دو برجياك» لروستان ـ ولفظهما بتضخيم الواو: هيجوو، سيرانوو، ويستعرض قدراته هو ـ هل سبق لكم أن سمعتموه يقرأ الشعر؟»

ـ «أنا سمعته. وأنا أثني على إطرائك من كل قلبي. ولكن دعوني أسألكم هذا السؤال: هل يستطيع زينهو أن يرتجل خطابا كاملاً بالفرنسية مثل نستور سوزا؟ لاشك أنكم تتذكرون المأدبة التي أقيمت على شرف ميتر دي، المحامي الباريسي الذي زار الكلية في العام الفائت. رحب به نستور مرتجلاً بالفرنسية! وكان خطاباً جميلاً بالفعل، ماغنيفيك! حين سمعته أحسست بالفخر لأنني ابن باهيا.».

ـ «مرتجلاً؟ لا شيء من هذا» قال إيساياس لوناسا النحيل ساخراً وهو مفتر عصبي كانت له شعبيته بين الطلاب بسبب آرائه الساخطة والعلامات السخية التي يضعها:

«أنا أعرف أنه يستظهر محاضراته قبل ليلة وأنه يؤدي حركاته أمام مرآة».

ـ لا تقل هذا، لا تكرر الإهانات الحاسدة.

ـ هذا ما يقولونه. إنه صوت الشعب كما تعرف. فوكس بوبلي دبي*[23].

ـ «زينهو..» وزج البروفسور فونيسكا بمرشحه من جديد في القائمة:

هذه المحادثات في الفرص بين الدروس كانت تقرب بين أساتذة كلية الطب. كل منهم أكثر عجرفة من الأخر وأكثر أهمية، وكل منهم أكثر غيرة على ميزاته. وفيما كانوا يشربون القهوة الطازجة التي يجلبها لهم السعاة، كانوا يستريحون من الدروس والتلاميذ، ويسترخون في الحديث المجاني حول الشؤون اليومية، من مشكلات البحث العلمي إلى نقاط ضعف زملائهم. ومرة كل فترة ينفجرون ضاحكين لقصة يرويها أحدهم بصوت منخفض «الكافي كلاتش *[24] أفضل ما في مدرستنا» أكد

البروفسور أرستيديس كايريس الذي لم يفوت واحدة. وهو نفسه الذي يطرح موضوع هذا الصباح: إتقان اللغة الفرنسية نطقاً.

كانت المعرفة باللغة الفرنسية أساسية بالنسبة لأي شخص يتطلع إلى امتيازات المثقفين، وكانت أمراً لا بد منه، بالفعل، من أجل إكمال التعلم. فالمراجع التي يعينها معظم الأساتذة كانت كلها بالفرنسية، وكان بعضهم يعرف الإنكليزية وقليل منهم يتحدثون بالألمانية. ولكي تستطيع التحدث بطلاقة كانت القواعد الفرنسية مع اللفظ المتقن مصدراً للفخر والتميز.

وفي تتمة الحديث ذكرت أسماء خبراء آخرين: البروفسور برنارو من معهد الفنون التطبيقية، والذي كان أبوه فرنسياً وتخرج من غرينوبل، وهنريك داماسيو، الصحافي الذي سافر إلى أوروبا عدة مرات وتخرج مع مرتبة الشرف من كل كباريه في باريس «لا، ليس هو،، فرنسيته لا تصلح إلا لمخادع النساء»، والرسام فلورنشيو فالنشا، الذي يتميز باثني عشر عاماً من«في دويوهيم» الحياة البوهيمية في الحي اللاتيني، والأب كابرال من معهد الجزويت «لا، لا تستطيع أن تطرحه أيضاً، إنه برتغالي ونحن نتحدث عن البرازيليين» مَنْ بينهم كلهم لديه النطق الأفضل؟ ومن هو الأكثر «شياكة» الأكثر باريسية بالفعل؟ ومن الذي لديه الـ «إر» والـ «إس» الأكثر حذلقة؟

«حسن يا أصدقاء، لقد سميتم أناساً عديدين لكنكم تنسون أن لدينا أربعة أو خمسة من ابرز النجوم بيننا هنا في حرمنا الجامعي» ارتأى البروفسور أيريس.

وساد ارتياح عام، ذلك التعتيم على ما حولهم كان قد بدأ يثير انزعاجاً طفيفاً. لم يكن هناك لقب ذو امتياز في باهيا في تلك الأيام أفضل من دكاترة الهيئة التدريسية في كلية الطب. ولم يكن لقب الدكتور يعني التثبيت في المنصب طوال الحياة والراتب الجيد والموقع الممتاز والاختلاف عن الجميع فقط، بل كان يضمن أيضاً وجود زبائن دسمين، وغرفة استشارات مليئة بالمرضى الأثرياء. وكثير من هؤلاء جاؤوا من أعماق الداخل مجذوبين بالإعلانات في الصحف: «البروفسور الدكتور فلان الفلاني، الدكتور في الهيئة التدريسية في كلية الطب بباهيا الذي أكمل تخصصه في مستشفيات باريس». اللقب العظيم كان مثل «افتح يا سمسم» لكل الأبواب: الأدب والسياسة وحتى حياة المزارع. هؤلاء الأساتذة المتميزون صاروا أعضاء في الأكاديميات وأمنوا مكانة انتخابية أو مركزاً فدرالياً أو استثمروا أموالهم في تربية المواشي أو القطعان أو في ملكيات الأراضي.

وكل مسابقة من أجل مركز شاغر في التدريس لها صداها الوطني: دكاترة من ريو وسان باولو يجيئون للتنازع مع أبناء باهيا على المركز وعلاواته. وتدب الجلبة في المجتمع الراقي من أجل سماع المرشحين وهم يتجادلون أو يدافعون عن فرضياتهم أو يحاضرون للطلاب. وكانت الأسئلة والأجوبة يتلوها انتباه مركز وعبارات ذكية ولمحات من سوء السلوك ليتم التعليق عليها. الجميع كانوا يهتمون وينحازون، وتنقسم الآراء. ومعها كانت النتيجة، فلابد أن تؤدي إلى مجادلات واحتجاجات. ومرت حالات حدثت فيها تهديدات جدية بالانتقام وبالعنف الجسدي، أما والحالة هذه فكيف يمكن تغييب أسماء عظماء كلية الطب عن قائمة الخبراء في التحدث بالفرنسية؟ إنها سخافة، لا بل فضيحة.

وكان الأمر سيتحول إلى فضيحة أكبر لأن البروفسور نيلو أرغولو كان جالساً هناك طوال الوقت صامتاً، ولكن منتظراً دون شك، «الغول ذو السبعة ألسن»، الضليع الذي برز في عدة لغات حية، فهو لا يتكلم الفرنسية ويفهمها فقط، بل يستطيع عملياً أن يكتب رسائل وأطروحات بتلك اللغة. وقبل عدة

أيام فقط، أرسل ورقة عمل هامة إلى مؤتمر في
بروكسل La Paranaia chez les negres et
metis.[*](25)

ـ «كتبها كلها بالفرنسية، سطراً بعد سطر وكلمة بعد كلمة»، قام البروفسور أوزوالدو فونتيس مؤكداً أو مطالباً بالمركز الأول لمعلمه وصديقه.

وفيما كان البروفسور الخطر سيلفا فيراجا يرتشف قهوته ببطء، وهو الذي قدم بحثاً حول schistosomiasis واكتسب بجدارة سمعة حسنة في عالم الطب، كان يراقب باستمتاع، تغيرات الـ نيلودافيلا أرغولودو أراوجو، قبل ملاحظات إيريس وفونتيس وبعدها: كان جاداً هادئاً ثم قلقاً ثم بغتة تألق وتلون بتواضع مفتعل، لكنه كان معجباً بنفسه طوال الوقت. وكان البروفسور قد تعلم على المعاناة من الحمقى، لكنه كان ينزعج من الغرور التافه.

وبعد أن هدأت جوقة التهليل الشامل قبل البروفسور نيلو بشهامة: «البروفسور نستور سوزا يتفوق أيضاً بلغة كورنية» أما الآخرون الذين ورد ذكرهم فإنه أبى أن يعتبرهم أنداداً أو منافسين.

وعند إظهار هذا الصلف الصريح وضع الدكتور سيلفا فيراجا فنجان قهوته وقال: «أنا اعرف كل الناس الذين ذكرتموهم وسمعتهم وهم يتحدثون بالفرنسية. لكنني أتجرأ فأقول إنه في باهيا كلها ليس هناك أحد يتمكن من اللغة الفرنسية بدقة ولكنة أوضح من بدرو أرشانجو، أحد السعاة في دائرتي».

وهب البروفسور نيلو أرغولو وقد اشتعل وجهه وكان زميله قد لكمه على أذنيه. ولو أن أحداً غيره أبدى هذه الملاحظة لكان رد بروفسور الطب الشرعي عنيفاً ولمجرد سماع اسمه يقارن بساع، والأنكى من ذلك خلاسي. ولكن ليس في كلية الطب كلها، وبالنسبة لمسألة كهذه ليس في باهيا كلها، من يجرؤ على أن يرفع صوته في حضور الدكتور سيلفا فيراجا.

ـ أتشير، ولو مصادفة، على ذلك الأسود الذي ألف كتيباً صغيراً عن العادات الشعبية قبل عدة سنوات؟

ـ نعم يا بروفسور إنني أعني هذا الرجل بالذات. لقد كان معاوني لفترة تقرب من عشر سنوات، وكنت قد طلبت خدماته بعد أن قرأت «كتيبه الصغير» كما تسميه. إنه صغير في حجمه لكنه غني في ملاحظاته وأفكاره. إنه على وشك أن يطبع كتاباً آخر، ليس صغيراً مثل ذاك، لكنه أكثر غنى من الأول، كتاباً ذا اهتمام اتنولوجي (علم الأقوام) حقيقي. لقد أطلعني على بعض فصوله وقرأتها بإعجاب.

ـ هذا.. هذا.. الساعي يتكلم الفرنسية؟

ـ يتكلم فعلاً. وإن سماعه لمتعة. وإنكليزيته لا تقل جودة. وهو يعرف الإسبانية والإيطالية جيداً أيضاً، ولو كان لدي الوقت لتعليمه لصارت ألمانيته، بالتأكيد، أفضل من ألمانيتي. والحقيقة تشاركني هذا الرأي ابنة عمكم التي هي صديقتي الحميمة، الكونتيسة إيزابيل تيريزا والتي فرنسيتها ظريفة بالمناسبة.

مجرد ذكر القريبة المزعجة عمّق الوهج الغاضب في وجه المعلم المنزعج.

ـ إن كرمكم المعروف، يا بروفسور فيراجا، يقود إلى المبالغة في تقدير من هم أقل منكم شأناً، هذا الأسود قد حفظ بعض الجمل الفرنسية بالتأكيد، وأنت يا زميلي الطبيب القلب، على استعداد لأن تشهد بأنه أستاذ في اللغات.

ورد الرجل المتعلم بضحكة طفل جاهزة:

ـ «شكراً لكلماتك اللطيفة التي لا أستحقها، فأنا لست كريماً إلى هذا الحد. صحيح أنني أبالغ في تقدير الناس بدلاً من تحقيرهم، لأن الذين يحقرون الآخرين إنما يحكمون عليهم عادة بمقاييسهم الخاصة. ولكن في هذه الحالة أنا لا أبالغ على الإطلاق».

ـ ليس أكثر من ساع! أنا ببساطة لا أستطيع أن أجبر نفسي على تصديق ذلك.

إن الغرور يزعج الدكتور سيلفا فيراجا، ولكن المعاملة المتحاملة للبسطاء هي وحدها التي تستطيع أن تثير غضبه. وكان يقول للشبان ناصحاً: «الذين يتملقون الأقوياء ويدوسون الضعفاء تحت أقدامهم يجب عدم الوثوق بهم، وتجنبهم، إنهم مزيفون وضيقو الأفق وينقصهم النبل في شخصياتهم».

ـ لدى الساعي معرفة علمية أكثر من بعض أساتذة الجامعة ممن أعرف.

وغادر أستاذ الطب الشرعي الغرفة وهو ينفث النار ويضرب بذيله يتتبعه أزوالدو فونتس المخلص دائماً. وضحك الدكتور سيلفا فيراجا مثل طفل سعيد بسوء تصرفه، وفي عينيه ومضة من الحقد، وفي صوته نبرة من الاستغراب.

ـ لا علاقة للموهبة بلون الخضاب أو اللقب أو الطبقة الاجتماعية. هذا كله هراء. يا إلهي كيف ظل إنسان في الدنيا لم يعرف هذا بعد؟

وحين نهض لينصرف هز نفسه لكي يتخلص من نيلو دافيلا أرغولودو أراوجو ذلك الكيس المحشو بالضغينة، غول الغرور ـ المليء بنفسه حتى درجة كونه فارغاً. صعد إلى الطابق الثاني حيث ينتظره أفاريستو الأسود بجثة جديدة من معرض الجثث، للأسف يا نيلو المسكين! متى ستتعلم أن العلم وحده له القيمة والبقاء. وبكم لغة شرح هذا الكلام: إن أية ألقاب تظل ملحقة وزائدة على الإنسان الذي يجرب ويبدع؟ وفي المختبر ازدحم الطلاب، والشرائح تحت مجاهرهم، حول الدكتور سيلفا فيراجا.

---

*(23) ـ باللاتينية: صوت الشعب هو صوت الله.

*(24) ـ المناقشات مع القهوة.

*(25) ـ سبق ذكر عنوان هذا البحث, ولكنه يورده هنا بالفرنسية عامداً.

- 2 -

بين 1907 و 1918، أي خلال ما يزيد على عقد من الزمن، بين طباعة «الحياة اليومية في باهيا» وكتابه الثاني «التأثير الأفريقي على عادات باهيا» أخضع بدرو أرشانجو إرادته القوية كلها ودأبه كله من أجل الدراسة المنهجية المنتظمة، قرأ كل ما توافر حول المشكلة العرقية. كان عليه أن يعرف المزيد، فراح يتعلم. التهم الأبحاث والكتب والأطروحات والمقالات والنظريات العلمية، واستغرق فوق مجموعات من المجلات والكتب، تحول إلى دودة كتب وأقام في المكتبات والأرشيف.

وهذا لا يعني أنه توقف عن العيش بحميمية وعاطفية, وعن الغرق بحماسه السابق في الحياة اليومية للمدينة والناس. الفرق الوحيد أنه الآن يتعلم من الكتب أيضاً، متفرعاً عن موضوعه الأساسي إلى تفرعات عديدة من المعرفة لاستحواذها. صارت كل مشاغله في تلك السنوات موجهة نحو هدف، قصد، ونتائج.

وكان ليديو كورو يستحثه. صار ليديو يستشيط غضباً عند قراءة الاستفزازات والتهديدات في الصحافة اليومية تحت عناوين سوداء بارزة» إلى متى سندع باهيا تظل كابينة ضخمة للعبيد الأذلاء؟».

تبدو وكأنك قد كسرت قلمك وسفحت محبرتك يا صاحبي. أين ذلك الكتاب الآخر؟ إنك تحكي الكثير عنه، لكنني لا أراك تكتب فيه.

ـ لا تضغط علي يا صاحبي. لم أصبح جاهزاً بعد.

ولكي يدفعه إلى العمل كان ليديو يقرأ بصوت مرتفع تلك القصص الصحفية والمقالات التي تتحدث عن طقوس الكاندومبلي وانتهائها والبي دو سانتو المجرور إلى السجن والاحتفالات الممنوعة والهدايا المصادرة من بيمانجا ومصارعي الكابويرا المقادين إلى مخافر الشرطة تحت أسنان الحراب.

ـ «إنهم يكيلون لنا بقسوة وعنف ويمضون بلا عقاب. ليس عليك أن تقرأ هذه الكتب كلها لكي تعرف ماذا يجري». وأشار إلى المجلدات والمجلات الطبية والكتب المكومة على الطاولة: «كل ما عليك أن تفعله هو أن تنظر إلى أية صحيفة: إنها مليئة بالاحتجاجات على حلقات السامبا والكابويرا والكاندومبلي. الأخبار كلها سيئة وإذا لم تظهر بمظهر القوة فسيقضون علينا».

ـ معك حق يا صاحبي. إنهم يريدون أن يقضوا علينا.

ـ طيب. وماذا ستفعل مادمت تعرف بهذا القدر؟

ـ يا صاحبي هذه الضجة كلها أثيرت مع أساتذة الجامعة ونظرياتهم. يجب أن تصل إلى السبب يا

روحي. كتابة الرسائل الشاكية للناشرين والصحافيين تفيد قليلاً، لكنها لا تحل المشكلة.

ـ لا أستطيع أن أوافقك أكثر من ذلك. لم لا تكتب الكتاب إذاً؟

ـ أنا أستعد لكتابته. اسمع يا رفيقي. حين دخلت في هذه الحرفة كنت جاهلاً مثل قرمة الحطب، حاول أن تفهم ذلك يا عيني. كنت أظن أنني أعرف الكثير لكنني لم أكن أعرف شيئاً.

ـ لم تكن تعرف؟ ولكنني أرى أن نوع المعرفة الذي لدينا هنا في تابون في خيمة المعجزات أفضل بما لا يقاس من التعليم الموجود في معهدكم الطبي الجميل يا رفيقي بدرو.

ـ ليس معهدي للطب، وأنا لا أنكر قيمة الحكمة الشعبية، ولكنني تعلمت أن هذا النوع وحده لا يكفي. دعني أشرح لك يا صاحبي.

ولم تفت كلمة واحدة تادو المحاط بالكتب والدروس.

وبدأ أرشانجو: يا صاحبي. إنني مدين بالشكر الكبير لذلك البروفسور أرغولو الذي يود إحضار الزنوج والخلاسيين كلهم، لو كانت لديه وسيلة، وهو نفسه الذي يحرض الشرطة ضد الكاندومبلي، الغول أرغولو دو أراوجو. ذات يوم، لكي يهينني ـ وقد أهانني فعلاً ـ بين لي كم كنت جاهلاً فعلاً. في البدء استشطت غضباً، ولكنني بعدها فكرت: إنه على حق، يمكن اعتباري أمياً أيضاً، لقد تعودت يا صاحبي أن أرى الأشياء، ولكنني لم أكن أميزها على ما هي عليه. كنت أعرف عن كل أنواع الأشياء لكنني لم أكن أعرف كيف أعرف.

ـ إنك تتحدث الآن أسوأ من بروفسور يا صاحبي (لم أكن أعرف كيف أعرف) ما هذا؟ فزورة أم حزورة؟

ـ حين يأكل الطفل قطعة من فاكهة، يعرف ما هو طعم الفاكهة، لكنه لا يعرف ما الذي يجعل لها هذا الطعم. أنا أعرف أشياء ولكن مازال علي أن أتعلم الأسباب والنتائج، وهذا ما أحاول أن أتعلمه. وسأتعلمه يا صاحبي. انتظر فقط, وسترى.

وفيما كان يتعلم كان يرسل الرسائل إلى رؤساء التحرير محتجاً على الحملات الكريهة وعلى وحشية الشرطة المتزايدة، والقارئ المهتم يتحمل مشقة قراءة تلك الرسائل القليلة يستطيع أن يجدها مطبوعة ـ بعضها بتوقيع يحمل اسمه وبعضها يحمل «قارئ غاضب» و«سليل زومبي» و«الإنسان الذكر»* (26) و«خلاسي برازيلي» ويستطيع أن يميز بسهولة تطور فكره خلال سنوات. فحججه، المدعومة باستشهادات من كتاب برازيليين وأجانب، صارت أكثر قوة واقناعاً وفي النهاية مفحمة. لقد طرق المعلم أرشانجو فولاذ عقله بكتابة الرسائل لرؤساء التحرير، وهكذا تعود على استخدام لغة واضحة ومحددة دون أن يفقد اللمسة الشعرية التي كانت موجودة في كل ما كتبه.

ويكاد يكون هو وحده الذي خاض معركة غير متكافئة ضد الثقل الكامل لصحافة باهيا، فبعد كتابة رسالة ما كان يقرأها على أصدقائه في خيمة المعجزات قبل إرسالها. واقترح مانويل دوبراكسيدس بحماس: «سحق رؤوس المشحمين» وهز بوديان رأسه موافقاً عند طرح كل نقطة. وصفق فالد لوار، بينما ابتسم ليديوكورو بفخر، وقدم تادو الرسالة. بعض الرسائل الكثيرة التي كتبها أرشانجو طبعت طبعة كاملة أو مجتزأة في زوايا الجريدة، ومعظمها ألقيت في سلة المهملات. ولاقت اثنتان بينها عناية

خاصة.

كانت الرسالة الأولى طويلة، شبه مقالة، أرسلها بدرو أرشانجو إلى إحدى الصحف التي كانت تهاجم الكاندومبلي باستمرار وبقسوة. وقد قامت رسالته الموضوعية والموثقة بعناية بتحليل موضوع الأديان في البرازيل وطالب بأن تمنح هذه الأديان «القدر نفسه من الحرية والاحترام والامتيازات الممنوح للديانتين الكاثوليكية والبروتستانتية، طالما أن المذاهب الأفرو ـ برازيلية هي الدين والعقيدة والسند الروحي لآلاف المواطنين الذين يستحقون الاحترام الذي يعامل به غيرهم».

وبعد ثلاثة أيام نشرت الصحيفة مقالاً من ثلاثة أعمدة على الصفحة الأولى وبلغة هستيرية عنيفة تحت عنوان بالبنط العريض : مطلب شاذ! ولم تنشر حجج أرشانجو أو تناقش بل اكتُفي بالإشارة إليها من أجل إبلاغ «السلطات المحلية ورجال الدين والمجتمع بشكل عام بالطلب الشاذ للبُدّيين الذين يطالبون ـ يطالبون، برسالة إلى هيئة تحرير هذه الجريدة بأن تعامل طقوس الفرد الوضيعة بالاحترام ذاته وبالتميز ذاته وكأنها تقف على أرض روحية واحدة مع الدين الكاثوليكي السامي ـ كنيسة المسيح الشاملة ـ أو مع المذاهب البروتستانتية المتنوعة، التي نأسف لهرطقتها، ولكن دون أن تنكر الكالفينيين واللوثريين الذين يعبدون المسيح». واختتمت هيئة التحرير مقال تشكيها المطول بتأكيد الوعد للمجتمع في باهيا بشن حرب لا هوادة فيها «حرب دون توقف على الوثنية الكريهة وعلى قرع الطبول الهمجي في الماكومبا الذي يجرح آذان أبناء باهيا ومشاعرهم».

ورأت جريدة صغيرة الرسالة الثانية مفيدة لها، حيث أنها ذات إدعاءات ليبرالية وكانت تسعى إلى كسب القراء والشعبية. وكان أرشانجو قد صاغ رداً على انتقاد قاس نشره البروفسور أزوالدو فونتس في صفحات جريدة محافظة تحت عنوان: «صيحة تحذير». وقد لفت بروفسور علم النفس انتباه الشعب والسلطات إلى مسألة يرى أنها تشكل أخطر تهديد محتمل لمستقبل البلاد. إن المعاهد العليا في باهيا بدأت تحس بالعواقب الوخيمة لـ «غزو المهجنين. شباب ملونون بأعداد متزايدة يحتلون الأماكن التي كان يجب أن يحتفظ بها شرعياً لشباب الأسر الراقية والدم النقي». ودعا لاتخاذ إجراءات صارمة من أجل «المنع المبسط والواضح لدخول هذه العناصر المؤذية إلى الجامعات». وضرب أمثلة بالبحرية البرازيلية، حيث لا يطمح السود والمهجنون إلى أن يصبحوا ضباطاً، وكان المديح لوزارة الخارجية، إيتا ماراتي، التي، بأدب ولكن بحزم، «قد أوقفت توسع لطخة الانحطاط في المراكز المثقفة للدبلوماسية».

وأخذ بدرو أرشانجو صيغة رسالة بتوقيع «خلاسي برازيلي فخور بكونه خلاسياً»، وطرح حججاً قوية مدعمة باستشهادات من علماء أحياء مشهورين وكلهم يؤكدون على القدرة العقلية للزنوج والخلاسيين، وذكر مهجنين متميزين «بينهم سفراء برازيليون إلى البلاطات الأجنبية» ووصف البروفسور فونتس بعبارات غير لائقة ولا تدل على الاحترام.

«يطلب البروفسور فونتس أن يكون خريجو الجامعات كلهم من ذوي الدماء النقية، ونحن نعرف جميعاً أن تعبير «الدم النقي» يستخدم لوصف خيول السباق. وحين يرى الطلاب بروفسورهم الفاضل يجتاز معبد يسوع في طريقه إلى كلية الطب يقولون أنه حين أعطي لقب بروفسور في التحليل النفسي، بفضل مناورات بروفسور معين في الطب الشرعي ومكانته، فإن الدكتور فونتس كان يعيد إحياء حدث تاريخي شهير: كافأ الإمبراطور كاليفولا حصانة أنسيتاتوس بمقعد مجلس الشيوخ الروماني، وكذلك فإن البروفسور أرغولو دو أرواجو قد كافأ أوزوالدو فونتس بكرسي في كلية الطب. وربما من هنا

نستطيع أن نرى تفسير إلحاح البروفسور على الأنساب في الكلية. فالأصيل حصان، أي: حيوان نقي ونبيل. فهل البروفسور أصيل؟».

ولدهشة أرشانجو نشر القسم الأول من رسالته كاملاً بصيغة مقال رئيسي في الجريدة الجديدة. ووردت الحجج والاستشهادات والعبارات والجمل ومقاطع كاملة تماماً كما كتبها. واكتفى المحرر من إشاراته للبروفسور أوزوالدو فونتس باقتباس، وخفف من تلاعبه بكلمتي أنساب وخيول فجاء التعليق الموجز: «إن البروفسور المعروف، الذي لا يشك أحد في خلفيته الثقافية، موضع التنكيت بين الطلاب بسبب وجهات النظر المليئة بالمفارق والتي يتمسك بها ويطرحها». ولم يرد ذكر لـ «الخلاسي البرازيلي الفخور بكونه خلاسياً». وقد أثارت المقالة ضجة لا بأس بها وكسبت الجريدة ثقة القراء.

في ذلك اليوم سعد أرشانجو برؤية طلاب الطب يقتطعون صفحات من الجريدة ويعلقونها على جدار الكلية، وأرسل البروفسور فونتس ساعيه الخاص من أجل انتزاع هذه الأوراق وإحراقها. وثارت ثائرة البروفسور فونتس، فقد فَقَدَ دفعة واحدة سلوكه المتزن وتهذيبه ومرحه الذي كان يساعده على تفادي سخرية الشبان.

---

*(026) - الحيوانات التي لا مؤنث لها في اللغة يميز الذكر بوضع he (هو) قبل الاسم للتذكير و she (هي) للتأنيث وهو هنا يتعامل مع الإنسان بالطريقة ذاتها.

- 3 -

حذا بدرو أرشانجو حذو البروفسور سيلفا فيراجا، فتعلم أن يمحص الآراء ويحللها، وكذلك الصيغ والشخصية الإنسانية وكأنه يتطلع إليها من خلال مجهر لكي يعرف أعماقها. حفظ حياة غوبينو وأعماله عن ظهر قلب، نظريته الرهيبة ودقائق رحلته مع السفارة الفرنسية في البرازيل، واحتاج الأمر إلى معرفة كاملة، معرفة لم تترك فيها فسحة للشك، لكي يحول كراهيته العمياء إلى قرف واحتقار.

وهكذا بتتبع الخطوات اليومية للسفير الفرنسي إلى البلاط الملكي في البرازيل. اكتشف أن المسيو جوزيف آرثر، الكونت، أو بالأحرى، الكونت دو غوبينو، كان يتمشى في حدائق قصر سان كريستو فان وهو يناقش حالة العلم والفنون مع صاحب الجلالة دون بدرو الثاني في اللحظة ذاتها التي شعرت فيها نوكا دولوغوندي بآلام المخاض، فأرسلت ولداً من الطريق لكي يبحث عن ريتا آبارا جاك. القابلة الشهيرة البارعة.

في عام 1868 ولد ردرو أرشانجو وكان غوبينو في الثانية والخمسين من عمره، وقد نشر Essai san L inegalite des races humaines*[27] قبل خمس عشرة سنة. كان يتحدث مع الملك البرازيلي في ظلال الشجار المحيطة بالقصر حين كانت نوكا، وسط صراخها ومخاضها، تعبر في عقلها الغابات والأنهار والجبال، وتصل أفكارها إلى براري البارغواي حيث أخذوا رجلها بعد أن حولوه من بنّاء إلى جندي سيقتل ويُقتل في تلك الحرب الطويلة التي لا أمل في رؤيته يعود منها حياً. كان في لهفة لمجيء الولد، والآن هو ليس هنا لكي يراه يولد.

ولم تعرف نوكا في ذلك الحين، أن العريف أنطونيو أرشانجو قد مات وهو يعبر شاكو، كان معلم البناء ذو السمعة المتنامية يبني جدران مدرسة حين جاءت الدورية العسكرية إليه واختطفته، متطوع يُجند تحت تهديد السيف؟ حتى أنه لم يسمح له أن يصل إلى البيت ليودعها. لوحت له نوكا مودعة صبيحة انتقال الجيش. تقدم متشائماً مع كتيبة (زواف) الباهية، بناءً حزيناً لا يحمل معه المالج والشاقول، ولكن في نظرها كان أنيقاً ووسيماً ببذلته العسكرية وهو يحمل أدوات مهنته الجديدة المتمثلة بالحرب والقتل.

قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كانت نوكا قد أخبرته أنها تتوقع طفلاً، وكاد يجن من الفرح. تحدث فوراً عن الزواج ولم يستطع أن يدللها كما كان يريد: «لن تشتغلي وأنت مقبلة على تكوين أسرة. لن أسمح لك». وظلت نوكا تغسل الملابس وتكويها حتى ساعة الوضع. الولد قادم يا أنطونيو، إنه يمزق أحشائي، لماذا لا تأتي ريتا؟ أين حبيبي أنطونيو؟ لماذا ليس هنا معي؟ آه يا أنطونيو. اترك كل شيء، اترك بندقيتك وبذلتك وارجع بأسرع ما تستطيع، الآن يوجد اثنان بانتظارك وهما وحيدان ويائسان.

العسكري أنطونيو، المأخوذ إلى الحرب بالقوة، حين رأى أنه لا أمل له في الهرب، صار يطيع الأوامر في القتل بذكاء وشجاعة حتى نال شريطة العريف، «كان دائماً يتم اختياره لمهمات الاستطلاع، دائماً في مقدمة القوات التي يخدم معها». قرأ بدرو أرشانجو عن أبيه في حوليات الحرب وهو يحصي كافة أنواع الدماء ـ ليو كوديرم، فيلانوديرم، فايوديرم ـ التي سفحت من أجل البرازيل في تلك الحرب. من الذي قدم أكثر في الحياة وفي الموت؟

العريف أنطونيو أرشانجو، الذي أصبح الآن جثة مهترئة وطعاماً للطيور الكواسر، لن يرى ابنه الذي انطلق في هذه البداية الطيبة من الحياة بأن ولد وحده ودون مساعدة القابلة في اللحظة ذاتها التي كان فيها المسيو كونت دو غوبينو وصاحب الجلالة الملكية، منظر العنصرية والشويعر المصر على كتابة الشعر، يتمشيان في ظلال الحديقة اللطيفة ويتحدثان بطريقتهما اللماحة المصفاة. ربما كان علينا أن نسميهما «شفافين مرهفين».

حين وصلت ريتا أبارا جيغ إلى بيت نوكا لوغونيدي كان الوليد قد بدأ يظهر قوة رئتيه الشهوانية. وأسندت المرأة القصيرة القوية ذراعيها على جبينها وصرخت ضاحكة: «هذا الولد إيكسو، فليحبنا الله وليحمنا، سلالة الشيطان وحدها هي التي تولد دون أن تنتظر القابلة، سيكون قصيراً، علَّمي على كلامي، وسيكون شهيراً».

---

*(27) ـ بحث حول اللامساواة بين الشعوب.

- 4 -

ورث بدرو أرشانجو عن البنّاء ـ العريق الذكاء والشجاعة المشهود بهما في سجلات الحرب ـ وعن نوكا التقاطيع اللطيفة والعناد. بعناد ربت ابنها وأمنت له بيتاً وطعاماً، أدخلته المدرسة دون أي دعم أو مساعدة من أي رجل، لم تكن تريد غيره، ولم تتورط بعدها حتى في علاقة عابرة، على الرغم من عدم قلة الملاحقين الذين يتحلقون حول عتبتها لملاحقتها وتقديم العروض لها. ومن حياة التقشف القاسية هذه تعلم الولد أن يتحمل وأن لا يستسلم أبداً، بل أن يمضي في طريقه قدماً.

وكثيراً ما فكر أرشانجو بها خلال ذلك العقد المثمر من العمل الجاد، لقد ماتت صبية حين ارتمت بذور الحمى الصفراء في سماء شوارع المدينة. ونمت حتى أعطت أزهاراً مميتة. كانت سنة طيبة بالنسبة للحمى الصفراء لو حصد المرض محصولاً وافراً، وأخذ جثثاً حتى من بيوت الأغنياء، وقد أخذت نوكا دو لو غونيدي مع الوجبة الأولى. حتى أومو لو لم يستطع إنقاذها. ذابت قوة نوكا في الأوجاع وتفسخ بهاؤها الفتي في الزقاق وسط برك الصديد. وكلما وهنت قوى أرشانجو كان يفكر في أمه، وهي تعمل حتى الإرهاق من الصباح حتى المساء مغلقة على نفسها في دائرة من التوق والتصميم على لبس الحداد إلى الأبد وأن تكسب ما يُبقي على ابنها بقوة ذراعيها الضعيفتين.

تعلم بقية ما قد تعلمه معتمداً على نفسه، على الرغم من أنه لم يكن وحيداً أبداً ولم ينقصه الأصدقاء المشجعون، هناك ذكرى نوكا، وحضور تادو وإصرار ليديو وقلق ماجي باسان وعون البروفسور سيلفا فيراجا وتشجيع فري تيموتيو الراهب الفرنسيسكاني ومساعدة صديقته الطيبة زابيلا.

خلال تلك السنوات كان تادو تلميذاً لأرشانجو وطالباً زميلاً ومعلماً له. تادو كانهوتو ما زالت ذكراه في معهد الفنون التطبيقية بسبب امتحانه الشهير الذي قدّمه كله بشعر (ديكا سيلابل ـ معشَّر المقاطع)، وكفاءته في الرياضيات، التي جعلته الطالب المفضل لدى البروفسور برنارد، والقذرة الداخلية على الزعامة التي وضعته على رأس الصف خلال السنوات الخمس في الجامعة وجعلته يقود التظاهرات لصالح الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، ويتزعم المصفقين المستأجرين وهم يصخبون ويضربون بأرجلهم في مسارح سان جوان والبوليتيما.

وكان أرشانجو يدين بإتقانه اللغات الأجنبية لزابيلا، فبرفقة هذه السيدة ذات المنبت الرفيع تحولت اللغات الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية التي درسها وحده إلى لغات حية صار يألفها كما يألف لغته الأصلية. ولما كان يتمتع بأذن موسيقية سرعان ما صار يتحدث بالفرنسية مثل كونت والإنكليزية مثل لورد.

وكانت أميرة ريكونكافو تهتف فرحة: «معلم بدرو، أنت لغوي بالفطرة، لم يسبق لي أن رأيت أحداً يستطيع التعلم بهذه السرعة».

ولم تحتج أبداً أن تصحح خطأ واحداً أكثر من مرة في استخدام أرشانجو للقواعد أو في اللفظ. يكفي تنبيهه على الخطأ مرة واحدة لكي لا يتكرر أبداً. وكانت العجوز تجلس في كرسيها النمساوي الهزاز وتغمض عينيها، بينما المعلم بدرو يقرأ بصوت مرتفع قصائد بودلير وفيرلين ورامبو ـ الشعراء المفضلين عند زابيلا. وكانت هذه الكتب المغلفة بترف تعيد لها ذكرى أيام طيشها، وكانت القوافي تذكرها بقصص حبها القديمة، وتتنهد زابيلا حسرة على الأيام الخوالي، وصوت أرشانجو يهدهدها بنطقه السليم.

«دعني أحكي لك قصة لطيفة، يا معلم بدرو، ستحب هذه القصة..»

الارستقراطية الفقيرة، العجوز التي كانت مصدر إزعاج لعائلتها وجدت عائلة أخرى في هذين الصديقين وابنهما بالمعمودية، ولذلك لم تحس بالوحشة والحرمان حين مات قطها أرغولو دو أراوجو بفعل الشيخوخة ودفن في الحديقة.

وحين وجّه البروفسور سيلفا فيراجا نصيحته لبدرو أرشانجو بأن يدرس الألمانية عرض فري تيموتيو، رئيس دير سان فرانسيسكو، وصديقه ماجي باسان، أن يعطيه دروساً. بل إن الراهب الطيب كثيراً ما كان يجبره على ترجمة فصول من كتب أو مقالات كاملة إلى البرتغالية كما أنه هو ذاته صار يهتم بالمسألة العرقية في البرازيل على الرغم من أن تخصصه هو دراسة التوفيق بين الأديان. ومهما طالت الساعات التي كانا يقضيانها معاً فإنهما لم يكونا يحسان أنها ماضية، فهناك أفكار ملحة يجب مناقشتها إلى درجة أن أرشانجو لم يحرز تقدماً كبيراً في الألمانية.

إن بدرو أرشانجو مدين بالكثير من الفضل للبروفسور سيلفا فيراجا الذي نقله من الأرشيف حيث لم يكن العمل يترك له لحظة فراغ، وجلبه إلى دائرته بعد قراءته كتاب «الحياة اليومية في باهيا» وكان إيفارستو الأسود، المساعد المخلص منذ سنوات عديدة، يؤدي خدمات جلى للبروفسور وبالتالي يستطيع أن يوفر وقتاً لأرشانجو يدرس فيه في الجامعة أو في المكتبة، ويبحث في مكاتب المحفوظات المحلية وأن يشتغل في كتبه ووثائقه. لكنه أعطاه ما هو أكثر من الوقت. صار يوجّه قراءاته ويقترح عليه مؤلفين جدداً ويجعله على تماس مباشر مع ما يستجد في حقول علمي الأحياء والأقوام. وفري تيموتيو أيضاً كان يعيره الكتب الكثيرة وبعضها غير معروف في باهيا حتى بالنسبة لأساتذة الجامعة المتخصصين في هذه الموضوعات. ومن خلال الأب عرف عن فرانز بواس، مثلاً، ولعله كان أول برازيلي يقرأ مؤلفاته.

وماذا عن ليديو كورد؟ الكومبادر الأخ التوأم، الذي يعني له أكثر مما يعني الأخ ـ كم من مرة فك ليديو ثلم زناره ليقرضه ـ ولم هذه الفذلكة اللفظية؟ ـ ليعطيه المال الذي كان يحتاج إليه ليطلب كتباً من ريو وحتى من أوروبا؟ ألواح الطباعة الجديدة الكاملة والغالية والملحقة بالمطبعة القديمة ـ ما حاجته إليها؟ كل شيء يقع في الدرجة الثانية بعد كتب بدرو أرشانجو.

ـ هل تريد أن تعرف كل ما في الدنيا يا كومبادر؟ ألم تعرف ما يكفيك حتى الآن؟ ألم يصبح لديك ما يكفي لكتابة الكتاب الآن؟

وضحك بدرو أرشانجو من نفاذ صبر كومبادر: «مازلت لا أعرف الكثير. يبدو كأنني كلما قرأت أكثر اكتشفت المزيد مما يجب أن أقرأه وأدرسه».

وطوال هذا العقد من السنوات قرأ بدرو أرشانجو كل شيء عن علم الأحياء وعلم الأقوام وعلم الاجتماع، استطاع الوصول إليه في باهيا أو جلبه من العالم الخارجي بعد جمع بنساته على بنسات أصدقائه، وفي إحدى المرات فتحت ماجي باسان خزينة كسانغو وأكملت ثمن كتاب **Reise in Brasilien** لماريتوي وسبيكس، اشتراه من بائع كتب فتح محلاته مؤخراً في براشادوسي! وهو إيطالي اسمه بونغانتي.

وحتى إن جزءاً من الكتب وبعض المؤلفين الذين قرأ لهم المعلم بدرو أرشانجو كانوا مملين ومسهبين، لكن من المفيد الإشارة إلى بعض هذه الكتب فبما نحن نصحب كاتبنا في رحلته من السخط إلى التسلية الساخرة.

في البدء كان عليه أن يكز على أسنانه لكي ينهي بعض كتابات العنصريين الصريحين أو، وهذا هو الأسوأ، العنصريين المنافقين الذين لا يعلنون عنصريتهم. وكان يشد قبضته متوتراً: لهذه النظريات والتأكيدات رنة الإهانات، إنها ضربات موجعة ولسعات سياط. أكثر من مرة كان يحس بعينيه تحترقان ويحس بطعم الدموع المهينة وهو يقرأ صفحة بعد أخرى لغوبينو وماديسون غرانت وأوتوان مون وهوستون شامبرلين. ولكن مع مرور الوقت صار قادراً على هضم نتاج فلسفة المدرسة الأنتروبولوجية الإيطالية في علم الإجرام ـ لومبروسو وفيري وغاروفالو ـ وهو يضحك بصخب. في ذلك الحين كان أرشانجو قد جمع من المعرفة ما يمكنه ويدعمه في ثقة لا تتزعزع. وصار الآن يرى سخيفاً تافهاً ما كان يراه في الماضي إهانة وهجوماً شخصياً عليه.

قرأ كتب الأصدقاء والأعداء، الفرنسيين والإنكليز والألمان والإيطاليين وكتب بواس الأمريكي، اكتشف ضحك العالم في فولتير وهلل له صاخباً. قرأ لبرازيليين وباهيين من ألبرتو توريس إلى إيفارستو دو موررايس، ومن مانويل برنادو كالمون دوبين أي ألميدا وخوان باتيستا دو أولفييرا إلى أورلينو ليل. وقرأ الكثير إضافة إلى ذلك، قرأ كتباً لا تحصى ولا تعد.

ولم ينس متعة العيش لصالح متعة الكتب، ولا دراسة البشر لصالح دراسة المؤلفين. كان يجد الوقت للقراءة والبحث والمرح والحفلات والحب وكل منابع معرفته. لقد كان بدرو أرشانجو وأوجوبا في الوقت ذاته، لم يقسم نفسه إلى اثنين، بل وقت مبرمج موزع على الباحث وعلى الإنسان. رفض تسلق سلم النجاح الصغير. لم يقبل الارتفاع درجة واحدة فوق الأرض التي ولد عليها، الأرض الصلبة بشوارعها ومخازنها ومحلاتها وطقوس التيريرو والناس العاديين، لم يكن يريد أن يصعد أبداً، بل كان يريد أن يتقدم. ولقد تقدم فعلاً. كان المعلم أرشانجو، أوجوبا، كلاً متكاملاً.

حتى آخر يوم في حياته كان لا يزال يتعلم من الناس ولا يزال يسجل الملاحظات في دفتره الصغير، قبل موته مباشرة رتب مع طالب اسمه أوليفا، وهو شريك في مطبعة، مسألة طبع كتاب له، وحين تدحرج عن بيلورينهو كان يكرر عبارة لابد أنها كانت غريبة، إذ أنه سمعها من حداد: حتى الله لا يستطيع قتل كل الناس، لكن في ذلك الحين كان قد فقد كل مكتبته الثمينة، التي جمعت بشق النفس كتاباً في كل فترة وبمساعدة شغيلة أمّيين أجلاف وجارعي الروم وكل إنسان عادي بينهم. معظم الكتب أتلفت حين تهدم المشغل، وغيرها اختفت بطريقة أو بأخرى بين الداخلين والخارجين، أو بيعت إلى بونفاتي في حالات الفاقة الملحة. احتفظ بالقليل منها، تلك التي بنت أساس تتلمذه. وعلى الرغم من أنه لم يعد يقرأها، فإنه كان يحب أن يبقيها في متناول يده بحيث يستطيع تقليب الصفحات ويريح عينيه الكليلتين على مقطع ما، أو يكرر عبارة أو فكرة أو كلمة حفظت منذ زمن طويل، وعثر بين الكتب على برميل

كيروسين في غرفة خلفية صغيرة في قلعة أستر حفظ فيه نسخة من مقال غوبينو وأول كتيب للبروفسور نيلو أرغولو دو أراوجو، لقد كان بحث أرشانجو عن المعرفة عميق الجذور في الكراهية.

وبناء على نصيحة طبيب اشترى عام 1968 نظارة طبية ونشر كتابه الثاني. وباستثناء قصر نظره لم يشعر في حياته بمثل هذه الصحة الجيدة، وهذا الامتلاء بالثقة في النفس والروح المعنوية العالية والسعادة لولا غياب تادو. وقد صدرت الأجزاء الأولى من «التأثير الأفريقي على العادات في باهيا» قبيل عيد ميلاده الخمسين، فأقيمت حفلة كبيرة امتدت أسبوعاً كاملاً من الصخب. وتدفقت شلالات من الكاشاشا، واهتز القرع مع السامبا وقدمت الراعيات كل فنون رقصهن وعادت الأفوكسي إلى الشوارع، وغطيت مدرسة بوديان لتعليم مصارعة الكابويرا بالأعلام التزيينية، ونزلت الأوريكسات في التيريروات على أصوات الطبول والرقص، وضحكت روزاليا وهي مكشوفة في سرير عليتها.

- 5 -

هذا ما تكون عليه المعجزة يا حبيبتي: جدتان ترقصان في خيمة المعجزات في ليلة تخرج تادو، جدتان لا تربطهما رابطة الدم بل المحبة فقط: الأم ماجي باسان والكونتيسة إيزابيل تيريزا غونكالنس مارتينيز دو أراوجو إي بنهو، المعروفة بين أصدقائها باسم «زابيلا».

وكان تادو جالساً في الكرسي ذي المساند، المخصص لضيوف الشرف تحت لوحة لمعجزة غير منتهية. كان يرتدي بنطالاً مخططاً وسترة تويدية وقميصاً بقبة مقلوبة. وحذاء جلدياً لماعاً وخاتم الكلية ذا الحجر الأزرق، الأزرق الياقوتي المخصص للمهندسين. كان وجهه الفرح يعكس انفعالات عميقة ورغبة في معانقة الموجودين كلهم دفعة واحدة. امتزج الضحك بالدموع على وجنتيه النحاسيتين وعينيه الحّييتين، بشعره الأسود الفاحم المسترسل كان المهندس تادو كانهوتو مثل صورة لأحد المحررين الوحدويين الرومانسيين، تلك ليلة الليالي. بدأت في مدرج المعهد المهني حين استلم خاتمه وشهادته وستنتهي في قاعة التخرج في صالونات كروز فرميلها، نادي الأغنياء. وبين الحفل والقاعة كان هناك الدفء الودود لخيمة المعجزات حيث ترقص الجدتان.

كان الولد مديناً بالعرفان لكل شخص في الغرفة. خلال سنوات الدراسة ساهموا كلهم، بشكل أو بآخر، في الوصول إلى هذه الليلة المذهلة، دون أن نحسب البذلة الجديدة والخاتم والحذاء الجلدي اللماع، وصورة التخرج التاريخية، كل هذا دفع ثمنه بنسات دفعها الجميع، لقد صار الآن مهندساً محترفاً بشهادة من خلال التضحيات والتوفير والعون المتبادل. لم تظهر كلمة حول ذلك كله، ليس هذا بالشيء الذي يحكى عنه. ولكن حتى تادو كان يتطلع إلى الوجوه المرهقة والأيدي الخشنة فيعرف كم كلفتهم رحلة السنوات العشر، وأي ثمن كبير دفعوه من أجل ساعة الفرح هذه. لم يكن لديهم أدنى شك أن الأمر يستحق ذاك العناء وها هم الآن هنا ليحتفلوا بطبولهم وغيتاراتهم.

الطبول أولاً: بدرو أرشانجو على (الرم) وكورو على (الرمبي) وفالدلوار على (اللي). أيديهم تضرب بمرونة وعظمة، وصوت ماجي باسان العجوز يعود فتياً وهي تغني أغنية الشكر للأوريكساس.

شكلت النساء حلقة: الخالات السوداوات العجائز ثم السيدات ذوات الجمال المصنع والمشذب بالخبرة والإياوات والمبتدئات الحديثات العهد بالطقوس الدينية وبحياة الجسد الحلوة، وأجملهن جميعاً، التي لا نظير لها، ولا تقارن بغيرها، روزادو أوكسالا. إن الزمن لم يفعل أكثر من إضافة التميز لجمالها، ورفع الرجال أصواتهم بأغنية طقوسية.

وحين توقفت ماجي باسان نهض الآخرون وهم يصفقون تحية لابنة بيمانجا الحلوة، سيدة البحر، ومن أجل تكريمها رددوا التحية لأم كل المؤمنين: أودويا إيا أولو أويون أوروبا! تحية للأم ذات الثديين الدافقين.

ابتسمت ولفت أثوابها حول جسدها ثم اجتازت الغرفة بهدوء وسط الهتافات: أودويا أودويا إيا! وانحنت أمام تادو بادئة الطقوس على شرفه. وارتجت الطبول فبدأت ماجي باسان الرقص والغناء الاحتفاليين، قدماها لا تعرفان التعب وصوتها يعلو بالحمد.

إنها الأم، إيا، المرأة العتيقة الأساس القادمة من أيوكا طائرة على العواصف والرياح الجامحة والرياح الساكنة والسفن المحطمة والبحارة الموتى الذين أحبتهم، لكي تكرم ابنها الحبيب، الحفيد، حفيد الحفيد، حفيد حفيد سليلها العائد مظفراً من الحرب. حياك يا تادو كانهوتو، الذي انتصر على الأخطار والعوائق والتقلبات لكي ينال شهادته: أودويا!

ماجي باسان التي لا عمر لها، الأم الرقيقة والرهيبة كانت تتقن بدقة خطوات الرقص الأنيقة والمعقدة حتى إنها كانت حين رقصت سريعة وخفيفة وفنية كمبتدئة. وعبرت رقصتها برمزية عن بداية العالم: خوف ومجهول، خطر وصدام ونصر وحياة آلهة. رقصة نسجت حكاية سحر، إنسان يتحدى القوى الخفية ويكافح حتى النصر. تلك كانت الرقصة التي رقصتها الأم ماجي باسان من أجل تادو في خيمة المعجزات ـ جدة ترقص لحفيدها، المهندس الجديد.

وبإشارة وقورة وبسيطة، مهيبة وودودة، رفعت يديها ووقفت وجهاً لوجه أمام تادو، وفتحت ذراعيها له، وضمت إلى صدرها الضخم أفكار الولد وعواطفه وانفعالاته ونبضاته وشكوكه ومطامحه وكبرياءه ومرارته وحبه، الخير والشر، وكل خلجة في ذلك القلب الشاب، ضمت مصير تادو. ببساطة كان في ذلك الصدر الأمومي متسع لكل مسرات الدنيا ومرارتها، تعانقت العجوز والولد ـ الباقية وسط دائرة الألغاز البدائية والمبحر في بحار المعرفة ليستنشق الحرية التي كسبها.

واندفع الآخرون، واحداً بعد الآخر، إلى الرقص: نساء ورجالاً بالدور. وأحس ليديو كورو بقلبه يخفق في صدر تادو: أنا سعيد، سأموت من البهجة ذات يوم. خلال سنوات تنتهي، الآن سمحت تياتيرينشيا لتادو أن يأكل قدر ما يستطيع من الخبز والقهوة مع وجبات غداء وعشاء مجانية. لقد تخرج داميان في مدرسة الحياة قبل تادو، وهو الآن محام للسجن ولمخفر الشرطة. وروزيندا باتيستا دوس ريس ـ امنحيني بركاتك أيتها الخالة التي تغزل التعاويذ، إن كنت اليوم هنا مع خاتم في إصبعي ودون ملاريا، فهذا بفضل عنايتك وأعشابك وعلاجاتك. في مدرسة المعلم بوديان للكابويرا تعلمت الأدب والنظام واحتقار التعجرف والوقاحة. وهذا عناق متهيب من (دي) بعينيها اللوزيتين وصدرها الخافق: الله تشربني الليلة مثل كأس من الخمر، ألن تفضّني زهرة ليلتك الليلاء؟ كان مانويل دوبراكسيدس، العملاق بين حمالي السفن، قد علمه تقاليد البحر والسفن. وروزا دو أوسكالا، خالة الألغاز، سيدة خيمة المعجزات وعلى الرغم من كونها مجرد زائرة، هي عصفورة الترحال العابرة الأكثر أهمية بين الخالات.

هؤلاء كلهم جاؤوا، وجاء غيرهم أيضاً: فالدلوار مع إيقاعاته المبدعة، أسوسا وأغانيه، والضحكة الغنية الرنانة لماني ليما. رقص كل منهم بضع خطوات ثم ضم إلى صدره سعادة المهندس الجديد الذي، حتى يوم أمس فقط، كان ولداً شقياً.

آخر من تقدم كان بدرو أرشانجو، ومرة أخرى وقف الجميع لتحية أوجوبا وتوجهت نحوه راحات أيديهم. كان وجهه مبهماً، منفتحاً بابتسامته اللطيفة، لكنه مغلق بالتفكير. ازدحمت الصور والذكريات في قلبه: دوروشيا في تلك الليلة الأخيرة، والولد المنكب على كتبه. أوجوبا، عينا كسانغو، كان يفهم

الشوق والإثارة على وجه تادو. كان لا يزال يرى وجه تلك الفتاة، الانفعالي العاطفي وسط هالة من الشعر الذهبي المعقوص.

من لديه مفتاح هذا اللغز؟ كانت رقصته خلاصة عمر. وأخيراً جاءت اللحظة التي ارتجت فيها صرخة يانسان في الغرفة. هناك جواب صحيح واحد لكل سؤال، ولكن هناك الكثير من الأجوبة الخاطئة. ضم بدرو أرشانجو تادو إلى قلبه، لن يبقى معه طويلاً.

لم يبق أحد، وجاء دور (تادو) لتقديم الشكر ولابتلاع دموعه والرقص للأوريكساس الذين حفظوه والأصدقاء الذين حققوا هذه اللحظة، لأبويه وأخوته وخالاته وأبناء عمومته ولعائلته الكبيرة كلها.

في تلك اللحظة ظهرت من الظلال الكونتيسة أغوابروسكا، الجدة زابيلا ـ أو لعلها خرجت من صورة ملصق الطاحونة الحمراء ـ ودخلت الحلقة لكي ترقص لتادو، لبست الرقصات الطقوسية فهي ليست من أسلوبها.

رفعت طرف تنورتها لتظهر الحذاء ذا الكعب العالي والتنورة التحتانية والسروال التحتاني المكشكش، وراحت ترقص (الكان كان) الباريسية في خيمة المعجزات، عجوزاً بلا عمر فتية مثل العروس (دي). ودبت الحياة في صورة تولوز ـ لوتريك، خلاسية فرنسية تغزو تابوان بينما كانت النساء في الحلقة قد بدأن يقلدن الحركات اللطيفة ويجربن الإيقاع غير المألوف لديهن لتلك الرقصة الأجنبية الظريفة. ووقف الرجال ورفعوا راحاتهم عالياً تحية للكونتيسة إيزابيل تيريزا بالإشارات وحركات التقدير وكلمات اليوروبا التي لا تقال إلا لمايس دو سانتو. صاحوا: أوريي ييو، ففتنتها الجذابة قد بينت بجلاء أنها كانت الابنة الحقيقية للمغوية أوكسون.

وهكذا (وعلى شرف ابن أخيها) رقصت زابيلا رقصة الكان الفرنسية في خيمة المعجزات ثم قبلته على خديه.

هناك معجزة حقيقية لك يا حبيبتي: جدتان، كل منهما ترقص رقصتها الخاصة من أجل حفيدها، المهندس.

- 6 -

- «هاهم لقد جاؤوا».

جلب بوديان وأوسا وماني ليما الألعاب النارية وأشعلها معلم مصارعة الكابويرا بسيجارة، اخترق السماء سهم ثم انفتح في هيئة شلال من الأضواء فوق الموكب. ونزل عن التلة ستة رجال بملابس يوم الأحد موقعين خطواتهم على إيقاع مشية الكونتيسة إيزابيل تيريزا «من أيامها الخوالي الجميلة»، أمسكت العجوز بيد تادو وتقدما المسيرة، جدة بيضاء وحفيدها الأسود.

أطلقت مجموعة الأصدقاء الواقفين بالباب الأسهم النارية والمفرقعات ولوالب الأنجم وطلقات المسدسات الملونة ورشقات من الفضة لإنارة الطريق للمهندس تادو كانهوتو الذي تلقى للتو شهادته في مدرج الكلية المهنية، كانت ليلة المعجزات مضيئة كأنها النهار.

الأم ماجي باسان، التي تتوكأ على عصاها وترفض العون من أي إنسان، تركت المجموعة وذهبت لملاقاة الموكب. قبل ما يقرب من عامين فحصها الأطباء وطلبوا منها أن لا تجهد نفسها. عودي إلى البيت وارتاحي، وقالوا لها إن جهد كونك ماي دو سانتو كبير جداً على امرأة في مثل سنك وصحتك، أعطي الأجراس وآلة الحلاقة الاحتفالية لامرأة أصغر منك. لا تغادري بيتك. لا تمشي حتى إلى زاوية الشارع، لا تتصدري الغناء بعد الآن. رقصة أخرى - رقصة واحدة، انتبهي - قد تعني موتك، قلبك المرتخي هذا قد يتوقف في أية لحظة، إنه منهك منذ الآن. ابقي في بيتك واستريحي. اكتفي بالجلوس على كرسي مريح وتحدثي. إذا كنت تريدين الاستمرار في الحياة. لا تتعبي نفسك ولا تثوري. قالت نعم، بالطبع. نعم طبعاً يا دكتور. بالتأكيد. سأفعل كل ما يطلبه مني الطبيب. وكيف يمكن أن أفعل غير ذلك؟ وما إن أدار الأطباء ظهورهم حتى عادت ماجي باسان إلى التزاماتها - آلة الحلاقة والأجراس والوداع وفنجان تلقين إياو وحلقة الخبراء وتحضير الطعام المقدس. والتعاويذ لإكسو. لكنها على أية حال التزمت بتعليمات الأطباء بعدم مغادرة المنزل كعذر ملائم لعدم قبول دعوات ترحيب كثيرة، فلم تخط خارج التيريرو لمدة طويلة، وحين أعلنت عن قرارها بتصدر الغناء والرقص في حفلة تادو حاولت النسوة منعها، وماذا عن تحذيرات الأطباء؟ ماذا عن قلبها المتضخم؟ سأذهب مهما يكن، سأرقص وأغني ولن يحدث شيء. وهاهي ذي، الجدة الثانية تتكئ على عكازها وتمشي وحيدة باتجاه الشاب.

قدم لها تادو ذراعه. وهكذا سار بين المرأتين المسنتين نحو الحانوت. فيما كانت الأسهم النارية والمفرقعات تنفجر في الجو.

قلة محظوظة تلقت الدعوات للتخرج نفسه. رأوا الاحتفال وسمعوا الخطابات وكل كان رد فعله حسب طبيعته. كان بدرو أرشانجو الأنيق والمتميز بثيابه الجديدة، سعيداً وهادئاً، ليدوكورو كان يصيح «برافو» حين كان الخطباء. هما اثنان: بروفسور وآخر من المهندسين المتخرجين، يتحدثون ضد

العنصرية والتخلف. ولم يستطع أن يزيح عينيه عن تادو. ولقد كان مستثاراً لرؤية الولد الذي كبر في خيمة المعجزات والذي موّل له دراسته بنفسه، جالساً بين المهندسين الجدد. وداميان دوسوزا، المحامي الناشئ ببذلته الكتانية البيضاء، كان يقول لنفسه لو أنه هو الذي يلقي ذلك الخطاب لهزّ السقف! وكان مانويل دوبرأكسيدس متجمداً في بذلة كانت ضيقة جداً على جسده العملاق، وأصغر بكثير من أن تتحمل انفعاله. المرأة الوحيدة، بين صديقات تادو التي جاءت هي زابيلا في ثوب مزخرف حسب الأناقة القديمة، أسمال باريسية ومجوهرات وعطر وعينين راقصتين. وقد توافد أساتذة الجامعة والأغنياء والمسؤولون لتقبيل يدها.

ـ هل يتخرج اليوم أحد أبناء عائلتك يا كونتيسة؟

ـ أترى ذلك الذي يقف هناك؟ هذا الولد الجميل الأكثر أناقة ووسامة.

ـ أيهم؟ هذا.. هذا الأسود؟ يقولون مندهشين. هل هو من أقاربك؟

ـ قريب جداً. إنه حفيدي. وتضحك بطريقة تدعو للمشاركة حيث أنه حين تكون زابيلا موجودة فإن الخطة تبدأ قبل أوانها.

ولدهشة الكثيرين، ولذعر البعض الفاضح، حين جاء دور تادو لاستلام الشهادة عبر القاعة مستنداً على ذراع زابيلا «هذه الشيطانة ليس فيها ذرة الخجل أو الحشمة» همهمت دونا أوغوستا دوس مندس أرغولو دو اراوجو وبما أن تادو ليس لديه أم أو حبيبة فإن السيدة العجوز هي التي ألبسته خاتم التخرج وياقوت المهندس الصغير لي.

كان بدرو أرشانجو الذي ظل ملتزماً بالهدوء على الرغم من انفعاله المتصاعد يلاحق تادو بعينيه، وقد رآه بمكر يلتقط القرنفلة ويعلقها بطية صدر السترة ثم يرفع رأسه ويبتسم بإحساس بالفوز. هل سقطت الوردة بالمصادفة من يد الفتاة أم أنها ألقتها عامدة في طريقه؟ كان لها عقصة شعر جميلة وأوسع عينين في باهيا وبشرة لامعة بيضاء إلى درجة أن لها مسحة زرقاء. تفحصها بدرو أرشانجو بفضول. لقد نهضت عن كرسيها وصفقت بكفيها المنتهيتين بأصابع طويلة ناعمة. كانت تبدو متوترة وكان وجهها مشدوداً وفمها مزموماً. ووقف تادو، الذي صار مهندساً الآن، يبتسم قرب زابيلا فيما كان عميد كلية الطب يقدم له شهادته. لفيفة الورق التي طال انتظارها. وصافحه المحافظ. كانت عيناه تبحثان عن عيني الفتاة بنظرة متقدة قبل أن تنضم لجماعة خيمة المعجزات.

يا إلهي! لا تزال طفلاً يا صغيري! وغرق بدرو أرشانجو في التفكير ولم تعد فرحته ملتزمة بالهدوء، الآن صارت عرضة للهواجس، حسن، يا تادو، معك موافقتي لا حدود، مهما حدث، مهما كان الثمن، لا تستسلم. واجه الأمر كرجل. إننا متحدران من شعب قوي ودمنا المختلط يصمد في القتال. إننا لا نتراجع بل نصمد دائماً في معاركنا. ولقد خلقنا لكي نستفيد منها.

بعد قليل تقدم راعي البروفسور تاكوينيو إلى المنبر وتمنى للخريجين التوفيق في حياتهم وعملهم في المستقبل، هناك البرازيل التي يجب أن تبنى وتطور وتحرر من التخلف والتفرقة: من الروتين والسياسة ضيقة الأفق، وهناك عالم مرهق من الحرب يجب أن تشفى جروحه، هذه المهمة العظيمة والنبيلة ستكون مسؤولية الشباب المهندسين بالدرجة الأولى، فنحن نعيش في عصر الآلات، الصناعة، التكنولوجيا، العلم والهندسة.

والتقط القفاز أستريو غوميس، ملقياً خطبة الوداع. نعم، سنبني عالماً جديداً على ركام الحرب ورفع البرازيل من التراخي الأخلاقي الذي تختنق به. وسيكون عالم الغد عالم تقدم وحرية. متحرراً من الضعف والتفرقة والاضطهاد والظلم. وستكون برازيليا مرتبطة بطرق جيدة ومعامل وآلات، برازيل متيقظة متقدمة، عالماً من الفرص المتاحة للجميع، تحت تأثير التكنولوجيا، ومنذ الآن يقوم العمال في روسيا الغامضة بدك معاقل الاستبداد.

ووسط تصفيق الجمهور في مدرج المعهد الفني سمعت كلمة الاشتراكية والاسم الغريب لفلاديمير إيليتش لينين يلفظهما المهندس الشاب الغني، ابن الملاكين الكبار. كانت ثورة أكتوبر قد قسمت العالم نهائياً إلى ماض ومستقبل. ولكن قلة هم الذين فهموا التغيير ولم يكونوا قد خافوا بعد، فلينين زعيم غامض وبعيد عنهم، والاشتراكية كلمة غير هامة. المتحدث نفسه لم تكن لديه فكرة عن أهمية ما يقوله.

لوهلة رأى بدرو أرشانجو الفتاة وتادو جنباً إلى جنب، ثم ركضت إلى أخيها الذي أنهى خطابه وقبلته. واندفع زملاؤه أيضاً لتهنئته، كانا جنباً إلى جنب: جمال الفتاة الشفاف والجمال الأسود الحيوي للشاب.

في خيمة المعجزات، بعد رقصة التحية الطقسية، صمتت الطبول وفتحت الزجاجات، وعلى الطاولة التي كانت تحمل حروف المطبعة وضعت كمية من الطعام من كافة الأنواع وكلها لذيذة، سمك مطبوخ ومقلي وفراريج مع طحين المينهوت وحلى الحبوب، وفاتابا وكارورو وإيفو ملفوفة بأوراق الشجر. الجميع كانوا متحابين وأيادي متسابقة لمزج جوز الهند وزيت النخيل ولتعيير الملح والفلفل والزنجبيل. في الصباح الباكر من ذلك اليوم وفي معابد عدة قبائل أفريقية، قدمت أضاحي الماعز والحملان والديوك والدجاج والسلاحف من أجل العيد. وألقت ماجي باسان الودع وثلاث مرات جاءها الجواب: عمل وسفر وآلام حب.

انفجرت الأسهم النارية فوق الأسطحة ونقلت النبأ: هناك طبيب بقلنسوة جامعية وشرابة من هضبة تابوان، أول واحد في الجوار يتخرج من الكلية، وعلق ليديوكورو صورة الصف على جدار الحانوت بين لوحته عن المعجزة والصورة القادمة من تولوز لوتريك: فيها تادو بقلنسوته وقفطانه يجلس مع زملاء الدراسة، لم يسبق أن احتشد مثل هذا العدد الغفير من الناس في خيمة المعجزات دفعة واحدة.

نهض داميان دوسوزا وبيده كأس الكاشاشا خجلاً، ثم رجا الجميع أن يصمتوا لأنه سيقترح نخباً. انتظر! أمرته الكونتيسة. فالنخب المعتبر، بالنسبة لزابيلا يجب أن يكون بالشمبانيا، وشمبانيا فرنسية إن أمكن - الشراب الوحيد الذي يستحق أن يشرب نخباً لصديق عزيز. لقد أرسل لها البروفسور سيلفا فيراجا ثلاث زجاجات من أفخر أنواع الشمبانيا في عيد الميلاد وقد خبأت زابيلا واحدة منها لحفلة تادو.

ماجي باسان، الدمثة دائماً، بللت شفتيها بالمشروب الأرستقراطي وفعل ليديو وأرشانجو مثلها، لقد عجزت زابيلا عن أن تشدهما إلى الخمور الجيدة. هذان الرفيقان مخلصان بشكل عنيد للبيرة والكاشاشا. داميان دوسوزا، في ذروة تدفقه بالخطابة والاستعارات الملتهبة ابتلع كأسه في جرعة واحدة، ما هذا المشروب البايخ؟ وفي النهاية شربت المتبرعة معظم ما في الزجاجة. وتعانق تادو وداميان. لقد تربيا معاً في الشوارع وعلى الشاطئ وها هما الآن يفترقان لكي يذهب كل لمصيره.

لقد ميزت عينا أوجوبا هذين الطريقين وتابع فيهما: الاثنان مختلفان. فداميان كتاب مفتوح خال من

الأسرار. وشهادته كطبيب قد منحه إياها الناس أكثر مما منحته إياها الجامعة. وحيثما ذهب به قدره فسيظل على ما هو عليه، المزروع بشكل صحيح في المكان الذي ينمو فيه. ولكن تادو كان قد بدأ يصعد السلم منذ أن كان في الكلية. إذ كان حريصاً على التفوق على أقرانه وزملائه. وكان قد صمم على الصعود باستمرار على الكفاح من أجل مكان له في القمة: «سأكون إنساناً له قيمة يا عرابي!» قال ذلك ذات صباح كلهب متأجج من الطموح. إلى متى سيستطيعون الإبقاء عليه معهم في خيمة المعجزات.

التقط ليديوكورو المزمار وقدم الغيتار لبدرو أرشانجو واجتمع الراقصون في حلقة. ولكن أين كيرسي ودوروشيا وريرزوليتا وديدي؟ كانت سابينا دوس انجوس قد انتقلت إلى ريو دو جانيرو فابنها بحار، وإيفون تزوجت قبطان سفينة صيد وذهبت تعيش معه في كوريتيبا، وعبثاً راحت المبتدئات يلتهمن تادو الفتى في بذلة التخرج بأعينهن.

استمرت الحفلة طوال الليل، ولكن منذ أول الأمسية كان ضيف الشرف، بسبب الحفلة محط التكريم كله، الدكتور تادو كانهوتو، المهندس المدني، الميكانيكي، الجغرافي، المهندس المعماري الفلكي باني الجسور وشاق القنوات ومادّ السكك الحديدية والطرق بين المدن الخريج المهني قد استأذن بالمغادرة. في قاعة الاحتفالات في نادي النخبة كان الكروز فرميلها، البروفسور العظيم والغني تاركوينيو، راعي الصدق المتخرج، قد دعا المهندسين الشبان إلى حفلة تخرج.

ـ يجب أن أذهب الآن يا عرّابي. لقد بدأ الرقص منذ ساعة.

ـ «لا يزال الوقت باكراً، أليس كذلك؟ لم لا تبقى فترة أخرى؟ الجميع يحبونك هنا، وقد جاؤوا لأنهم يريدون أن يروك» ـ كان أرشانجو يعرف أنه لم يكن يجب أن يقول ذلك، لكنه قال وانتهى الأمر.

ـ أعرف. وأنا أحب أن أبقى، ولكن..

ودقت زابيلا على ذراع أرشانجو بمروحتها.

دع الولد يذهب. لا تكن هادم اللذات.

العجوز اللعينة، كم تعرف من أسرار تادو؟ أهي بشكل ما قريبة لهؤلاء الغوميس ذوي الأفواه المشحمة الواسعة؟

ـ «معلم بدرو! أنت فاسق وداعر، إنك لا تعرف أي شيء عن الحب. كل ما تعرفه هو النساء». وتنهدت كونتيسة ريكونكافو السابقة، ملكة الكان كان السابقة. «مثلي تماماً. أنا أعرف الكثير من الرجال ولكن ما الذي أعرفه عن الحب؟».

وصمتت قليلاً وهي ترقب خروج تادو.

«كان اسمه أرنستو أرغولو دو أراوجو وكان ابن عمي، كنت صغيرة جداً وطائشة فأحببته كثيراً، كثيراً، كثيراً جداً إلى درجة أنني أرسلته إلى حتفه على يد خصم في المبارزة، لمجرد الرغبة في جعله يغار وأعرف إلى أي درجة يحبني».

غاب تادو في الظلام وحذاؤه الجلدي اللماع يرن على الرصيف الحجري، ما من أحد يستطيع أن

يمنعه من المضي في طريقه، ولن أحاول ذلك يا زابيلا، ولِمَ أمنعه؟ سيصعد السلم درجة في كل حين، وهو مستعجل. ودائماً يا تادو كانهوتو، هذه حفلة وداع دون أن تعرف.

- 7 -

القاضي سانتوس كروز، الذي يُمتدح كثيراً، وبحق، لأجل ثقافته وخفة دمه إضافة إلى ذكائه واستقامته، كان منزعجاً انزعاجاً شديداً، لقد جاء منذ قليل أحد الكتبة إلى مكتبه، حيث كان ينتظر هيئة المحلفين للانعقاد، لكي يبلغه بغياب (مرة أخرى!) المحامي الذي عينته المحكمة، كان مستشار هيئة الدفاع قد خربش اعتذاراً على عجل.

«مريض!.. رشحة!..» لابد أنه سكر في أحد البارات. إنك لا تراه في أي مكان آخر. لا أستطيع السماح باستمرار هذه المهزلة المخجلة. كم مرة تم جلب هذا الشيطان المسكين إلى هنا ثم أرجع إلى زنزانته؟ لن يتركوه يرتاح حتى في سجنه.

ووقف الكاتب أمام مكتب القاضي منتظراً الأوامر، وسأله فضيلة القاضي:

ـ من من المحامين في الممرات؟

ـ لم أر أياً منهم حين جئت. لا بل رأيت الدكتور آرثر سامبايو وكان يغادر لحظتها.

ـ طلاب؟

ـ كوستينها فقط، طالب السنة الرابعة.

ـ لا. ليس هذا. سيكون المتهم في حالة أفضل دون دفاع. كوستينها يمكن أن يخسر قضية لصالح أم الله لو يدافع عنها. أليس حولنا أحد يمكن أن يهتم بهذه القضية التعيسة؟ هل علي أن أؤجل المحاكمة مرة أخرى؟ هذا شيء لا يحتمل!

ومَنْ يمكن أن يدخل إلى مكتب القاضي في هذه اللحظة غير داميان دوسوزا الشاب، وهو يرتدي بذلة بيضاء وقميصاً ذا قبة مقلوبة؟ إنه الأكثر شهرة في المحكمة، نوع من المساعد الشامل في خدمة القضاة والمحامين والموظفين وسعاة المحكمة. كان قد استلم وظائف قليلة في مؤسسات قانونية، لكنه لم يكن يظل فترة طويلة لأنه كان تواقاً دائماً لتلك المجموعة المريحة من الأعمال التافهة التي يستطيع أن يؤديها في القصر العدلي. وقد تعلم كل ما يمكنه عن الجرائم والمجرمين والمحاكمات والدعاوي والعرائض والاسترحامات في الممرات وفي مكاتب العدل واجتماعات المحلفين وأبواب السجون ومخافر الشرطة. وما أن بلغ التاسعة عشرة حتى صار هذا الشاب الناضج الأكبر من عمره يرمز إلى الخلاص بالنسبة للمحامين المستجدين عديمي الخبرة المشبعين بالنظريات، لكنهم خالون من أية معرفة علمية. داميان لديه من العمل أكثر مما يستطيع أو يجد الوقت لأدائه.

حين رآه يدخل مبتسماً وبيده ورقة وهو يسأل: «دكتور سانتوس كروز هل يمكن أن تهتم بهذا

الاسترحام للدكتور مارينو؟» تذكر القاضي محادثة جرت ذات يوم بينه وبين الولد حين دعاه إلى بيته لحفلة عشية القديس يوحنا.

ـ اتركها هنا. سأراها فيما بعد، قل لي يا دميان: كم عمرك؟

ـ لقد احتفلت بعيد ميلادي التاسع عشر قبل أيام يا سيدي.

ـ أما زلت تفكر في تقديم طلب من أجل الحصول على شهادة تسمح لك بممارسة المحاماة؟

ـ صحيح مثلما أن واحداً وواحداً اثنان بمشيئة ربنا في بونفيم.

ـ وهل تعتقد أنك تستطيع أن تقف أمام المنصة وتدافع عن مجرم متهم؟

ـ أستطيع يا فضيلة القاضي؟ لا تظن أنني أقلل من الاحترام لو قلت أنني أستطيع أن أدافع عن مجرم أفضل من أي واحد من طلاب القانون هؤلاء الذين يرسلون المساكين إلى السجن وهم يتمرنون. أكثر من ذلك، أستطيع أن أقوم بذلك أفضل بكثير من المحامين الذين يحملون شهادة الحقوق.

ـ هل اطلعت على ملخص الجريمة المدرجة للنظر فيها في اجتماع اليوم؟ هل تعرف شيئاً عن القضية؟

ـ إن أردت الحق، يا صاحب الفضيلة، فإنني لم أنظر حتى إلى جدول الأعمال. سمعت عن الجريمة. وإذا أردت مني أن أدافع عن الرجل ضع ختمك على الموضوع يا صاحب الفضيلة، امنحني نصف ساعة لإلقاء نظرة على الأوراق والتحدث مع الرجل وأقسم لك أنني سأؤمن براءته. إذا كنت لا تصدقني امنحني فرصة واحدة.

بقوة التفت القاضي إلى الكاتب:

ـ تيكسيرا، رتب تعيين داميان للدفاع عن المتهم «بحكم المنصب» طالما أنه ينقصنا محام، أعط السجلات لداميان لكي يأخذ فكرة عن الدعوى وادع المحلفين في غضون ساعة، خلال ذلك سأنهي بعض الأعمال هنا. واجلب بعض القهوة الطازجة. إذا اشتغلت جيداً يا داميان سأسعى لكي تنال الإذن بالعمل كمحام.

كان زي إيناشيا قد اقترف جريمة بشعة، وأول محكمة انعقدت بشأنه حكمت عليه بالسجن ثلاثين عاماً بتهمة القتل العمد، ولم تنظر المحكمة في أية ظروف مخففة أو في عدم وجود تقرير للشرطة.

إن حمل حقيبة البائع السوري المتجول صعوداً ونزولاً مقابل بعض الفراطة التي لا تكاد تكفي كاشولا للأكل، ولذا فإن رفيق عمره زي دا إيناشيا كان يشرب حتى ينطفئ كل أحد ثم يرتمي على الباب وهو يعود مترنحاً إلى البيت. ويوم الاثنين يلتقط الحقيبة مرة أخرى ويمشي وراء إبراهيم من زبون إلى زبون هادئاً مسالماً عاجزاً عن المجادلة أو عن طلب أي شيء، تحت المطر أو تحت الشمس المحرقة.

وذات أحد، لم يكن يختلف عن أي أحد آخر التقى بأفونسو البذيء في زاوية إحدى الحانات واقتسم الاثنان زجاجة من الروم الأبيض. ثم ذهبا لشرب زجاجة أخرى في بيت زي مع كاشولا. كان ذو اللسان البذيء في البداية لطيفاً ومؤدباً ثم بغتة كشف عن مشاكسته وطبيعته الصفيقة، وقبل أن ينتبه زي دا

إيناشيا لما يجري وقع في محاولة تخللتها الشتائم والتهديدات ـ تريدني أن أزنرك بواحد؟ ـ وأسيء إلى أسماء الأمهات. وحين سألته الشرطة كيف بدأ الشجار، لم يستطع زي دا إيناشيا أن يخبرهم. أيا كان ما تجادلا حوله فإنه كان غارقاً في الكاشاشا، وأول شيء يتذكره هو وجود سكين في يده، سكين عتيقة حادة للمطبخ. وكان ذو اللسان البذيء يلوح أمام وجهه بفأس صغيرة وهو يهدد: «سأقسمك إلى نصفين. أيها التيس اللعين». وحين اخترقت السكين أحشاء ذي اللسان البذيء سقط على الأرض ميتاً، وسقط فوقه زي دا إيناشيا فاقد الوعي بتأثير الشراب والضربة التي ضربها. وحين عاد إلى وعيه وجد نفسه قاتلاً بالجرم المشهود وفي المخفر تعرض للضرب الشديد لكي يعترف بما يكفي لبدء التحقيق.

وحين انعقدت المحكمة أول مرة، بعد أن ظل زي ينتظر في السجن أكثر من سنة كاملة، راح محامي الادعاء وهو يستعرض اللومبروسو يتحدث عن انحرافه الفطري: «انظروا، أيها السادة المحلفون إلى رأس المتهم. إن جمجمته جمجمة نموذجية لقاتل. وسنتغاضى عن دمه الأسود، على الرغم من أن أحدث النظريات المعاصرة التي يقول بها الدكتور نيلو أرغولو، صاحب النظرية الحاسمة في هذا الموضوع، وهو الأستاذ الشهير في الطب الشرعي في كلية الطب المحترمة التي لدينا، هذه النظريات تشير إلى ارتفاع نسبة الجرائم بين المولدين، وهنا هنا في قفص الاتهام دليل واضح على هذه النظريات».

ثم وصف الضحية، أفونسو دو كونسيبشان، بأنه (عامل مسكين يحبه جيرانه ولا يستطيع إيذاء أحد، ذهب دون أن يخامره أي شك إلى بيت المتهم من أجل جلسة حديث ودية، فصار هدفاً لشر الشيطان القاتل الماثل أمامكم، انظروا إلى وجهه، ليس فيه أثر للندم». وطالب بأقصى العقوبات.

لم يكن لدى زي دا إيناشيا مال يدفعه لمحام. في السجن كان يضع أمشاطاً من القرون وملاعق لكي يكسب قروشاً قليلة لم تكن تكفي لتأمين سجائره، وكانت كاشولا قد دبرت عملاً في بيت إحدى قريبات الميجور بستان المتوفى والتي ولدت في (فازيندا). بالنسبة لها كان الميجور يمثل العطف والروح العظيمة: «عمري لم احتج شيئاً والميجور حي. آه كم كان طيباً»! ولابد أن زي فيه بعض الخير أيضاً لأن كاشولا لم تتخل عنه بل ظلت تزوره في السجن كل يوم وتشجعه وتواسيه: «حين يجتمع المحلفون لابد أن يطلقوا سراحك بإذن الله»، ومن أين سيؤمن المال الذي سيدفعه للمحامي؟ «القاضي قال لي أنه سيعين لك محامياً، لا تحمل هماً حول هذا الموضوع».

وأنشب الدكتور أبرتو ألفس، المحامي المعين من قبل المحكمة أظفاره في قاعة المحلفين: لم يقرأ حتى ملخص القضية، وكان عليه أن يترك زوجته، أوديت التافهة، تتهامس وتتضاحك مع ذلك السافل فيلكس بوردللو. في مثل هذا الوقت ربما كانا يتبادلان القبل ويتعانقان وهو هنا، عاجز عن فعل أي شيء يمنعها من تركيب قرون له. إنه مقيد إلى واجبه المتمثل في الدفاع عن المجرم في قفص الاتهام. وليس عليك إلا أن تنظر إلى وجهه وتقيس جمجمته لتعرف أن محامي الادعاء على حق: سيكون إطلاق سراح الوحش خطراً على المجتمع. ولكن هل أوديت ـ حسن، ليست هذه المرة الأولى بالطبع. لقد كانت لها تلك العلاقة مع ديلتون. إن تعهدات أوديت بالإخلاص مثل إدعاءات ذلك المتهم المعترف بالبراءة، أعني ذلك المجرم المذنب القابع هناك، إنهما خائنان غادران بطبيعتهما، هما الاثنان، ما هذا العالم الخرائي!؟

قدم دفاعاً فارغاً إلى درجة أنه كان دون مستوى النقد. لم ينكر الدكتور ألفس شيئاً، ولم يرد على تحد، بل اكتفى برجاء المحلفين أن يخففوا العدل بالرحمة. كان يصلح لأن يكون مساعداً لمحامي

الادعاء، هذا ما قاله لنفسه القاضي لوباتو حين قرئ الحكم: السجن ثلاثين سنة، فقد قرر المحلفون العقوبة القصوى.

ـ ألن يستأنف محامي الدفاع؟ سأل وهو قرف من لامبالاة المحامي. أظن أن عليك أن تستأنف.

ـ «أستأنف؟ آه طبعاً» لولا تنبيه القاضي لما تذكر ألبرتو ألفس أن في الدنيا شيئاً اسمه الاستئناف «أرغب في استئناف الحكم إلى محكمة الاستئناف».

وها هو زي دا إيناشيا يعاد إلى محاكمته الثانية التي أجلت ثلاث مرات لأن المحامي المعين من قبل المحكمة لم يأت في الموعد. وتعهد داميان دو سوزا بالدفاع.

هذه المرة كان هناك محامي ادعاء مختلف، والمحامي الشاب أوغستو ليفاس، مثله مثل الدكتور ألبرتو ألفس في المحاكمة الأولى، كان يفكر بامرأة ـ ولكن ليس من وجهة نظر الديوث بل من موقف العاشق السعيد. لقد وقعت ماريليا أخيراً وصار العالم كله وردياً. لم يكن يرى أي نزوع إجرامي في لون (زي) ولم يأخذ قياس جمجمته كما كان يمكن أن يفعل لومبروزو. قام بعمله بشكل ميكانيكي وذهنه منشغل بمفاتن ماريليا، كما كانت تبدو قليلة الحياء ومعبودة وهي تجلس في السرير عارية تماماً.

كان القاضي حانقاً لاضطراره لتعيين محام في هذا الوقت القصير لكنه تنفس بارتياح أكبر وهو يتابع المحاججة الضعيفة من قبل الادعاء، وصار واثقاً من أن العقوبة ستخفض حتى ثمانية عشر عاماً أو اثني عشر، لا بل إلى ستة أعوام مهما كان دفاع داميان ضعيفاً.

ولكن ما حدث هو أن مرافعة داميان دوسوزا كانت الحدث الأكبر في إثارته لتلك السنة، ولقد نوقشت المرافعة مطولاً في القصر العدلي وصارت نبأ للصحافة ابتداء من اليوم التالي ومنذ ذلك الحين سيكون داميان دائماً مصدر أخبار.

وفيما كان مانويل دوبر أكسيديس يجتاز المحكمة، سمع الجلبة وسأل عن سر وجود هذا العدد الكبير من الناس، فقيل له إن محامياً شاباً يقدم دفاعه، ليس أكثر من ولد، ولكن أي خطيب متحدث! إنه كالطود الراسخ في المحكمة. ودخل مانويل حين كان دميان قد وصل بدفاعه إلى الذروة. لم يكن ذلك العملاق الطيب قادراً على السيطرة على نفسه، كان يصفق ويصرخ طالباً الاستعادة حتى صار لابد من طرده من القاعة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يضطر فيها القاضي لقرع جرسه طالباً الصمت والتهديد بإخلاء قاعة المحكمة، ولكنه حين فعل ذلك ابتسم. لقد مر وقت طويل لم تحدث فيه ضجة وإثارة في محكمة كما يحدث الآن.

كان دفاع داميان ملحمة، مليئة بالإثارة الرومانسية، والتراجيديا الإغريقية. وروايات العنف والإنجيل، والإشارة في اللحظة الملائمة نفسياً لقول شهير من أقوال «فضيلة أستاذ القانون النبيل الدكتور سانتوس كروز»، وملخص المرافعة إن زي دا إناشيا البريء المسكين، قد اضطر لارتكاب جريمة قتل لكي ينقذ حياته وشرف بيته، اللذين كان يهددهما الخائن القذر أفونسو ذو اللسان البذيء، إن المتهم الماثل أمامهم ضحية من ضحايا القدر: هذا الزوج المحب، والعامل المخلص لعمله الذي يشقى تحت الشمس الحارقة وحقيبة البائع الجوال على ظهره لكي يكسب بعرق جبينه ـ وليس جبينه وحده أيها السادة المحلفون، بل عرق جسده كله لأن حقيبة هذا التركي تزن طناً ـ وهذا كله لكي يؤمن

حاجة زوجته الغالية الحبيبة. وذات يوم أمسك هذا المواطن الطيب الفاضل بثعبان في عبه: ذلك الألفونسو ذو اللسان البذيء ـ اسمه وحده يدل عليه، أيها السادة المحلفون، لسان بذيء، وقلب أكثر بذاءة! ضبع معتوه سكير ضار منفلت ومتهتك، حاول أن يسرق حب زوجة زي دا إناشيا وأن يلوث شرف بيته، تصوروا هذه المأساة الإغريقية، أيها السادة إذا استطعتم. زي دا إناشيا يجر خطاه إلى بيته منهكاً من شغل النهار ـ وماذا ترى عيناه إلا المشهد الذي لا يوصف إلا بأنه دانتي كاشولا*(28) المسكينة تتعارك مع ذلك الشقي السيئ السمعة الذي كان يمسك بسكين المطبخ ويحاول أن يغتصبها بعد أن رفضت تلك المخلوقة البريئة بقرف عروضه الدنيئة، ويركض زي دا إناشيا نحو مغتصب زوجته، وينشب عراك وبعدها يقوم زي دا إناشيا، هذا الشغيل المسالم، دفاعاً عن الحياة والشرف، بسحق رأس الثعبان الذي لا يستحق أن يسمى.

وفتح داميان ذراعيه على اتساعهما وخاطب المحلفين: «يا سادة، وأنتم الأزواج والآباء، وأنتم رجال الشرف والفضيلة، أجيبوني: من منكم كان سيبقى مكتوف اليدين لو جاء إلى بيته ورأى زوجته تتصارع مع أحد الأوغاد؟ أنا واثق أنه لن يرضى أحد منكم بذلك».

ثم أشار إلى كاشولا بين المتفرجين: «هذه هي أيها السادة المحلفون، الضحية الأولى» واندفعت الدموع بسهولة إلى عيني كاشولا وكانت قد جرعت كأسين من الروم قبل أن تغادر بيتها لكي تستطيع الاستماع بصمت إلى إهانة زوجها. هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها الأمور مليئة بالرهبة. «انظروا إليها، أيها السادة المحلفون، هذه هي الزوجة المسكينة الطاهرة التي تستحم بدموعها هي التي تطلب عدالتكم في الحكم على زوجها، وإذا ما أخذنا طول مدة هذه القضية فإنني أطلب لموكلي البراءة والإفراج».

وكان مانويل دوبراكسيدس قد طلب الإعادة وتحققت. وأحس محامي الادعاء أن كبرياءه قد جرحت وأن سمعته التي حققها بالجهد الكبير صارت في خطر، فطلب من الكاتب ملخص القضية وقدم رداً. تسلح بحوادث سابقة وبمؤلفين وبجمل منقولة وبدليل موثق فاستطاع أخيراً أن يقدم مرافعة عادية جدية. لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن تهزم أمام ولد لم يدرس القانون في الجامعة، فداميان دوسوزا ليس إلا مراسلاً للحاجب، نكرة يقبل البخشيش من الكتّاب في المحكمة. حاول أن يقوض القصة السخيفة التي قدمها الدفاع، لكن محاولته كانت واهية ومتأخرة. وقد استطاع داميان في دفاعه أن يلف المحلفين بإصبعه، وكان فيلومينو جاكوب، الصيدلاني، قد بدأ يشهق بالبكاء. وصارت قاعة المحكمة «بحراً من الدموع» كما كتب أحد الصحافيين في «تريد».

كانت البراءة قد تقررت بالإجماع، وصار على سانتوس كروز أن يقرأ الحكم، فأمر أن يطلق سراح زي دا إناشا، وقال فضيلته لمحامي الادعاء «لقد كدت أصاب بالانهيار بعد أن بكيت كثيراً، لم أر في حياتي شيئاً مشابهاً». وكان محامي الادعاء إلى جانبه «سأسعى جاداً لتأمين إذن المحاماة له، فبهذه الطريقة سيظل لدينا محام يدافع عن الفقراء».

وهذا هو تخرج داميان. تخرج بلا خاتم ولا درج ولا صورة بالقبعة والسترة ولا رقص ولا مشرف صف، ولا صف ـ داميان فقط ولا أحد معه. وحين انتهى المشهد تقدمت كاشولا، التي كانت مغرمة بزوجها وكانت قد فقدت الأمل في رؤيته مطلق السراح، إلى الشاب الذي لم تظهر لحيته بعد وشكرته:

«أجرك عند الله يا عزيزي الميجور».

ولم الميجور؟ كانت تستطيع الاكتفاء بالقول إن الأمر مرتبط بماضيها. على أية حال اعتباراً من ذلك اليوم صار الميجور داميان دو سوزا.

---

*(28) ـ نسبة إلى دانتي.

- 8 -

حين سمع بدرو أرشانجو صوت الصبي: «هل أستطيع الدخول يا عرابي؟» خبأ مراجع مخطوطته تحت بعض الكتب.

ـ أهذا أنت يا تادو؟ ادخل.

كانت تمطر. والمطر كان جميلاً متلاحقاً ومثيراً للحزن.

ـ مفاجأة أن أراك هنا. ماذا حدث؟

بعد تخرجه بقليل سرعان ما وجد تادو عملاً كمهندس مساعد في مشروع سكة حديد جاغو كاراجيكي. وكان المرتب متواضعاً كما كانت ظروف العمل سيئة، لكن الفتى فضل هذه التجربة القاسية والمفيدة في المنطقة، على الاغتراب في مشروع هندسي آخر يضيع له وقته في العاصمة مرشحاً لوظيفة حكومية بلا شغل: «لم أجدّ للحصول على شهادتي من أجل هذا».

ـ يجب أن أتحدث إليك يا عرابي.

ووصل صوت تنفس روزاليا الهادئ من السرير. نهض أرشانجو وألقى شرشفاً على جسد الفتاة العاري المثير، لقد استغرقت في النوم باسمة تحت تأثير دفء الكلمات الناعمة الحلوة التي تاقت طويلاً لسماعها وكانت تحب سماعها. قبل أكثر من عشر سنوات، حين كانت لم تتجاوز السابعة عشرة، كان روبرتو المتراخي، ابن الكولونيل لوريرو، قد أمسك ذقنها وقال: يا صغيرتي حان وقت النوم. وبعد الابن جاء دور الأب. أعطاها الأب نقوداً وثياباً وذهبت لتشتغل في الأغوينهاس في بيت أدري سيلينا. وجاءت إلى باهيا مع بائع جوال فرآها بدرو أرشانجو تشتري البرتقال في تيريرو يسوع. عندها فقط أدركت روزاليا أنها بشر وليست شيئاً أو خاتماً أو لا شيء أكثر من مومس.

وقال تادو ثانية: يجب أن أتحدث إليك يا عرابي. إنني بحاجة إلى نصيحتك.

فلنتمش. وأحس بدرو أرشانجو بثقل في قلبه. تذكر رمي الودع صبيحة التخرج، شغل، سفر، آلام حب كما قالت الأصداف.

صعدا الشارع يتمشيان ببطء، وتطلعا إلى داخل الخيمة وهما يمران بليديو كورو الذي كان إلى جانبه متدرب وهو يعد المطبعة. كان تادو يتحدث وأرشانجو يستمع مطرقاً. نصيحة؟ أية نصيحة يستطيع أن يعطيها طالما أن تادو قد رتب أموره وصارت له كابينة في السفينة؟

ـ أنت لم تأت إلى هنا لكي تستمع إلي. وأنا لن أعطيك أية نصيحة. لكنني أظن أنك محق. سأشتاق إليك ـ وكررها ـ سأشتاق إليك أكثر مما تعرف. لكنني لا أستطيع احتجازك هنا.

كان تادو قد ترك العمل في سكة الحديد لكي يذهب إلى ريو دو جانيرو حيث سيكون عضواً في الفريق الهندسي الذي يقوم بتحويل العاصمة إلى مدينة حديثة بقيادة باولو دو فرونتين، وقد أمن له هذه الفرصة البروفسور برنارد صديق فرونتين. ففي إحدى السفرات إلى الريو تحدث البروفسور عن مواهب الفتى الذي يرعاه وكم هو طموح ومجدّ. وقادر وأنه سيكون مكسباً لفريق البناء الهندسي الكبير: «إذن أرسل لي هذا الولد. أرسل شغيلة من الشبان المتحمسين».

ـ هذه فرصتي يا عرابي. في ريو المجال مفتوح، إذا بقيت هنا سيكون الشيء الوحيد الذي أستطيع أن اطمح إليه هو أن أكون موظفاً في مكتب النقل. أنا لم أنل الشهادة لكي أنتهي بيروقراطياً مقيداً إلى حقيبة أكسب مرتباً هزيلاً وأنتظر الترفيعات. في الجوب يمكن أن يكون لي شغل وخاصة مع الرجل الذي سيشغلني. لا يأتي هذا الحظ لكثيرين. لقد برهن البروفسور برنارد أنه صديق حقيقي.

أهذا كل ما تريد أن تخبرني به يا تادو؟ أليس هناك شيء آخر تريد أن تناقشه؟ كان المعلم أرشانجو يعرف أن الأمر الهام الحقيقي لم يُقل بعد. وكان تادو يبحث عن أفضل وسيلة لقوله.

ـ قل لي ما الذي يؤرقك يا بني؟

كان أرشانجو دائماً، تقريباً، ينادي تادو باسمه وأحياناً باسمه الكامل تادو كانهوتو. وفي مرات قليلة كان يقول له «ميوبوم» أو «مورادو» على طريقته في الكلام. وفي مرات نادرة كان يقول له «يا بني».

ـ يا عرّابي. أنا أحب شقيقة أحد أصدقائي. إنك تعرفه استيريو، عرّفتك عليه ذات مرة إنه الذي ألقى خطاب التخرج. تذكره؟ إنه الآن في الولايات المتحدة. سيبقى عامين هناك حتى يتخرج. الأسرة غنية جداً.

ـ جدائل شقراء، بشرة حليبية شفافة وعينان واسعتان.

ـ تعرفها يا عرابي؟

ـ وماذا تقول عائلتها الغنية البيضاء عن علاقتكما؟

ـ لم تعرف العائلة بشيء بعد.. الأمر بيني وبينها فقط والآن أنت الثالث. أعني ..

ـ زابيلا..

ـ هل قالت لك؟

ـ لا، لم تقل لي كلمة واحدة حول الموضوع، لا تقلق، هل الفتاة قريبة لزابيلا؟

ـ لا ـ ليستا قريبتين، معارف فقط. أعني أن جدة لو ـ اسمها لوزو، والجميع ينادونها لو ـ كانت صديقة لزابيلا حين كانتا صبيتين، وأحياناً تزورها لكي تتحدثا عن الأيام السالفة. هكذا التقت لو بزابيلا، وهي تزورها أحياناً. ولكن لا أحد من عائلتها يعرف ولا أريدهم أن يعرفوا. الآن على الأقل.

ـ ولم لا؟ هل تخشى ألا يوافق والداها؟

ـ تعني لأنني خلاسي؟ في عائلة لو كلهم لطفاء. ولا أعرف كيف سيكون رد فعلهم حين نخبرهم.

حتى الآن يتصرفون معي بلطف، ولكن ليس لدي فكرة عن الكيفية التي سيتصرفون بها فيما بعد. أمها تتصرف بشيء من الفوقية. والأفضل عدم التحدث كثيراً عن جدتها، صديقة زابيلا. أحياناً يكون الأمر مضحكاً حين تخاطب أمها، الدونا إيمليا، إحدى الخادمات بقولها: «أيتها العبدة القذرة»*[29]، وهي توبخها. ثم تتذكر وجودي فتضطرب وكأنها تريد أن تعتذر، ولكن يا عرابي، ليس هذا هو السبب الذي يجعلني أبقي الأمر سراً، لقد علمتني أن أكون فخوراً بلوني، ولكنني لا أريد أن أذهب إلى هذا البيت الغني بيدين خاليتين لكي أطلب البنت للزواج، إذا رفضوا لأنني خلاسي أستطيع أن أواجه الموضوع، ولكن إذا جعلتهم يرفضون لأنني لا أستطيع أن أعيل أسرة فمن أين سيكون لي الحق بالتذمر؟ ألا تفهم؟

ـ نعم أنت على حق.

ـ سأذهب إلى ريو وأشتغل فعلاً. أنا لست أحمق، وأنا أعرف أنني أستطيع أن أصير حرفياً حقيقياً، سأشتغل مع أحسن فريق هندسي في البلد كلها. وأظن أنني سأكون في حالة جيدة، خلال سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر، وعندما أستطيع أن أعود وأقرع جرس باب بيت (لو) لأنه سيكون عندي ما أقدمه. وسيكون هذا في الوقت الذي يعود فيه استريو من الولايات المتحدة وسيكون حليفاً جيدا لي. إن دعمه سيجعل الأمور تختلف بالنسبة لي. هل تذكر حين كنت أذهب إلى بيته للدراسة، هو نفسه قال إنه ما كان ليتخرج لولا مساعدتي. إنه صديقي وأستطيع الاعتماد عليه.

ـ كم عمر الفتاة؟

ـ ثمانية عشر عاماً تقريباً. قابلت استريو ونحن لا نزال صغاراً، وأول مرة يأخذني فيها إلى بيته كانت لو في الثانية عشرة. تصور إننا متحابان منذ فترة طويلة، ولكن في العام الماضي فقط تطلع كل منا إلى عيني الآخر وتعاهدنا.

ـ تعاهدتما؟

ـ « نعم يا عرابي. أنا ولو سنتزوج ذات يوم. هذا مؤكد» قال ذلك وهو يكز على أسنانه بشيء من القسوة.

ـ وما الذي يجعلك تظن أنها ستنتظرك؟

ـ لأنها تحبني. وهي عنيدة. هؤلاء الناس حين يريدون شيئاً، فهم يريدونه فعلاً (لو) مثل أبيها. حين تصمم على أمر لا تتراجع عنه أبداً. هل تعرف بمن يذكرني الكولونيل غوميز؟ بك أنت يا عرابي. أنت مختلف عنه في كثير من المسائل، لكنكما متشابهان في جوانب أخرى، ستقابله ذات يوم.

ـ وهل أنت مستعد لمواجهة كل احتمال؟ قد تكون تجربة قاسية وعنيفة يا تادو كانهوتو.

ـ أولست أنت من علمني كيف أواجه الأمور؟ أنت والعم ليديو؟

متى ستبحر؟

ـ اليوم. هناك سفينة ستقلع بعد الظهر وقد حجزت فيها حجرة.

بعد الظهر قام بدرو أرشانجو وليديو كورو بمرافقة تادو إلى السفينة، كان الولد قد ذهب لتوديع آل

غوميز وظل عندهم على الغداء ثم تجول في كافة أنحاء باهيا ليرى أصدقاءه لآخر مرة. أعطته ماجي باسان عقداً من خرز مقدس في كيس جلدي، تعويذة من معبد كسانغو. وزابيلا التي تعاني الروماتيزم وقد صارت شبه عرجاء، أصرت على أنها ستأتي معه لتوديعه. لكن تادو لم يقبل على الإطلاق، طلب منها أن تظل في سريرها لتكمل قراءة شعرائها. واكفهرت زابيلا، هذه نهاية محزنة لمن كانت باريس تشرب نخبها. وظهر مانويل دوبراكسيدس وماني ليمان آخر لحظة، لأنهما لم يسمعا بالخبر إلا منذ قليل. وأطلقت السفينة صفرتها تحث المسافرين على القدوم إلى الشاطئ.

كان الوداع هادئاً: فالمسافة شاسعة ولا يمكن عبورها. وريو دو جانيرو بعيدة. ولم يستطع أرشانجو أن يتماسك: فتح الخزانة وأخرج سره منها:

ـ ما كنت أريد أن أخبرك. كنت أريد إبقاء الأمر مفاجأة. ولكن الكتاب شبه منته. لم يعد ينقصه إلا انتهاء بضع صفحات من الطباعة.

وتفجر وجه الولد القلق في الإثارة المبتهجة للمتدرب الذي كانه قبل عشر سنوات, فاختفت الظلال: «آه يا عرابي. هذا خبر عظيم، لا تنس أن ترسله لي حالما يصدر. أرسل لي عدة نسخ وسأضمن إيصالها إلى الأماكن الملائمة في ريو».

جاءت الصفرة الثالثة وقرع نادل السفينة جرسه: الزوار إلى الشاطئ المسافرون إلى السفينة. السفينة ترفع مرساتها. وجاء وقت الدموع والعناق والمناديل التي تلوح بالوداع. نزل الأصدقاء الأربعة إلى الرصيف مشكلين مجموعة صغيرة بين الرافعات، وبغتة رأوا تادو يركض نازلاً المعبر.. وكانت الفتاة ذات الشعر الأشقر تبذل جهدها للتعرف إلى شخص ما على متن السفينة. ولكن كيف ستستطيع رؤيته وعيناها الواسعتان مغيمتان بالدموع وهذا العدد الغفير من الناس؟ تادو صرخت يائسة، ولكن صوتها ضاع بين ضجيج المودعين، وبغتة صار إلى جانبها وهو يلهث متقطع الأنفاس. ظلا لحظة سريعة لا نهاية لها وكل منهما يحدق إلى الآخر بصمت غائباً عن الحشد الفضولي. ثم قبل يدها وعاد إلى السفينة. تادو نادته بانفعال ناسية كل لياقة وحشمة ومدت له ذراعيها وشفتيها. اقتلع تادو نفسه من هذه القبلة وبدأ يصعد المعبر ثم كان الوداع!

في مدخل المرفأ ودعت السفينة الجميع بصفرة أخيرة والدخان يتصاعد من مدخنتها. تلويحة أخيرة بالمنديل، ووداعاً يا حبيبي. لا تنسني. وسرعان ما خلا الرصيف من الناس وظل أرشانجو ولو لوحدهما في الظلمة المقبلة.

ـ «بدرو أرشانجو»؟ وقدمت الفتاة يدها بعروقها الزرقاء وأصابعها النحيلة. «اسمي لو. أنا خطيبة تادو».

ـ خطيبة؟ وابتسم أرشانجو.

ـ الأمر بيننا نحن الاثنين. أنت تعرف الموضوع كله. هو قال لي إنك تعرف.

ـ أنت صغيرة جداً.

ـ ماما تقدم لي خطيباً كل يوم. وهي تقول إنه كان يجب أن أتزوج منذ مدة. كانت كتلة من الأعصاب. ولهيباً لا يُضبط. وضحكتها صافية وشفافة مثل ماء يترقرق على سرير من الحصى. «حين أقدم

خطيبي لأمي ستصاب بأكبر صدمة تعرضت لها في حياتها». ووسعت عينيها الواسعتين وتطلعت مباشرة إلى عيني أرشانجو: «لا تظن أنني لا أعرف كم سيكون الأمر صعباً، أنا التي يجب أن يعرف. أنا أعرف أسرتي، ولكن لا يهم، لا تخف».

ـ عمري لم أخف من أمور كهذه.

ـ لا تخف علي. هذا ما قصدته.

وجاء دور أرشانجو ليحتويها في عينيه:

ـ «لن أخاف على أي منكما» وابتسم ابتسامة ملأت وجهه كله. «لا. لن أخاف يا عزيزتي».

ـ أنا ذاهبة غداً إلى الفازندا. هل أستطيع أن أراك حين أرجع؟

ـ كلما أردت. يكفي أن تبلغي زابيلا.

ـ وتعرف هذا أيضاً! لقد عرفت مؤخراً أنك ساحر، بابا لاو، أليس كذلك؟ حدثني تادو عنك كثيراً، قال لي أشياء مدهشة، الوداع. لا تسيء الظن بي.

تقدمت إليه وقبلته من خده. كان الغروب يتلامع ذهباً ونحاساً على الأفق. ستكون تجربة رهيبة يا فتاتي فتهيئي لها. كانت كتلة من الأعصاب ومشعلة*(30) ملتهبة.

---

*(29) ـ nigger كلمة الاحتقار للزنجي.

*(30) ـ المشعلة: الحطب الذي تم إشعاله في البرية.

- 9 -

كان بدرو أرشانجو يمر أمام مكتبتين: «المكتبة الإسبانية» لبارشادا سي دي ليون استيبان و «كتب دانتي أليغيرا». كما كان جيوسيب بونفانتي يسمي حفرة الكتب المستعملة في الجدار التي حولها مكتبة، نظر بطرف عينيه إلى نسخ من «التأثير الإفريقي على العادات في باهيا» بين أحدث الكتب المحلية والأجنبية التي استوردها دون ليون. كان الكتاب يقع في حوالي مئتي صفحة، والعنوان بالأزرق كان يجعله أنيقاً بوجوده وسط الغلاف واسم المؤلف فوقه بحروف كبيرة مطبوعة تشبه خط اليد «حروف مائلة جميلة» كما كان يسميها ليديو كورو. وتلاشى زهوه حين غرق في التفكير. وراح بدرو أرشانجو يراجع نفسه وهو يعبر البلازا، لقد كلفه الكتاب عشر سنوات من العمل المضني والمنظم، وكان عليه أن يتغير لكي يستطيع أن يكتبه. لم يعد الرجل ذاته.

كان دون ليون قد أخذ خمس نسخ، وضع اثنتين في النافذة «أكثر ما يهتمون به هو رؤية الكتب في خزانة العرض» وأرسل واحدة إلى إسبانيا لصديق مهتم بعلم الأحياء. من قبيل الفضول فقط وليس من أجل القيمة العلمية التي ليس فيه شيء منها، فهو مجرد كتاب لساع في الجامعة قرصته بعوضة العلم. هذا النوع الخاص من الجنون شائع جداً أكثر مما هو متوقع، فمدينة باهيا تعج بالشعراء والفلاسفة، ولدى دون ليون تجربة كبيرة مع هذا النوع من الكتاب. إنهم يترددون على مكتبته طوال أيام الأسبوع باهتين ومشاكسين بعيون ذاهلة وذقون غير حليقة، وهم يحملون مخطوطاتهم تحت آباطهم، قصائد وأناشيد وقصص قصيرة وروايات ومقالات فلسفية حول مصير الإنسان ووجود الله.

بين حين وآخر يقع في يد أحد هؤلاء العباقرة مبلغ من المال، فينشر مقطوعته الخالدة ويذهب مباشرة إلى دون ليون ليبيعه بعض النسخ، بين حاملي الباكتريات الأدبية والذين دخل فيهم الفيروس العلمي، كان دون ليون يفضل الشعراء الحالمين الذين كانوا، بشكل عام، ودعاء كالحملان، على الفلاسفة المتأججين بتصميمهم الملتزم بإنقاذ العالم وكل من فيه من خلال دواء ما من أدويتهم الأصلية التي لا تدحض. ولقد تشوش عقل أرشانجو نتيجة رفقته لهذا العدد الكبير من الأطباء ولذا تحول إلى عالم الأحياء وعلم الأقوام، لكن له توجهات وهو الأكثر جاذبية بين عناصر الفصيلة الغربية. يا للشيطان المسكين. كان يستحق مصيراً أفضل.

دون ليون، الموسوعي والقارئ الممتاز ذو الطبيعة المريحة والمتميزة. كان ينصح الطلاب والأدباء ببعض الكتّاب. لقد جعل بلاسكو إيبانيز معروفاً في باهيا مثله مثل فارغاس فيلا وإنجينرو الأرجنتيني وخوسيه أنريك رودو، من أورغواي، أنجينيروس ورودو لأساتذة الجامعات، أما فارغاس فيلا فقد كان منتشراً بين الطلاب، وبلاسكو إيبانيز هو المفضل عند العائلات الراقية. إن زبائن دون ليديو متنوعون ومنتخبون.

كان القضاة وأساتذة الجامعات والصف الأول من الصحافيين والشخصيات الأكثر أهمية في الحياة

الثقافية في المدينة يترددون على مكتبه ويتعلمون منه، دون ليون يتلقى الكاتولوغات من الأرجنتين والولايات المتحدة ومعظم أنحاء أوروبا. وكان يتلقى طلبات لكتب غير متوافرة في البرازيل، وبدرو أرشانجو أحد الذين استفادوا من دون ليون وخدماته لجلب الكتب من فرنسا وإيطاليا والأرجنتين. وأكثر من مرة جاء الطلب وهو، كما كان يحدث غالباً، متضايق مالياً، ولكن مصداقيته عند الإسبان عالية. «خذ الكتب وادفع لي حين تكون مرتاحاً». «لا تقلق يا دون ليون سأدفع لك يوم السبت بالتأكيد». وكان دون ليون يقدر وسوسة هذا الخلاسي من حيث دفع ديونه وكذلك من جهة ملابسه، كان يبدو دائماً وكأنه خارج لتوه من الحمام، وكانت أصالته تميزه عن معظم الفلاسفة الآخرين الذين كانوا مصرين على فظاظتهم ومثيرين للمشاكل وهلهلتهم وقذاراتهم وتطفلهم وإدمانهم.

صحيح أنه كان يتحدث بنعومة وأنه كان شخصاً ظريفاً، لكنه كان غريب الأطوار مهووساً بالعلم. ينفق النقود، مبالغ كبيرة! على منشورات أجنبية، بعضها لم يقرأه حتى أساتذة كلية الطب. هكذا قال دون ليون لنفسه عندما جاء بدرو أرشانجو بكتابهmuy bien, mis felicitciones . وفي فورة من الكرم اشترى خمس نسخ ووضع اثنتين في واجهة العرض، لكنه لم يخطر له أبداً أن يتصفح الكتيب غير المثير في هيئته. فليس لديه الوقت أو الظرف اللازم لهذه الطفرات المجنونة.

وعلى عكس «المكتبة الإسبانية» ذات المجلدات المرتبة بأناقة على الرفوف حسب موضوعاتها ولغتها وأسماء مؤلفيها وكراسيها ذات المساند المجدولة التي يستطيع الزبائن المتميزون أن يجلسوا عليها ويتحادثوا، والمحاسب بربطة عنقه وياقته، كان محل بونفانتي حانوتاً مليئاً بالفوضى حيث أكوام الكتب على الأرض والنضد فائضة عن حدها مما لا يترك إلا مجالاً ضيقاً جداً لاستيعاب زبائنه الكثيرين المؤلفين من الطلاب الصاخبين وأنصاف الأدباء الاستعراضيين وعجائز يبحثون عن الكتب البذيئة. ويقدم على تلبية طلبات الزبائن ولدان أشعثان هزيلان طائشان، في جو من المزاح الغليظ، وعلى موقع المحاسبة يجلس بونفانتي وهو يرتدي بذلته الزرقاء اللامعة ذات الخيطان المنسولة، البذلة ذاتها التي كان يرتديها حين فتح المحل قبل سبع سنوات، وهو يبيع ويشتري بصوت أجش.

ـ عشرة تيستو، عد أو مد.

ويحتج الطالب: ولكن يا خواجا بونفانتي أنا اشتريت كتاب الحساب هذا يوم الاثنين الماضي ومن هذا المحل ودفعت خمسة ميلري.

ـ أنت اشتريت كتاباً جديداً وها أنت تبيع كتاباً مستعملاً.

ـ مستعمل؟ صدقني لم أفتحه. إنه جديد تماماً مثلما كان حين اشتريته.

ـ مجرد أن يغادر الكتاب المكتبة يصبح الكتاب مستعملاً، عشرة تيستو ولا بنس زيادة.

ولم يدفع بونفانتي نقداً ثمن نسخ «التأثير الأفريقي» فصداقته مع المؤلف لم تصل إلى هذا الحد. لقد أعطي عشرين نسخة لكي يبيعها، فعرض خمس نسخ من قبيل الإعجاب في الواجهة الصغيرة المخصصة للكتب الجديدة. وكان يحتفظ بالواجهة الكبيرة للكتب المستعملة التي كانت أساس تجارته المزدهرة. إنه صديق أرشانجو الحميم، فقد عملا معاً في وصفات الطبخ خلال حفلات غداء أيام الأحد في الخيمة أو الوجبات في بين بونفانتي في لايتا باجيب التي تترأسها دونا أسونتا، الملكة القوية

الثرثارة للمعكرونة. أما من جهة الطعام فبونفانتي شخص مختلف، إنه مضيف عظيم وكريم، والأكل هوايته.

الزهو جميل للكاتب الجديد، الذي يتمشى أمام واجهات المكتبات لكي يرى كتابه معروضاً لم يدم طويلاً، سرعان ما غرق بدرو أرشانجو في احتفالات عيد ميلاده الخمسين. حدث تتال غير متقطع لمآدب الكارورو «الدونا فرناندا والسيد ماني ليما يودان التشرف برفقتكم في الكورورو التي يقيمانها يوم الأحد المقبل للسيد أرشانجو» رقصات الياتوكادا الأفرو ـ برازيلية وحلقات السامبا والاجتماعات والحفلات ونشوات الأكل والشرب ـ الجميع كانوا يودون مساعدته في الاحتفال. وغرق المعلم بحماسة فائقة نكساً على رأسه في بحر الكاشاشا والرقص والنساء ذوات الأذرع المفتوحة. فكأنما كان يريد أن يعوض بجرعة واحدة سنوات الدراسة كلها حين كان يستعد لكتابة الكتاب. كان جائعاً وظامئاً للحياة فراح يبدد طاقته، ويتواجد في كل مكان وينام في أمكنة متعددة لم يعد إليها منذ أن كان شاباً، ويعيد زيارته إلى أكثر من مأوى قديم وجولات نُسيت منذ زمن طويل. عاد متشرداً بطالاً من جديد، يتحدث ويضحك ضحكته المنشرحة، مستعداً دائماً للشراب. ومحاطاً بحلقة من النساء، يناقش كل موضوع في الدنيا، ويسجل، دائماً، ملاحظاته في دفتره الأسود الصغير ببقية قلم الرصاص. كان بدرو أرشانجو شرهاً متعجلاً حيوياً متوقداً.

لم يكلفه الكتاب الثاني عشر سنوات من التنظيم وضبط النفس فقط، لقد دفع ثمناً غالياً من الآراء ووجهات النظر والفرضيات وطرائف النظر إلى الأمور والتصرفات، كان من قبل شخصاً ما وصار الآن شخصاً آخر. قبل أن ينتبه للأمر كان قد انقلب رأساً على عقب وصار الآن يقيس الأمور بمعيار جديد من القيم.

ـ يا صاحبي بدرو، تبدو هذه الأيام مثل جنتلمان. قل ليديوكورو وهو يرقبه متجهاً نحو كلية الطب وبيده كتاب.

ـ جنتلمان يا صاحبي؟ ومتى كنت جنتلمان يا رفيقي؟

لكن هذه الملاحظة من صاحبه، توأمه، استفزته، صار ليديوكورو يخشى أن يرحل. ليس في رحلة للتبديل أو اللهو، بل أن يضب أمتعته ويذهب ويتركهم كلهم. وربما كان ليديو هو الوحيد الذي لاحظ التغيير الداخلي، الرجل الجديد الذي كبر في داخل بدرو أرشانجو القديم الذي كان شجاعاً مندفعاً تلقائياً، وإلى حد ما غير مسؤول، كان محباً للحرية، ولكن غير منطقي متهور، ودون شك مع قصر نظر. بالنسبة للناس العاديين في تابوان وبيلهورينهو إذا كان الأمر يتعلق باللهو وسامبا غافييرا. والغناء والرقص، والكابويرا والكاندومبلي فقد كان لا يزال المعلم بدرو نفسه متلفعاً بوشاح تقديرهم ومحبتهم، لا أحد مثله، بل إنه يكتب كتباً، ويعرف أكثر من الأطباء الحقيقيين لكنه يظل واحداً منا. وكان الخبراء يقولون: بركاتك يا أوجوبا! بركاتك! وماجي باسان هل لاحظت عليه أي تغيير؟ إن كانت قد لاحظت فما من أحد عرف بذلك، ولا حتى أرشانجو نفسه.

في الخمسين من عمره انغمس بدرو أرشانجو في الحياة بكل عنفوان البالغين. وإضافة إلى كل ما قلناه أليس غياب تادو، بحد ذاته سبباً كافياً؟

لم يهتز إيمان ليديو كورو ولا إخلاصه فظل منشغلاً بالكتاب، فبالنسبة له كانت كتب الصاحب نوعاً من (العهد) العصري. كان رسام المعجزات يعرف أنها كتب هامة لأنه أحس في لحمه ودمه بالحقيقة

المعبر عنها في صفحاتها. أحس بالكفاح والاضطهاد، بالصدق والكذب، بالشر والخير، ولم يوفر جهداً في الترويج للكتب وبيع معظمها. أرسل نسخاً إلى نقاد وأساتذة جامعات وصحف وصحفيين وجامعات في الشمال والجنوب وأرسل رزمتين بالبريد إلى تادو لتوزيعها في ريو.

أعلنت باهيا ديلي نيوز عن نشر الكتاب ودعت بدرو أرشانجو بـ «الكاتب المتميز»، و «تريد» أبرزت الكتيب الصغير بعنوان «خزينة من موروثنا الفولكلوري»، واهتز ليديو لهذا التعبير وأخذ الصحيفة ليريها لكل إنسان وزوجته، وغامر ناقدان أو ثلاثة بمدح الكتاب ولكن بإيجاز. أما الذين لا يرون قيمة إلا في اليونان وفرنسا، أخر الهيلينيين والأتباع المخلصون لأناتول فرانس فلم يجدوا جاذبية كبيرة في «العادات الغربية والبدائية في باهيا» وأبدوا حماساً أقل تجاه (تأكيد بدرو أرشانجو الوقح والمنفر على العرقية) وامتداحه للتزاوج، هذا موضوع متفجر.

ولكن لابد من الإشارة لبعض الوقائع الهامة. أولاً إن بعض النسخ القليلة ـ ليست كثيرة بالتأكيد ـ قد بيعت فعلاً في المكتبات، ليس فقط في باهيا بل في ريو أيضاً. وطلب بائع كتب شاب في كاريوكا، لم يزل في بدء تجارته، خمس نسخ عن طريق تادو وعرض أن يأخذ خمسين نسخة، يحاسب عليها إذا بيعت، لكي يوزعها على المكتبات في ريو «إذا رغب الناشر في منحه 50%» وليديوكورو، في فورة حماسه تجاه ترفيعه إلى رتبة ناشر، انجرف إلى حد إرسال مئة نسخة للبائع، أي ضعف الكمية التي طلبت، ومنحه حقوق البيع كاملة في الجنوب، ولم يعرف ليديو كم بيع منها حيث أنه لم يتم الحساب حولها إطلاقاً. ومن جهة أخرى صار البائع الشاب صديقاً حميماً لتادو وكثيراً ما ورد ذكره في رسائل الفتى القليلة إلى أرشانجو: «كثيراً ما أرى كارلوس ريبيرو، بائع الكتب صديقي الذي يمتدح كتابك دائماً».

ولم يمر نشر الكتاب دون أن يثير اهتمام في كلية الطب، فبمعزل عن أولئك الطلاب الذين كانوا أصدقاء لبدرو أرشانجو، الذي فرض عليهم ليديو نسخاً بثمنها الذي كان يختلف حسب أوضاع الزبون (كان عليه أن يبيعها ليدفع ثمن الورق الذي طبعت عليه) فإن الكتاب أثار جدلاً بين الأساتذة أثناء تناولهم (الكافي كلاش) في الصباح. أرلندو، الساعي الآخر في قسم الطفيليات، أخبر أرشانجو عن الجدل الرهيب الذي دار بين البروفسور أرغولو وأساباس لونا العنيد الذي لا يمكن كبحه.

بتعبير طفيف من الاهتمام على وجهه، سأل البروفسور لونا البروفسور المتخصص في الطب الشرعي، إن كان قد سمع بما يتحدث به الطلاب في التيريرو. أحاديث طلاب؟ عن أي شيء؟ هراء بالتأكيد. نيلو أرغولو ليس لديه وقت لحماقات كهذه. ماذا كانوا يقولون؟

كانوا يقولون إن الساعي أرشانجو قد برهن، في كتاب نزل إلى الأسواق منذ عدة أيام، أن مذهب الثعبان لا يزال مستمراً في الكاندومبلي تيريرو عند شعب الفيغ ـ مذهب الثعبان الإله ـ الأوريكسادانة ـ غبي، أو باختصار دان. وكان البروفسور أرغولو، في كتاب سابق، قد أنكر إطلاقاً إمكانية استمرار وجود مذهب كهذا في باهيا، ليس هناك دليل على وجوده، ولا أثر له على الإطلاق. والآن هذا الأرشانجو الأصفر الذي لا يحترم أبداً من هم أعلى منه، قد تجرأ على إظهار هذا لأوريكسا، الكوبرا، الثعبان الذي لا وجود له، أظهر هذا الدان مع معبده وطقوسه ولباس كهانه ورموزه وعيده المقدس وطائفة من الخبراء المهرة ليرقصوا في تيريرو بونغو كما يقول الطلاب. هذا الخلاسي في كتابه الأول، كان قد رد على إنكارات أرغولو وهاهو الآن يدق المسمار أعمق ببراهين متعددة إلى درجة...

ولكن حين يتعلق الأمر بالنظريات العرقية فإن إيساياس، ابن باهيا الأبيض. يفضل أن لا يتوغل في

الموضوع. لن يضع يده في وكر دبابير كهذا. فهو لم يفقد عقله نهائياً ولكن من خلال ما يقولونه يا زميل أرغولو يبدو أن حجج الساعي تقوم على أدلة قوية وعلى منطق جيد أيضاً.

البروفسور نيلو أرغولو، الذي كادت تصيبه السكتة، فقد أعصابه فراح يعاقب الثعبان الذي أمامه بلغة برتغالية واضحة وعنيفة: «فواو، فوينها، فوتريكا! يا تافه، يا نقال الحكايات، أيتها النفاية البيضاء، المقرف على نفسه، أيها الفاسق الفاجر!» وكان يلمح إلى ولع البروفسور لونا المعروف بالنساء السوداوات «يا زميل أرغولو المتحمس المنفعل الفذ أؤكد لك ذلك».

أما دون ليون المتشكك فقد كانت بانتظاره مفاجأتان. جاءت الأولى بعد وقت قليل من عرضه في واجهته للكتاب الذي ألفه ذلك الساعي بشيء من التكريم، فزبونه الأبرز والأهم البروفسور سيلفا فيراجا، توقف ذات يوم في طريق عودته إلى كلية الطب حسب عادته وسأل عما إذا كان لدى «الصديق ليون أي شيء جديد». وحين لمح نسخ «التأثير الأفريقي» على الرف أمسك بواحدة منها.

ـ دون ليون هوذا كتاب سيكون من كلاسيكيات علم الأحياء. محاضرو المستقبل سيتشهدون منه وستنتشر شهرته طولاً وعرضاً.

ـ أي كتاب تعنيه يا مايسترو؟

ـ أعني هذا الكتاب لبدرو أرشانجو، الساعي في دائرتي المثقف ثقافة ممتازة.

ـ مثقف؟ لا شك أنك تمزح.

ـ «اسمعني جيداً يا جون ليون، وفتح الكتاب وقرأ منه: إن ثقافة المهجنين تتشكل، قوية وعميقة داخل كل برازيلي وستصبح مع الزمن هي الوعي الوطني الحقيقي، وحتى أولاد الأدباء والأمهات المهاجرين، الجيل الأول من البرازيليين، سيكونون مهجنين ثقافياً مع الزمن وهم يكبرون».

بعد عدة أسابيع تلقى دون ليون الحجة الدامغة، بهيئة رسالة من أحد أبناء بلده من هواة علم الأحياء، وفيها يشكره على كتاب أرشانجو: «كتاب رائع. إنه يفتح آفاقاً جديدة أمام الباحثين ويطرح مقولات مذهلة في هذه الأرض البكر. كم من المفروض أن تكون باهيا التي تعيشون فيها مدينة ملهمة. أستطيع أن أرى ألوانها الزاهية وأشم عبيرها في كل صفحة». وطلب من دون ليون أن يرسل له الكتاب السابق للمؤلف، الذي ظهر اسمه على صفحة العنوان في كتاب «التأثير الأفريقي» ولم يكن دون ليون يعرف حتى بوجود كتاب سابق.

وكان بائع الكتب نزيهاً. اندفع فرحاً يبحث عن أرشانجو. ولكن كان الوقت عصراً، وكان الساعي قد غادر الكلية. ومشى دون ليون إلى بيلورينهو ليعثر عليه وهو يلوح بالرسالة في يده فيضيع طريقه بين الأزقة والحواري الملتوية. وراح يسأل في مكان بعد الآخر، وفي كل مكان يمكن أن يحس فيه بوجود الخلاسي، وجود راع طيب وأب حنون، ـ فهو ليس شيطاناً مسكيناً مجنوناً مزوداً بأوهام فلسفية على الإطلاق، فكيف يخطئ؟ وأضيئت مصابيح الشوارع، ولأول مرة منذ سنوات عديدة. يفوته ترام السادسة والربع إلى ضاحية بريس.

وحين اندفع إلى بيت أوسا في المتاهة القذرة التي لم يسبق له أن تجرأ على الدخول إليها من قبل، كان القمر قد ظهر على عشاء سخي من الكارورو المغسول بالكاشاشا والبيرة وخمرة الأرز. تردد دون

ليون عند الباب ورائحة الأكل المطبوخ بزيت النخيل تملأ منخريه. مدّ رأسه إلى الغرفة الفقيرة في أثاثها ورأى زميله بونفانتي وفمه مليء وشاربه أصفر مبلل بزيت دندي. وكان بدرو أرشانجو يجلس بين روزاليا وروزادو أوكسالا وعلى وجهه اللطيف تعبير سلمي، وهو يأكل بأصابعه ـ والحقيقة أنها أفضل طريقة للأكل.

ـ أهلاً دون ليون. تعال اجلس إلى المائدة.

وجلب له أوسا كأس بيرة وجلبت له امرأة سمراء مغرية صحناً مليئاً بالكارورو ودقيق الذرة وكعكة الأرز ومرقة السرطعان.

- 10 -

كان بدرو أرشانجو يرتدي البذلة التي كان قد فصلها لتخرج تادو قبل سنتين وهو ينتظرها منذ عدة دقائق بباب الكنيسة محاولاً السيطرة على انفعالاته: أفكار وذكريات عمر. وأخيراً ظهرت قادمة من براشاداي محاطة بعينيها ودعواتها وهالة من الرغبة. ما يقرب من عشرين عاماً. بل سبعة عشر عاماً بالضبط. حسبها أرشانجو في ذهنه. وكل عام يضيف شيئاً إلى جمال روزا دو أوكسالا، لقد كانت لغزاً مبهماً وإغراءاً معذباً، ودعوة لا تقاوم. الآن هي امرأة لا تستطيع صفة أن تفيها حقها، روزا دو أوكسالا.

لم تكن ترتدي لباس نساء باهيا، التنورة المنشاة والشلحة والقميص التحتاني الأبيض الناصع، اللون المقدس لراهبات أوكسالا، وحين مدت ذراعها لأرشانجو بباب الكاتدرائية لاحظ أنها ترتدي ثوب سيدة مجتمع، ثوباً مفصلاً ومخاطاً عند أفضل مصمم ملابس في باهيا. ومجوهرات نفيسة، ذهب وفضة من زينة العبيد، تلبسها بأناقة أصيلة تتميز بها سيدة ولدت ملكة. لقد زينت نفسها بعناية وكأنها تحتل المكان الذي لها حق فيه قرب والد العروس على يسار الكاهن.

ـ هل جعلتك تنتظرني طويلاً؟ لم تجهز ميمينها نفسها حتى الآن. جئت من بيت عمتها الآن. ستبدأ من هناك. آه يا بدرو. ابنتي جميلة جداً.

عبر العتمة الخفيفة في الكنيسة التي لا يضيئها إلا لهبا شمعتين يرتعشان. وهومت ظلال الغروب في الجو وغرقت على مستوى الأزهار ـ الليلك والدلفنيون والأضاليا والأقحوان التي تملأ صحن الكنيسة من طرفه إلى طرفه. وكانت هناك سجادة حمراء ممتدة من المذبح الرئيسي حتى الباب من أجل العروس الممسكة بذراع أبيها لكي تمشي عليها بثوبها وطرفه المجرجر على الأرض ونقاب العروس والإكليل مع خوفها وفرحتها.

وفيما كان يعبران العتمة الصامتة همست روزا بما يشبه الحزن:

ـ كنت أتمنى لو تزوجا في كنيسة بونفيم، ولكن هذا العرس لم أفتح فمي لأقول شيئاً فيه. كل شيء لمصلحة ابنتي، ولذا لم أقل شيئاً.

وحين ركعت لتردد (أبانا) ذهب بدرو أرشانجو ليبحث عن أنيسيو حافظ مقدسات الكاتدرائية وصديق سنوات طويلة. لم يكن من جلساء الكاشاشا وعزف الغيتار مثل جوناس في كنيسة العبيد. ولكن حين استشاره أرشانجو قبل أسبوع ولم يعترض واكتفى بالإشارة بصوت حزين:

ـ من سمع بشيء كهذا؟ لا أظن أنها ستصمد.

مشى وحافظ المقدسات في المقدمة، وبدرو أرشانجو وروزا انسلا وراء المذبح، وصعدا الدرج ثم

جلسا على مقعد صغير في زاوية مظلمة وراء مكان المرتلين، من هناك يستطيعان رؤية كل ما يجري في الكاتدرائية. وقبل أن يتركهما أنيسيو ليشعل الأضواء. ذلك الخلاسي الرشيق ذو الصوت الأنفي. لم يستطع أن يمنع نفسه من إبداء ملاحظة قاسية:

ـ ما يدهشني كثيراً ليس أن الأم قد وافقت بل أن توافق البنت.

وظهرت ابتسامة ظافرة على شفتي روزا:

ـ هذا ما تخطئ به. احتاج الأمر إلى إقناع طويل لجعلها توافق على عدم أخذي معها. كانت تريدني إلى جانبها بشكل دائم. حتى أنها هددت بإلغاء الزواج.

ـ لماذا لست إذاً..؟

ـ سأقول لك شيئاً واحداً وهذا يكفي. بفضلك أنت أستطيع أن أجلس هنا في جحر الفأرة وأتفرج على ابنتي وهي تتزوج. لكنها ستدخل هذه الكنيسة معتمدة على ذراع والدها. لقد اعترف بأبوته لها بشكل شرعي وتبناها تماماً مثل بناته الشرعيات التي ولدتهن له زوجته. والآن قل لي إن كنت أدفع ثمناً باهظاً لأنني أمها ولا أنكر أنني كذلك.

ـ كل يفهم شؤونه الخاصة بشكل أفضل يا مدام. أرجو أن تعذريني.

ـ لا. أريد أن أشكرك. لقد كان معروفاً منك أن تدعنا نأتي.

تركهما الخازن. وظلت روزا لفترة قصيرة تكبح نشيجها بمنديل مخرم. وظل بدرو أرشانجو، بشفتين مشدودتين يحدق إلى الأمام ويرى الظلال تتشكل بين الصور والمذبح.

ـ «وأنت أيضاً لا تفهم؟» قالت روزا حين صارت قادرة على الكلام. «أنت تعرف أنه كان علي أن أتخذ قراري. ذات يوم قال لي: «ميمينها هي الابنة التي أحبها أكثر من أختيها وأنا أريدها ابنة لي ووريثة مثلهما. لقد قلت ذلك لتوي في البيت. حتى إنني أبلغت ماريا أميليا ـ وهذا اسم زوجته ـ وقد طلبت من الكاتب بالعدل أن يقوم بالترتيبات هناك شرط واحد فقط..» ولم أسأله حتى عن الشرط. كل ما كنت أريد أن أعرف هو ماذا قالت زوجته. وتحدث بذلك بوضوح: «قالت أنها ليس لديها شيء ضد ميمينها. وإن ميمينها بريئة والخطأ ليس خطأها. أنت الوحيدة التي تنقم عليها» وفيما كنت لا أزال أضحك لأن هذه المرأة الحاقدة معتوهة، قال لي ما هو أسوأ من ذلك: «شرطي لجعل ميمينها ابنة شرعية هو أن تربيها عماتها بدل أن تتربى في بيتك»، «ولكن ألن أستطيع رؤية ابنتي الصغيرة أبداً؟» هكذا كان سؤالي فقال: «نعم ـ وكلما أردت. ولكن أخواتي سيربينها وستعيش في بيتهن ولن تأتي إلى هنا إلا مرة بين حين وآخر. فهل توافقين أم انك لا تريدين الخير لابنتك؟»، كان ذلك حين عقدت اتفاقاً معه. لم يكن عقداً مكتوباً. ولكنه التزم بما يترتب عليه من الصفقة، فكيف لا ألتزم بما يترتب علي؟ كوني سوداء لا يعني أنني لا ألتزم بتعهداتي. أترى الآن؟ كان الأمر لصالح ميمينها! أنت لا ترى ذلك. أعرف أنك لا ترى. كنت تريدني أن أقاتل من أجل حقوقي، تظن أنني لا أعرف ذلك؟».

بدأ الخازن يشعل المصابيح تحتهما، فيما كان أول الضيوف يدخلون الكاتدرائية وسط هالة من الزهور والأضواء. ولم يقل بدرو أرشانجو إلا:

ـ كيف تعرفين ما أفكر فيه؟

ـ أعرف عنك كل شيء، يا بدرو، أعرف عنك أكثر مما أعرف عن نفسي. أعرف أفكارك كلها، لأجل من تظن أنني كنت أرقص طوال حياتي؟ هيا. قل. لأجل اثنين فقط: أبي أوكسالا وأنت. وأنت لم تكن تريدني.

ـ وماذا عن والد ميمينها والكومبادر ليديو؟

ـ لماذا تتكلم معي هكذا؟ بماذا أخطأت؟ جيرونيمو انتشلني من حياة مقيتة. حين أخذني معه لم أكن إلا مومساً تنتقل من رجل إلى آخر. ولم تكن باليد حيلة. قدم لي الطعام، والبيت الذي أعيش فيه والملابس الجيدة و حتى الحب. كان طيباً معي يا بدرو. الجميع يخافونه ـ أعني النساء، وحتى زوجته. ولكنه كان يتصرف معي دائماً بشكل صحيح، وعمره لم يرفع يده علي. وقد سجل اسم ميمينها في سجلات الكاتب بالعدل وكأنه يعلن للجميع: إنها ابنتي مثلها مثل أختيها.

ـ «دون أن يكون لها أم». جاء صوت أرشانجو من آخر الظلال المتبقية، فقد غطى بها الأنوار على مرارة الكلمات.

ـ وأية فائدة لها من أمها؟ امرأة من الحضيض اعتادت أن تكون عاهرة، راقصة سامبا سوداء، ترفع ثوبها كلما سمعت الطبول؟ حين أخذ ميمينها قلت: «إنني لن أتخلى عن ملاكي. ولا تعلق علي حين يكون الالتزام بالتعهدات». ألم يكن هذا صحيحاً طوال حياتي؟ قل لي. ألم يكن؟

ـ نعم. كان كذلك. أيام الالتزامات وفي الخيمة مع ليديو.

ـ صحيح. أخذ ابنتي لتعيش مع أختيها الكبيرتين ولم يكن يسمح لي برؤيتها إلا مرة كل أسبوع. كان ذلك لصالح ميمينها فوافقت. ولكن قلبي كان يتحطم فأنا أصلح للمضاجعة في سرير ولا أصلح لتربية ابنتي. حين أخذوا طفلتي كدت أن أجن يا بدرو. عميت عيناي وتاه عقلي. هرعت إلى التيريرو يومها لأتخلص من الثقل وأحاول أن أجد بعض الراحة. فالتقيت بليديو..»

تحول صوتها إلى همهمة مكتومة، فلم يصل إلى صحن الكنيسة بل مات في الزاوية المعتمة وراء الكورس. وكان أرشانجو لا يكاد يسمعها.

ـ « ليديو! إنه أفضل رجل قابلته. بالنسبة له أنت مجرد عبد دون أي اعتبار يا بدرو. ولكن هناك شيء حدث خطأ. بدل الالتقاء بليديو كان يجب أن ألتقي بك أنت. لمن تظن أنني كنت أرقص طوال تلك السنين؟ لأوكسالا ولك فقط يا حبيبي بدرو. أقسم لك. أنت تعرف أن هذا صحيح. وإذا كانت تلك الراقصة لم تصل إلى ما هو أكثر من ذلك فلأنك أنت أردتها أن تبقى كذلك.

ـ لو كان شخصاً آخر غير ليديو.. أنت نفسك قلت السبب.

كان الضيوف قد بدؤوا يملأون الكاتدرائية. النساء الغارقات في الملابس، من أجل هذا العرس الأنيق الذي كان محور معظم الأحاديث في ذلك الفصل، جلس وسط حفيف الضحكات والملابس الواسعة. والرجال تجمعوا في طرف الصحن الكنسي لتبادل الأحاديث. وقلة من الرجال ـ العرابان وأقارب العروسين وكبار شخصيات المدينة والحكومة ـ احتلوا صفي الكراسي قرب المذبح الرئيسي والذي كانت تحفظ عادة لرجال الكهنوت. وبين حين وآخر كانت روزا تتعرف إلى أحدهم وتشير إليه قائلة:

ـ أنظر. والدا ألتاميرو! صارا من أقاربي الآن يا بدرو. صار لي العديد من الأقارب البيض الأثرياء وتضحك. ولكن الضحكة كانت ساخرة.

دخلت أم الولد تتهادى، سيدة قوية ذات وجه لطيف، أما الأب فكان من زعماء الكاكاو، رجلاً نحيلاً أشقر وعصبياً. لم يكن ينقصه إلا السوط والجواد. كان يمشي برأس مرفوع وابتسامة اعتزاز على شفتيه تحت شارب بلون العسل ـ أجنبي.

ـ غرينغو؟ سأل أرشانجو.

ـ لا. ولكن والده كان فرنسياً على ما أظن، كنيته لافين. هذا الرجل طيب يا بدرو، غرينغو مثله وغني على ما هو عليه ـ لقد جاء لرؤيتي وجلب معه زوجته، وقال: «يا دونا روزا. ستكون ابنتك زوجة ابني، كنتي، بيتي وبيتك. منذ الآن نحن أقرباء. ولو كان الأمر بيده لكنت الآن هناك على المذبح، معه ومع الولد».

ـ العريس؟

ـ نعم. ألتاميرو. إنهم أناس طيبون يا بدرو. ولو أنني أصررت على حقوقي لما جاءت عائلة والد ميمينها، ولما جاء العم والعمة اللذان هما بمثابة الأب والأم بالنسبة لها. ألا ترى أنني كنت محقة في ألا أحدث ضجة؟ أستطيع أن أرى من هنا يا بدرو.

ـ وارتفعت همهمة راضية من الكنيسة، بدأت الحفلة تسخن. وتعرّف بدرو أرشانجو على البروفسور أرغولو ومعه دونا أرغوستا تمسك بذراعه. كانت المرة الوحيدة التي يبتسم فيها خلال الاحتفال. وروزا التي بدأ توترها يتزايد راحت تضغط على ذراعه بعصبية.

ـ ها هما العمتان. إنهن يدخلن. هذا يعني أن ميمينها هنا.

عجوزان طويلتان متعجرفتان بشعر رمادي جلستا قرب المذبح. مباشرة أمام والدي العريس، وامتلأ مكان الجوقة (الخورس) وبدأ أحدهم يجرب الأرغن.

ـ ها هو التاميرو مع عرابته، زوجة السناتور.

وأحب بدرو أرشانجو شكل الشاب. شعره الأشقر ولون بشرته شبيهان بأبيه، وعن أمه ورث المسحة الساذجة نسبياً.

جاء مجتمع سلفادور كله وجاء أناس حتى من الهيوس وإيتابونا. كانت عائلة لافين تجني كل عام آلاف البوشلات*(31) من الكاكاو. وكأنما لم تكف هذه الأموال كلها فصار الولد محامياً أيضاً. أما والد العروس فمزارع تبغ ومصدر: وهو سريع الانفعال ونبيل وعنيف وفاسق. لقد كسب ثروات وبددها واستعادها، والأم، كما تهامست النسوة، زنجية مدججة بالذهب والأحجار الكريمة، عشيقته، ساحرة فودو، أبقته تحت رحمة تعويذتها أكثر من عشرين سنة. وماذا يستطيع المرء أن يفعل حين يكون تحت تأثير تعويذة ماكومبا؟ يقال أنه كان أسوأ زير نساء رأته عينك، لكن الوحيدة التي أحبها حباً حقيقياً هي تلك الزنجية، أم الفتاة. الفتاة بديعة فاتنة أجمل ما يمكن أن ترى عيناك.

وتحول ضجيج الأرغن إلى موسيقى، وارتفع الصخب في صحن الكنيسة وبدأ الخورس ترنيمة مارش الزفاف. وضغطت روزا دو أوكسالا على ذراع أرشانجو. وكان صدرها يعلو وينزل وعيناها مبللتان.

ميمينها، بثوبها الأبيض المخرم، ابنة أجمل زنجية في باهيا وآخر لوردات ريكا نكافو المتهورين. كانت تمشي على السجادة الحمراء ممسكة بذراع أبيها وحين أخذ ابنتيه الأخريين إلى المذبح مشى الأب مرتين بالطريقة ذاتها على السجادة ذاتها. مع الأضواء والورود ذاتها وعلى إيقاع الموسيقى ذاتها. لكنه لم يسبق له أن عبر صحن الكنيسة بهذا الفخار. كانت البنتان الأوليان عزيزتين على قلبه لأنهما من لحمه ودمه ولكن هذه المحبوبة العزيزة، قد ولدت من لحمه ودمه وحبه.

كان لدى جيرونيمو دو ألكانتارا باشيكو العديد من النساء، ولديه ما لا يحصى من العلاقات الغرامية مع مومسات ونساء متزوجات وعذراوات يخطفن وتفض بكارتهن! ولديه زوجة من سلالة نبيلة. لكن الحب الحقيقي لمس قلبه مرة واحدة فقط. وكان لروزا السوداء. وحتى حين كانت ابنتهما هي الرابطة الوحيدة المتبقية بينهما وكانت روزا مطعونة في كبريائها وقد طالبت بحريتها، كان أحياناً يأتي إليها ليلاً. مثل رجل ممسوس، طلباً لجسدها الذي لا ينسى ولديه الاستعداد لأن يقتل من أجل أن يناله. ولم تكن روزا تطرده، وطوال حياته ظلت تعتبره مالكاً لجزء من كيانها.

عضت المنديل المخرم ومزقته بأسنانها وكبحت شهقاتها وأخيراً أراحت رأسها على صدر أرشانجو. آه يا ابنتي! وراح الكاهن يصلي ثم رفع صوته في موعظة فتحدث عن مواهب العريس ولطف العروس ونبل العائلتين المتوحدتين في هذه اللحظة بفعل الروابط التي لا تحل للزواج المقدس. وبالنسبة لروزا دو أوكسالا حلت اللحظة التي تقبل فيها التزاماً جديداً.

وراحت الكاتدرائية تخلو من الناس شيئاً فشيئاً. وغادرت ميمينها ممسكة بذراع زوجها، ووراءها عمتاها ووالدا العريس والعرابان والضيوف والكانتارا المتغطرس، توقفت الموسيقى وعاد الهدوء. قام الخازن بإطفاء الأضواء، أولاً الشموع ثم المصابيح، وتكاثفت الظلال، بقيت شمعتان فقط تضيئان هذه الظلمة وعزلة القديسين.

ـ هل قال لك ليديو؟

ـ ماذا؟

ـ لن أرجع إلى الخيمة لا للنوم ولا حتى للزيارة. لن أرجع أبداً يا بدرو. انتهى الأمر.

وسألها لماذا على الرغم من أنه كان يخمن السبب:

يا بدرو أنا الآن أم امرأة متزوجة، زوجة الدكتور ألتاميرو، ومن أقرباء عائلة لافين، أريد حقي في رؤية ابنتي يا بدرو، أن أذهب إلى بيتها وأن يقبلني الناس الذين هم حولها. أريد أن أتمكن من تربية أحفادي يا بدرو.

وتردد صدى صوتها. صوتها المصمم، وسط السكون.

ـ «ذات يوم حين كانت ميمينها طفلة سمحت لهم أن يأخذوها مني. وبقيت في هذه الدنيا وحيدة وحرة في أن أفعل ما أشاء. لكن هذا انتهى، الآن انتهت روزا دو أوكسالا» وأخذت يد بدرو أرشانجو

بين يديها.

ـ وماذا عن ملاكك؟

ـ «سويت الأمر، الأم ماجي ساعدتني، نهضت من سريرها لتفعل ما يجب». وتطلعت إلى الرجل الواقف برأس منحني ونظرته تائهة في العتمة «لم تقبل أن تأخذني على الرغم من كثرة المرات التي قدمت فيها نفسي والآن فات الأوان».

وسمعا خطوات الخازن على السلم، حان وقت الذهاب، وتعانقا في قبلة طويلة، القبلة الأولى والأخيرة. فات الآوان يا معلّم بدرو، فات الآوان الآن. لا جدوى. واختفت روزا دو أوكسالا بين ظلال الكنيسة. غادرت مثلما جاءت. عمر، ثانية.

---

*(31) ـ البوشل: مكيال للحبوب يعادل 8 غالونات أو 32.5ل.

- 11 -

حين وصل بدرو أرشانجو هرع الأوغانات والإياوات لملاقاته بالدموع والندب.

ـ عجل، عجل، إنها تظل تناديك. كل ما تقوله هو: أوجوبا. أين أوجوبا؟ وفتحت عينا ماجي باسان حين سمعت وقع خطواته: أهو أنت يا بني؟

وأشارت يدها، مثل ورقة جافة هشة، إلى كرسي. جلس أرشانجو وأمسك بيدها وقبلها. وركزت العجوز كل ذرة مما تبقى من قوى جسدها المحتضر ثم بدأت قصتها بصوت اقرب إلى الهمس، وبمزيج من البرتغالية واليوروبية درّست درسها الأخير:

ـ أومبي أوكسيري فون إيباكو تو إيجينان، كان هناك احتفال في تيريرو إيجينان، كان احتفالاً كبيراً لأوغون، وجاء كثيرون لرؤية رقصة أوغون. ورقص أوغون إياكا رقصة جميلة لإبهاج الحاضرين المرهقين من طول المعاناة. وحين وصل إلى أفضل مراحل الرقصة جاء سارابيسي، الرسول، وقال إن الجنود قادمون ببنادق محشوة لإيقاف عيد أوغون وتدمير تيريرو إيجينان. جاؤوا مندفعين على ظهور الجياد ولم يستطيعوا الانتظار حتى يصلوا فبدؤوا بضرب الناس. سمع أوغون ما قاله الرسول، الإنذار الذي أرسله أوكوسي، فذهب إلى الغابة وصفر مستدعياً حيتي كوبرا، وكل منهما أكبر من الأخرى وأكثر امتلاء بالسم. وضعهما وسط أرض الغرفة. كُبّتان من السم ملفوفتان ورأساهما مرفوعتان ولساناهما الساممان مندفعان إلى الأمام وعيونهما على الباب، ولم يلتفت أوغون قيد شعرة. راح يرقص أمام الباب مباشرة منتظراً الجنود. ولم يطل بهم الأمر حتى وصلوا، قفزوا عن جيادهم، ودون استئذان سحبوا بنادقهم ليضربوا الناس بها. وقال أوغون للجنود: كل من يأتي بسلام يستطيع أن يدخل التيريرو ويرقص في عيدي. قلبي عسل وورد لأصدقائي لكنه سم وموت لأعدائي. قلبي لأعدائي بئر مليئة بالسم. وأشار إلى حيتي الكوبرا الكامنتين في سمهما فخاف الجنود، ولكن الأوامر هي الأوامر، والأوامر من الثكنات، ولا متسع لدى الشرطة للرحمة ولا للرجاء ولا للمراجعة. وهكذا اندفع الجنود نحو أوغون وأسلحتهم مشرعة. أوغون كابي دان ميجي، دانس بيلو أونيبان. أوغون نادى الحيتين فبرزتا أمام الجنود، وحذرهم أوغون مرة أخرى: إن كنتم تريدون القتال فسيكون لكم ذلك، إن شئتم الحرب فستكون الحرب. ستعضكم حيتا الكوبرا وستقتلانكم ولن يتبقى جندي واحد. ومدت حيتا الكوبرا لسانيهما السامين فصرخ الجنود طالبين النجدة وقفزوا على خيولهم وفروا هاربين. فروا بأسرع ما يستطيعون، لأن أوغون الذي لم يتوقف عن الرقص كان قد نادى الحيتين: أوغون كابي دان ميجي، دان بيلو أونيبان.

وردد بدرو أرشانجو معها: أوغون كابي دان ميجي، دان بيلو أونيبان، اللعنة الأبدية، التهديد الرهيب بكل شرور الدنيا، بالتعاسة الأبدية، التعويذة واللعنة. هبة! يا للمفارقة. بدريتو غوردو قد أطلق قطيع ذئابه الرهيبة على باهيا، أطلق أيدي أتباعه في غزو التيريروات، وتدمير المعابد وضرب

البابالاوات والقديسين واعتقال الخبراء والأياوات والإكيكيريات والأيالوريكسات. سأتخلص من هذه القذارة كلها. وأعطى للشرطة أوامر صارمة، ونظم قتلته السفاحين ثم شن حربه المقدسة.

ماجي باسان، الحلوة والرهيبة، الحكيمة والحذرة، أغمضت عينيها، وسمعت صرخة يانسان من بعيد على رأس الإيغون (أرواح الموتى). ورقص كسانغو على التيريرو، وأغلق بدرو أرشانجو صدره على الألم: «أمنا ماتت».

- 12 -

كان بدريتو يستطيع أن يرى من خلال الباب الخوف على وجوه شرطته السرية، العناصر الأربعة من «حرسه الأشقياء» كما وصفتهم إحدى صحف المعارضة «عصابة من السفاحين تحولوا إلى عملاء للشرطة ضمن محاولات الحكومة لتدمير تجمعاتنا».

ببذلته من الجوخ الإنكليزي وقبعته البانامية وأظافره المطلية بالمانيكير، ولحيته الحليقة والجوهرة المشكوكة بربطة عنقه وحامل سيجارته الطويل، كان بدريتو غوردو خريج كلية الحقوق المعاون المرهوب والمكروه لقائد الشرطة، لم يكن يبدو أكثر من دلوع ـ بدين، متوسط العمر رجل ذو سطوة، مشغول بالتوافه والثانويات. رمى بعقب لفافته ونظف المشرب: فكلابه الخسيسة مذعورة.

إنياس بومبو، الملك السابق للعبة الحيوانات وسيد المدينة، مخزي الآن وقد صار في الطرف المهزوم، راح يكرر القول والمسدس ثابت في يده:

ـ من يقترب خطوة أخرى فليعتبر نفسه ميتاً.

وتطلع الشرطة السريون كل منهم إلى الآخر: كاندينهو المتباهي، وصمويل كورالسنيك، وزكريا داغوميا وميراندولينو، وحش لنشو الضاري. سجل دموي طويل، جزء منه حقيقي وجزء خيالي ولكنها كلها تؤكد المآثر الشجاعة لإينياس بومبو، مالئ مقابر بأكملها الذي لا يخطئ رجله، أوقفهم، وقال بدريتو:

«أنتم مجموعة من الجبناء ذوي القلوب الخوارة».

قال ذلك ودفعهم جانباً. وما كان في يده إلا الخيزرانة الطرية النحيلة. ورفع بومبو بندقيته وهو يزن ضابط الشرطة بعينه:

لا تقترب أكثر من ذلك يا دكتور بدريتو وإلا قتلتك.

وصفرت الخيزرانة في الهواء مثل سوط أو شفرة حلاقة ولسعت وجه المقامر. ضربة. وضربة أخرى من الخيزرانة وظهرت علامتان داميتان. وبيأس أطلق بومبو الذي أعماه الألم دون أن يصوب. ولكن ضابط الشرطة كان أسرع منه. فيما أنه كان قصيراً وبديناً لم يكن أحد يتصور أنه يستطيع أن يتحرك بهذه الخفة. وانتعش العملاء السريون لمنظر الدم، فاندفعوا إلى بومبو وعادوا من جديد أبطالاً بواسل وأمرهم بدريتو: «أبعدوه».

وتقدم سام كورالسنيل من الدرج الذي فيه الورق والمال، بينما دفع الآخرون بالمقامر نحو الباب.. وأبلغهم ضابط الشرطة، وفي صوته احتقار طفيف، رأيه الحقيقي فيهم:

ـ جبناء. منحرفون. خروات.

وحين خطا خارجاً أفسح له الجمع المستغرب. ومع غمزة للفتاة في المقهى المواجه ركب بدريتو غوردو سيارته وانطلق كالقذيفة ـ يقال أنه أفضل سائق في باهيا.

ودخل الأبطال الأربعة لغارة المساء متبخترين إلى غرفة الانتظار في مقر قيادة الشرطة حيث وجدوا عدة زملاء مسلمين ومن السلالة النبيلة ذاتها: غودي فيريرا، حليب الأم، إينوشنشو، الميتات السبع، ريكاردو كتلاس وزي (القلب الكبير). أبلغوهم باعتقال بومبو وبسقوط ملك. وفتح المزاد على العرش الخالي، من سيقدم للعرض الأفضل؟

وظل الزعران الأربعة قلقين: كان بدريتو واضحاً تماماً. لقد نال من إينياس بومبو الجامح وليس معه إلا خيزرانة، قضى على سمعة القاتل السيئة وتجاهل مسدسه وتسديده الذي لا يخيب بينما هم ـ الجبناء الخروات ـ واقفون يرقبون.

«جبناء!» بصق زي (القلب الكبير) الشتيمة قبل أن يخرج إلى مهمة، أبلغه أحد الحراس أن عليه أن يذهب الآن إلى القصر لمرافقة الدكتور بدريتو والمحافظ ـ «خروات».

أطرقت الرؤوس، سمعوه بصمت، فقد كانت مواجهة إيناس بومبو مع بندقيته أفضل من مواجهة زي دون بندقية. فزي لم يسبق له أن ناقش أوامر الرئيس، وتردد في تنفيذها. وما من كابو كلو يلوح ببندقيته في الجو يمكنه منع زي من تنفيذ ما يطلبه بدريتو. إطلاق نار والقتل أمران طبيعيان، ومن الأعمال اليومية الروتينية بالنسبة له. أما الموت فسيموت حين يحل أجله. زي (القلب الكبير) الأسود بحجم بيت من طابقين هو اليد اليمنى لبدريتو وهو الذي لا يعرف معنى الخوف.

ولأن الرجال الأربعة كانوا مخزيين من أوصاف رئيسهم لهم وسخرية زميلهم منهم فقد راحوا يتساءلون عما يمكنهم أن يفعلوه لاستعادة حظوتهم لدى رئيسهم. فبدريتو غوردو لا يمزح. حين يفقد ثقته في واحد من أتباعه يبعده فوراً ونهائياً. يرسل به إلى قبر ظريف سطحي. والزعران لا يستحقون قبوراً أفضل. كم من الرجال أرسلهم إلى العالم الآخر حتى الآن؟ إيزالتينو، وجوستو دوسيبرا، وكريسبيم دابويا، وفولجنسيو رامي السكاكين، هذا إذا لم نذكر إلا الأكثر شراسة. في اليوم الأول كانوا يصدرون الأوامر والأوامر المعاكسة، ويعبثون في المدينة، ويسكرون حتى الثمالة مجاناً، ويسلبون المال من الإسبان، ويمعنون في الضرب والاعتقالات لي سبب ودونما سبب، وفي اليوم الثاني يكونون في معرض الجثث «مقتولين وهم يؤدون واجبهم» حسب النشرة الرسمية للشرطة والصحيفة الرسمية. لسبب أو لآخر تخلوا عن وقفتهم إلى جانب معاون قائد الشرطة القوي. وكان ما كان.

يجب أن يجدوا عملاً ما يحسّن موقفهم، أي شيء يستعيدون به الامتياز الذي حقره إنياس بومبو ومسدسه، يفضل أن يكون عملاً مثيراً ومشهوداً. ولكن أي عمل؟

ـ ماذا لو خرجنا وخربنا إحدى حفلات الكاندومبلي؟ اقترح كاندينهو فاروليرو.

ـ عين الصواب. الدكتور بدريتو سيحب ذلك. ثني عليه ميراندولينو.

ـ اليوم عيد كسانغو وستكون معابد كثيرة محتشدة اليوم « يمكن الثقة بالقمامة. لقد جاء هذا من زكريا داغوميا حسن الاطلاع. كان واثقاً من أن تعويذة ماكومبا هي التي أصابته بالجدري وشوهت

وجهه. تعويذة غودو سوداء طلبت مباشرة من إكسو وجلبها قارب صيد إلى المنطقة. وإضافة للأسباب الأيديولوجية المعرفية لدى معاون قائد الشرطة فإن لدى زكريا داغوميا أسبابه الخاصة لزج نفسه في حرب لا هوادة فيها ضد الكاندومبلي.

على رف صغير في مكتب بدريتو غوردو كومة من الكتب والنشرات احتفظ ببعضها منذ أيام الدراسة. بعضها قرأه فيما بعد وأشار عليها بقلم الرصاص بينما بعضها الآخر حديث النشر. «المدارس الثلاث لعلم الجريمة: الكلاسيكية والأنتروبولوجية والنقدية» لأنطونيو مونيز سودري دو أراغاو، الخبير في المدرسة الإيطالية، «المنحرفون والمجرمون» لمانويل برناردو كالمون دوبين إي ألميدا. «العلم المقارن لقياس جماجم الأجناس في باهيا من وجهة النظر التطورية والطبية الشرعية» لجوان باتيستا دوسا أوليفيرا. «بذور الجريمة» لأوريلينو ليل. لقد تعلم بدريتو غوردو من هذه الكتب. وهو طالب. ومن كتابات نينا رودريغز وأوسكار فرير في الوقت القليل المتبقي من بيوت الدعارة أن الزنوج والخلاسيين لديهم ميل غريزي للجريمة تغذيه الممارسات الهمجية في الكاندومبلي وحلقات السامبا والكابويرا، التي هي عبارة عن مدارس للمجرمين تضع اللمسات النهائية لمن ولدوا قتلة ولصوصاً وأوغاداً. الزعيم بدريتو، الأبيض من باهيا، نصف الأشقر ونصف المنمش، السارارا ذو الرأس الأحمر، كان يرى في إبراز تلك العادات تهديداً لكل العائلات المحترمة واستهزاء بالثقافة والتوجه اللاتيني الذي فخر به كثيراً المثقفون والسياسيون والتجار والملاكون ونخبة المجتمع.

الكتب الجديدة التي أضيفت بعد أيام المدرسة هي بشكل أساسي كتب للأساتذة نيلو أرغولو وأوزوالد فونتيس: الجريمة بين السود، التزاوج والشذوذ والجريمة، الشذوذ النفسي والعقلي بين المنهجين في البلدان الاستوائية، الأجناس والمسؤولية الجزائية في البرازيل، علم الأحياء المرضي، المهجنون. وحين يبحث بعض مثيري الشغب عن التأييد بين الرعاع والغوغاء والدهماء بالتحدث عن قمع العادات الشعبية والأساليب القاسية التي تلجأ إليها الشرطة لإسكات الطبول والأجراس والخشخشات والبيريمبو والقرع ولإيقاف رقصات المهووسين ومصارعات الكاوبويرا فإن معاون قائد الشرطة بدريتو غوردو سيستعرض الثقافة الإحيائية والقضائية التي يحتوي عليها رفه: «هذه هي المصادر الموثوقة التي تؤكد بأنه لا يمكن الوثوق بأسود. العلم هو الذي أعلن الحرب على ممارساتهم اللااجتماعية. العلم وليس أنا». وبومضة تواضع يضيف: «كل ما أحاول أن أفعله هو اقتلاع الشر من جذوره لمنعه من الاستشراء. وحين يجيء اليوم الذي نكون قد وضعنا فيه حداً لهذه الأعمال القذرة كلها فإن معدل الجريمة في سلفادور سينخفض كثيراً، وعلى المدى البعيد سيكون في وسعنا القول إننا نعيش في بلد متحضر».

وإذا كانت صحف المعارضة متهمة بالتحامل العرقي وبإثارة الأحقاد العرقية فإن بدريتو يشير إلى مقالات طالبت فيها هذه الصحف الصغيرة ذاتها، في مناسبات أخرى، بإجراءات صارمة من قبل الشرطة ضد الكاندومبلي والأفوكسي والكابويرا والمهرجانات على شرف بيمانجا. أما وهي الآن في المعارضة فإنها تهاجم الحكومة والشرطة: «هؤلاء الهجاؤون ذوو الذاكرة الضعيفة يتعاونون مع حفنة من المجرمين الفعليين أو المحتملين».

وفي مقابلة في الصحيفة الحكومية (آبروبوس) حول الحملة الأمنية وصفها البروفسور نيلو أرغولو بأنها حملة فاضلة ومشكورة: «حرب مقدسة، حملة صليبية مقدسة لاسترداد قلاع الحضارة في مدينتنا الملوثة». وبحماس قارن بدريتو غوردو بريتشارد قلب الأسد.

حرب مقدسة! وانطلق الصليبيون في ليلة كسانغو، تلك لضرب الكفرة وإضافة إلى إغارة محاربي الشرطة الميامين على معقل المقامر، كان هناك فارسان نبيلان آخران في المضافة اللاتينية للحضارة (حليب الأم) وقد لقب بذلك لأنه اعتاد أن يضرب أمه - وفيريرا الضخم المتخصص في ضرب المساجين بسطح سيفه. وكلاهما ممثلان أصيلان للحضارة التي يدافع عنها معاون قائد الشرطة بالحديد والنار.

انطلقوا في الصباح الباكر، وكل منهم مسلح بهراوته، وهي نبوت مناسب لإظهار الكدمات في أقسى الجلود، الهراوة التي هي رمح الصليبيين في آخر هذا الزمان. وقد استخدموها بشكل جيد، كانت البيوت الثلاثة الأولى التي غزوها هينة: أكسيات صغيرة، وتيروروات متواضعة، واحتفالات في بدايتها. ضربوا عشوائياً بالهراوات: الخطوط الناعمة من الموسيقى والصراخ التي أطلقها رجال ونساء عجائز لم تؤد إلا إلى تحفيز المحاربين على إتمام مهمتهم الحضارية. وحين لم يتبق من يضربونه راحوا يتسلون بتحطيم الطبول والمعابد وغرف الملابس.

وبدأت أنباء مهمتهم تسبقهم، فتسكت مجموعات العازفين، وتؤدي بحلقات الخبراء والإياوات إلى الاختفاء، وتطفئ الأضواء وتنهي الحفلات والمراسم. برؤوس محنية انسحب الرجال والنساء إلى بيوتهم بينما عادت الأوريكسات إلى الجبال والغابات والبحار التي جاءت منها لترقص وتغني في التيروروات.

ووجد الصليبيون أنفسهم، بغتة، دونما أحد ليضربوه وصاروا مضطرين لقطع عمليتهم المسلية. ولأنهم كانوا مسرورين بالانتصارات التي حققوها وواثقين من استعادة إعجاب رئيسهم الرهيب، فقد راحوا ينتقلون من بار إلى بار، ولا يطلبون المشروبات المجانية فقط، بل والمعلومات الموثوقة. أين يقيمون الكاندومبلي؟ هيا. أسرع، أعطنا الأسماء والعناوين! إذا أبقيت حنكك مغلقاً ستتلقى ضربة على رأسك، غرّد وسيكون في وسعك الاعتماد علينا عند الحاجة. وهكذا عرفوا بالاحتفال الخاص في تيريرو ساباجي خارج المدينة.

في الخيمة كان ما يزيد على عشرة من المؤمنين في أبهى ملابسهم يشاركون في الرقص. وفي الوسط كان كسانغو يمتطي جواداً جموحاً هو الخلاسي فيليب مولكسي. وكان من المبهج التفرج على هذا الرقص، فشهرة كسانغو فيليب غطت الآفاق.

وكان مانويل دوبراكسيدس، حامي القاعة والمسؤول عن نظام الاحتفال وراحة الضيوف، منتبهاً إلى كل تفصيل. وحين رآهم قادمين وهم يشتمون ويضحكون عرف زمرة المجرمين على الفور. الوجه المنحوس لزكريا داغوميا الذي أكلته الجدري - دون حاجبين ودون أنف - أطلق صرخته عند العتبة.

- الآن دور زكريا داغوميا ليرقص رقصة الهراوة المغنية!

وحاول سام كورالسنيك، الذي يتأرجح قليلاً بفعل الروم الذي شربه، أن يدخل الخيمة، ولكن مانويل دوبراكسيدس الحريص على أداء واجبه طالبه باحترام القديسين، وزفر كورالسنيك «رح وانكح نفسك» وحاول أن يقتحم، وبضربة واحدة رده مانويل دوبراكسيدس ليسقط على زميله المجدور وانتقلت الهراوة من يد صاحبها. وحين صارت في يد حمال السفن تحولت إلى سلاح رهيب، سيف ماض. وانفتحت أبواب الجحيم.

محبو السلام والأوريكسات السعداء الذين اجتمعوا للاحتفال في التيريرو وجدوا أنفسهم وقد قوطعوا

وصاروا عرضة للتهديد. وبعض الشجعان ساندوا مانويل دوبراكسيدس في المقاومة. ولا تزال حتى اليوم تروى الحكايات عن تلك المعركة: كيف أعطى الكسانغو للشرطة السرية لسعات غير مرئية من سوطه وازداد طول براكسيدس العملاق حتى صار مثل أوكسوسي، رب الغابة! وكيف تحولت الهراوة إلى رمح القديس جورج الذي يقتل التنانين.

وعلى الرغم من أن جواد كسانغو، فيليب مولكسي، قد جرح في كتفه وصار ينزف بغزارة فإنه استمر في الرقص دون خوف أو مهانة. وحذا الصليبيون الآخرون حذو زكريا فسحبوا مسدساتهم. وصار عليهم أن يقتحموا المكان بإطلاق النار.

خلت القاعة من الجميع باستثناء كسانغو النازف وهو يرقص ومانويل دوبراكسيدس الذي يلوح بهراوته وسط القاعة الخالية. واندفع الشرطة إليه مجتمعين، هيا نأخذ ابن القحبة هذا إلى مخفر الشرطة لنعلمه الصالح من الطالح. في مقدمة الأبطال الستة كان سام كورالسنيك المتعطش للانتقام. حين نأخذه إلى المخفر سأسلخه حياً. جسور! تحب أن تقاتل وتلعب الفودو. أليس كذلك؟ سأوسعك ضرباً مبرحاً يا ابن القحبة، ولن يتبقى من عملقتك ما يكفي لجسم قزم.

وبقفزة جبارة واحدة ـ يقول الناس إنها معجزة من كسانغو ـ خرج مانويل دو براكسيدس من النافذة ولكن ليس قبل توجيه ضربة عنيفة إلى فم سام كورالسنيك، خلصته من ثلاث أسنان أمامية، إحداها ذهبية كانت مثار فخر العميل واعتزازه.

اختفى كسانغو في الغابة وكتفه تنزف من رقصة السياط، وانطلق الزعران للبحث عن الفارين. آه لو أنهم فقط، يمسكون فيليب مولكسي والكسانغو اللعين! لو أن مانويل دوبراكسيدس يقع بين أيديهم. ولكن لم يكن لأي منهم أثر في الغابة المعتمة. ليس هناك إلا نعيب البوم.

ولم يكن تحطيم مستلزمات الطقوس كافياً لتهدئة حقدهم وغضبهم. فأضرموا النار في الخيمة. والتهمت النيران تيريرو ساباجي ـ أمثولة!

واستمرت الحرب المقدسة، الحرب التمدينية، سنوات. طوال فترة حكم بدريتو غوردو، هذا الدلوع ورئيس الشرطة، خريج القانون الذي قرأ كتباً وتعلم نظريات، كانت هناك حوادث عنف يومية دون هوادة أو رحمة. لقد وعد الدكتور بدريتو بالقضاء على السحر والسامبا وكل ممارسات العبيد: «سأنظف مدينة باهيا».

- 13 -

حين غادر مانويل دوبراكسيدس بيته في حي البارونات بعد الغداء، بعد عدة أيام، تلقى مخزناً كاملاً من مسدس سام كورالسنيك في ظهره. طلقة بعد أخرى. ست طلقات. فسقط على وجهه دون أن يتأوه.

وجاء الناس يركضون في كل اتجاه، وقال لهم القاتل: «هذا سيعلّمه. افسحوا لي».

ولم يفسح الجميع له. أحاطوا بالقاتل وهم يصرخون طلباً للثأر. وكان غضبهم كبيراً إلى درجة أن عنجهية القاتل تحولت إلى بول. خاف أن يتم إعدامه عشوائياً وسط الشارع ألقى بمسدسه وركع على ركبتيه طالباً الرحمة. ووصلت الشرطة فشقت الحشد وأخذت السجين. ولحق البعض بالدورية إلى المخفر.

وحيث تم تسليم المجرم وسلاحه إلى السلطات المختصة تم إبعاد الناس. وقال مدير صالة سينما في حي الحذائين مؤكداً لمعاون قائد الشرطة: «قبض عليه بالجرم المشهود».

ـ لا تهتم. اتركه لنا.

بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، وقبيل الساعة السادسة شوهد سام كورالسنيك العميل السري لمعاون قائد الشرطة، والقاتل المقبوض عليه بالجرم المشهود والمسلّم إلى الشرطة لكي تأخذ العدالة مجراها، برفقة زي (القلب الكبير) وإينوشينسيو (الميتات السبع) وميراندولينو وزكريا داغوميا وريكاردو كتلاس في حي البارونات يسخرون من الجيران والأصدقاء ويهددونهم لأنهم يسهرون على جثمان مانويل دوبراكسيدس.

وكان بدريتو غوردو معاون قائد الشرطة يريد أن يعرف ما حدث بالضبط.

ـ هاجمني أحد عناصر الغودو في وسط الشارع. شتم أمك بكلمات مقذعة يا سيدي، وأراد أن يضربني فأطلقت عليه النار. ما كنت لأسمح بتلقي شتيمة من طبيب ساحر.

كل شيء مسموح به في الحرب، قال معاون القائد. وانتشرت عصابة العملاء تجوب الشارع جيئة وذهاباً. ثم ذهبوا ليرتاحوا في بار قريب حيث شربوا ولم يدفعوا. كل شيء مباح في الحرب. وللجنود في حرب مقدسة امتيازاتهم.

- 14 -

صرخت زابيلا، التي تعرج من الروماتيزم منفجرة ألماً ونقمة:

«تادو متحضر وهؤلاء الغوميز حفنة من أجلاف الغابات قادمون من سرتان. لماذا لم يحاكموه؟ لأنهم أغنياء؟

ـ بل لأنهم بيض.

بيض؟ لا تحدثني عن البياض في باهيا يا معلم بدرو. لا تجعلني أضحك فالضحك يؤلمني. كم مرة يجب أن أقول لك إنك حين تتحدث عن الدم الأبيض في باهيا فكأنك تتحدث عن السكر الأبيض في مطاحننا: سكرنا كله أسمر، فإن كان هذا صحيحاً في ريكونكافو فكيف سيكون الأمر في سرتان. هؤلاء الغوميز لا يستحقون واحداً مثل تادو. ولولا (لو) العزيزة التي تجيئني وتحدثني لساعات.. لولاها لنصحت تادو بالبحث عن عائلة أفضل.

أنا أعرف هؤلاء الغوميز وخاصة الجدة، مون شير، يوفراشيا العجوز، إنها تتردد على الكنيسة هذه الأيام، ولكن صدقني إنها في الماضي كانت تستمتع بوقتها على راحتها.

ولم يخف بدرو أرشانجو قرفه:

ـ هؤلاء الناس كلهم متشابهون، بعضهم يعلن عن نفسه ويقول ما يفكر فيه: المكان الملائم للزنوج والخلاسيين هو مستودعات العبيد في السفن. الآخرون يعتبرون أنفسهم ليبراليين ودعاة مساواة، ولا تعرفين أحقادهم حتى يتحدث أمامهم شخص ما عن الزواج. لم يكن من الممكن تصور من هو أكثر وداً وصراحة وانفتاحاً مما كانت عليه هذه العائلة مع تادو، حين كان طالباً لم يكن يبرح بيتهم، كان يتعشى ويتغدى هناك، وكثيراً ما كان ينام في غرفة استيريو. كانوا يعاملونه تماماً كما لو أنه ابنهم. ولكن ما أن ذكر الزواج حتى تغيرت الأمور فوراً. أصدقيني القول يا زابيلا وقولي لي: لو كانت عندك ابنة هل كنت ستسمحين لها بالزواج من زنجي أو خلاسي؟ قولي لي الحقيقة الآن.

كابرت على آلامها «مجموعة من الكلاب تأكلني وأنا حية، إنها تنهش جسمي كله»، وعدلت جلستها على كرسيها.

«لن أقبل هذا يا بدرو أرشانجو. لو أنني عشت حياتي كلها في سانتو آمور أو في كاشويرا أو هنا مع بيت أرغولو أو أفيلا أوكونشالفيس ربما حق لك أن تسألني هذا السؤال. ولكن هي نسيت أنني قضيت معظم حياتي في باريس؟ لو كان عندي ابنة يا معلم بدرو سأتركها تتزوج أي شخص تريده ـ أبيض أسود أو صينياً أو بائعاً سورياً متجولاً أو يهودياً في كنيس، أي شخص تريده لا على التعيين. ولو شاءت ألاّ تتزوج أبداً فلن تكون مضطرة». وزفرت متألمة، فاسترخت على كرسيها. « أبوح لك

بسر يا معلم بدرو؟ لا مثيل للأسود في السرير. هذا ما اعتادت جدتي فيرجينيا أن تقول». وغمزت بعين حاقدة « جدتي فيرجينيا أرغولو التي تزوجت الكولونيل فورتوناتو أراوجو، أراوجو الأسود. كانت تقول ما في ذهنها دائماً وقد اعتادت أن تباهي بفورتوناتو أمام أنوف بارونات السكر الأسمر: (لن أبدل خصية زوجي الأسود بدزينتين من خصاكم البيضاء) » وثارت العجوز مرة أخرى فعادت إلى الموضوع الأصلي. «يرفضون تادو، الإنسان المتحضر! يا للسخف!».

ـ لم أرفض تادو. سأتزوجه بإذن الله. ردت لو من البهو.

وهتفت زابيلا بحنان: « ماشيري! مابوفرفي! مابوتي*[32]»! وأضاءت ابتسامةٌ وجه أرشانجو الغائم.

ـ أهذه أنت يا لو؟

ـ صباح الخير يا زابيلا. امنحني بركتك من فضلك يا أبتي!

أبتي: منذ فترة ولو تسميه هكذا. تحت حماية أرشانجو وليديو دفري تيموتيو ذهبت تتسلى في الكاندومبلي مع بعض صديقاتها. وهناك رأت الخبراء والإياو الفتيان وحتى الرجال, وبعضهم أبيض الشعر، يقبلون يد أرشانجو ويقولون: امنحنا بركتك يا أبانا. وقد سألت ليديوكورو «لم يدعونه أبانا؟» ـ «بسبب الاحترام الذي يكنونه لأوجوبا. هؤلاء كلهم وكثيرون غيرهم أبناء بدرو أرشانجو» ومنذ ذلك الحين صارت تناديه «أبتي» وتطلب بركته دائماً نصف ممازحة ونصف جادة.

وحين ودعت تادو على رصيف الميناء قارنت لو بين الوجهين، وجه حبيبها ووجه أرشانجو. أي تشابه مذهل! إنهما ليسا إلا أباً وابناً بالمعمودية لكنهما يبدوان أباً وابناً حقيقيين والله شهيد على كلامي.

تادو صموت دائماً في ما يتعلق بعائلته. عمره لم يلمح إلى أبيه. وهو لم يعرف أبداً كانهوتو الذي جاء من صلبه. أما أمه فلا يتذكر منها إلا جمالها. «مات والدي وأنا ولد صغير ولا أتذكره. أمي كانت جميلة. وحين أدركت أنني أريد أن أدرس سلمتني إلى العراب أرشانجو. وماتت بعد ذلك بوقت ليس بعيداً، حينما كنت لا أزال أدرس من أجل امتحانات القبول في الكلية».

وكانت لو فضولية، وقد حاولت أن تتوغل أكثر في لغز كانهوتو، لكنها لم تصر كثيراً، إذ سرعان ما أدركت كم الموضوع حساس بالنسبة لتادو.

ـ يا حبيبتي هل ستتزوجينني أنا؟ أم والديّ؟

ولم تعد لو لذكر الموضوع. ولكن ربما في البداية كان لدى «أبيها» شيء من السخرية والتعريض، وتظاهر أرشانجو بأنه لم ينتبه لشيء وقبل باسماً أن تناديه هكذا. سيمنحها بركته، ويرد بشيء من المزاح المشوب بالحب والاحترام تماماً مثل حديثها، فيقول لها: «يا ابنتي الصغيرة آكسي» وكأنما هي إياو في التيريرو.

وأوضحت لو وهي تركع عند قدمي زابيلا:

ـ لا يزال الجو غير مريح في المنزل. انتظرت حتى خرج والدي ثم جئت أركض إلى هنا لاستنشاق

بعض الهواء النقي. الآن وقد عاد تادو إلى ريو ولم تعد أمي خائفة سأهرب وأتزوجه إنها تخفف القيد عني قليلاً الآن.

ـ إن هربت فهذا حقك وحقه.

ـ الأفضل أن أنتظر الآن. إنها ليست أكثر من ثمانية شهور وستمر بسرعة، فلقد انتظرت أصلاً ثلاث سنوات، حين يصير عمري في الحادية والعشرين لن يستطيع أحد أن يوقفني.

فكرة من كانت فكرة الانتظار هذه؟ فكرة لو؟ أم تادو؟ كان بدرو أرشانجو يحب أن يعرف. أكان يحب ذلك حقاً؟

في الوقت ذاته ربما تغيرت الأحوال في المنزل. يظن تادو أنها ستتغير. ففي النهاية يفضل نيل موافقة الأسرة بدل البدء في حياتنا الزوجية بالشجار.

أفكار حساسة! لمن هي؟ للفتاة؟ أم للمهندس؟ آه يا تادو كانهوتو! إنك تصعد السلم بسرعة لكنك حذر جداً.

إذا نجح تادو في عمله في البداية صار يكسب جيداً، وصار محط الاحترام ويقدره رئيسه وزملاؤه. أخذ إجازته الأولى خلال ثلاث سنوات وذهب إلى باهيا حاملاً رسالة من باولو دو فرونتين إلى الكولونيل غوميز: «سيدي العزيز، عرفت بنية الدكتور تادو كانهوتو في طلب يد ابنتك الكريمة للزواج وإنني أسارع للتهنئة سلفاً. لقد اشتغل خطيبها معي خلال السنوات الثلاث الماضية. إنه واحد من أفضل المهندسين وأبرزهم موهبة من أولئك المنشغلين في تحويل مدينة ريو دي جانيرو القديمة إلى عاصمة حديثة عظيمة». وتابع يمتدح «أخلاق الفتى التي لا شائبة فيها وشخصيته الأصلية وموهبته الفذة». إن طريق النجاح مفتوح أمامه، وهنأ عائلة غوميز مرة أخرى بالمناسبة السعيدة مؤكداً أن الكولونيل وزوجته العظيمة لن يحلما بصهر أفضل منه.

ولكن رسالة الإطراء الوافدة من الشخصية الكبيرة لم تكن مجدية. لقد استقبل تادو بتظاهرة من الابتهاج ـ «انظروا من جاء، تادو، الابن الضال»، لكنه أحس أن الجو قد تغير بغتة عندما طلب أن يتحدث على انفراد مع الكولونيل، فقدم له رسالة رئيسه وطلب يد لو.

كانت دهشة الأفندي ـ الفازينديرو ـ الأولية كبيرة إلى درجة أنه قرأ الرسالة إلى آخرها واستمع إلى توضيحات المهندس الموجزة دون أن يقاطعه:

«.. لأطلب يد ابنتكم لو».

عندها فقط غابت البسمة عن شفتي الكولونيل.

ـ «تقول أنك تريد الزواج من لو؟» ولو لم يكن في صوت الملاك الحائر إلا الدهشة.

ـ نعم يا كولونيل. إننا متحابان ونريد أن نتزوج.

ـ «أنت...» بغتة صار التغير كلياً، ووصل الصوت إلى الطرف الأقصى من الغضب «تعني أن لو على علم بنيتك المضحكة؟».

ـ ما كنت لأطلب أن لأتحدث إليكم، يا كولونيل، لو لم تخولني هي أن أفعل ذلك، ولا نعتبر أن ـ وأكد على ضمير المتكلم الجمعي ـ قصدنا مضحك.

وترددت في البيت صرخة الكولونيل غوميز، زئير وحش خطر أخرق.

ـ إيميليا. تعالي بسرعة. واجلبي لو. فوراً.

وتركزت العينان الحاقدتان على تادو وكأنهما لم ترياه من قبل. وجاءت دونا إيمليا وهي تنشف يديها بمريلتها، كانت تعطي تعليماتها للطباخ لعمل معقود خاص يحبه تادو بشكل خاص، متأكدة أن الصديق الأمثل لابنهما سيبقى على العشاء. وظهرت لو في اللحظة ذاتها تقريباً باسمة متوترة وعصبية. والتفت الأفندي إليها:

ـ لو. لقد فاجأني هذا الجنتلمان بطلب سخيف وهو يقول أنه تقدم به بناء على موافقتك. هذا كذب. أليس كذلك؟

ـ إن كنت تعني أن تادو قد جاء إلى هنا ليطلب يدي، يا أبي، فكل ما قاله لك صحيح. أنا أحب تادو وأريد الزواج منه.

وبذل الكولونيل جهداً ملحوظاً ليمنع نفسه من الاندفاع نحو الفتاة وصفعها. إنها تستحق الجلد.

ـ أخرجي من الغرفة. سأكلمك في ما بعد.

وابتسمت لو لتادو مشجعة ثم غادرت الغرفة. وحين سمعت الدونا إيميليا بالخبر أطلقت زفرة مخنوقة. آه، سنيور.

ـ هل كنت تعرفين بشيء من هذا يا إيمليا؟ هل كنت تخبئين الأمر عني؟

ـ لم أكن أعرف شيئاً. لا أعرف أكثر مما تعرف أنت. ولا يمكن لشيء أن يدهشني أكثر من ذلك. إنها لم تلمح أي تلميح للموضوع.

لم يكن الكولونيل يطلب رأيها، ربما لأنه تخيل أنه يعرف ما هو رأيها، أو ربما حسب طريقة تفكيره، لأن عمل الزوجة هو الاعتناء بالبيت وليس التدخل في القضايا الهامة. والتفت إلى تادو:

ـ لقد خنت الثقة التي وضعناها فيك، فلأنك زميل ابني في الصف استقبلناك هنا بغض النظر عن لونك وعن نسبك وهما ليسا في صالحك، أفهم إنك ذكي. فلماذا لم تدرك أننا لم نرّب ابنتنا من أجل أن نزوجها بزنجي؟ والآن اخرج ولا تعد إلى هذا البيت مرة أخرى وإلا فسنلقي بك خارجاً.

ـ يسعدني أنك لا تملك شيئاً ضدي إلا مسألة لوني.

ـ خارجاً. اخرج من هذا البيت.

انسحب تادو وهو يمشي بخطوات طبيعية بينما وقعت الدونا إيمليا مغمى عليها.

كانت صيحات الكولونيل الغاضب مسموعة إلى الطريق. وفكر تادو: سيكون علي لو أن تواجه الوحوش الضارية، لكنها قوية وهي تعرف ما تنتظره. وفي بيت زابيلا كانوا قد قاموا بتقليب المشكلة

على وجوهها، والتكهن بكافة الاحتمالات، والبحث عن حل لكل احتمال، وكان تادو كانهوتو يحب الحسابات الرياضية ورسم الخطوط المستقيمة، وكانت قراراته قائمة على الدراسة والتحليل.

وعلى الرغم من أن بدرو أرشانجو كان يتوقع ذلك، فإنه خرج عن طوره حين سمع بالرفض. صار يهذي وقد فقد عقله، الأمر الذي نادراً ما يحدث له. وكان من عادته أن يقول: «أنا لا أفقد عقلي إلا من أجل النساء».

ـ المنافقون. حفنة من المنافقين والدهماء البيض.

وتادو هو الذي حاول تهدئته.

ـ ما هذا يا عرابي؟ اهدأ. لا تشتم أقاربي. إنهم مجرد عائلة من الملاكين الأثرياء مثل غيرهم وأحقادهم مثل أحقاد البقية. الكولونيل يرى أنه سيكون من العار أن يسمح لابنته بالزواج من خلاسي، يفضل أن يراها تعيش وتموت عانساً مستهترة عجوزاً. ولكنهم ليسوا سيئين. وفي أعماقهم أظن أن حقدهم سطحي ولن يدوم طويلاً.

ـ هل تبحث لهم عن أعذار؟ تدافع عنهم؟ جاء دوري لكي أندهش يا تادو كانهوتو؟

ـ لا. لا. أنا لا أدافع عنهم طبعاً ولا أبحث لهم عن أعذار يا عرابي. من وجهة نظري ليس هناك ما هو أسوأ من الحقد العرقي، وليس هناك ما هو أفضل من تمازج الأجناس. لقد تعلمت هذا منك ومن كتبك. ولهذا لا أريد نبذ آل غوميز لكي أعتبرهم نوعاً من الأغوال. إنهم أناس لبقون. وأنا واثق من أن استيريو سوف يؤيدنا. لم أكتب له شيئاً عن الموضوع لأنني أردت أن أفاجئه. ولكنه في رسائله لي ينتقد دائماً عنصرية أمريكا الشمالية التي يقول عنها إنها «غير مقبولة بالنسبة لبرازيلي».

ـ غير مقبولة بالنسبة لبرازيلي! ولكن حين يتعلق الأمر بتزويج أختهم أو ابنتهم من خلاسي أو زنجي فإنهم يتصرفون تماماً مثل عنصري أمريكا الشمالية.

ـ يا عرابي. إنه دوري الآن أن أبدل استغرابي. ألست أنت القائل إن المشكلة العرقية وحلها مختلفان تماماً. لا بل هما متعارضان، بالمقارنة بينها في البرازيل وبينها وبين الولايات المتحدة؟ إن الاتجاه هنا، على الرغم من العقبات، يسير نحو التمازج والاختلاط بين الشعوب. والآن لمجرد أننا واجهنا إحدى هذه العقبات، أيكفي هذا لجعلك تغير رأيك؟

ـ الحقيقة أن الموضوع قد طير عقلي. جنّني أكثر مما كنت أتوقع يا تادو. ما الذي تنوي أن تفعله الآن ؟

ـ الزواج من لو بالطبع.

كان هذا كافياً لتفريغ غضب أرشانجو.

ـ أستطيع تدبير خطيفة في ثانية.

ـ خطيفة؟ لا أعرف شيئاً أصعب من ذلك.

ـ لقد فعلت ما هو أصعب من ذلك.

ورأى نفسه خبيراً في عمل رومانسي متسم بالجرأة، مصارعة كابويرا يحرسون الشارع. ولو تهرب من بيتها فجراً ملفعة بالخوف وبملاءة سوداء، قارب صيد بأشرعة منتفخة يحمل العاشقين إلى مخبأ أمين في ريكونكافو، الزواج السري، غضب آل غوميز، لم يكن عبثاً أن بدرو أرشانجو قد مزج قراءاته العلمية برومانسيات ألكسندر دوماس «هو أيضاً خلاسي، ابن لوالد فرنسي وأم سوداء، وهذا امتزاج جيد!»

ـ لا يا عرابي. لن تكون هناك خطيفة. أنا ولو قررنا ما سنفعله. خلال ثمانية أشهر ستكون لو في الحادية والعشرين. وعندها ستبلغ العمر الذي تقرر فيه شؤونها ومستقبلها فإن لم يكن أهلها قد وافقوا حتى ذلك الحين ـ إنني أعول على استيريو لكي يجعلهم يقتنعون ـ فإنها ستترك البيت يوم عيد ميلادها وستصبح زوجني. هكذا أفضل.

ـ تظن ذلك؟

ـ نحن معاً نظن ذلك: لو وأنا. حتى لو لم يعط الكولونيل موافقته فإن مسألة انتظارنا إلى أن تبلغ سن الرشد ستسهل علينا الأمور فيما بعد. وفي هذا أمور لصالحي أيضاً. سأرجع إلى ريو غداً وأعود بعد ثمانية أشهر.

لم يوافق بدرو أرشانجو ولم يعترض. والحقيقة أنه لم يسأله رأيه أحد. وفي خيمة المعجزات كان ليديو كورو يبهر الأصدقاء بقصص نجاحات تادو في العاصمة: فباولو دوفرونتين يستشيره في أصغر التفاصيل المتعلقة بمخططات التحديث العظيمة وحمله مسؤولية أصعب المهام. وكما يعبر ليديو عن الموضوع فإن تادو، عملياً، هو الذي يبني ريو دو جانيرو الجديدة بمفرده.

وفي بيت زابيلا سمع بدرو أرشانجو الفتاة تكرر ما قاله تادو: قد أستطيع إقناعهم في هذه الأشهر القليلة المقبلة.

ـ هل تظنين أنك تستطيعين ذلك؟

ـ ما رأيك لو قلت لك أن أمي قد صارت نصف مقتنعة؟ بالأمس فقط قالت لي إنها تعرف أن تادو ولد ظريف لولا أنه..

ـ أسود.

ـ تعرف الحقيقة. عندما تتحدث عن تادو لم تعد تصفه بأنه أسود. بل تقول: لولا أن له هذه التقاطيع المعتمة.

واستطاع بدرو أرشانجو أخيراً، أن يضحك من الموضوع. ففي نهاية الأمر ليس عمله أن يحاسب الدنيا. سيرتب لو وتادو أمورهما على طريقتهما وكل ما يقررانه مناسب له. هذا الحل الشرعي المماطل ليس أسلوبه في العمل ولا أسلوب ألكسندر دوماس، بيير، الخلاسي ابن الجنرال نابليون والزنجية الحسناء من المارتينيك (أم أنها غودلوب؟ لم يعد يتذكر). لو أنهما استشيرا في المسألة (هو ودوماس) لاختارا بكل تصميم الخطيفة الفورية.

أما وقد وجدت زابيلا جمهوراً فقد غرقت في الحكايات عن عائلة أرغولو دو أراوجو «اسمعني فقط. فورتوناتو دو أراوجو، العقيد في حروب الاستقلال، والبطل في معارك كابريتو وبيراجا، المعروف باسم

أراوجو الأسود، دخل إلى عائلة أرغولو النبيلة من خلال غرفة نوم الجدة فيرجينيا كونسالفس أرغولو. وحين دخل سيطر وأصدر الأوامر. كان خلاسياً جميل المظهر. وكنت أنا حفيدته المفضلة. لقد اعتاد أن يرفعني على قربوس السرج وينطلق بي في البراري. كان هو الذي سماني أميرة ريكونكافو. نحن بارعون جداً في حل الألغاز يا معلم بدرو. هل تستطيع أن تقول لي لماذا أن البروفسور الشهير نيلودا فيلا أرغولو دو أراوجو، هذا الجرثوم، المُناظر الكبير، الذي يتفاخر دائماً بأسلافه النبلاء لا يتحدث إلا نادراً عن اسم أراوجو المشرف؟ لماذا لا يتحدث عن مآثر الكولونيل فورتوناتو في النضال عام 1423، ولا يحكي كيف أن أراوجو الأسود قد جرح ثلاث مرات من أجل استقلال البرازيل؟ لم يكن هناك رجل أشجع منه في تاريخ عائلتنا الحافل. إننا مدينون له بكل ما لدينا بما في ذلك هذه القروش التعيسة التي أعيش منها. وكانت الجدة فيرجينيا محقة في أن تفاخر به وأن تقول لكل البارونات والكونتيسات والآنسات البيضاوات و (توت ليزوتر غارس) إن خصية واحدة عند حبيبي فورتوناتو الأسود تعادل عشرة أمثال (توت سيت باند دو كولو. أزواجكن وعشاقكن، ليز يمبيسل).

---

*(32) - بالفرنسية: ياعزيزتي. يافتاتي المسكينة. ياصغيرتي، تحب زابيلا ان تقول بعض الكلمات بالفرنسية، فتركناها في أكثر من مكان على راحتها- المترجم.

- 15 -

من حكايات زابيلا عرف بيدرو أرشانجو لأول مرة أنساب أبرز العائلات في باهيا. ومع الزمن صار يعرف الكثير عن عائلات أفيلا وأرغولو والكافالكانتي والغويماراي، جميع اللوردات مع ألقابهم الارستقراطية، كما عرف عن الروابط العائلية لدى أولئك الذين قدموا على سفن الرقيق. كان يعرف الأجداد من الطرفين، ويعرف تماماً متى تم تمازج الدم.

في السنوات التالية للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين تابع أرشانجو دراساته في الكتب التي تقرأ في عليته أو في الخيمة، حيث كان يحتفظ بمعظم كتبه في الغرفة الخلفية التي كانت غرفة تادو، ودراساته في الحياة التي عاشها بحمية. لقد ظل فتيّاً. فلم يكن أحد ليظن بأنه في الخامسة والخمسين، كان ما يزال يمارس مصارعة الكابويرا ويسهر طوال الليل ومازال سكيراً قوياً ومجنوناً بالنساء. بعد روزاليا، وربما في الوقت ذاته. أسكن كيلي، وهي فتاة في السابعة عشرة من العمر، في بيت مستقل وولدت له ولداً. وكان ذكراً بالطبع، فأرشانجو لم يرزق ببنات أبداً باستثناء «البنات الصغيرات» في تيريروكسانغو».

كانت النساء يعثرن عليه في خيمة المعجزات على الرغم من أنه بعد رحيل روزا دو أوكسالا لم تعد تقدم فيها العروض أو الحفلات، فليديو لم يستطع أن يتوازن مع هذا الفراق، ظل يحمل جراحاً لا تندمل في قلبه، وكان يتحسن ببطء، لكنه لم يعد إلى طبيعته بعدها أبداً. لقد ظلا متحابين طوال خمس عشرة سنة. ولم يستطع رسام المعجزات أن يجد البديل القادرة على إزالة صورة روزا من ذاكرته التي لا تزال تعذبه.

في غرفة نومه كان هناك التمثال الخشبي الذي نحته صديق داميان، ميغيل ناحت القديسين، لكنه لم يكن يشبه روزا كثيراً، كان تمثال امرأة عارية بنهدين بارزين وردفين بارزين، فإذا كان ليديو، وهو الوحيد الذي رآها دون ثياب في السرير وبين ذراعيه، عاجزاً عن التقاط هذه الرؤية البهية ورسمها على القماش فأنى لناحت القديسين أن يتصور أنه قادر على نحت شبيهة لها من خشب جاكاراندا؟ أين هو الفم الجائع للقبلات والبطن النارية؟ حين كان يجافيه النوم ليلاً كانت روزا تخرج من اللوحة ومن الخشب وترقص له في غرفة نومه.

في الخيمة وفي الشارع، في «القلاع» و «البنسيونات»، في الرقصات والمواكب، في غافيرات السامبا والنوفينا، في الضحك والغناء مع العاهرات والعذراوات وأينما ذهب الصديقان مع المزمار والكافاكينهو والغيتار فإن غياب روزا كان يرافقه دائماً، ومهما حاولت النساء الترويج عنه فإن ليديو لم يكن يرتاح. ما من رجل كانت له ليزا ويستطيع أن ينساها، وما من امرأة تستطيع أن تحل محلها. وماذا عن بدرو أرشانجو؟ كانت أوجاع الحب قد بدأت عنده قبل ذلك بزمن طويل. لن تعرف أبداً يا كومبادر ليديو، يا صاحبي، أي ثمن دفعته من أجل صداقتك.

تغيرت أمور كثيرة في خيمة المعجزات. أخذت آلة الطباعة الغرفة الأمامية الكبيرة والجناح الملحق القديم. وكان هناك شغل كثير، إلى درجة أن المعلم ليديو لم يكن يجد الوقت حتى لرسم المعجزات. وحين كان يوافق على رسم لوحة، كان عليه أن ينفذها يوم الأحد، فالأسبوع أقصر من أن يقوم فيه بكل الأعمال.

وظلت الخيمة محور حياة الجوار، ومكاناً صاخباً للتجمع، مليئاً بالأحاديث والأفكار والالتزامات المخطط لها. وكان الآباء والأمهات، ذوو الأرواح المضطهدة، يجدون الملاذ لأنفسهم والكنوز الأكسي، وهناك تماثل الأب بروكوبيو للشفاء بعد تعرضه للضرب الذي مزق ظهره في مخفر الشرطة. ولكن لم يعد هناك ملصق على الباب يعلن عن الروايات وعروض السامبا والماكسيكي. صارت ماني ليما وفرناندا البدينة تعرضان مهاراتهما في قاعات أخرى. أما عرض الدمى فقد طوي منذ سنوات مرة واحدة تبادل تريغرودنغ دونغ الضربات من أجل ليلي تيتي، وكان ذلك حين طلبت زابيلا أن ترى تلك «الدراما الأخلاقية الشهيرة التي تدور حول إشراك الصداقة».

- «كيل أورو! يا لكما من خنزيرين. دي سال كوكون». صرخت العجوز وهي تكاد تختنق بالضحك من الطرافة الفظة ومن بذاءة العرض.

وأوضح لها أرشانجو: «لقد عشنا سنوات من هذه الدمى الوقحة. كانت مصدر رزقنا».

ولاحظت الكونتيسة: أنتما فعلاً من قاع المجتمع.

- هل تظنين أن القمة أفضل؟ أو أنظف؟

وهزت زابيلا كتفيها، إنه على حق. القذارة في كل مكان، والصداقة تباع بأبخس الأثمان.

ولكن لا بأبخس الأثمان ولا بجوهرة حب روزادو أوكسالا باع بدرو أرشانجو صديقه. هنا بدأت وهنا أنتهي. ولو أنني أتغير، وأنا أتغير فعلاً، ولو أن القيم القديمة ضاعت وحلت محلها قيم أخرى، لو أن جزءاً من نفسي القديمة مات، فلن يكون هذا سبباً لإنكار أي شيء كنته أو التراجع عنه. ولا حتى صندوق الفرجة القذر. في صدري خلائط وأكوام. اسمعوا، يا ليديو، ويا تادو، ويا زابيلا، ويا بوديان، ويا فالدلوار، ويا داميان دوسوزا، ويا ميجور الشعب وياصغيري، اسمعوني. أنا لا أريد إلا شيئاً واحداً، أن أعيش، أن أفهم ما هي الحياة، أن أحب جيراني والبشر كلهم.

مرت السنوات وبدأ الشيب، ولكن لم تظهر أية تجعيدة على الوجه السمح، ظل بدرو أرشانجو، الأنيق بملابسه المعتنى بها، يعتبر بيلورينهو بمشيته المعهودة متجهاً إلى معبد المسيح. وكان البروفسور سيلفا فيراجا في مخبر الطفيليات في كلية الطب قد اكتسب شهرة عالمية من تحليل البلهارسيا ووصفها، في تلك الغرفة أضاف العالم لمعرفتنا عن الديزانتريا واللشمانيا والدراق الطفيلي والفطور والأمراض الاستوائية كلها، هناك رجاء آخر يطلبه بدرو أرشانجو: هل يتفضل الدكتور سيلفا فيراجا بأن يكون أحد رعاة عرس تادو إلى جانب البروفسور برنارد من المعهد الفني؟

إن عيد ميلاد لو الحادي والعشرين يقترب. وهي منذ شهرين منفية في العزبة مع أمها وها هم يعيدونها الآن على أمل إثارة اهتمامها بعريس مناسب، ومن خلال جلسات مطولة مع أرشانجو وليديو وزابيلا كانت لو قد محصت كل تفصيل في مخططاتهم.

ـ «طالما أنهم لن يتنازلوا فلا بديل. والواقع هو أن أبي متشبث برأيه. ولو ترك الأمر لماما لاستطعت إقناعها دون عناء، لكنها تفكر من خلال رأس بابا، والكولونيل غوميز لا يمكن أن يعترف بأنه كان على خطأ»، ووشى صوتها بحبها وإعجابها بأبيها. «لقد قطع منحة استيريو لأنه يقف إلى جانبنا».

وكان استيريو قد كاتب أباه معبراً عن موافقته على الزواج وممتدحاً تادو «الذي أرسل إليه أطيب تمنياتي الأخوية». ورد الكولونيل برسالة عنيفة: «ومن سألك رأيك؟ ابنتي ستتزوج الصهر الذي أختاره لها».

وكان قد اختار واحداً، إذا حكمنا على دعواته المتكررة للدكتور روي باسارينهو على العشاء والغداء. إنه محام ذو زبائن أقوياء في الشركات الكبيرة وهو السبيل للاتصالات المفيدة والقيمة الاجتماعية العالية. ولم يكن لدى الدكتور باسارينهو، ذي الستة والثلاثين عاماً، وقت للعزل، منذ بداية أيامه اعتزل في مكتبه ودخل قوائم العدالة. وهناك من صار يعتبره عزباً محترفاً. وفي قداس في سان فرانسيسكو رأى عيني لو الواسعتين وشعرها الأشقر فاستطاعت بصورتها أن تقلق أحلامه، عاد مرتين أو ثلاث لرؤيتها، وفي البيت أبلغ أمه الأرملة بشأن الفتاة الظريفة بنت غوميز؟ نعم. إنها حلوة. لكنها لم تعد صغيرة. لابد أنها فوق العشرين. لقد فات الآوان عليها للعثور على عريس ولكن.. العائلة ممتازة وثروتها كبيرة. أراض لا حدود لها. وآلاف رؤوس الماشية وشوارع بأكملها من البيوت المؤجرة في كانيلا وباربالهو ولابينها ـ نعم. طالما أنها فكرت في الموضوع فإن بنت عائلة غوميز ملائمة تماماً لابنها العزب.

أم الدكتور روي باسارينهو هي التي كانت أول من أبلغ الدونا إيميليا باهتمام ابنها. وقد قلبتا الفكرة معاً في حفلة عشاء. عشاء وغداء ثم عشاء آخر وغداء آخر. وتقريباً دون أن ينتبه للأمر اقتيد المحامي بلطف من قبل السيدتين العجوزين إلى أبواب الزواج. أما بالنسبة للو فقد كانت ظريفة جداً ومؤدبة جداً. وهذا كل شيء. ولكي تسلي زابيلا كانت تقلد ارتباك المحامي حين حاول أن يجد مدخلاً للحديث عن نواياه. لم يعرف كيف يتصرف أن يفكر المسكين. أية يقظة قاسية سيصطدم بها.

وفيما هم ينتظرون تادو في الأسبوع الأخير حسموا التفاصيل و «شدوا البراغي الرخوة». أوصل بدرو أرشانجو الدعوة إلى البروفسور برنارد وتحدث مطولاً مع فري تيموتيو في رواق الدير. كانت لحية الراهب قد صارت بيضاء، لكن ضحكته كانت لا تزال ضحكة شاب. وعن طريق داميان ـ الميجور داميان دو سوزا ـ تلقى أرشانجو دعوة لزيارة القاضي سانتوس كروز في بيته وتبادلا الأحاديث. آخر من ظل لكي يستشار هو سيلفيا فيراجا.

بتحري الزوايا القانونية وبزيارة مكاتب الشخصيات البارزة ورجال الدين من أجل شهادات الميلاد والتعميد، وبالتنقل من صديق إلى صديق مع الدعوات والأحاديث استطاع بدرو أرشانجو أن ينهي ترتيبات الزواج. إنه زواج ضد رغبة الأهل، لكنه شرعي تماماً. يا للأسف! ليس فيه شيء من السحر الرومانسي للخطيفة ووجود أشخاص ملفعين عند الفجر وقوارب صيد وخيول جامحة ومطاردة ومبارزة، لكن هناك ما يكفي لشيء من التسلية ولتلقين المتعجرفين درساً نافعاً. واختلى بدرو أرشانجو مع بوديان وفالد لو فاختاروا رجالاً يعتمد عليهم من مصارعي الكابويرا الذين مجرد ذكر أسمائهم يجعل رجال الشرطة يرتجفون، لا تستطيع أن تخمن ما يمكن أن يحدث.

- 16 -

حين عثر بدرو أرشانجو على البروفسور سيلفا فيراجا كان برفقة رجل في الثلاثين من عمره نحيل بشارب أحمر ولحية صغيرة ووجه سمح وكفين عصبيتين مرتعشتين وعينين نفاذتين.

ـ صباح الخير يا بدرو أرشانجو. دعني أقدمك للدكتور فراغانيتو الذي سيستلم دروسي حين أترك. إنه قادم مؤخراً من ألمانيا التي سأذهب إليها. هذه حال الدنيا. والتفت إلى زميله: «هذا بدرو أرشانجو الذي سبق أن أخبرتك عنه كثيراً. من الناس المفضلين لدي. من الناحية الرسمية هو هنا ساع في مديرية الطفيليات، لكنه في الحقيقة عالم أنتروبولوجيا متفوق. يعرف أكثر من الجميع عن كل ما يتعلق بأنماط الحياة الشعبية في باهيا. لقد قرأت كتابه».

وهمهم بدرو أرشانجو ببعض الكلمات المتواضعة: «البروفسور يبالغ في لطفه، أنا مجرد هاو».

ـ لقد قرأت كتبك واستمتعت بها كثيراً. وخاصة الكتاب الثاني. إننا نفكر بالطريقة ذاتها في العديد من الأمور. وأنا واثق أننا سنصير صديقين.

ـ هذا شرف وسرور يا دكتور فراغا. ولكن متى ستسافر يا بروفسور؟

ـ خلال شهرين. في البدء سأذهب إلى سان باولو وبعدها إلى ألمانيا.

ـ هل ستطول إقامتك هناك يا بروفسور.

ـ سأبقى هناك يا أرشانجو. ليس في ألمانيا، لن أبقى فيها إلا ما يكفي لتجهيز المخبر، وبعدها سأستقر في سان باولو. لقد قدموا لي عرضاً استثنائياً يساعدني على استكمال أبحاثي. لا أستطيع استكمالها هنا. ميزانيتنا لا تكفي لشراء المعدات الضرورية. وبدافع وطني بحت تلطف الدكتور فراغا وقبل دعوتي متخلياً عن منصب متميز في ألمانيا لكي يعين أستاذاً هنا في باهيا بحيث يضمن أن عملنا يستمر. وأنا واثق من أنه يستطيع الاعتماد على تعاون موظفين من أمثالك أنت وأرلندو إضافة إلى الطلاب».

ـ أستطيع إذا نجحت في الامتحان.

وضحك العالم: «ستنجح حتى لو اقتضى الأمر أن تضرب بعض الرؤوس ببعضها الآخر يا صديقي العجوز».

بما أن فحص الأساتذة غير المثبتين لم يكن يأخذ شكل المناظرة العلنية بين مجموعة مرشحين، فقد كان أقل إثارة وأهمية حتى من المسابقة لانتقاء بروفسور بكرسي. ومع ذلك فإن فحص الدكتور فراغا نيتو جذب حشداً ملأ القاعة الكبرى في كلية الطب وانتهى بشغب: سخط وتصفيق واستهجان وإهانات

ولغط وفوضى وعراك بالأيدي.

لقد جاء الدكتور الشاب والعالم الباحث من أوروبا تسبقه شهرته، البروفسور سيلفا فيراجا، نفسه وبكل نفوذه، هو الذي دعاه لكي يمتحن من أجل أن يكون خلفاً له. فراغا نيتو، الابن الوحيد لوالدين غنيين، كان قد ذهب إلى أوروبا فور تخرجه. وقد عاش عدة أشهر في باريس ولندن ثم ذهب إلى ألمانيا واستقر هناك. وكانت أبحاثه تسير على نهج أبحاث سيلفا فيراجا ـ «أنا لست إلا واحداً من طلاب الأستاذ» كما اعتاد أن يقول:

انطلقت شرارات، فاشتعل الامتحان، منذ زمن طويل لم يأت مرشح عدواني هرطقي كهذا يحمل آراء ونظريات منفرة لا يمكن أن ترضى عنها الهيئة الفاحصة. الوحيد الذي لم يتشرشح هو البروفسور سيلفا فيراجا نفسه. فرك يديه منتشياً حين كان المرشح المشاكس ينسف القناعات المتجذرة والأفكار المقدسة والبنى الكاملة للتقاليد الاجتماعية. واشرأبت لحيته الصغيرة نحو السماء، فبدأ فراغا نيتو مثل شيطان رجيم.

لم يكن سبب الضجة الجدل حول «ماتيريا ميديكا ـ الموضوع الطبي» ـ فنظرية فراغا نيتو متعلقة بالأمراض الاستوائية ـ بل طروحاته ذات الطبيعة السياسية والسوسيولوجية كثيرة ورهيبة، كانت الإعلانات التي قذفت في وجوه الهيئة الفاحصة والمجتمعين من قبل المرشح للوظيفة.

بدأ فراغانيتو بالإعلان عن نفسه بأنه مادي، والأسوأ من ذلك أنه مادي ديالكتيكي على مبدأ كارل ماركس وفريدريك أنجلز «الفيلسوفين العظيمين، العبقريين اللذين يرتادان حقبة جديدة للبشرية». وبإسناد موقفه على مفاهيم المعلمين طالب بتغييرات فورية وجذرية في البنيان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للبرازيل، عندها فقط يمكن القضاء على الأمراض الاستوائية. «فطالما أننا بلد شبه إقطاعي ذو اقتصاد زراعي يقوم على الملكيات الكبيرة وزراعة المحصول الواحد، فإننا لا نستطيع أن نتحدث بجدية عن مكافحة الأمراض الاستوائية. المرض الأساسي الذي نعانيه هو تخلفنا. وكافة الأمراض نتائج لهذا المرض». ودب الذعر بين الأساتذة الذين كان كثيرون بينهم ملاكين أثرياء وأصحاب قطعان ماشية.

هنا اكتسب الجدل حدة غير معهودة، ووصل إلى درجة الإهانات. ووصل أحد أعضاء اللجنة الفاحصة، (مونتينيغرو الألفاظ الجديدة)، إلى حد الهستريا فصرخ (سخف!).

وبالطبع كان الطلاب بالإجماع في صف المرشح، فراح التصفيق الاستفزازي يواجه كل انفجار عصبي. «اقتصادنا المتهرئ يتحمل المسؤولية الأساسية عن وجود البلهارسيا والجذام والدراق الطفيلي والملاريا والجدري والأمراض المستوطنة والجوائح المرضية في وطننا التعيس. وما لم يحدث تغير بنيوي جذري في مجتمعنا لا يمكن لنا أن نأمل في القضاء على المرض أو في اتخاذ إجراءات وقائية ذات طبيعة مدروسة وجدية ضد المرض الذي يفتك بشعبنا، ولا نستطيع حتى أن نتحدث عن الصحة العامة. إن من الحماقة قطع الوعود بإجراءات كهذه إن لم يكن من قبيل الاستغفال المؤذي والخادع. وإلى أن نغير البرازيل ستظل أبحاثنا، حتى ما هو جاد وأصيل بينها. مجرد خربشات غير فعالة، وحصيلة الاندفاع والموهبة لدى قلة من المتعلمين القادرين على تقديم التضحيات الجبارة. ما تبقى كله ليس إلا جدلاً أكاديمياً عقيماً. تلك هي الحقيقة سواء أعجبتنا أم لم تعجبنا».

وجاءت اللحظة الأكثر إثارة حين دافع فراغانيتو عن أطروحاته. فلم يكتف باللغط الذي أثاره بأفكاره

العنيفة، بل استشهد بفقرة من كتابه «ساع في الكلية» على أنها إحدى مصادره العلمية، وصفه بأنه «أنتروبولوجي موهوب يتمتع بنظرة اجتماعية شاملة»، وقرأ مقطعاً مأخوذاً من الكتيب الذي نشره أرشانجو، هذا الحقير المتبجح الذي يعتبر نفسه بشراً. «الظروف التي تعيش فيها الطبقات الدنيا في باهيا رهيبة، البؤس شديد، ولا وجود لأية رعاية طبية أو صحية، كأبسط مظهر من مظاهر اهتمام الدولة أو السلطات الأخرى، بحيث إن مجرد البقاء على قيد الحياة في ظروف كهذه يشكل دليلاً استثنائياً على القدرة والحيوية. ولهذا السبب فإن المحافظة على التقاليد والتراث وتشكيل الجمعيات ومدارس السامبا والمسيرات والكارنفالات والفرق الموسيقية والأفوكسي وخلق إيقاعات جديدة للرقص والغناء - هذا كله يدل على غنى ثقافي - ويأخذ شكل معجزة حقيقية لا يمكن تفسيرها إلا بالتزاوج. إن امتزاج الشعوب قد ولد شعباً جديداً يتصف بالموهبة الكبيرة والقدرة العظيمة على الاحتمال، ولديه من القوة ما يجعله قادراً على أن يسمو على البؤس واليأس في عملية خلق يومية للجمال والحياة ذاتها». وصدر جئير من الكراسي المخصصة للكلية: «أنا أحتج». وكان هذا البروفسور نيلو أرغولو الذي كاد يصاب بالسكتة القلبية وهو يقف على قدميه ويصرخ:

«هذا الاستشهاد إهانة للكلية الموقرة».

ولم يكتف البروفسور أرغولو بهذه الكلمات الموجزة، بل تلفظ بكثير غيرها في خطاب كان دون شك تفنيداً معصوماً ومدمراً. ولكن للأسف لم يستطع أحد أن يسمعه. كان الطلاب يهتفون: (فيفا! فيفا!» لفراغانيتو، وحاول عدة أساتذة أن يتدخلوا في وقت واحد، كلمات جانبية، إهانات، صرخات استهجان، وعلا الصفير وتسارع، فدبت الفوضى وساد الهرج. وفي نهاية الامتحان الذي نجح فيه بالإجماع، على الرغم من أن بروفسورين أو ثلاثة قد خفضوا علامته، خرج فراغانيتو مظفراً محمولاً على أكتاف الطلاب.

أما بشأن الدعوة للبروفسور سيلفا فيراجا لكي يكون شاهداً على زواج تادو في الزواج المدني، فقد قبلها كأمر طبيعي. كان يعرف المهندس حين كان، وهو صغير، يخدم في المختبر المخصص للطفيليات بديلاً عن عرابه أرشانجو. وكان يعرف بالصعوبات التي واجهها حتى حصل على شهادته. وفي أحيان عديدة كان يعطي الولد قليلاً من النقود من أجل المواصلات أو من أجل البوظة أو السينما، وكان يعرف آل غوميز أيضاً. مربو ماشية أجلاف، أناس مشاكسون ومتخلفون أقل بكثير من مستوى تادو الثقافي. ولكن إذا كان الشاب والفتاة متحابين فليس لأي شيء آخر أهمية. ما يجب أن يفعلاه هو أن يتزوجا ويبدآ بالإنجاب.

- 17 -

كانت فضيحة كبيرة، مادة الحديث الوحيدة في باهيا طوال عدة أسابيع. الذكرى المئوية للاستقلال، وعطل الثاني من تموز فقد استطاعا أن يدفعاها إلى مطاوي النسيان.

وكانت سبب مناقشات حادة وحتى تبادل الشتائم. ويكاد المرء يظن أنها المرة الأولى التي يقوم فيها خلاسي وفتاة بيضاء بالزواج. فتاة بيضاء من باهيا، وهذا يعني فتاة بلطخة ـ فرشاة قار، حسب الرأي الراسخ والمبرر للكونتيسة إيزابيل تيريزا، المعروفة جيداً بالنسبة لعروس وعريس المستقبل باسم زابيلا. العريس خلاسي ذو «سحنة سوداء قاتمة» إذا استخدمنا تعبير الدونا إيميليا الملطف.

في ذلك الحين كان زواج كهذا قد صار شبه شائع، ودخول عرسان وعرائس إلى الكنيسة ممسكين بأذرع آبائهم فإن ثنائياً أبيض ـ سوداء أو أسود ـ بيضاء لم يعد يثير الدهشة، ولا يثير إلا العواطف الطبيعية المرافقة لكل عمليات الزواج. ولكن هذه المرة لم تدخل الفتاة ممسكة بذراع والدها، ولم تُضَأْ المصابيح في صحن الكنيسة ولا على المذبح.

حدث الحفلان، الديني والمدني، في بيت صديق. ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الضيوف، وكان الجد مليئاً بالإحساس بالخطر، وقد أشعلت جوقة المناقشات حول مارش الزفاف لتادو ولو حريقاً في باهيا.

عائلة غوميز القوية، التي تملك جزءاً كبيراً من سرتان، ولها أهميتها الكبيرة في المجتمع الراقي، اعتبرت طلب الزواج إهانة، وردت الخاطب الأسود المسكين ملفوفاً بـ «لا» حاسمة شاملة. وحين أغلقوا أبواب المنزل الذي سبق أن رحب به فيه وحرم فيه من التطلع إلى طلب يد الابنة، لم يستطيعوا أن يقدروا ثروة الولد الحقيقية: الموهبة والإرادة القوية والفحص الإيقاعي في المدرسة الفنية والقدرة على حل المسائل الصعبة في الرياضيات ودرجة الشرف في الدروس كافة والشغل البارع في ريو حيث كان الذراع الأيمن لباولو دوفرونتين.

ولندخل في جو عائلة غوميز، لقد آن الآوان لكي يقف زعيم إحدى العائلات لكي يضع حداً لمقايضة الدم المجرمة وتلويث العرق الأبيض في البرازيل، آن الآوان لمن يظهر للعبيد السود أين هي حدودهم ـ هكذا امتدح نيلو أرغولو وأزوالدو فونتيس وبقية سلسلة مقاتليه موقف الكولونيل.

موقف محزن وعديم الجدوى. رد سيلفا فيراجا وفراغانيتو وآل برناد. الحق العنصري لا يمكن أن يزدهر في الأرض البرازيلية، وما من جدار من الكراهية يمكن أن يقف طويلاً في وجه الزخم الشعبي.

هذا كله، إضافة إلى جمال العروس والذكاء المشهود به للعريس وصمود حبهما المقموع، أحاط الزواج بهالة من الرومانسية والإثارة. وظل لوقت طويل محور حياة المدينة.

كان تادو قد وصل بحراً قبل عدة أيام. جاء شبه متخف. قليل من الأصدقاء، فقط، عرفوا بوجوده في باهيا. التقى بلو في بيت زابيلا ورتبا التفاصيل النهائية «بضمة يحب قلبك أن تراها»، كما وصفت الأمر العجوز التي يزداد عرجها وثرثرتها للمعلم أرشانجو.

أخبرت لو تادو عن عشق الدكتور باسارينهو الملحاح وزياراته المتكررة ورفقته للكولونيل، لقد تصرف المحامي المتردد والحذر بأدب وحسن تربية، لم يحاول أن يفرض نفسه ولم يتقدم حتى للخطبة. اكتفى بالتلميحات والنظرات المعبرة، وقد أوكل قضيته إلى الدونا إيميليا التي لا تعرف كيف تفي العريس حقه من المديح، إنه غارق في الحب يا عزيزتي، وينتظر منك كلمة، مجرد إشارة. هزة رأس بالموافقة لكي يتقدم للخطبة. ولا تنسي أنك ستبلغين الحادية والعشرين، وزميلاتك في كوليغيوداس ميرسيس كلهن قد تزوجن وبعضهن رزق بأطفال. حتى أن ماريكوتا طلقت، فكري فقط كم هذا كريه! زوج أحسن من الدكتور باسارينهو لن تجدي. وأبوك يحبه، وكذلك أنا. وسرعان ما تعجزين عن تأمين زوج. كوني عاقلة لا تعندي. ليلاً ونهاراً هذه النغمة في أذنيها والسؤال عالق في عيني المحامي.

في اليوم السابق لبلوغ لو سن الرشد جاء الدكتور باسارينهو إلى المنزل بعد العشاء، وبدل مكوثه في قاعة الجلوس مع الكولونيل للتحدث في السياسة أو شؤون المال سأل الفتاة إن كانت توافق على الاستماع إليه لمدة دقيقتين. جلسا معاً تحت شجرة المنجا في الحديقة. كانت السماء فوقهما مليئة بالنجوم والقمر ساطعاً وتحتهما مياه الخليج وحصن البحر وظلال السفن ـ ليلة للعشاق. ولانعدام خبرته تماماً في مناجاة الحب، ولإحساسه بالسخف فإنه بعد صمت طويل مربك تغلب على حرجه أخيراً وقال:

ـ لا أعرف إن كانت الدونا إيميليا قد تحدثت إليك ـ لقد طلبت منها الإذن بالتحدث إليك.. أنا لست ولداً كما تعرفين.

ـ لقد حدثتني أمي يا دكتور روي. إن هذا يشرفني لأنك تستحق كل احترامي، ولقد تصرفت بكل ذوق. ولهذا لا أستطيع أن أدعك تتابع. أنت ترى أنني مخطوبة وسرعان ما سأتزوج في أقرب فرصة.

ـ «مخطوبة؟ تتزوجين؟ دونا إيميليا لم تقل لي ذلك» ولأنه ارتبك فعلاً استطاع أن يتطلع أخيراً إلى عيني الفتاة اللتين كانتا صافيتين كالماء.

ـ ألم يقل لك أحد؟ لا، أعني بابا وماما فهما لا يتحدثان في الموضوع أبداً. ولكن ثار لغط كبير حول الخطبة.

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا. إنني أعيش منعزلاً ولا أهتم كثيراً باللغط والأقاويل.

ـ سأحكي لك إذاً الحكاية كلها، وهذه أفضل طريقة أدلل بها لك على احترامي فجزء مما سأقوله لك لا يزال سراً.

ـ أنا جنتلمان يا سنيورا ومحام، إنني أؤتمن على أسرار كثيرة.

ـ قبل ما يقرب من سنة، ثمانية أشهر بالتحديد، تقدم بطلب الزواج مني تادو كانهوتو، مهندس كان في الصف ذاته مع أخي استيريو، إننا متحابان منذ أن كنا صغاراً.

ـ تادو كانهوتو.. أعرف هذا الاسم.

ـ ولم يقبل أبي لأن تادو خلاسي. خلاسي فقير. لقد بدأ من القاع وضحى كثيراً لكي يتم دراسته. أبواي هما اللذان رفضاه. أما أنا فأحبه وأعتبر نفسي خطيبته ـ ولم تسمح له بمقاطعتها. «أريدك أن تسمع التتمة: غداً سأكون في الحادية والعشرين، وفي ذلك اليوم بالذات سأغادر هذا البيت من هذا الباب، لكي أتزوج. وآمل أنني بإخبارك بالحقيقة أرد لك جميل الشرف الذي أسبغته عليّ بالتفكير في طلبي زوجة لك. وأعرف أنني لا احتاج أن أطلب منك المحافظة على سرّي».

تطلع المحامي إلى البحر المغطى بأشعة القمر. من مكان ما جاء صوت طبول السامبا، مع أغنية كابويرا.

ضعي البرتقال على الأرض

سيدي ذهب ولن أبقى

منشفتي مخرمة، تيكوتيكو

ضعي البرتقال على الأرض

ـ تادو كانهوتو؟ أليس هو الذي كتب أجوبة الرياضيات بشعر من المقاطع العشرة.

ـ هو.

ـ سمعت الكثير عنه. يقولون أنه شاب موهوب جداً. قبل أيام فقط حكى لي صديق قادم لتوه من ريو أن المهندس كانهوتو يتمتع بثقة كبيرة عند الدكتور باولودو فرونتين ـ وتوقف وهو يستمع إلى الأغنية القادمة من بعيد: حبيبي ذهب ولن أبقى. «لا أستطيع أن أقول لك إنني سعيد بذلك، لأنه خطر لي أنني قد أحظى بشرف طلب يدك وجعلك زوجة لي ورفيقة ذات يوم. حسن. سأعود إلى كتبي وأوراقي. على الأقل لدي متع العزب، ولا أعرف ما إذا كنت سأصبح زوجاً جيداً. اسمحي لي أن أهنئك بزواجك، بزواجك وشجاعتك. ولا أعرف ما إذا كان بإمكاني أن أكون مفيداً لك أو للدكتور تادو، ولكن إن احتجتما إلي في أي شيء فأنا في الخدمة.؟

ـ شكراً. لم أتوقع منك ما هو أقل من ذلك.

ـ هل كل شيء على ما يرام يا دكتور، سألته الدونا إيميليا حين تقدم بمودة وهدوء وكجنتلمان حقيقي ليقبل يدها ويستأذن بالذهاب.

«كل شيء على ما يرام تماماً يا دونا إيميليا»، وعلى الرغم من أنه كان نحيباً إلا أنه أحس بشيء من الارتياح، ربما كان مولوداً ليبقى عانساً.

ـ سنراك غداً يا دكتور. تعال تعش مع لو.

ـ شكراً لك يا دونا إيميليا، ليلة سعيدة.

أمطرت لو بالأسئلة ولكنها تحاشتها وهي تبتسم ولكن بعصبية. وحكت الدونا إيميليا للكولونيل عن سير الأحداث، كل شيء على ما يرام، غداً سيكون لدينا خبر كبير.

وكان لهما ذلك، خبر غير متوقع. في ذلك الصباح غادرت لو، التي بلغت سن الرشد وصار في

وسعها أن تروح وتجيء على هواها، البيت في ساعة مبكرة ولم تعد. تركت لوالديها رسالة مؤثرة ومقتضبة «سامحاني، سأتزوج الرجل الذي أحب، وداعاً».

وركض الكولونيل غوميز إلى بيت الدكتور باسارينهو مصمماً على إيقاف هذا الزواج بكل وسيلة، وعلى استرجاع ابنته وإلقاء تادو في السجن.

ولم يكن من الممكن اتخاذ أية خطوة قانونية كما شرح له المحامي. الفتاة بلغت سن الرشد وصارت سيدة تصرفاتها ومؤهلة للزواج من أي شخص تريده، العريس ليس على ذوق والديها. هذا لسوء الحظ بالتأكيد، ولكن ليس في وسعهما فعل شيء إلا التصالح مع العريس ونسيان خلافاتهما الصغيرة.

أبداً! ومشى الكولونيل في الغرفة. الأخرق الأسود! زميل استيريو الذي استقبله بنفسه في البيت هو ودونا إيميليا. الذي كانا يقدمان له وجبته اليومية الوحيدة! ها هو يرد على حسن معاملتهما باللعب بعقل ابنتهما، إنها ليست أكثر من طفلة. والخلاسي لا أب ولا أم له، عملياً عاش على الصدقات حتى يوم تخرجه. لا أحد. نكرة اسمها تادو كانهوتو.

ـ اعذرني يا كولونيل ولكن الدكتور تادو كانهوتو ليس نكرة. إننا نتحدث عن مهندس يتمتع بسمعة جيدة، وأمامه مستقبل عظيم بدون شك، وبالنسبة للو فهي لم تعد طفلة. إنها في الحادية والعشرين. وإذا كانت قد تركت بيت أبويها لتتزوج الدكتور تادو فلأنها تحبه!.

ـ هجين!

ـ اعذرني يا كولونيل، يوم أمس فقط كنت أتطلع إلى طلب يد لو، وحين أبلغتك وأبلغت الدونا إيميليا بنيتي تلقيت موافقتكما، الأمر الذي أفتخر به، ولكن أنا نفسي هجين يا كولونيل وهذا ليس سبباً ل..

ـ ماذا يا سيدي؟ هجين؟

ـ يبدو أن ما يهمك أكثر من غيره، يا عزيزي الكولونيل، هو اللون وليس العرق. جدتي لأبي كانت خلاسية سوداء حالكة السواد. وصرت أنا أبيض، ولكن لي أخاً طبيباً في سان باولو، أنيقاً ووسيماً وذا ملامح سوداء. طلع لجدتنا السوداء. وهو متزوج، بالمصادفة، من ابنة إيطالي غني جداً، في باهيا، من الصعب يا كولونيل، أن تخمن من هو ليس هجيناً.

ـ عائلتي.

ـ يا كولونيل! إن كانت ابنتك تحب الدكتور تادو، فانس أحقادك العرقية وامنحها بركتك.

ـ أبداً. بالنسبة لي سيكون يوم زواجها من هذا العبد يوم موتها ودفنها.

ـ حين يبدأ الأحفاد بالمجيء..

ـ دكتور. أنا أمنعك من التحدث عن هذا الموضوع المشين. إنني أنوي إيقاف هذا الزواج بأية وسيلة أراها ضرورية. وقد جئت إلى هنا لأعينك محامياً تساعدني على زج هذا الصعلوك في السجن وأخذ لو إلى الدير.

ـ لقد سبق أن قلت لك إنه لا يمكن فعل شيء يا كولونيل. القانون..

ـ وماذا يهمني من القانون؟ أنت محام. وعليك أن تعرف أن القانون لم يصنع لكي يطيعه الجميع. حين تكون غنياً تكون فوق القانون. إنك مفوض في أن تنفق قدر ما تحتاج.

ـ مستحيل يا كولونيل. ليس فقط إن القانون واضح تماماً، ولكن هناك تفصيل آخر لم تنتبه إليه: فمن يوم أمس أنا محامي ابنتك لو. لو تعاقدت معي لرعاية حقوقها وللدفاع عنها، بصفتها مواطنة تملك كافة مقوماتها. وضد أية مناورة لإعاقة زواجها من الدكتور تادو كانهوتو، وبناء عليه..

والتجأ الكولونيل إلى أصدقائه المتنفذين، ورفع صوته متوعداً ووضع نفسه تحت تصرف السلطات. وأعطيت الأوامر لرجال التحري للبحث عن تادو وجلبه إلى مقر قيادة الشرطة. وعثروا عليه في خيمة المعجزات ومعه المحامي باسارينهو الذي يبحث في باهيا كلها عنه لكي يحذره من نوايا ألفازنديرو (الأفندي).

ـ أنت منافسي إذاً؟ وابتسم تادو وهما يتصافحان.

ـ أظن أنني الآن محام، وقد تعبت حتى عثرت عليك يا دكتور كانهوتو.

غرقا في الحديث حتى جاءتهما الشرطة السرية. ورفض تادو مرافقتهم: «لم أرتكب جريمة وليس هناك من سبب يجعلني أذهب إلى المخفر».

ـ إن لم تأت معنا سنجرك جراً.

وحلّ المحامي المعضلة بعرضه في أن يذهب إلى قائد الشرطة بنفسه: «أنا أعرفه جيداً. كنا في صف واحد في الجامعة وعلاقتنا ممتازة».

وفي مكتب قائد الشرطة طالب الدكتور روي بأن يعرف ما إذا كان جهاز الشرطة قد وجد ليضمن تنفيذ القانون أم لينتهك القانون ويتغاضى عن ممارسة أفعال تعسفية مخالفة للقانون.

ـ لا تنفعل يا عزيزي. عندي أكثر من عشرة طلبات من الكولونيل غوميز لاعتقال تادو كانهوتو وضربه، وكل ما فعلته هو أنني دعوت المذكور للحضور إلى قيادة الشرطة وشرح موقفه. وفي النهاية المسألة مسألة اختطاف قاصر هي ابنة إحدى أفضل عائلاتنا.

قاصر؟ مخطوفة؟ اليوم بلغت لو الحادية والعشرين، وقانونياً هي بالغة، مثلما أنت بالغ، وقد غادرت بيتها على قدميها وتركت رسالة توضيح لأهلها. وبعد أن أوضحت لك هذه التفاصيل أود أن أتساءل عما إذا كنت تعرف من هو «المذكور» أم لا إن كنت لا تعرف فأنا أقول لك. إنه المهندس تادو كانهوتو، عضو من فريق عمل الدكتور باولو دوفرونتين وذراعه الأيمن. والبروفسور برنارد من المعهد الفني معه في جيبه تفويض من باولو دوفرونتين في أن يحضر بدلاً عنه شاهداً على زواج الدكتور تادو من ابنة الكولونيل غوميز.

ـ لم تقل لنا ذلك من قبل. ظننت أنه مجرد دون جوان من النوع الرخيص.

وتابع المحامي تساؤلاته: هل تعرف أين هي الفتاة الآن؟ في بيت الدكتور سيلفا فيراجا. كيف ستخرجها من هناك؟ أليس لدى قائد الشرطة ما يكفيه من المشاكل بسبب الانتهاكات التي يقترفها معاون قائد الشرطة بدريتو غوردو؟ هل يبحث عن وجع رأس جديد؟ إن باسارينهو، نفسه، محامي

المهندس، هو الذي منعه من الإبراق لباولو دوفرنتين ليخبره بتهديدات الشرطة له.

ـ أنا لم أهدد أحداً. طلبت منه أن يأتي فقط.

ـ أرسلت اثنين من الزعران ومعهما الأوامر بجلبه إلى هنا. ولو لم أكن موجوداً لجروا الدكتور تادو إلى هنا بالقوة. هل تستطيع أن تتصور العواقب التي كانت ستترتب على ذلك؟ ما تفعله، إن كنت تعرف أم لا تعرف، هو تحويل عملك إلى قوادة من أجل تلبية نزوات كولونيل من المناطق النائية. ولو أن فرونتين حرك أصبعه فقط لما اكتفى المحافظ بطردك. اترك هذا الأمر يا صديقي العزيز.

ألغى قائد الشرطة أمره للتحري وأبلغ الكولونيل بأسفه لعدم قدرته على فعل شيء، فالمسألة كلها خارج نطاق صلاحياته. إنه يحب وظيفته، وعمولته من لعبة الحيوانات وحدها جعلته حتى الآن قادراً على شراء بيت في غراشا.

وفي حالة من اليأس هدد الكولونيل بأن يفرض إرادته بإيقاف الزفاف بالسلاح، و «بجلد الصعلوك الأسود على وجهه بالسوط». ولم يفعل شيئاً من هذا، بل ذهب إلى عزبته وهو يتوعد حين علق البلاغ في المحكمة وقرئت المراسيم في كنيسة سان فرانسيسكو، التعليقات وثرثرات العجائز وضحكاتهن المخنوقة والأسئلة لم تصل إلى المزرعة والمراعي. لقد دارت الكلمة، ولم يعد أحد في باهيا يتحدث عن شيء آخر. ورفضت جدة لو، العجوز يوفراسيا، أم دونا إيميليا، التي كانت شبه خرفة، أن تشارك ابنتها وصهرها في مقاطعتهما، لم تكن تطيق العزبة ولا شيء يمتعها أكثر من بعض الثرثرة، آخر متعة متبقية في كهولتها، لا، سأظل هنا مع الخدم والسائق. لن تستطيعوا جري إلى تلك العزبة.

بعد عدة أيام حدث الزواج بسرية صارمة. ولكن ليس في بيت زابيلا كما كان مخططاً له. فبما أن سيلفا فيراجا كان، بناء على طلب أرشانجو، قد دعا لو للإقامة مع عائلته، فإن الأسرة قدمت البيت والشمبانيا للاحتفال. وترددت لو خشية تعرض المرأة العجوز للأذى، ولكن تادو قبل الدعوة، «هذا أفضل بكثير يا عزيزتي». واستعداداً للمشاركة ارتدت زابيلا أجمل ما لديها من ملابس وحلي، فبدت وكأنها قد خرجت لتوها من صفحات كتاب عن أزياء السيدات من كتب القرن التاسع عشر. فري تيموتيو عمل القداس. والقاضي سانتوس كروز، الذي قام في هذه المناسبة بدور رب العائلة، سجل الزواج قانونياً، وألقى كل منهما كلمة.

الراهب، ذو اللكنة الألمانية في لغته البرتغالية القاسية إلى درجة أنها تكسر الحجارة، امتدح توحيد القلبين العاشقين، هذا التوحيد المبارك بين عرقين مختلفين ودمين وثقافتين. ولم يقل القاضي أقل من ذلك. فهو خطيب بارع ينشر قصائده في الصحف. حيا بفقرات غنائية الحب الذي يسمو على كل اختلاف في العرق أو الطبقة لكي يخلق عوالم جمال جديدة، وكما قالت زابيلا من خلال دموعها كان خطاب القاضي «ترنيمة صلاة للحب، قصيدة. أين مرفيي».

على الأبواب وفي زوايا الشوارع، في جوار بيت العالم انتشر أشهر مصارعي الكابويرا في باهيا، مستنفرين ومستعدين لأي طارئ. والمعلمان، بوديان وفالدلوار، كان يحرسان الباب المؤدي إلى الشارع، فعلى الرغم من أن الكولونيل قد رحل إلى داخل البلاد، فإن بدرو أرشانجو لم يتخل عن إجراءاته الاحتياطية. لم يكن يريد مواجهة أية مفاجآت.

المتطفل الوحيد على العرس كان يتمثل في جدة لو. فبسبب شوقها الكبير لثرثرة ممتعة حول حماقة

حفيدتها ـ يا لها من فتاة عنيدة عاقة تترك أسرتها من أجل أسود مفلس ـ ذهبت لزيارة زابيلا صديقة صباها. ويا لها من صديقة!

ـ «آه يا دونا يوفراسيا. المدام ذهبت إلى العرس، أوه. أتمنى لو أنك ذهبت أنت أيضاً». كانت الخادمة ترتجف من الإثارة والاهتياج.

ـ أي عرس؟ عرس حفيدتي؟ عرس لو؟ هل هو اليوم؟ أين؟

ـ في بيت دكتور سيلفا فيراجا؟ أسرع أيها السائق! قد أصل في الوقت المناسب لرؤية شيء مسل. ووصلت في الوقت الذي كان فيه فري تيموتيو يقدم مباركته للزوجين وكان قد حان وقت تبادل قبلة.

ورأت زابيلا شبحاً يتقدم من الغرفة الأخرى. نوم دورديو (باسم الله) كأنه يوفراسيا.

ـ يا أصدقائي. شيرز زامي. ها قد مُثّلت العائلة. لا غراندمير جاءت لتبارك حفيدتها. أنتري، يوفراسيا، أنتري!

ترددت العجوز لوهلة. ثم ابتسمت لزوجة سيلفا فيراجا، وتقدمت خطوة واحدة ثم تأملت حفيدتها. كانت تبدو جميلة في فستان العرس مع النقاب والإكليل على شعرها الأشقر وهي تبتسم بشفتيها وعينيها الواسعتين قرب زوجها الذي كان متألقاً ببذلته الفروك المفصلة جيداً ووجهه الجاد، ولد أسود وسيم (محرز) تقدمت من لو وتادو. يستطيع صهرها السخيف أن يلقي بنفسه في البحيرة! في النهاية ليست هذه أول مرة يتقلب فيها خلاسي في أسرة العائلة. أنا التي أعرف. أليس كذلك يا زابيلا؟

ومن مكانهما وراء الضيوف الآخرين رأى بدرو أرشانجو وليديو كورو عناق تادو مع الجدة يوفراسيا مارياليل دابايقا مينديس.

- 18 -

استمرت حرب بدريتو غوردو المقدسة عدة سنوات، وشيئاً فشيئاً بدأت مقاومة الكاهنات (هاي وباي دوسانتو) تضعف. وسجل الشعب مراحل الاضطهاد المظفرة في أغنيات السامبا والكابويرا:

لا فائدة من الكاندومبلي

التي يرقص فيها الطبيب والساحر

ولكن حين يصيبني ألم أو وجع

فأنا أول من يعثر عليه.

وحمل كثيرون من (البابا لوريكسا) و (الإيا لوريكسا) الآكسي المقدسة وكهنتها بعيداً منفيين من المدينة وضواحيها إلى أماكن بعيدة يصعب الوصول إليها. وضب آخرون الأريكسا والأدوات والأمتعة والحجارة الخاصة والأغاني والرقصات وإيقاعات الطبول وانتقلوا بقضهم وقضيضهم إلى ريو دي جانيرو. وبهذا انتقلت السامبا إلى حيث كانت عاصمة البلاد في ذلك الحين. لقد جاءت مع قوافل أبناء باهيا الهاربين. ولم تعد بعض المعابد الصغيرة (التيريرو) تأمل في الصمود أمام اضطهاد كهذا، فاستسلمت نهائياً. وخفضت معابد أخرى برنامج مهرجاناتها إلى مستوى الالتزامات الضرورية وحتى هذه كانت تقدم بشكل سري.

قلة منها استمرت في الكفاح حتى الموت، البيوت الكبيرة بتقاليدها القديمة وعشرات الخبراء فيها. في الأيام المقدسة حين كانت الطبول تستدعي القديسين كان أهل هذه المعابد يتحدون الشرطة والتهديد بالسجن والضرب:

خبئ هذا القديس

بدريتو هنا

هاهو يأتي مغنياً أو كابيتشي

هاهو يأتي مغنياً أو كابيتشي

وكانت الشرطة السرية، تحت الإشراف المباشر لبدريتو نفسه، تجوب أنحاء باهيا ليلاً بحثاً عن الكوندامبلي والطبول، لم يكن هناك من يقاوم الهراوات:

هز الخشخيشة

اضرب الرق

أسرع، أسرع، أسرع

بدريتو قادم

منذ عام 1920 وحتى عام 1926 طوال فترة حكم معاون قائد الشرطة المطلق الصلاحية كانت العادات ذات الأصل الزنجي كلها دون استثناء، من النساء اللواتي يبعن الطعام حتى الأوريسكا ذاتها، هدفاً لإجراءات عنيفة دائمة ومتصاعدة. ولم يتزعزع تصميم ضابط الشرطة الكبير على القضاء على التراث الشعبي بالسكاكين والهراوات إذا استطاع وبالرصاص إذا اقتضى الأمر.

ونفيت سامبا الحلقات إلى أطراف الأرض أو على الأقل إلى بيوت الأزقة الضائعة المتداعية. واضطرت مدارس الكابويرا كلها إلى إغلاق أبوابها. وحتى بوديان نفسه اضطر إلى التخفي فترة من الزمن وعاش فالدلوار تجربة قاسية هو الآخر. ولم يكن اضطهاد مصارعي الكابويرا بهذا الشكل الصارخ، كان عناصر الشرطة يخشون من التصدي لهم علناً. لذا كان من الأفضل ممارسة القمع عن بعد. من وراء ظهورهم، بين حين وآخر يتم العثور على جثة مصارع كابويرا عند الفجر وقد اخترقتها الطلقات التي أطلقت من كمين كما يفعل المجرمون. هكذا مات نيكودندي، وبوركوبين، وجوان غراوشا وكاسيانو دوبوني.

بين ضحايا القمع والوحشية في أيام الانتقام المفتوح تلك كان قديس (باي دو سانتو) اسمه بروكوبيو كافيير دوسوزا، بابلوريكسا الخاص لإيلي أوغونجا، أهم كاندومبلي في باهيا، تحدى بدريتو وتعرض نتيجة لذلك للاضطهاد والعقاب دون حدود، كان يتعرض للاعتقال باستمرار وتخطط ظهره بلسعات السياط المجدولة من الجلد. ولم يستطع شيء أن يوقفه. رفض الاعتراف بالهزيمة. وصار الناس يغنون له في الشوارع:

كان بروكوبيو هناك في الخيمة

ينتظر هبوط القديس

حين جاء بدلاً منه بدريتو

قال: تعال معي يا بروكوبيو

قوة الدجاجة في جناحها

والديك قوي بشوكة رجله

بوكوبيو معه الكاندومبلي

وبدريتو حمل سكينه الكبيرة.

رفض بروكوبيو خنق صوت الطبول، ولم يقبل الهرب من بيته إلى الغابة أو إلى ريو دو جانيرو، وتقلصت دائرة الخبراء الغفيرة إلى حفنة من الأشخاص، وانسحب الأوغان بانتظار أيام أفضل ولكن بروكوبيو استمر: «لن يمنعني أحد من تكريم قديسي».

وهو مضرج بالدماء وبملابسه الممزقة ظل يكرر تحديه لبدريتو غوردو في مكتب معاون قائد الشرطة: «أنا بابالوريكسا وسأكرم قديسي، أبي أوكسوسي».

ـ لم أنت عنيد إلى هذا الحد أيها الأحمق؟ ألا ترى أن قديسيك لا يساوون نكلة؟ هل ستظل تتعرض للضرب حتى تموت؟

ـ واجبي هو أن أعبد الأوريكسا وأدق لهم الطبول في الأيام المقدسة، هذا واجبي حتى لو قتلتني.

ـ اسمع أيها الحيوان الأبكم: سأطلق سراحك هذه المرة. ولكن إن تجرأت على عقد كاندومبلي آخر ـ اسمع جيداً ـ فسيكون الأخير. الأخير. هل تسمع؟

ـ لن أموت قبل اليوم الذي حدده الله. أوكسوسي سيرعاني ويحميني.

ـ ها.. لن تموت؟ قديسوك هؤلاء لا قيمة لهم. ولو كانت لهم أية قوة لكانوا قد قتلوني. إنني أجلدهم كلهم حتى الموت، وهاأنذا حي وبصحتي. ماذا حدث للتعويذة التي كان المفروض أن تقتلني.

ـ أنا لا أعمل إلا الخير. لم يسبق لي أن أعددت تعويذة شر.

ـ «اسمع أيها الثور الأبكم. قديسو الكنيسة يقومون بالمعجزات ولهذا هم قديسون، وكل ما يفعله قديسوكم هو إثارة الضجيج. إنهم مليئون بالأقذار وهذا كل ما فيهم. واليوم الذي أرى فيه أحد هؤلاء اللواطيين يقدم معجزة هو اليوم الذي سأستقيل فيه». وضحك وهو يلمس صدر الزنجي المجرم بطرف خيزرانته. «خلال عدة أيام ستكتمل السنة السادسة على إخراسي طبول الكاندومبلي. لقد أوقفتها كلها تقريباً وسرعان ما سأقضي على ما تبقى.. خلال هذا الزمن كله لم أر أوريكسا واحداً يقدم معجزة. مجرد ثرثرة لا أكثر».

ورنت ضحكة الشرطي السري. كان الرئيس مستمتعاً جداً. ولم يكن الرئيس يخاف شيئاً. واستمع بروكوبيو إلى آخر تهديد منه:

ـ دعني أقدم لك هذه النصيحة. أغلق التيريرو وتخلص من تلك الطبول، وقل لقديسك أن يذهب إلى الجحيم، وسأوظفك في الشرطة السرية. إنها حياة رغيدة اسأل أولئك الشباب هناك. لأنه كما قلت إذا عقدت كاندومبلي آخر فسيكون الأخير. وأنا لا أكذب عليك.

ـ لن يمنعني أحد من تكريم قديسي.

ـ افعل وسترى. لقد حذرتك لآخر مرة.

هذا الشخص أمثولة سيئة للآخرين. إنه يبقي المقاومة حية. فهو لهب يضيء العتمة والليل الخطير بروكوبيو العنيد ليس نبتة متسلقة تتلوى في كل اتجاه. مر بدريتو بنظره على رجاله. واحداً بعد الآخر «عصبة من الزعران والقتلة يخدمون معاون قائد الشرطة» ستة أعوان من القيادة علمته كيف يقدر شجاعة كل عضو في تلك العصابة السيئة السمعة وولاءه. هؤلاء فرسان الحرب المقدسة، بينهم رجل حقيقي واحد فقط، واحد يستحق الثقة المطلقة، قلب لا يهاب وذراع لا يلتوي ولا يقاوم، كلب أمين مطيع بينهم كلهم، وهو زي (القلب الكبير).

- 19 -

في تيريرو إيلي أوغونجا تقلصت أعياد الماضي القديمة إلى مجموعة صغيرة من الخبراء والعمات والعجائز القدريات وقليل من الأوغان، ولم يتبق ما يكفي حتى من الألابي لقرع الطبول في مهرجان أوكسوسي. ولولا وجود أوجوبا والبي دوسانتو بروكوبيو لما وجد من يقود الأوركسترا. وانتشرت شائعة تقول أنه إذا تجرأ بروكوبيو على إقامة احتفال في الخيمة فإن الرئيس بدريتو سيأتي شخصياً والويل لمن يجده هناك. ولقد أبلغ ألبي دوسانتو نفسه: إن قرعت الطبول هذه المرة فلن تستطيع أن تقرعها مرة أخرى.

في الحارات وفي طرقات الريف اعتبر بروكوبيو ميتاً منذ الآن. لن تكتفي الشرطة السرية بالاعتقال والضرب وتدنيس الحرمات. كانت الأوامر لديهم متعلقة بالبابالوريكسا. وباحتقار شديد لكل نصيحة وتحذير صمم بروكوبيو على فتح الخيمة في عيد كوربوس كريستي، يوم أو كسوسي، وعلى التواجد هناك لتحية الأوريكسا: «كيف أستطيع ألاّ أحتفل بعيد قديسي؟» قال ذلك لبدرو أرشانجو في خيمة المعجزات. «حتى لو قتلوني علي أن أقوم بواجبي. من أجل هذا أعطوني الديكا هبة الأرواح».

واقترح بدرو أرشانجو أن تنظم مجموعة من مصارعي الكابويرا لحماية التيريرو ولتشتبك مع زعران قائد الشرطة. لقد قتلت الشرطة حتى الآن كثيراً من الرجال الشجعان في تلك الحروب دون هوادة ولا رحمة ابتداء بمانويل دوبراكسيدس أول القتلى. ولقد دُفع البعض إلى الهرب خوفاً. وغير آخرون نهجهم في الحياة وتخلوا عن البيريمبوس. ولكن ظل بعض الرفاق البواسل وبدرو أرشانجو يعرف كيف يعثر عليهم. ورفض بروكوبيو. إذا جاء قائد الشرطة فمن المفضل ألا يجد إلا البي دو سانتو والخبراء والألابي. كلما قل العدو كان أحسن.

كان عدد الحضور قليلاً، ولكنهم كانوا متحمسين جداً. نزل القديسون باكراً وجميعهم دفعة واحدة وبجلبة قوية، كسانغو ويانسان، أوكسالا وناتان بوروكو، ايوا وروكو، بيمانجا ربة المياه وأوكسوماري، الثعبان الكبير والمتلوي على الأرض. وفي وسط الغرفة أوكسوسي، ملك كيتو، صياد الوحوش المفترسة وبيده اليمنى قوس وسهم، وفي يده اليسرى إيروكيري، وهلل بدرو أرشانجو أوجوبا تحية لهم «أوكي، آرو». أوكسوسي الذي كان يرقص في جسد بروكوبيو تقدم من باب التيريرو وأطلق صرخته المتحدية، وقاد أوجوبا والاياكيكيري الغناء لترتيب الراقصين، كل شيء هادئ وممتع، أوكي آرو، أوكسوسي!.

وأعلنت أصوات السيارات ساعة الموت. في بعض المهمات لم يكن بدريتو غوردو يثق بأحد إلا زي «القلب الكبير»، هو صاحب الفم الذي لا يسأل والقلب الذي لا يشك. ولا مكان للخوف أو الندم في جسده العملاق. لا مثيل له من أجل إسكات لسان متمرد إلى الأبد.

لم يكن بدريتو، في العادة، يستخدم زي (القلب الكبير)، ضد العزل أو للمهمات السهلة مثل الغارات على الكاندومبلي وحلقات السامبا وجماعات الكارنفال وجوقات الطبول. إنه دمّوم*(33)، رجل يمكن الاعتماد عليه، قاتل ينتدب للمهمات الخطرة، إنه موجود دائماً عند مواجهة خطر حقيقي أو أعداء لدودين وقتلة مغتالين عنيدين وخصوم سياسيين مستعدين للقتال. وهذا ما حدث عندما اعتقل زيغومار، صفعة واحدة من زي (القلب الكبير) جعلت المجرم عاجزاً عن المواجهة، وفي تلك المرة في نادي رجال الأعمال حين أطلق أمريكو مونتيرو النار على قائد الشرطة من مسافة قريبة جداً، كان زي (القلب الكبير) هو الذي حرف فوهة المسدس، السبب الوحيد الذي منعه من خنق الصحافي يومها وفي التو هو أن بدريتو كان يريد أن يجلد عدوه بخيزرانته: «أفلته يا زي أريد أن أرى إن كان بهذه الشجاعة دون سلاح».

ومهمة زي(القلب الكبير) أيضاً حماية باب قلعة فيسنزا في أمارالينا، حيث كان القائد أحياناً يسترخي بعد ظهر بعض الأيام لغواية إحدى النساء المتزوجات، الديوثون يكونون أحيانا شجعاناً وبدريتو يحمل الدليل على ذلك ندبة في بطنه.

في المجارير ورؤوسهم مشقوقة بضربة قوية أو على أعناقهم آثار أصابع. حين كان زي (القلب الكبير) يرفع كفيه الضخمتين كان أشجع الرجال يجبنون أمامهما. لقد كان غوغا ماروتو أسداً، رجلاً فحلاً، أزعر عنيفاً متوحشاً. ولكن حين أحس ببراثن زي (القلب الكبير) الحديدية حول رقبته سقط على ركبتيه طالباً الرحمة.

والآن يأخذ معاون قائد الشرطة زي (القلب الكبير) في مهمة كاندومبلي لأول مرة على احتمال أن تكون هناك مقاومة حاصر الحفل بسام كوراكسنيك وزكريا داغوميا، والإثنان يحقدان حقداً شخصياً على التيريرو والأوريكسا. وقف بدريتو في المدخل، بهندامه الإنكليزي الكامل، وخيزرانته بيده، والقبعة البانامية على رأسه، غندور بمشربه الطويل، وخاطب البي دوسانتو:

ـ أريدك يا بروكوبيو!

وسمع بدرو أرشانجو الحكم بالموت في نبرة صوته. وتجمع العملاء السريون حول رئيسهم، وعرف المعلم أرشانجو زي ـ الإله المحارب (أوغون). لم يكن قد رآه منذ سنوات، منذ أن طردت ماجي باسان المرتد من تيريرو كسانغو وحرمته من الغناء والرقص لأنه قتل إياو. وحين دخلته روح القديس ضاعفت قوته. ذات ليلة في عيد كونسيشان دابرايا ثارت ثائرته من نزوات فتاة عنيدة، وحين استقبل القديس في داخله أوقف الحفل واضطر دورية كاملة من الجنود إلى الهرب. ولم يستطيعوا اعتقاله حتى اليوم التالي حين عثروا عليه يشخر في نوم بريء عند (نزلة السوق). يومها جنّده بدريتو. أخرجه من السجن وعينه حارساً شخصياً له. وكان العملاء الآخرون يلقبونه زي (القلب الكبير) بسبب كلامه البليد والطريقة الهائدة التي ينفذ فيها عمليات القتل. تعرف بيدرو أرشانجو على زي (أوغون). كل شيء متوقع.

ـ «توقف يا بروكوبيو. توقف!» وجه ضابط الشرطة أمره. «سلم نفسك وسأعفو عن الآخرين».

ـ أنا أوكسوسي ولا أحد يستطيع أن يوقفني.

ـ «سأوقفك في هذه اللحظة، أنت وقديسك الخرائي معك» وأشار بدريتو لزي نحو بروكوبيو «هذا.

اجلبه. حياً أو ميتاً».

تقدم الرجل الأسود، أطول من بيت. لكن أوجوبا لمح بعيني كسانغو ارتباكاً طفيفاً في خطواته وهو يدخل حرم التيريرو. أخذ سام كورالسنيك وزكريا داغوميا موقعيهما مستعدين لكبح أي احتجاج. وتابع بروكوبيو رقصته، لقد كان هو أوكسوسي الصياد، رب الغابة، ملك كيتو.

يقولون إنه في تلك اللحظة بالذات عاد إكسو من أقاصي الأرض ودخل الغرفة. وقال أجوبا: لارواي، إكسو، وحدث كل شيء بسرعة فائقة، حين خطا زي (القلب الكبير) خطوته الثانية نحو أكسوسي وجد بدرو أرشانجو يقف في طريقه. بدرو أرشانجو، أوجوبا، أو إكسو كما يقول الكثيرون. وهدر صوته راعداً باللعنة الرهيبة، اللعنة القاتلة:

«أوغون كابي دان ميجي، دان بيلو أونيبان!».

زي (القلب الكبير)، الكبير بحجم البيت، بعيني القاتل في وجهه. وبذراعه مثل الونش (الرافعة) وكفيه القاتلتين وقف جامداً بلا حراك حين سمع التعويذة. زي (أوغون) قفز وأطلق جئيراً. ألقى بحذائه. ودار حول الغرفة وتحول إلى أوريسكا، حين تملكه القديس تضاعفت قوته، صرخ «أغونهي!» وردد الحاضرون جميعاً: أغونهي، يا أبتي!.

«أوغون كابي دان ميجي، دان بيلو أونيبان» كررها أرشانجو، «أوغون يستدعي حيّتي الكوبرا، وها هما تقفان في وجه الجنود!».

ورفع أوريسكا ذراعيه مثل كماشتين، كانتا حيتي كوبرا: زي (القلب الكبير) أوغون في قمة غضبه، اندفع نحو بدريتو.

- زي. هل جننت يا زي؟

ولم يكن لدى سام كورالسنيك وزكريا داغوميا خيار، فوقفا بين الشيطان وضابط الشرطة، بيده اليمنى أمسك زي بسام كورالسنيك، قاتل مانويل دوبرا اكسيدس، عملاق القوارب وسفن الشحن الطيب، رفعه في الهواء ولوح به وكأنه لعبة طفل. ثم طوح به إلى الأرض على رأسه بكل قوته. واندفع رأس سام في رقبته وتحطم ظهره وتكسرت قاعدة جمجمته: ورقد ميتاً عند قدمي ضابط الشرطة. وكان زكريا داغومياً على وشك أن يطلق النار، لكنه لم يجد الفرصة. تلقى رفسة بين فخذيه, ففقد وعيه وهو يجأر، ولم يعد نافعاً للقتال بعدها.

مرتين فقط خاف بدريتو في حياته كلها. ولم يعرف أحد شيئاً عن المرتين.

في المرة الأولى كان يافعاً، طرياً في كلية الحقوق، قواداً يتعيش على المومسات العجائز. تسبب في تعاسة كبيرة لإحداهن. وكانت يائسة فقيرة نحيلة مسلولة. واستيقظ ذات ليلة ليجد موسى الحلاقة على رقبته. كانت على وشك البدء بفعلتها. الجلد كان قد انجرح وبدأ الدم يسيل، وما زال بدريتو يحمل الندبة. لكنها كانت سكرانة إلى درجة أنها بعد لحظة رعب مذهل استطاع الفتى أن ينتزع الموسى من يدها لشطب وجهها بها بفنية وحرفية. لم يكن هناك شاهد على خوفه حين استيقظ وأحس بالموسى على حلقه.

في المرة الثانية كان رجلاً متخرجاً لتوه من الجامعة. في عزبة والده مارس الجنس مع زوجة أحد

عمال المزرعة. وبعد ظهر أحد الأيام كان الرجل يشتغل خارجاً وكان بدريتو يعتلي المرأة المتهتكة حين أحس بسكين تطعنه بين أضلاعه وسمع صوتاً غاضباً يقول: «سأقتلك يا ابن القحبة». الرعب جعله يرتخي فوق المرأة، وأنقذه نداء شخص ما للعامل من الخارج. في تلك اللحظة التي تحول فيها انتباه الزوج الثائر استجمع بدريتو نفسه وانتزع سكين الشيطان وانهال عليه ضرباً، ولم يعرف أحد بهذا الخوف أيضاً إلا المرأة التي لاحظت خفقان قلب عشيقها. والذين تراكضوا ليشهدوا المشاجرة كانوا شهوداً على شجاعة بدريتو في تلقين العامل الزراعي درساً نافعاً.

والآن المرة الثالثة. ولكن الآن رأى كل من في الغرفة خوفه ويستطيعون أن يشهدوا عليه: كان خوفاً معلناً، ذعراً بلا عقل. حين صار الدموم زي (القلب الكبير) القاتل رهن إشارته، الرجل الذي هو ذراعه الأيمن، حين صار أوغون المحارب وانطلق خلفه كان بدريتو في حاجة إلى كل ذرة من الكبرياء، يمكنه لملمتها، لكي يرفع خيزرانته في محاولة أخيرة للحفاظ على قيادته. ولكن لا فائدة، قفزت (عصا ملقا) إلى يد الرجل الدموم، وارتفعت رؤوس الأفاعي في وجه قائد الحملة الصليبية المباركة، الحرب المقدسة. ولم يكن أمام بدريتو غوردو إلا أن يهرب في ذعر مخز صارخاً في طلب النجدة راكضاً نحو الآلة السريعة التي ستبعده عن جحيم أوريكسا صانع المعجزات. ولكن ماكومبيرو، للأسف، أفرغ العجلات الأربع.

كل من في الشارع المزدحم رأوا معاون قائد الشرطة بدريتو غودو، مصدر البلاء في الشرطة، القائد المشؤوم لعصبة من الزعران، البلطجي، الشيطان الضال بلا روح، مرعب الناس، في هربه المشين يلاحقه أريكسا من الكاندومبلي، المحارب أوغون المتأجج بالكوبرا، كانت نكتة للمدينة، وقصة العام الظريفة، وشهر بها بسخرية في صحف المعارضة، وشعراً من قبل لولو بارولا، وتحولت إلى أغنية شائعة في الشوارع.

قال المعلم أرشانجو: «يكفي»

لعنجهية بدريتو غورو وخداعه.

---

*(33) ـ كلب ضخم لتعقب طريدي العدالة ـ المورد.

- 20 -

قبل قائد الشرطة استقالة بدريتو غوردو بارتياح جلي. فهو إرث مربك من الحكومة السابقة، يتمتع بصلاحيات غير محدودة، يفعل ما يريده تماماً دون أن ينتظر تعليمات أو يحسب حسابه، يتزعم مجموعة من الأوغاد ـ القتلة الشرسين بحق ـ وقد أصبح هذا المعاون مشكلة مستعصية. والخوف وحده هو الذي كان يمنع قائد الشرطة من طرده من أجل المصلحة العامة.

لم تقع عين على بدريتو طوال عدة شهور، على الأقل في شوارع باهيا. لقد سافر إلى أوروبا في (رحلة دراسية). أما بالنسبة لزي (القلب الكبير) فقد مشطت الشرطة المدينة بحثاً عنه، وكانت آخر مهمة لحفنة زعران بدريتو. عثروا عليه يتجول في الغابة وراء حقول كابولا، وأطلقوا عليه النار دون رحمة. وعلى الرغم من أنه قد جرح جرحاً قاتلاً إلا أنه استطاع أن يمسك باينو شينسيو (الميتات السبع) من قصبته الهوائية وأن يأخذه معه إلى سماء القتلة.

أخيراً استطاعت حفلات الكاندومبلي أن تعود لفتح أبوابها، وعادت الأفوكسي إلى الشوارع، وازدحمت حفلات السامبا في مواسم الكرنفالات، وأعيد تنظيم الرانكو والتيرنو والبومبا ـ ميو ـ بوا وغيرها من المهرجانات الشعبية. وعادت الكابويرا إلى البريمبو والأغاني:

لن تعضك هذه الأفعى

سينهو سان بنتو

أوي، احذر الكوبرا

سينهو سان بنتو

اي، كومبادر

أي كومبادر أرشانجو ما أطول كفاحنا. استغرق المعلم ليديو كورو مع ذكرياته في خيمة المعجزات وهو يقرأ في الصحيفة أن معاون قائد الشرطة قد استقال. قبل خمس وعشرين سنة، عند نهاية القرن، بدأ قتالهم مع الشرطة والحكومة والتعصب الأعمى. عندما فكروا في أول كرنفال أفوكسي (السفارة الأفريقية) ونظموه وانطلقوا به إلى الشوارع. وكان الكرنفال عن بلاط أوكسالا والمعلم ليديو هو السفير وفالدلوار هو الراقص فرانسيسكو أنطونيو دوكاسترو لوريرو، وأسقطوه من منصبه وهو الرجل الذي منع مسيرات الرانكو والأفوكسي والطبول والسامبا، تلك كانت أياماً مجيدة. آه يا كومبادري على أيام كنا فيها شباناً وشجعاناً. ذلك الزمن الذي خرجنا فيه مع أبناء باهيا، غير مبال بالشرطة، فليحيا الشعب وليحيا الكرنفال! أتذكر يا كومبادر؟ كان صراعاً طويلاً طويلاً ويبدو عليه أنه لن ينتهي أبداً. والميجور داميان دو سوزا، حين كان مجرد ولد، وهو ينتزع قبعة ذلك الجندي عن رأسه، وكان مانويل

دوبراكسيس هو زومبي. بعدها لم نتوقف عن القتال يا كومبادر في الشوارع، في التيريرو، في الكتب والصحف، بالحبر والحجارة، بالحفلات وبالقبضات، ما أطول معركتنا! هل تظن أنها ستنتهي ذات يوم يا كومبادر العجوز؟

ستنتهي ذات يوم يا صاحبي، ولكننا لن نعيش لنرى النهاية يا رفيقي. ستموت ونحن نقاتل، ونحن مازلنا نستمتع بالقتال. بدريتو العجوز يفر وأغون يلاحقه ويداه مثل الكوبرا! دعني أطلق ضحكتي يا كومبادر. لم أر في حياتي ما هو مضحك أكثر من هذا. سنسقط ونحن نقاتل، شباناً وشجعاناً يا صاحبي. انكح البوليس! وليحيا شعب باهيا.

- 21 -

ذات ليلة، بعد مدة طويلة من حادث كاندومبلي بروكوبيو كان بعض الرجال عائدين في سيارة من كرنفال في (البيت الأبيض)، تيريرو طاحونة السكر القديمة، بعد أن عادت إلى بهائها القديم. كانت السيارة للبروفسور فراغانيتو، البروفسور الزائر للطفيليات ومعه فري تيموتيو (الذي كان يبدو بثيابه المدنية مثل بائع روسي متجول بسترته ولحيته الطويلة ووجهه الهولندي المورد) وناحت القديسين ميغيل وبدرو أرشانجو، لقد أنزلوا الراهب في الدير. ونزل ناحت القديسين أيضاً لأنه يعيش في غرفة صغيرة في شارع روادوليسيو ذاته الذي فتح فيه حانوته المليء بالتماثيل.

لكن البروفسور فراغا نيتو قد عاد من ألمانيا بعادات ليلية وشهية للبيرة:

ـ ما رأيك لو رطبنا حناجرنا يا أخ بدرو؟ فمي جاف، هذا الطعام الزيتي طيب جداً لكنه يعطشني.

ـ لا بأس ببعض البيرة.

وحين جلسا في بار بيريز عند زاوية التيريرو، القلعة إلى جانب وكلية الطب في مواجهتهم عبر الساحة، وارتشفوا كأسهم الأول، التقط البروفسور فراغا نيتو حبل الحديث:

ـ نحن لسنا البروفسور والساعي من قسم الطفيليات هنا، نحن رجلا علم وصديقان، دعنا نتحدث بصراحة ويمكنك أن تناديني «ميوبدم ـ يا صاحبي» كما تخاطب أي شخص آخر لو أحببت. الليلة أريدك أن تشرح لي بعض الأمور.

صديقان؟ فكر أرشانجو. صحيح أن احتراماً متبادلاً قوياً يربط بين الساعي والبروفسور. وفراغا نيتو، الرجل الكريم والعنيف، الذي قادته حماسته التي تسهل إثارتها ومزاجه النيراني للإدلاء بتصريحات طبقية والدخول في مجادلات عنيفة، قد وجد في أرشانجو نضجاً وثقة بالنفس. تتغلف روح التمرد العاطفية لديه باللطف وحب الحياة. ولكن هل يمكن لساع أن يتخذ من بروفسور صديقاً؟ قد يعتبر أرشانجو نفسه صديقاً لسيلفا فيراجا. فمنذ سنوات طويلة، منذ أكثر من خمس عشرة سنة في الحقيقة، وهو يتمتع بدفء محبة العالم التي كانت شبه أبوية على الرغم من أن فارق السن لم يكن كبيراً. وخلال تلك المدة كلها كانت يد المعلم تدله على الطريق وسيلفا فيراجا قد منحه الحماية والدعم، والعون الدائم دون حشرية. وهو أيضاً صديق لفراغا نيتو منذ أن استشهد نيتو بمقطع من «التأثير الأفريقي على عادات باهيا» في أطروحة فحصه ولأنه أيضاً كان يبحث دائماً عن رفقة أرشانجو، ولقد تردد عدة مرات على خيمة المعجزات. فهو لم يرها أيام كانت أغنية بوهيمية صاخبة وقاعة رقص. إنها الآن مجرد مطبعة متواضعة كثيرة الضجيج حيث يلتقي المالكون والزبائن ليناقشوا طرفاً من كل موضوع. نعم. هما، بالطبع، صديقان. لكنها صداقة من نوع مختلف عن تلك التي يحس بها نحو ليديوكورو وبوديان وفالدلوار وأوساوماني ليماويغيل. هؤلاء أصدقاء وأنداد. أما سيلفا فيراجا وفراغا نيتو فأعلى

ببضع خطوات على السلم الذي لم يرغب المعلم أرشانجو في تسلقه أبداً حتى حين كانت تمد له أياد صديقة لتساعده على الصعود. الميجور داميان يضع رجلاً على القاع ورجلاً على السلم، لكنه الوحيد القادر على القيام بعمل متوازن كهذا. وتادو؟ منذ زمن طويل لم تأت أخبار عنه. وارتشف المعلم بدرو أرشانجو رشفة من بيرته. وتفحص فراغا نيتو وجه الساعي، ما الذي يختفي في ظل هاتين العينين وفي هذا اللطف البرونزي؟ ما الذي يفكر فيه؟ ما العقيدة التي يعيش بها؟

بدأ فراغا نيتو يتردد على خيمة المعجزات لأنه كان يريد الالتقاء بالناس، «بجماهير العمال» كما يعبر عن المسألة. وكان الاستماع إليه وهو يتحدث أحياناً عن الحياة في أوروبا ودراسته والحركات السياسية وشغب العمال الذي شاهده، والاستماع إلى أنباء النبي الكريم عن عالم لن تتبقى فيه حتى الاختلافات الدقيقة كالتي تقوم بين أرشانجو وفراغانيتو, هذا الاستماع كان يجعل بدرو أرشانجو يحس أنه شيء عتيق مثل أثر من آثار عصر آخر.

«طيب يا صاحبي» قال البروفسور مقلداً أرشانجو وقاطعاً حبل تفكيره «فيك شيء لم أستطع أن أفهمه وهو يثير فضولي. منذ فترة وأنا أحب أن أتحدث معك عنه».

ـ ما هو؟ اسألني وسأجيبك إذا استطعت.

ـ كنت أتساءل كيف يمكن لرجل علم مثلك ـ نعم، رجل علم ولم لا؟ لأنك لم تتخرج من جامعة؟ فلنتوقف عن هذا اللغو ولنسم الرفش رفشاً*(34) ـ أتساءل كيف يمكن لك أن تؤمن بالكاندومبلي.

أفرغ كأس بيرته وملأه من جديد.

ـ فأنت تؤمن به. أليس كذلك؟ لولا ذلك لما أسلمت نفسك لهذا العرض من الغناء والرقص ومظاهر المرح الأخرى، ولما سمحت للآخرين بتقبيل يدك إلى آخر ما هنالك. ولا أنكر عليك أنه عرض جميل. حتى الراهب يتمنى مكانتك. ولكنك لا بد أنك توافقني، يا معلم بدرو، إنها مسألة بدائية تماماً. همجية سخيفة وبدائية، المرحلة الأولى من الحضارة ليس إلا. كيف تستطيع أن تقوم بذلك؟

ظل بدرو أرشانجو صامتاً لوهلة. ثم دفع عنه كأسه الفارغ، وطلب من الإسباني كأساً من الكاشاشا: النوع الذي تعرف أنني أحبه وليس النوع الآخر.

ـ يمكن القول لأنني أحب أن أغني وأرقص. فري تيموتيو يحب أن يتفرج، وأنا أحب أن أشارك. وهذا يكفي.

ـ لا يا سيدي. لا يكفي. ما أريد معرفته هو كيف تستطيع أن توفق بين معرفتك العلمية والتزامات الكاندومبلي. هذا ما أريد أن أعرفه. أنا إنسان تجريبي كما تعرف، وأحيانا سأكون منذهلاً تماماً أمام التناقضات في البشر. فيك أنت مثلاً. يبدو أن فيك رجلين، الأول يكتب والثاني يرقص في التيريرو.

وصل الروم وأفرغ بدرو أرشانجو الكأس دفعة واحدة. هذا المتطفل الفضولي يطلب مفتاح أصعب الألغاز، الأحجية الأكثر إيلاماً.

ـ «بدرو أرشانجو المحدث البارع ودودة الكتب، الذي يتحدث ويتناقش مع البروفسور فراغا نيتو والذي يقبل يد بولكويريا ال (إيالوريسكا)، هل هما شخصان مختلفان الأبيض والأسود ربما؟ أنت

مخطئ يا بروفسور إن كان هذا ما تظنه هناك رجل واحد فقط. مزيج من الاثنين، خلاسي واحد.

كان صوته بطيئاً قاسياً ومليئاً برصانة غير معهودة، كل كلمة كانت كأنها تخرج مسحوبة من صدره.

ـ ولكن يا معلم بدرو كيف يمكن أن توفق بين هذه التناقضات الكبيرة، أن تكون نعم ولا في الوقت ذاته.

ـ لأنني هجين، نصف أسود ونصف أبيض، وبهذا أنا أبيض وأسود في الوقت ذاته.

إنني مولود للكاندومبلي، وقد تربيت مع الأوريكسا، وحين كنت لا أزال ولداً تسلمت موقعاً بارزاً في التيريرو، هل تعرف ماذا يعني أوجوبا؟ أنا يا أستاذي الكريم، عينا كسانغو، إنني أحمل التزاماً ومسؤولية.

وخبط على الطاولة لينادي النادل: بيرة للبروفسور وكاشاشا لي.

ـ تريد أن تعرف إن كنت أؤمن به أم لا؟ سأقول لك ما لم أقله لأحد إلا لنفسي، وإذا أخبرت به أحداً سأقول إنك تكذب.

ـ لا تخف لن أقول.

ـ منذ سنوات طويلة وأنا أؤمن بأوريكساي، مثلما يؤمن فري تيموتيو بقديسيه وبالمسيح وبالعذراء. في ذلك الحين كل ما كنت أعرفه هو ما تعلمته في الشوارع. بعد ذلك صرت أبحث عن مصادر أخرى للمعرفة، وعلى الرغم من أنني قد تعلمت أشياء كثيرة. وكانت جيدة ونافعة، لكنني فقدت إيماني. أنت يا بروفسور تقول إنك عادي، وأنا لم أقرأ الكتّاب الذين تستشهد بهم، لكنني مادي مثلك وربما أكثر. من يدري؟

ـ ربما أكثر، لم تقول ذلك؟

ـ لأنني أعرف، تماماً مثلما تعرف، أنه لا يوجد لشيء إلا المادة. لكنني أعرف أيضاً أن الخوف، أحياناً وبالرغم من ذلك، يملأ أيامي فأتشوش، أنا لست محدوداً بما أعرفه يا بروفسور.

ـ أرجو أن تشرح ما قلته الآن؟

ـ لعبة أولاد، ما كان في الماضي هبوطاً إعجازياً للقديسين تقلص إلى حالة نشوة يستطيع أي طالب سنة أولى في الجامعة أن يحللها ويكشفها. بالنسبة لي يا بروفسور لا وجود إلا للمادة، لكن هذا ليس سبباً يدفعني إلى عدم الذهاب إلى التيريرو وتنفيذ الواجبات الملقاة على مركزي بصفتي أوجوبا، وتأدية التزاماتي. أنا أرفض أن أقيد نفسي كما تفعل أنت.. أنت تخاف مما يمكن أن يقوله عنك الناس، تخاف من أن تأخذ ماديتك حجماً.

ـ «على الأقل أنا منسجم مع نفسي وأنت لست منسجماً»، انفجر فراغانيتو صائحاً: «إن كنت لم تعد تؤمن به ألا ترى أنه من قلة الصدق أن تشارك في تهريج وكأنك تؤمن به؟».

ـ لا. أولاً وقبل كل شيء قلت لك أنني أحب أن أرقص وأغني. أنا أحب الحفلات وخاصة الكاندومبلي.

وإضافة إلى ذلك إننا في خضم صراع عنيف وقاس. انظر كيف يحاولون وبالعنف تدمير كل ما يمت بصلة إلينا نحن الزنوج والخلاسيين، تدمير خيارنا وحتى ملامحنا، قبل فترة بسيطة، حين كان الرئيس بدريتو لا يزال هنا، كان كل من يذهب إلى كاندومبلي يذهب وهو يحمل روحه على كفه. أنت تعرف ذلك. وقد تحدثنا عنه من قبل. ولكن هل تعرف عدد الذين قتلوا؟ لم تتوقف بل تقلصت، هل تعرف لماذا طرد معاون قائد الشرطة؟ هل تعرف كيف حدث ذلك؟

ـ سمعت عن ذلك مرة أو مرتين. قصة خرافية ورد اسمك فيها.

ـ هل تعتقد بأنني لو ذهبت وتناقشت مع الرئيس بدريتو، كما أتناقش معك هنا، كنت سأخرج بأية نتيجة؟ ولو أنني أعلنت فلسفتي المادية وغسلت يدي من الكاندومبلي وقلت إن هذا كله لعب أولاد ليس إلا، ، وليد خوف بدائي وجهل وبؤس، فمن الذين كنت سأساعدهم بذلك؟ كنت سأساعد بدريتو وشلة زعرانه يا بروفسور، كنت سأساعد في تدمير مهرجان الشعب، أفضّل أن أشارك في الكاندومبلي، إضافة إلى أنني أحب أن أذهب. أحب أن أقود الغناء والرقص على إيقاع الطبول.

ـ طيب يا معلم بدرو إنك لن تغير المجتمع ولن تغير العالم بهذه الطريقة.

ـ ألن أفعل؟ أظن أن الأوريكسا مباركة للشعب، مصارعة الكابويرا، حلقات السامبا، الأفوكسي، الأتاباك، البيريمبو كلها بركات للناس، هذه الأشياء كلها وكثير غيرها تريد بتفكيرك الضيق، أن تتخلص منه، تماماً مثل الرئيس بدريتو، إذا سمحت لي بهذا القول، إن ماديتي لا تقيدني. أما التغيير والتحويل يا بروفسور فأنا أؤمن بهما، ولكن ألا تظن أنني فعلت شيئاً لتحقيقهما.

وتاهت نظرته في تيريرو يسوع.

ـ تيريرو يسوع. كل شيء في باهيا خليط يا بروفسور، باحة كنيسة يسوع المسيح وتيريرو أوكسالا، وتيريرو يسوع. أنا خليط من بشر وشعوب، أنا خلاسي، برازيلي. غداً ستصير الأمور كما تقول وأرجو أن تكون. أنا واثق من ذلك: البشرية تتقدم. وحين يأتي ذلك اليوم سيكون كل شيء جزءاً من خليط كلي. وما يبدو الآن لغزاً يجب أن يقاتل الفقراء من أجله ـ اجتماعات الزنوج والخلاسيين، الموسيقى الممنوعة، الرقصات غير الشرعية، الكاندومبلي والسامبا والكابويرا ـ هذا كله سيكون بهجة مخزّنة للشعب البرازيلي. موسيقانا مع الباليه مع لوننا وضحكتنا. هل تفهمني؟

ـ لا أعرف. ربما كنت على حق. يجب أن أفكر في الموضوع.

ـ سأقول لك شيئاً آخر يا بروفسور. أعرف بثقة أنه لا وجود لشيء فوق البشر، وهذا نتيجة للانفعال وليس العقل. وهو يولد دائماً، تقريباً، من الخوف. وعلى الرغم من ذلك كله، حين أبلغني حفيدي تادو أنه يريد أن يتزوج فتاة بيضاء غنية فكرت، دون وعي ودون قصد، بالأصداف التي ألقتها ماي دوسانتو يوم تخرجه، هذا كله في دمي يا بروفسور. الإنسان البدائي لا يزال حياً في أعماقي، في مكان لاتصل إليه إرادتي. لأنني وإياه كنا شخصاً واحداً لمدة طويلة. والآن دعني أسألك سؤالاً يا بروفسور: هل هو صعب أم سهل التوفيق بين الحياة والنظرية، بين الأشياء التي نتعلمها من الكتب وبين الحياة التي نعيشها؟

ـ حين نحاول تطبيق نظرياتنا بالنار والسيف فإنها تحرق أيدينا. هذا ما تعنيه. أليس كذلك؟

ـ لو أعلنت عقيدتي على الملأ وقلت إن هذا كله ليس إلا لعبة أكون قد وقفت إلى جانب الشرطة وبذلك أرتقي إلى مقام أعلى في الحياة كما يقولون. اسمع يا صاحبي، ذات يوم سيرقص أوريكسا على المسرح. أنا لا أريد أن أثور، أريد فقط أن أكون في مقدمة المسيرة، يا رفيقي.

---

*(34) ـ فلنسم الأشياء بأسمائها.

- 22 -

- «هذه المرة تمادى الأحمق نيلو أرغولو كثيراً. فكر فقط في أنه قد أرسل هذه المقالة إلى البرلمان آملاً في أنهم سيصدرون تشريعاً. ليس قانوناً واحداً فقط، بل مجموعة كاملة من القوانين، إنه يتطلع إلى الأعلى كثيراً». البروفسور فراغا نيتو وهو يغلي سخطاً يلوح بالورقة في الهواء. «لم يفكر أحد من قبل في تشريع وحشي كهذا حتى في أمريكا الشمالية. لقد بز أرغولو، الغول، حتى أسوأ الناس. أقبح قوانين في أية دولة جنوبية الأكثر عنصرية في الولايات المتحدة. أوه. هذه درة حقيقية! يجب أن تقرأها».

فراغا نيتو يثور بسهولة. الحماسة والكراهية تقودانه دائماً إلى تظاهرات مرتجلة حول موضوعات مختلفة ومتنوعة، في قاعات كلية الطب وتحت الأشجار في التيريرو. خلال ما لا يزيد عن خمس سنوات صار ذا شعبية واسعة مع الطلاب الذين كانوا يقصدونه بأية حجة والذين جعلوه منافحاً غير رسمي عن كل القضايا العادلة.

- هذا الأرغولو مهووس طائش. آن الآوان لكي يلقنه شخص ما درساً.

- أخذ بدرو أرشانجو المشروع وقرأه. كان نشرة صغيرة وضع فيها بروفسور الطب الشرعي خلاصة لأفكاره المعروفة أو نظرياته حول المشكلة العنصرية في البرازيل تفوق العرق الآري. دونية الآخرين كلهم وخاصة الزنوج الذين لا يزالون في حالة بدائية دون المستوى الإنساني. التزاوج هو الخطر الأكبر، السيف المعلق فوق البرازيل، العدوان المدمر، خلق لعرق ثانوي من خلال حرارة خط الاستواء، جنس ثانوي منحط كسول وعاجز مهيأ سلفاً للجريمة. تخلفنا كله بسبب التزاوج، يمكن للزنوج أن يكونوا ذوي نفع على الأقل في الأعمال الصعبة. إن لديهم القوة الوحشية التي لحيوانات التحميل. أما الهجناء فلأنهم غدارون وكسالى فلا يصلحون لشيء. إنهم لطخة في المشهد البرازيلي، لقد شوهوا شخصية الشعب البرازيلي، وهم حجر عثرة أمام أي جهد جدي في طريق التقدم أو «التقدمية»، وفي سلسلة من الاستشهادات ببرتغالية مقعرة تعود إلى القرن الخامس عشر مليئة بكلمات مثل «الستيوكونس» و «كوينكونكس» و«الكمالية الفوق بليقة» حلل البروفسور أرغولو المرض وأبرز مداه وثقله. ووضع بين أيدي التشريع الوطني الوصفة والمبضع والتعليمات الضرورية للتدخل الجراحي الخطير.

فإذا استطاع الدافع الوطني لدى أعضاء البرلمان أن يستصدر مجموعة من القوانين تفرض العزل العرقي، فإن من الممكن انتشال البرازيل من الهاوية التي توشك على السقوط فيها بفعل «التزاوج الحقير والمهين».

هذه المجموعة من التشريعات، التي ستغطي كل ما يتعلق بالزنوج والخلاسيين تتمحور حول

مخططين أساسيين.

الأول إعادة توطين وعزل كافة الزنوج والخلاسيين في مناطق محددة جغرافياً اختارها البروفسور نيلو أرغولو سلفاً: مناطق محددة من أمازونيا وماتوغروسو وغوياس. وصور الخرائط التي رسمها البروفسور ونسخها في أطروحته لا تترك مجالاً للشك حول الطبيعة القاسية لتلك المناطق، ولكن الحجر لم يكن يقصد منه أن يكون نهائياً. المقصود، ببساطة، فصل «العرق الأدنى» و «العرق الهامشي الحقير» عن بقية الشعب البرازيلي إلى أن يبت في أمرهم نهائياً. وتنبأ البروفسور بأن تطلب الحكومة منطقة ما من أفريقيا تتسع لكافة السكان الزنوج والخلاسيين في البرازيل - ستكون ليبريا أخرى، ومتحررة، طبعاً، من الأخطاء المرتكبة في تجربة أمريكا الشمالية. في حالة البرازيل سيتم ترحيل كل زنجي أو خلاسي، إذا كان هذا ممكناً من وجهة النظر الإنسانية - يتم إبعاده نهائياً وإلى الأبد.

المشروع الثاني، الذي هو أكثر حسماً بوضوح من الأول، ليس أقل من قانون، أو مرسوم، للخلاص الوطني ينص على تحريم الزواج بين البيض والسود. ويفهم منه أن كل من يحمل «الدم الأفريقي» يصنف على أنه أسود. وسيكون التحريم صارماً، وتلك هي الطريقة الوحيدة لوضع حد للتزاوج.

بتلخيص الموضوع بهذه الطريقة وبتجريده من لغته الراقية «وسقوطه اللااستحقاقي في البطلان» الذي ألقيت فيه، «فإن نظريات ومشاريع كهذه تبدو سطحية، ولكنها مع ذلك عوملت بجدية من قبل كتاب المقالات وأعضاء البرلمان. وبمناسبة الاجتماع الدستوري عام 1934 جاء من يستخرج من أعماق أرشيف الهيئة التشريعية المقترحات التي تضمنتها أطروحة البروفسور أرغولو: «مقدمة لدراسة سن قوانين للخلاص الوطني».

مر نيلو وقت طويل لم يسمح فيه بدرو أرشانجو للغضب أن يستولي عليه، ومنذ رفض الكولونيل غوميز لطلب زواج تادو من لو لم يستطع شيء آخر أن يثير فيه رد فعل عنيف مثل هذا. وحتى في الصراع ضد انتهاكات بدريتو، حين كان قلبه يتوجع لعمليات الجلد والغارات والاعتقالات وجرائم القتل فإن بدرو أرشانجو لم يفقد هدوءه الظاهري والسيطرة على حركاته الأمر الذي كان دليلاً على نضجه ودخوله في الشيخوخة. كان رابط الجأش ورشيقاً وجاهزاً دائما وسريعاً في التلبية حين يستدعى ولكن بهدوء ولطف في علاقاته اليومية ويظل رفيقاً طيباً متفهماً مرحاً. لكنه حين قرأ أطروحة نيلو أرغولو خرج عن طوره وراح يشتم وهو ينفس من غضبه: «التيس، العجوز، الفدم، الغبي، الخصية»!

وكان ولا يزال في أوج غضبه حين ذهب لزيارة زابيلا التي صارت الآن عاجزة تماماً عن تدبير شؤونها بنفسها. كانت مقيدة إلى كرسي هزاز وبانت عليها الكهولة، ولم يكن بدرو، وكانت «حطام العجوز مهترئة» رأى أنها عجوز تقترب من نهاية حياتها المتوهجة الخاملة المنهكة. ولكن زابيلا ظلت أكثر من عقد من السنوات مثلما كانت في عصر ذلك اليوم في خيمة المعجزات، نشيطة دائماً وفضولية لا تعرف التعب، أحياناً كانت مثل يافعة، مثلما كانت بحيويتها وحماسها حين كانت أميرة ريكونكافو ونخب باريس السابق.

وفي النهاية وضع الروماتيزم حداً لذهابها ومجيئها. تقيأت بالألم وأرهقت بالحقن، وصارت تتجادل مع الأطباء، وكثيراً ما كانت مشاكسة. لم تستسلم دفعة واحدة بل قاومت قدر استطاعتها وظلت تجوب ذلك الشارع ذهاباً وإياباً إلى أن وهنت ساقاها ورفضتا المسير أكثر من ذلك. عندها صار عليها أن تستسلم وتستخدم كرسي العجلات الذي أرسله سيلفا فيراجا من سان باولو بعد أن سمع بمرض

صديقته القديمة في إحدى رسائل أرشانجو. ولكنها لم تفقد مرحها. وظلت مناكدتها دلعة، وليست شكاءة. ظلت لها فتنة المرأة العجوز. وظلت محتفظة بوعيها وحضور ذهنها حتى النهاية. كانت تحب الحياة لكنها لم تستطع أن تحتمل فكرة أن تخرّف، أن تصبح «خفيفة الرأس» أو مخبولة محط الاحتقار والهزء. وقد قالت لأرشانجو «حين أبدأ بالتخريف مثل المجانين فاحرص على أن تجلب سماً أو شيئاً آخر من كلية الطب مما يمكن أن يقتل برمشة عين وأعطني إياه دون أن أعرف». كم صار عمرها فعلاً؟ قرابة التسعين على الأقل.

زيارة أي صديق هي مناسبة احتفالية. وزيارة أرشانجو لها خصوصية عالية. كانا يتحدثان ساعات متوالية. وكانت العجوز تسأل عن أخبار تادو ولو اللذين كانا رديئين في المراسلة. هل صحيح أن عائلة غوميز قد صالحتهما؟ ظلت زابيلا على اطلاع جيد حتى ماتت يوافراسيا، ولكن جدة (لو) قلبت السطل* (35) ولم تعد زابيلا تسمع الأخبار المثيرة إلا بالمصادفة: أحد أقاربها، بعيد القرابة، كان يعيش في ريو وجاء إلى باهيا ثم تذكر أن يزورها. ويا للشفقة القيمة! هذا القريب جوفنشيو أراوجو، مندوب التأمينات، مر بعائلة غوميز في العاصمة: ورأى إيميليا والكولونيل، ولو وتادو يتمشون معاً في كوبا كابانا في أحسن انسجام. والكولونيل العنيد هو الذي قدم له تادو: «صهري الدكتور تادو كانهوتو، أحد المهندسين الذين يمدنون ريو دي جانيرو» وكان يشع فخراً بصهره البارع الذي كان يسير معي بذراعين متشابكين، وأكد أرشانجو الخبر. لم يسمع به من تادو أو من لو، لم يكتبا له منذ زمن بعيد، لكنه صادف أستيريو، شقيق الفتاة، بعد عودته من الولايات المتحدة وكان الفتى ودوداً وهو الذي أعطاه أخبار الزوجين وانتهاء مقاومة الكولونيل غوميز. فحين عرف أن ابنته حامل هرع إلى ريو، وللأسف أجهضت لو وفقدت الولد، ولكن كل شيء آخر على ما يرام. الجميع سعداء. تادو. وأنا واثق أنك تعرفين ذلك مثلما أعرفه ـ موفق تماماً في عمله. وهو يعتبر مخططاً مدنياً فذاً، وقد صار الكولونيل غوميز رهن إشارته. ذلك الفتى اللطيف كان يغمز ويبتسم، شخص مرتاح في حياته غير مهتم على الإطلاق بأي عمل.

ألا يبدو لك تادو ناكراً للجميل؟ سألته زابيلا. ناكر للجميل؟ لأنه لا يكتب؟ مشغول جداً، عنده مسؤوليات كثيرة ووقته ضيق. وأرشانجو نفسه لا يعتمد عليه في مسألة كتابة الرسائل. وتطلعت زابيلا إلى عينيه: هذا الخلاسي مليء بالأفكار الغامضة.

كان بدرو أرشانجو يقرأ لها بصوت مرتفع: كانت تتذكر قصائد تحبها وتطلب المزيد من الأنباء. ويشربان المشروب. ولم تكن العجوز تبالي كثيراً بتحريم الأطباء عليها تناول الكحول. أي ضرر في قطرة صغيرة؟

في الزيارة المذكورة ذهب بدرو أرشانجو ليستأذن زابيلا في استخدام المعلومات التي سبق أن قدمتها له خلال تلك السنوات العشرين عن العائلات الأرستقراطية في باهيا، تلك العائلات النبيلة العظيمة التي تستخدم «دو» في أسمائها وتفاخر بدمها الأبيض. وذلك في كتاب يزمع أن يكتبه. وجعلها ترى أطروحة نيلو أرغولو: حول ضرورة شحن الزنوج والخلاسيين كلهم إلى مستنقعات ماتوغروسو أو غابات الأمازون ببعوضها وأمراض الملاريا فيها وأمراض الحمى الكامنة حول تعرجات أنهارها.

ـ لن يتبقى واحد في البلد ليحكي عن ذلك، قالت زابيلا ضاحكة ثم اكفهرت: صار الضحك موجعاً. وضحك بدرو أرشانجو أيضاً, لقد حسّنت العجوز مزاجه.

ـ نيلو أرغولو دودة، مكروب، أين سال أنديفيدو*[36]، خنزير وليس إنساناً. تابع يا ولدي واحك لي الأمر على حقيقته وبكل تفاصيله ودقائقه. وعجل بنشره لكي أستطيع أن أضحك آخر ضحكة على هؤلاء القوادين قبل أن أموت.

وعاد بدرو أرشانجو إلى الشغل المنظم وراح يكتب بأسرع ما يستطيع كما طلبت منه زابيلا «أريد أن أرى كتابك منشوراً، وأريد أن أرسل نسخة منه إلى نيلو دافيلا أرغولو دو أراوجو أفيك اين ديديكاس».*[37]

ولكن ولم يكن هناك وقت، فقد ماتت قبل أن ينتهي الكتاب، وفي الليلة السابقة لموتها كانت صافية الذهن تماماً. وقد ضحكت كثيراً حتى فقدت السيطرة على نفسها «إن فورير مون شير» حين أخبرها أرشانجو عن آخر اكتشافاته: عن زنجي اسمه بومبوكس كان أحد أسلافه، أسلاف أرشانجو، وهل تعرفين جد من هو أيضاً؟ جد البروفسور نيلو أرغولو دو أراوجو. أو لا لا!

في الصباح وجدت الخادمة زابيلا ميتة في سريرها الركوكي (المزخرف). لقد ماتت وهي نائمة، العمل السري الهادئ الوحيد الذي فعلته في حياتها الطويلة الغنية الحافلة والعاطفية. في ذلك النهار الكئيب الرطب الرمادي تجمع قليل من الناس حول الجثة النحيلة، بعضهم من العزب في فيتوريا، وبعضهم من الشوارع المتحدرة في بيلورينهو وتابوان. وحين جاء وقت نقل التابوت إلى مقبرة عائلة أراوجو أي بنهو كان أرشانجو وليديو حاملي النعش بالتعاون مع أشخاص من عائلات أفيلا وأرغولو وغو سالفيس ومارتين وأراوجو، كل منهم يمسك مسكة من النعش.

وعاد بدرو أرشانجو فوراً من المقبرة إلى الشغل، متابعاً الإيقاع ذاته، وكأن زابيلا مازالت حية. وبعد ما يقرب من السنة من نشر التشريع المقترح من قبل البروفسور نيلو أرغولو استطاع ليديو كورو أن يطبع، ويجلّد 142 نسخة من «ملاحظات على التزاوج بين عائلات باهيا»، الكتاب غير مرتب ومطبوع على أسوأ أنواع الورق، لم تكن هناك نقود تكفي لإكمال العمل بشكل لائق، وقد كلفت إعادة تشغيل الآلة الطابعة ثروة طائلة. فكان عليهما الاقتناع بعدة مواعين من ورق الجرائد التي حصلا عليها بمنة خاصة، ودفعا ثمنها بعد تضحية كبيرة.

في كتابه الثالث، هذا، حلل بدرو أرشانجو مصادر التزاوج وأثبت كثرتها، فكانت أكثر بكثير مما كان يتوقع هو نفسه، فباستثناء بعض الغرباء الوافدين مؤخراً، الذين لا يعول عليهم، لم تكن هناك عائلة واحدة دون امتزاج في دمائها. فالأبيض ذو الدم النقي شيء غير موجود في باهيا، دمها الأبيض كله سبق أن أغني بدماء هنود أو زنوج، والاثنين معاً في الغالب. وهذا التمازج الذي بدا مع تحطم السفينة كارامورو لم يتوقف أبداً عن تدفقه السريع والجامح، إنه الأساس الذي تقوم عليه البرازيل.

وكان الفصل المكرس لإثبات المقدرة الذهنية للهجناء يشتمل على لائحة مؤثرة من الكتاب والسياسيين والفنانين والمهندسين والصحافيين وحتى بارونات عظماء ودبلوماسيين وأساقفة. جميعهم كانوا خلاسيين وكانوا زبدة مثقفي البلاد.

وانتهى الكتاب بلائحة طويلة كانت السبب في إثارة الغضب والفضيحة والاضطهاد لمؤلفه. صنف بدرو أرشانجو عائلات باهيا الكريمة ثم عبأ أشجار عوائلها، التي كانت في السابق تغفل أسماء بعض الجدات والزيجات غير الشرعية وأولاد الحرام. وكانت السلالات هنا. وبالاعتماد على البراهين التي لا

تدحض من الجذع حتى الغصينات الصغيرة، تحتوي على بيض وسود وعلى مستوطنين وعبيد وعتقاء وجنود ورجال أدب وكهنة وأطباء سحرة، المزيج البرازيلي القديم. وعلى رأس هذا الحشد عائلات أفيلا وأرغولو وأراوجو من أسلاف بروفسور الطب الشرعي، الآري ذي الدم النقي، الذي يريد تطبيق أقسى أنواع التمييز العنصري وترحيل أولئك المجرمين بالفطرة، الزنوج والهجناء.

والحقيقة أن الكتاب كان مهدى إلى هذا الجنتلمان: «إلى الهر*(38) المحترم البروفسور ورجل الأدب، الدكتور نيلو دافيلا أوبيتيكو أرغولو دو أراوجو، مساهمة تضاف إلى دراسته للمسألة العرقية في البرازيل نقدم هذه الصفحات المتواضعة هدية من ابن عمه بدرو أرشانجو أو بيتيكو أوجوبا»، ولم يحسب أرشانجو حساب العواقب.

لقد خاطب بروفسور الطب الشرعي بصفته قريباً وابن عم من خلال المئة والثمانين صفحة التي يتألف منها الكتاب. يا ابن عمي ويا قريبي ويا نسيب الدم. إنهما ابنا عمومة من جهة جدهما المشترك: بومبوكسي أوبيتيكي، الذي تجري دماؤه في عروق كل من البروفسور والساعي، وكانت هناك قرائن دامغة وكثيرة: تواريخ وأسماء وشهادات ميلاد ورسائل حب ـ أوه. أكثر من اللازم. وكان اسم هذا الأوبيتيكو مرتبطاً بأول كاندومبلي في باهيا. وكان زنجياً وسيماً ضاجع ميسي يايا آفيلا، يا ابن عمي العزيز، وأولدها أطفالاً خلاسيين ذوي عيون خضراء.

وماذا بشأن عائلة أراوجو؟ كرر أرشانجو سؤال زابيلا: لماذا يتحدث البروفسور كثيراً عن عائلة أرغولو ويغض النظر عن عائلة أراوجو؟ هل من الممكن أن يكون السبب أنه كان يريد إخفاء أراوجو الأسود في الخلفية؟ ذلك الكولونيل العظيم، فورتوناتو دو أراوجو، بطل حرب الاستقلال، خلاسي ريكونكافو، الذي لا شك في أنه الأكثر أرستقراطية بين كافة ارستقراطيي السكّر إذا قيس بالذكاء والشجاعة والتنور.

في «الملاحظات» أورد أرشانجو الحقيقة كاملة. والآن تستطيع هذه العائلات أن تعرف من أين تحدرت. وتنظر إلى الوجه كله، بدقيقه وفحمه*(39)، بدلاً من النظر إلى جانب واحد منه. الآن تستطيع أن تعرف مَنْ ضاجع مَنْ.

وانتهى العالم.

---

*(35) ـ أي ماتت.

*(36) ـ شخص وسخ.

*(37) ـ إهداء.

*(38) ـ الكلمة ألمانية (سيد) وهي مقصودة هنا بسبب نزعة البروفسور النازية.

*(39) ـ بياضه وسواده.

- 23 -

تظاهر الطلاب تأييداً لبدرو أرشانجو في خطابات حماسية ضد التمييز العنصري زملائهم طلاب كلية الطب في تشييع جنازة ساخرة للبروفسور نيلو دافيلا أرغولو دو أراوجو، نيلو أوبيتيكو، مع تابوت وأعلام ملونة وملصقات، وفي كل عطفة شارع في المدينة، في الخطابات والشعارات والنكات احتج الطلاب على اضطهاد بدرو أرشانجو، وقامت الشرطة بتشتيت الجنازة في كامبو غراند، فترك التابوت قبل التمكن من إحراقه في تيريرو دو جيسوس بمشعل رمزي «يشتعل بالكراهية العمياء التي يكنها البروفسور أرغولو نفسه، ملل المتعصبين» حسب ما جاء في تعبير السنيور باولو فاريس، المحمول على كرسي ذي عجلات منذ طفولته والذي لم يكن يبزه أحد في التأثير كمحرض وزعيم ثوري وخطيب.

أحاط الطلاب بالساعي وهتفوا له عندما غادر، باسماً، الكلية بعد الظهر بعد أن صوتت الكلية في اجتماع بكامل الأعضاء على طرده من وظيفته المتواضعة التي شغلها بإخلاص ما يقرب من ثلاثين سنة، ومنعه من الدخول إلى كلية الطب بعد ذلك.

واستقبلت البروفسور نيلو أرغولو جوقة فظيعة من الاستهجان بعد انتهاء الاجتماع، واجتاز الساحة العامة تحت صرخات «غول؟» و «نيلو أوبيتيكو» و «جلاد؟»، فطلب حماية الشرطة. وتم كذلك شجب أوزوالد وفونتيس ومونتينيغرو وآخرين من المتورطين في ذلك القرار المشؤوم. بينما كسب فراغا نيتو، من جهة أخرى، الاستحسان حين اعتلى منبراً مرتجلاً ليحتج مرة أخرى على العمل الانتقامي الظالم والدال على قلة العقل ضد موظف مثالي وباحث بارع. «أريد أن أحتج هنا، في هذه الساحة العامة، مثلما قدمت احتجاجي في اجتماع الكلية، أحتج بغضب وقرف!».

وانتشرت أنباء بعض تفاصيل ذلك الاجتماع، كان البروفسور أبيسياس لونا قد التفت إلى أرغولو سائلاً: «أرى أنك تريد أن تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الطالب الذي سماك في أحد الدروس ساخانا رولا كان محقاً. أنت تريد إذن أن تقيم محكمة تفتيش أخرى في كلية طب باهيا!»، وهستر البروفسور أرغولو وحاول أن يهاجم المدرس، وقبل التصويت في نهاية الاجتماع قرئت رسالة من سيلفا فيراجا بصوت عال، كان قد كتب من ساون باولو حالما سمع بالإجراء المقترح اتخاذه من قبل لجنة الكلية «لتبرئة البروفسور نيلو أرغولو، الذي لطخ شرفه من قبل الساعي بدرو أرشانجو».

كتب سيلفا فيراجا: «اطردوا الساعي إذا رأيتم ذلك، اقترفوا هذا الظلم، هذا الانتهاك لحقوق الإنسان، لكنكم لن تنجحوا في أن تمحوا من السجلات السنوية لكلية الطب اسم الرجل الذي، بقوة التواضع والعمل الدؤوب، أبدع عملاً شرف اسم كليتنا بعد أن كان قد مُرّغ في الوحل على أيدي أولئك الذين يدعون إلى الحقد العنصري من أشباه العلماء. الأقزام».

طرد بدرو أرشانجو ولكنه كُرّم وهو يتجه إلى بيلورينهو. وفي خيمة المعجزات وجد ليديو كورو

ومعه شرطيان بانتظاره.

قال أحدهما: أنت معتقل إذاً.

ـ معتقل؟ ولكن لماذا يا صاحبي؟

ـ كل شيء مكتوب هنا: شخص سيء، نذل محتال فوضوي، هيا بنا, فلنذهب!.

ـ لم أستطع أن أحذرك يا كومبادر. لم يسمحا لي بالخروج. أوضح ليديو.

وتم اصطحاب بدرو أرشانجو أوجوبا إلى مقر القيادة بين اثنين من الشرطة السرية لكي يوضع خلف القضبان. وحين وصلوا إلى الساحة التقوا بمجموعة من الجنود المتوجهين إلى شارع تابوان.

حالما أخذ الشرطيان أرشانجو، أسرع ليديو كورو يبحث عن الدكتور باسا رينهو، لم يجده في مكتبه ولا في المحكمة ولا في بيته ولا في أي مكان آخر. واستطاع أن يترك رسالة للدكتور فراغا نيتو ثم أسرع عائداً إلى بيت المحامي وانتزعه عن المائدة. ووعد الدكتور باسارينهو أن يذهب إلى الشرطة حالما ينهي عشاءه، من السخف أن يتم اعتقاله، وليس على ليديو أن يقلق، سيسعى لإطلاق سراح أرشانجو فوراً. وكان عند وعده جزئياً على الأقل. حين وصل إلى المخفر وجد البروفسور فراغا نيتو قد سبقه، لكن الأوامر كانت صارمة: هذا الخلاسي يحتاج منذ وقت طويل إلى أن يُلقّن درساً. انظر إلى سجله الأمني.

انتشر الخبر، وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تم ترتيب شيء فإن الناس بدأوا يتوافدون من كل اتجاه إلى قيادة الشرطة في الساحة العامة. رجال ونساء، سود وبيض وخلاسيون، عجائز وشبان، تيرينشيا وبوديان وميغيل ناحت القديسين وفالدوار وماني ليما وفات فرناندا وأوسا العجوز، فقراء من كل مكان، يتزايد عددهم شيئاً فشيئاً شكلوا موكباً متزايد العدد، فرادى ومجموعات من ثلاثة أو أربعة، وأحياناً عائلة بأكملها، أمهات يحملن أطفالهن على أردافهن.. كلهم تدفقوا إلى الساحة العامة.

اجتمعوا أمام قيادة الشرطة، في البدء عشرات من الناس، ثم مئات وبعدهم مئات ومئات. حيثما قيل النبأ كان يدفع الناس إلى الزحف. جاؤوا من الحارات، والأزقة المنتنة، ومن الحوانيت وأماكن الشغل والبارات وبيوت البغاء، كانوا يتدفقون إلى الساحة من كل اتجاه، وعلى رأسهم كان الميجور داميان دوسوزا ببذلته البيضاء، لأنه ابن أوكسالا، وقميصه ذي الياقة المقلوبة، سيغار في فمه وكلمات غاضبة على لسانه.

اعتلى برميل غازولين ورفع يده ثم ترك الكلمات النارية تتدفق دون انقطاع، ينزل ثم يدخل من باب القيادة ويختفي في الممرات ثم يعود أكثر غضباً مما كان. ويعتلي البرميل مرة أخرى ليتابع خطبته الرنانة. حين بدأ الكلام كان الظلام قد بدأ يحل واستمر يخطب حتى ساعة متأخرة من الليل: ما الجريمة التي اقترفها أوجوبا؟ بأية تهمة يتهمون بدرو أرشانجو؟ من قتل؟ من سرق؟ ما هي جريمته؟

ـ ما هي جريمته؟ سأل الناس.

داخل مقر الشرطة كان يدور جدل طويل وساخن بين رجال التحري والمحامي باسارينهو وقائد الشرطة والبروفسور فراغا نيتو، وكان قائد الشرطة يكرر القول: «لا أستطيع أن أفعل شيئاً قبل أن يوافق عليه المحافظ. هو الذي أعطى الأمر باعتقاله. وهو الوحيد الذي لديه سلطة إطلاق سراحه».

ولم يعرف أحد أين المحافظ. لقد خرج بعد العشاء دون أن يترك خبراً.

عند المساء المبكر سمع ليديو كورو نبأ مزعجاً. ركض عائداً إلى خيمة المعجزات، ولكنه حين وصل رأى الحطام وكان الجنود قد ذهبوا.

من فوق برميل الكازولين كان الميجور داميان دو سوزا، بصوته الأجش المتعالي بغضب، قد وصل إلى خاتمة خطبته فأعادها من أولها: أطلقوا سراح الرجل الطيب الذي لم يعرف الكذب والذي لم يستخدم معرفته للشر، أطلقوا سراح الرجل الذي يعرف الحرية ويعلمها للناس.

صار الوقت متأخراً، ولكن الناس ظلوا يتوافدون من الشوارع، وامتلأت الساحة. لقد جاؤوا من طريق يصعب اجتيازها حاملين المصابيح ومشاعل النفط. واخترقت الأضواء الخافتة ساحة الشرطة التي احتلها الشعب. أوجوبا! أنشد أحد الأصوات ورد عليه آخر ثم آخر وآخر: وانتقلت الأغنية من فم إلى فم حتى شقت عنان السماء، وتردد صداها داخل السجن: أصوات متعددة في صوت واحد، أغنية حب من الأصدقاء. وكان أرشانجو سعيداً، فقد كان يوماً مثيراً، وكان متعباً، فقد كان يوماً شاقاً. ثم ذلك الصوت المؤلف من أصوات عديدة، الترنيمة الحلوة المحبة. فاستسلم للنوم على صوت تلك الهدهدة المربّتة.

التفلسف حول موضوع الموهبة والنجاح فاوستابيتا يغادر وحول الزمن

من الواضح أن الموهبة وسعة الاطلاع لا تكفيان لضمان النجاح في هذه الدنيا، سواء في الأدب أو العلم أو الفن. إن كفاح الشاب من أجل الشهرة والثروة ليس بالكفاح السهل، الطريق شاق، معروفة؟ طبعاً. إن قلبي مثقل. وكل ما أحاول القيام به هو التعبير عن أفكاري دون الاهتمام بالتنميق والزخرفة في الأسلوب.

لنيل التصفيق السطحي والقدرة على نشر الاسم في الصحف، أن يستشهد بك كتّاب الزوايا في المجلات: الحقيقة أنه من أجل أدنى نسبة من النجاح على المرء أن يدفع ثمناً غالياً من الالتزامات المربكة، والرياء والسكوت والحذف. ـ من الحقارة لكي نسمي الأشياء بأسمائها. ومن منا يأنف عن دفع الثمن؟ بين زملائي كلهم في ميادين علم الاجتماع والفن وعلم الأحياء والقصة وعلم الأقوام والنقد، لا أعرف واحداً حاول المساومة بشيء من العناد. على العكس من ذلك، الذين رضخوا لأحط المكائد هم أنفسهم الذين يصرون على أعلى مستويات اللياقة والاستقامة ـ عند الآخرين طبعاً. يتظاهرون باستعصائهم على الفساد ويدعون الفضيلة التي لا شائبة فيها، أفواههم مليئة دائماً بكلمات «الكرامة» و «الضمير». وهم قضاة قساة عنيدون على سلوك الآخرين. يا للوقاحة المكشوفة! ولكنها تغطي نتائجها، على الأقل هناك، من يظن ذلك؟

في عصر السباق الصناعي والإلكتروني نحو النجوم، عصر حروب عصابات المدن، كل من ليس ذكياً، من ليس له أنف شامخ، من لا يتمتع بأعصاب قوية، من لا يدخل نطاطاً، لن يصل إلى أي مكان. وأعني لا مكان دون أي مكان آخر يذهب إليه.

ومع ذلك، ذلك اليوم سمعت بكاتب عجوز حصيف فرح بأغرب الأفكار، وكأنه يريد اقتلاعها من صدره، قال إن الشبان هذه الأيام يجدون أنفسهم في عالم الفرصة البراقة اللامحدودة والخيارات التي لا تحصى، هذا العالم لنا وسلطة الشباب هي الدليل.

طيب. هناك شيء اسمه سلطة الشباب، لاشك في هذا على الإطلاق وأنا آخر من ينكره، والحقيقة أنني أعتبر نفسي جزءاً من الحركة. في أعماق ذاتي يوجد متمرد، خارج على القانون، راديكالي، مقاتل عصابات، وأنا لا أتردد في الإعلان عن ذلك في مناسبات ملائمة (ولا تتوافر الآن مناسبات كثيرة من هذا النوع، وليس من الضروري شرح سبب عدم وجودها، فالسبب يحدق في وجوهنا كما يمكنك أن تقول). نعم الشبان يفرضون ثورتهم على الجميع. إنهم في موقع القيادة. طيب. لكن الشباب لا يدوم إلى الأبد. وحين يولي يجب أن تؤمن عيشك. أن تقول إن هناك فرصاً كثيرة جداً وأن النصر في متناول كل إنسان ـ هذه مبالغة. حين أفكر في ما كان عليّ أن أفعله لتأمين زاوية صغيرة أو مكان تحت الشمس فإن رقبتي تؤلمني من كثرة الانحناء والهرش. وبعد كل تعثري وسقوطي ونهوضي ومتابعتي ودفعي للثمن الذي كان علي أن أدفعه إلى أين وصلت؟ ميزانية صغيرة تافهة، الشيء الكبير الوحيد هو بحثي عن بدرو أرشانجو الذي كلفني به جيمس د. ليفنسون العبقري هذه هي بطاقتي. ما تبقى كله هراء وتفاهات. هناك ركن الشعراء والشباب، وعبارات التملق حول موهبتي الشعرية مقابل عباراتي المتملقة للشعراء الآخرين ـ مجتمع حكّ لي وأحكّ لك ـ والوعد ببرنامج تلفزيوني مسائي، ليس في وقت الإرسال الأساسي، اسمه «بوسانوفا». ماذا غير ذلك؟ ثلاث قصائد في «مختارات من الشعراء الشبان في باهيا» الذي أعده الداسيو تافييرا ونشرته مؤسسة حكومية في ريو، ثلاث قصائد لي وخمس قصائد لآنا مرسيدس ـ هل تستطيع أن تتصور ذلك؟

هذا، بإيجاز، كل ما لدي لصالحي بعد مواجهة منافسة حامية والدخول في جهنم من العمل الشاق،

ولم أذكر عمليات الزنى مع عدد من الشاعرات اللواتي لم يكنّ مخلصات نظيفات كما كان يفترض بهن. الحقيقة هي أنني خائب مسكين فقير غير منشور الشعر. الشيء العظيم والجميل الوحيد الذي منحتني إياه الحياة، العملة الذهبية الخالصة الوحيدة، آنا مرسيدس وقد تخلصت منها بدافع الغيرة.

وكان في وسعي أن أذكر شيئاً آخر لصالحي وهو العقد الذي وقعته مؤخراً مع دميفال شافيس، صاحب المكتبة والناشر، الرجل البارع في التجارة والصناعة. إنه ملتزم بنشر عشرين ألف نسخة من كتابي عن بدرو أرشانجو إضافة إلى استحقاقاتي: 10% من سعر الغلاف على كافة النسخ المباعة وتصفية الحساب كل ستة أشهر. إنه أمر ممتاز إذا صفيت الحسابات فعلاً.

في اليوم التاريخي الذي تم فيه توقيع العقد في مكتب السيد شافيس في روادو أجودا في الطابق الثاني فوق مكتبته حيث كان محاطاً بالسكرتيرات والهواتف، كان النصير السخي للأدب والفن مؤدباً وكما خيل لي، كريماً. فخلال وجودي عنده طلب المنحوتة الأصلية لإيمانويل أراوجو ودفع نقداً وعلى الفور دون أن تطرف عينه للسعر الذي طلبه الفنان الشهير الدعي، الحامية الحقيقي للسيدة (الحظ). وأوضح لي الناشر أنه يجمع مجموعة من اللوحات والمنقوشات والمنحوتات والرسوم لتزيين جدران بيته في مورو دو إيبيرانغا ـ حارة المليونيريين ـ الذي أضاف إليه مؤخراً طابقاً ثالثاً. (لديه الآن ثمانية أطفال وينوي جعلهم خمسة عشر إذا أعطاه الله القوة والإرادة). هذا السخاء شجعني على طلبين:

أولاً طلبت سلفة متواضعة على الاستحقاقات، ولم أر في حياتي تغييراً سريعاً كهذا في سحنة وجه بشري، فملامح الناشر الملساء المرحة، التي كانت حتى الآن عبارة عن ابتسامة عريضة حيوية، تحولت إلى ملامح حزينة ومخيبة في اللحظة التي سمع فيها كلمة «سلفة». قال لي إن الأمر ليس بيده على الإطلاق، بل هي مسألة مبدأ. ونحن على أية حال، كما قال: قد وقعنا عقداً ببنود واضحة وفيه الواجبات والحقوق للطرفين. والآن بما أننا قد أنهينا مسألة توقيعه هل نمزقه ونسخر من حروف هذه البنود؟ إذا خالفنا بنداً واحداً منها فإن العقد يصبح عديم القيمة كوثيقة شرعية جدية، إنها مسألة مبادئ. ولم أعرف أبداً ما هي هذه المبادئ، ولابد أنها مبادئ قوية لأنه ما من حجة تستطيع أن تزحزح الناشر عن رفضه القاطع. إن في وسعي أن أطلب منه أي شيء آخر، ولكن ليس أن يتخلى عن مبادئه.

حين انتهى الأمر عاد قفاه الملون ووجهه الدمث إلى الازدهار بابتسامة، رحب بزائرين آخرين، النحات كالازانس نيتو وزوجته أوتاروزا، وسألني رأيي بشغل الفنان الشهير الذي جلبه معه، تردد عند اثنتين أو ثلاث من المنحوتات غير قادر على البت والاختيار، لا بد أن هذا يوم سعد للنحت، فبعد التفكير لبعض الوقت اختار ودفع ـ هؤلاء الفنانون المتفوقون يستطيعون أن يفرضوا أسعارهم، أو بالأحرى إن زوجاتهم يستطعن فرض السعر وأخذ المال. ولديهن حاسة تجعلهم يفرضن السعر الذي تحتمله السوق. وحين خرج الزوجان عدت إلى الهجوم من جديد، فأنا ملحاح كما تعرفون.

قلت للسيدة شافس ببراءة إن طموحي الوحيد هو أن أرى، في مكتبته كتيباً صغيراً يضم قصائدي المختارة واسم الشاعر الذي عانى طويلاً على الغلاف، والقصائد تستحق النشر بالتأكيد. وتستحق حفلة كوكتيل للاحتفال بالحدث، وأمسية للتوقيع على النسخ وكمية كبيرة من القرّاء. لست أنا من يقول ذلك بل أهم النقاد الشباب في ريو وسان باولو الذين أكن احتراماً كبيراً لآرائهم النقدية، التي طبع بعضها في زوايا نقدية، وبعضها لم ينشر، وبعضها تحت خربشته في مطاعم وبارات في الفرصة التي ذهبت فيها إلى ريو مع آنا مرسيدس. آه!

تلك كانت أيام المآدب والفرح. مع هذا المديح كله دعماً لي، كان من الممكن أن أنشر الكتاب في مكان ما في الجنوب، ولكن بما أن السيد دميفال شافس قد وقع معي عقداً لنشر كتابي عن أرشانجو فقد قررت أن أثبت صداقتي بأن أضع بين يديه مخطوطة «تلك القصائد ذات المضامين الوجودية الشاملة والاجتماعية الراقية» مستشهداً بقول هنريكو ينهو بيريرا قمة الرأي الأدبي في كاريوكا. ومن المفروض أن يلاقي الكتاب نجاحاً كبيراً نقدياً ومالياً. ويستطيع أن يثق ثقة مطلقة بأنه سيبيع جيداً. ولكن السيد دميغال شافس متشكك لديه شكوكه حول المبيعات. وثق أم لم يثق، وقد شكرني على منحه فرصة النشر الأولى، وقال إنه قد تأثر بثقتي به. ولكنه أمر غريب، إذ يبدو أنه الناشر المفضل لدى الشعراء. فحالما يكتبون قصائد تكفي لتملأ كتاباً، يأتون إليه راكضين ليضعوا بين يديه وليدهم الأول.

وعرضت أن أتنازل عن الاستحقاق وأن أمنحه كتابي بلا مقابل لكنه رفض. وكان قد ترك الباب مفتوحاً قليلاً. سيفكر في الموضوع إذا جلبت لي، بناء على علاقاتي الكثيرة في ريو، وعداً مكتوباً أو بالأحرى ضمانة مالية من مركز الكتب الوطني بشراء خمسمائة نسخة من الطبعة أو ثلاثمائة على أقل تقدير. وستكون الطبعة ما بين ستمائة وثمانمائة نسخة حسب الوعد الذي يقطعه المركز بالشراء.

الفكرة ليست سيئة. تستحق التجريب على الأقل. إن لي فعلاً بعض العلاقات الطيبة في ريو بناء على تلك الدولارات التي أنفقتها على حفلات الغداء والعشاء والويسكي والنوادي الليلية! الآن سترى إذا كنت سأسترجع فائدة من شيء منها. من يدري؟ قد يراني قرائي مرة أخرى ليس في دور عالم الاجتماع الجاف بل في دور الشاعر التحرري لحقبة جديدة، علم الشعر الشاب. وحين تراني آنا مرسيدس الكاتب المظفر الذي له كتب منشورة، وشاعراً على المستوى الوطني، قد تتأثر وتعود شعلة الحب إلى التأجج ثانية في صدرها المتأجج. وحتى لو كان علي أن أتقاسمها مع ملحني الموسيقى الشعبية وغيرهم من الشعراء الشبان. وحتى لو كان علي أن أترنح تحت وطأة كل قرون الدنيا فلن أبالي. أنا أريدها، فبعيداً عن الجسد يضمحل الشعر.

أما بدرو أرشانجو فسأتركه في السجن ولن اصطحبه أبعد من ذلك، الأمر لا يستحق العناء. فباستثناء كتاب الطبخ ما هو الإنجاز الإيجابي الذي قدمته سنواته الخمس عشرة الأخيرة؟ إضراب عن العمل وتحلل وفقر. لقد أقنعني الدكتور زيزينهو بنتو أنه من الأفضل احترام استقامة العظماء وسمعتهم بتقديمهم أنقياء من العيوب والرذائل والتوافه والصغائر. حتى لو كانت في شخصيتهم بعض هذه النواقص. ولا أرى سبباً للتذكير بتلك الأيام الصعبة المحزنة، وبعد أن كلل المجد هامة ابن باهيا العظيم، أي وجه؟ للأمانة أنا نفسي لا أعرف. ففي تلك الذكرى المئوية كانت الضجة عالية جداً، ودواليب نيران المديح الرسمي تتفجر بإضاءة الأبصار إلى درجة أنه ليس من السهل رسم ملامحه الحقيقية. ملامح وجهه؟ أم وجه التمثال؟

يوم أمس بالتحديد أطلق رئيس بلديتنا النشيط اسم أرشانجو على شارع جديد، ومرة أخرى صعد اسم كاتب «الحياة اليومية في باهيا» إلى مرتبة القديس الحافظ للمقاولين، وهذه المرة في خطاب عضو مجلس تشريعي شبه أمي، وحتى رئيس البلدية بسلطته كلها لم يستطع أن يضع الأمور في نصابها، حتى هو لم يستطع إعادة أرشانجو إلى زمنه وفقره. المقالات والخطابات والإعلانات والملصقات تستخدم أمجاد اسمه وشهرته لكي تمتدح أصحابها: السياسيين ورجال الصناعة وكبار الضباط.

ولقد قيل لي في احتفال أقيم مؤخراً في ذكراه ـ مساهمة معهد بدرو أرشانجو العالي في صفوف

الطبقة العاملة في ليبرداد ـ إنه في حضور مسؤولين مدنيين وعسكريين ودينيين قام الخطيب الرسمي، الدكتور صول نوفايس، المسؤول البلدي عن الشؤون الثقافية (وبعد أن حُذر مسبقاً من أن الإشارة إلى المساواة العرقية والتزاوج وغيرهما ـ أي كل ما كان يعمل لأجله الشخص المكرّم ـ قد لا تكون ملائمة) بحل المشكلة بطريقة جذرية وعبقرية، أغفل ذكر بدرو أرشانجو في خطابه إغفالاً تاماً. واختار خطابه الرائع، ترنيمة التمجيد لأنبل العواطف الوطنية البرازيلية، أرشانجو الآخر، موضوعاً له: أرشانجو الأكبر «الذي تطوع للدفاع عن شرف البرازيل وعظمتها في ميادين القتال في باراغواي». تحدث عن البطولة والشجاعة والطاعة العمياء لأوامر الرؤساء، وكافة المواصفات الرائعة التي جعلته يكسب الترفيع والتكريم قبل أن يموت في موقعه، مثالاً رائعاً لابنه وللأجيال القادمة كلها. بهذه الطريقة ذكر بدرو أرشانجو ابن الجندي الخالد، بإيجاز وسرية ومر عليه مرور الكرام. خلع قفازه لكنه لم يلوث يديه. إنه مراوغ حقيقي بارع.

متى سأحلم بالقفز من خلال أطواق خديعة كهذه؟ لماذا أظهر بدرو أرشانجو عجوزاً ومشعثاً وهو يمشي متثاقلاً نازلاً بيلورينهو إلى القلعة البائسة؟ النصب يتشكل في وهج الثناء: التمثال مبيض شديد البياض، يعكس الإنجاز الحصيف لكلية الطب، مخصي وأخرس ويرتدي الزي العسكري ـ بدرو أرشانجو فخر البرازيل.

وهنا، سيداتي وسادتي، أستأذنكم وأنحني لكم تاركاً بدرو أرشانجو في السجن.

السؤال والجواب

-1-

«ها نحن نعود إلى حيث بدأنا، نعود إلى كرسي الحلاق». قال ليديوكورو.

أما يزال قادراً على أن يحلق لزبون إذا اضطر إلى ذلك؟ لم يعد لديه الرسغ البارع واليد الخفيفة التي كانت أيام زمان، لكن يده ثابتة وبارعة بما يكفي حين يتعلق الأمر برسم المعجزات. المعجزات حرفته الحقيقية، وعلى الرغم من أنه استبدلها بالمطبعة الأكثر ربحاً بكثير إلا أنه لم يتخل نهائياً عن فنه القديم. لقد اضطر لرفض معظم الطلبات بسبب ضيق الوقت، لكنه كان يحس بإغراء كبير كلما تحدت خياله معجزة ما بندرتها وعظمتها.

«معجزته إلهنا العظيم في بونفيم الذي أنقذ ستمائة مسافر على عابرة المحيطات «ملك انكلترا» التي راحت ضحية حريق هائل عند عبور الحاجز في ميناء باهيا». ستمائة مسافر، وجميعهم بروتستانت، ماعدا واحد من باهيا صرخ في لحظة الخطر وعيناه على الهضبة المقدسة: «أنقذني يا رب بونفيم!» ووعد بنذر يقدمه للكنيسة وبعجل وجدي لأوكسالا وفي اللحظة ذاتها غمرت السفينة موجة جبارة أطفأت النار المتأججة.

في اليوم ذاته الذي فصل فيه بدرو أرشانجو من عمله وأخذ إلى السجن «الزنجي سجين الآن في مون برانكو» هكذا قام شرطي التحري بإبلاغ البروفسور أرغولو في مبنى قائد الشرطة». مر الجنود بخيمة المعجزات ولم يبقوا على شيء في المحل، وحطموا آلات الطباعة، والصفائح ورولات الورق المشتراة بالدين لإكمال طباعة «الملاحظات». كان ليديو قد قال: «سنطبع ما لا يقل عن خمسمائة نسخة، فالجميع سيطلبونه». ألقوا حروف الطباعة في أكياس خيش مع الكتب. كانت الأوامر أن يستولوا على كل نسخة من «الملاحظات» يمكنهم العثور عليها، وأخذوا أيضاً مكتبة أرشانجو كلها باستثناء الكتب التي كان يحتفظ بها في عليته، تلك التي كان يحب أن يتصفحها دائماً ويبقيها قرب فراشه. ولكن آخرين كثيرين اقتيدوا إلى السجن أيضاً؟ هوفلاك وأوليغيرا مارتينز وفريزر وإيليس وألكسندر دوماس وكوتود وماغالهايس وفرانز بواس ونينا رودريغيس ونيتشه ولومبروسو وكاسترو ألفس وغيرهم كثير، قائمة طويلة من الفلاسفة والكتاب، والروائيين والشعراء، عشرات الكتب إضافة إلى نسخة رخيصة معدلة من «رأس المال» منشورة في بوينس آيريس و«كتاب سانت سيبريان».

قام رجال التحري والشرطة ببيع الكتب فرادى، وانتهت كلها إلى مكتبات البيع المستعملة، واستطاع أرشانجو أن يستعيد شراء قلة منها من بونفانتي: «إنني أبيعك إياه بالسعر الذي دفعته، إنني لا أربح قرشاً من هذه البيعة». تسع وأربعون نسخة من «الملاحظات» تم الاستيلاء عليها. وكان ليديو قد أرسل الباقي إلى الجامعات والمعاهد المهنية، النقاد والأساتذة ومكاتب الصحف والمكتبات أو قام ببيعها مباشرة ـ ما كلها «أحرقت في محرقة محاكم التفتيش، التي أشعلت في مقر قيادة الشرطة بناء على طلب سافانا رولا أرغولو أراوجو» كما قال البروفسور فراغانيتو لسيلفا فيراجا في إحدى رسائله،

وبيع بعضها سراً بأسعار كبيرة من قبل رجال التحري ولم يبق ضابط شرطة واحد أو مفتش لم يأخذ نسخة معه إلى بيته. لإلقاء نظرة على القائمة الشهيرة بخلاسيي باهيا. «ولا تنس أن تحجز نسخة للمحافظ».

ولأن ليديو قد غرق في الديون ولم يعد لديه أمل في أن يقوم بالمطبعة مرة أخرى، ونظراً لحاجته الماسة إلى المال، قام ببيع المطبعة والصفائح والرصاص بسعر الحديد الخردة. وما أن تخفف من أكثر الدائنين إلحاحاً حتى اعتبر نفسه قد أخذ تعويضه عن الأضرار. لقد استطاع الكومبادر أرشانجو أن ينتف الريش والزينة والمجوهرات الزائفة التي كانت تزين أولئك الأساتذة أنصاف الحمير، تلك العصبة من البلهاء الناهقين، الكدش التي تمشي على رجلين، الأغبياء ذوي العقول الجامدة، السذج، الثيران، لقد تعروا تماماً وكللوا بالعار في الساحة العامة. فكان لابد لهم من العودة إلى سياط الشرطة والتحري والجنود. أما من تبقى من أهل المدينة فكان يضحك ساخراً منهم.

خلاسيان كومبادران ضاحكان. المعلم ليديو كورو راح يرسم المعجزات. والمعلم بدرو أرشانجو يعلم الأولاد القواعد والحساب. والفرنسية لثلاثة أو أربعة طلاب أكبر سناً.

صحيح أن ليديو لم يكن في أحسن حالاته الصحية، ولقد مر منذ قليل بعيد ميلاده التاسع والستين، ولم تعد دورته الدموية ممتازة، وحين يمشي قليلاً تتورم قدماه، وقد أوصاه الدكتور ديفيد أراوجو بالحياة الهادئة وبنظام غذائي صارم: طعام معقول دون زيت نخيل أو جوز هند أو فلفل ودون أية قطرة من الكحول. الشيء الوحيد الذي لم يحرمه عليه هو النساء. ربما لأنه ظن أن ليديو قد أغمد خنجره ولم يعد يفكر في هذه الأمور. يا دكتور لا تستطيع أن تمنع عن رجل زيت النخيل والكاشاشا بعد أن فقد القليل الذي لديه وبعد أن تحطم تحت أعقاب المسدسات وداسه الجنود وصار عليه أن يبدأ كل شيء من جديد. أما النساء فما زلن يفضلنه على كثير من الشبان. وإذا أحببت أن تعرف، يا دكتور اسأل من تشاء من الجوار.

بدرو أرشانجو، الأصغر من ليديو بثماني سنوات، لا يشكو شيئاً في صحته. ما زال رجلاً متيناً وحسن المظهر، مولعاً بالأكل والشرب. ودائماً لديه بنت جديدة، وأكثر من واحدة أحياناً، إلا أنه لا يستطيع أن يخفي استياءه من اضطراره لتعليم الأولاد. لم يعد لديه الصبر الذي كان معروفاً عنه، ووقته صار ضيقاً جداً وثميناً جداً لكي يضيعه على دروس القواعد.

ما كان يستمتع به فعلاً هو جلسات الحكي الطويلة. بسب الانتقال من باب إلى باب، ومن حانوت إلى حانوت، ومن بيت إلى بيت، ومن حفلة إلى حفلة، وكان يحب أن يذهب إلى ميغيل ناحت القديسين لكي يراقب من محله مواكب المحتاجين والحزانى المتوجهين لاستشارة الميجور داميان دو سوزا. كان يقضي طوال فترة الصباح هناك أحياناً وهو يخربش في دفتره الصغير، وكان الناس يظنونه سكرتير الميجور.

كان يحب سماع القصص القديمة، عن الأوريسكا، من بولكويرا وأنينها، حكايات أيام الرقيق التي يحكيها الأعمام العجائز ذوو الرؤوس البيضاء، وأن يتفرج على تدريبات المهرجين لأفارقة، التي دعته الأم أنينها للاجتماع بمخرجيها وموجهيها، يوم أن التقط الراية المجيدة بيبيا نوكوبيم، زعيم كاندومبلي غانتواس، ونزل بها إلى الشوارع، أو أن يجلس مع العازفين في أكاديمية الكابويرا عند المعلم بوديان أو فالدلوار، حيث يستلم البيريمبو ويدق إيقاع أغنية:

كيف حالك، كيف حالك اليوم؟

كومنجوري

كيف صحتك في هذا اليوم الجميل

كومنجري جئت لأراك اليوم كومنجري

تسرني رؤيتك

كيف حالك، كيف حالك اليوم

كومنجري

وأكثر ما كان يحبه هو أن يقود الغناء في التيريرو، وأن يمنح بركته للخبراء ويجلس إلى جوار ماي دو سانتو.

كوكورو، كوكورو

تيبيتيري لادودي لا تيبيتيري

وسواء أكلت جيداً أم لم تأكل فإنك تريد أن تستمر في العيش، أليس ذلك صحيحاً يا أب أوجوبا؟ امنحني بركاتك، أنا ذاهب الآن، أرجو من آخر من يخرج أن يغلق الأبواب.

وفيما كان المعلم ليديو يبحث عن زبائن ويعلن عودته إلى رسم المعجزات ـ لم يكن هناك رسام معجزات مثله ولن يكون ـ قلل المعلم أرشانجو عدد تلاميذه ودروسه وصار يقضي نهاره كله في الشوارع، يتحدث مع هذا أو ذاك وهو يضحك ويطرح الأسئلة: انطق يا رفيقي دعنا نصل إلى لب الموضوع لنرى إلى أين تريد أن تصل. كان يستمع إلى قصة ثم يعيد روايتها. وما من أحد كان يستطيع مجاراته في الغوص في مجاهل القصة بهذه التعليمية وهذا السرد المسلي ودون أن يكشف عن السر حتى النهاية.

لم يشعر بهذا التوق، هذه الشهوة للحياة منذ يفاعته حين عاد من ريو، وانغمس في حياة باهيا. الوقت يضيق، الأيام تصغر، والأسابيع والشهور تزدحم. لم يعد لديه الوقت الذي يريده وها هو يبدده على تعليم الأولاد. وحين طلب منه بونفانتي أن يكتب كتاب الطبخ استغل هذا العذر ليتخلص من بقية طلابه، الآن يرى نفسه متحرراً تماماً من أي التزام بالساعة وغير مقيد بالضوابط. هو الآن سيد وقته، فعاد إلى الشوارع وإلى الناس.

صار يراقب يد المعلم ليديو وهي ترسم المعجزات بعناية وتختار الألوان للمشهد الحي. الدونا فيوليتا، بدينة وفي الأربعين، كانت ممدة أمام السيارة برجل مكسورة وثوبها ممزق والدم يسيل من فخذها، وهي تحدق مستنجدة بصورة إلهنا في بونفيم. الحادث المأساوي ـ السقطة الخطرة، والسيارة القاتلة، والنظرة المتوسلة ـ هذا كله لم يشغل إلا حيزاً صغيراً من الصورة. الثلثان المتبقيان عما كانت تشغله السيارة في فراغ رسم حاشد، كان هناك ركاب وسائق وجاب ومفتشون وحارس وكلب يناقشون الحادث. وكان الفنان يشتغل بمحبة على كل شخص مستقل: رجل بشاربين كبيرين، زنجي عجوز يمسك ولداً أبيض بيده، امرأة صفراء، كلب أحمر جميل.

بغتة رفع رأسه وتطلع إلى أرشانجو:

ـ هل تعرف يا كومبادر أن تادو كان هنا في باهيا؟

ـ تادو؟ متى جاء إلى هنا؟

ـ «لا أعرف. منذ عدة أيام. سمعت بذلك هذا الصباح في بيت نيرينشيا. لقد صادفه داميان في الشارع. قال إنه ذاهب إلى أوروبا، إنه يقيم عند أهل لو..».

ـ أهله يا صاحبي. أليس هو صهر الكولونيل؟

ـ لم يأت حتى ليقول مرحبا.

ـ لابد أن يأتي. لم يأت منذ مدة طويلة. ولديه أشياء يعملها وأمكنة يذهب إليها وأقارب ليزورهم.

ـ أقارب؟ وماذا نحن؟

ـ هل أنت قريبه يا صاحبي؟ ومنذ متى؟ لأنه يناديك يا عم؟ كان هذا حين كان يتدرب يا رفيقي.

ـ قل لي إنك أيضاً لست قريبه.

ـ «أنا قريب الجميع, ولست قريب أحد. لقد أنجبت أولاداً عديدين, وليس لدي أي ولد. لم أحتفظ بولد يا صاحبي. لا تنزعج. سيمرُّ تادو حين يكون عنده وقت, لكي يودعنا».

أخفض ليديو عينيه إلى اللوحة. كان صوت أرشانجو محايداً، بل إنه بدا غير مبال. أين ذلك الحب العميق؟ تلك العاطفة التي هي أكبر من العالم كله؟

ـ أذكر الذيب وهيء القضيب*(40), ضحك بدرو أرشانجو ورفع ليديو عينيه.

باب الخيمة، بأناقة رائعة، وقبعة قش على رأسه، وشارب معتنى به، ويدين دهنت أظافرهما بالمانيكير، بقبعة عالية، وحذاء نصفي، وعصا مشى برأس عقد اللؤلؤ.

ـ باختصار، أمير ـ قال تادو كانهوتو: «لم أسمع بما جرى إلا اليوم. لكنني في كل الأحوال كنت سآتي لرؤيتكما، غير أني جئت حالما أخبروني. هل هو صحيح؟ ألم يكن في وسعكما إنقاذ المطبعة؟

قال أرشانجو: لا، لكننا تسلينا. أنا والكومبادر ليديو نرى أن الأمر كان يستحق ذلك.

تقدم تادو منهما وقبل يد أبيه، واحتضنه ليديو بانفعال: «تيدو مثل لورد!».

ـ في وضع مثل وضعي يجب أن ألبس جيداً.

بعينين ودودتين راح بدرو أرشانجو يتفحص الجنتلمان الواقف أمامه. يجب أن يكون تادو في الخامسة والثلاثين. كان عمره أربعة عشر عاماً حين أخذته دوروشيا إلى التيريرو وسلمته لأرشانجو: كل ما يتحدث عنه هو القراءة والحساب. لا يقيدني: لكنني لا أستطيع أن أغير قدره. فغير له طريقه. أوقف الزمن وامنعه من النهوض يا كومبادر ليديو، يا صاحبي. تادو كونهوتو يمشي في طريقه

الحقيقي. سيمشي الطريق كله صاعداً حتى ذروة السلم، من أجل هذا درس ونحن ساعدناه يا رفيقي. انظري، يا درورشيا، ابنك الصغير قد مشى طريقاً طويلاً ولن يتوقف الآن.

بم أستطيع أن أساعدكم؟ لدي بعض المال وفرته من أجل مشكلة لا تحل إلا في أوروبا. أنت تعرف أنني سأذهب، ألا تعرف؟ لقد أعطتني الحكومة منحة لدراسة تخطيط المدن في فرنسا. (لو) ستذهب معي. سنسافر لمدة سنة. وحين أعود سأحل محل الرئيس لأنه سيتقاعد هذا ما أظنه، الأمر شبه مؤكد.

ـ وكيف كان يمكن أن نعرف وأنت لا تكاتبنا؟ قال ليديو متذمراً.

ـ «ومن أين لدي الوقت للكتابة؟ إنني أركض من أمر إلى آخر. لدي مجموعتا مهندسين أنا مسؤول عنهما وتعهدات كل ليلة. أنا ولو لا نخرج إلا قليلاً جداً. حياتنا جحيم».

ـ خل معك دراهمك يا تادو، وعالج لو، نحن لا نحتاج شيئاً. لقد قررنا ألا نستمر في الطباعة، شغل كثير ومرابح قليلة. ليديو أرهق نفسه في الشغل ليلاً نهاراً. هذا أفضل لكلينا، كومبادري يرسم معجزاته ـ انظر ما أجمل اللوحة التي يرسمها، وأنا أعلّم حين يكون لدي وقت، كنت أعلّم طوال حياتي. ولقد طلب مني الإيطالي أن أؤلف كتاباً وأنا أشتغل فيه. فنحن لسنا في حاجة للمال، أنت تحتاج إليه أكثر. رحلة كهذه ليست مزحة.

كان تادو لا يزال واقفاً، وذؤابة عصاه مغروزة في الأرضية الوسخة. وبغتة بدا أن الثلاثة ليس لديهم ما يقولونه، وأخيراً قال تادو: «حزنت كثيراً حين سمعت بزابيلا، قال لي الكولونيل غوميز أنها عانت كثيراً».

ـ الكولونيل غلطان، زابيلا كانت تتألم وكانت تعرج وتحب أن تشكو، لكنها كانت سعيدة وظلت تنكت حتى آخر يوم من عمرها.

ـ يسعدني هذا. والآن أنا مضطر للذهاب. لا تستطيع أن تتصور عدد الناس الذين يجب أن نودعهم، ولو طلبت مني أن أبلغك أسفها لعدم قدرتها على المجيء يجب أن نتقاسم المهمات، هذه هي الطريقة الوحيدة لتدارك الأمور. طلبت مني أن أنقل إليك احترامها.

بعد المجاملات والتمنيات الطيبة للرحلة، مشى أرشانجو وراء تادو بعد أن تجاوز العتبة ولحق به في الشارع.

ـ قل لي هل ستمر في فنلندا خلال رحلتك؟

ـ «فنلندا؟ لا. أكيد لا. ليس هناك سبب يجعلني أذهب إلى هناك. سنقضي تسعة أشهر في فرنسا, طبعاً ثم وقفات قصيرة وسريعة في إنكلترا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال آفول دوازو*(41) كما تقول زابيلا»، وابتسم وكان على وشك أن يتابع سيره ثم توقف: «لم فنلندا؟».

ـ لا، لا شيء.

ـ إذاً. إلى اللقاء.

ـ مع السلامة تادو كونهوتو.

من الباب راح أرشانجو وليديو يتطلعان إليه وهو يعبر الشارع بخطوات واثقة وهو يلوح بعصاه. جنتلمان مهم وأنيق، في أصبعه خاتم الدكتور تادو كونهوتو البعيد المحترس. هذه المرة كان الوداع أبدياً. وعاد ليديو كورو، منزعجاً إلى رسمه.

ـ نكاد لا نعرف أنه الشخص نفسه.

لماذا كنا نقتر على أنفسنا ونوفر ونكافح يا كومبادر ليديو، يا صاحبي يا رفيقي؟ ما الذي نفعله هنا ونحن عجوزان لا يملكان فلساً في جيوبهما؟ لماذا وضعوني في السجن ولماذا حطموا المطبعة؟ لماذا؟ لأننا قلنا إن كل إنسان له الحق أن يدرس ويتقدم؟ هل تذكر البروفسور أوزالدو فونتس يا كومبادر وتلك المقالة في الجريدة؟ الغوغاء من الزنوج والخلاسيين يحتلون المعاهد الفنية ويملأون الوظائف الشاغرة يجب أن نفرمل ونضع حداً لهذه الحالة المخزية. هل تذكر الرسالة التي أرسلناها إلى المحررين؟ حولوها إلى قصة وصارت صفحات الجريدة تلصق على جدران التيريرو. من هناك بدأ تادو يتسلق العالم. لقد صعد ولم يعد ينتمي إلى هنا. إنه يعيش في كوريدوا دافيتورا من عائلة غوميز.

إنه الدكتور تادو كانهوتو.

في أكاديمية بوديان غنى مصارعو الكاوبويرا أغنية قديمة من أيام الرق:

حين كان لدي مال

كنت آكل مع أيويو

وأنام مع إيابا

كامارادينهو، إيه

كامارادو

الدكتور فراغا نينو يقول إنه ليس هناك بيض أو زنوج، يوصفون بأنهم فقراء وأغنياء فقط. لا تستطيع أن تنظر إلى الأمر من الوجهتين يا كومبادر. هل تريد من الولد أن يدرس ويظل هنا في شارع تابوان ويظل فقيراً طوال عمره؟ أمن أجل هذا درس؟ الدكتور تادو كانهوتو، صهر الكولونيل، وارث الأرض والمواشي، ومنحته في فرنسا ورحلاته إلى أوروبا؟ ليس الأمر هنا متعلقاً بكونه أبيض أو أسود، هنا في شوارع تابوان الفقر هو الذي يجعلك أسود. وهناك في كوريدور دافيتوريا المال يجعلك أبيض.

لكلّ مصيره يا صاحبي. ومقدور على الأولاد في هذا الشارع، يا رفيقي، أن يسيروا في اتجاهات مختلفة. بعضهم سيلبس الأحذية وربطات العنق وينال الدكتوراه، وبعضهم سيظل هنا مع المطرقة والسندان. والخط الفاصل بين البيض والسود، يا صاحبي، سيتلاشى حين يكتمل التمازج. ولقد قمنا بدورنا يا كومبادري. الآن هناك نوع آخر من الخط الفاصل. ومن سيأتي في النهاية هو الذي يغلق الباب.

الوداع يا تادو كانهوتو التواق إلى الكسب. إذا توقفت في فنلندا فاسأل عن ملك اسكانديتافيا، أوجو كيكونين، لأنه أخوك. بلغه حبي وقل له إن أباه بدرو أرشانجو بخير وليس في حاجة إلى شيء.

- «الدكتور تادو كانهوتو جنتلمان غني ومشهور يا كومبادر. الحياة تستمر والدولاب يظل يدور، تعال نخرج ونتمشى يا صاحبي. من الذي عنده حفلة هذه الليلة يا رفيق؟».

---

*(40) - نذكر الشيطان فيظهر.

*(41) - بأقصر الطرق.

- 2 -

بعد عدة أيام، وعند العصر كان بدرو أرشانجو عائداً من مخزن بونفانتي للكتب، حيث كان قد ذهب ليحصل على بروفات كتابه عن الطبخ. عثر على ليديو كورو، الكومبادر، الصديق، الأخ، التوأم، ميتاً في خيمة المعجزات فوق معجزته غير المنتهية حول سيرة النقل، ودم حقيقي يتدفق على قضبان السكة الحديدية في اللوحة.

فرشاة الرسام ترسم الحروف فوق الباب: انتهت خيمة المعجزات. رجل عجوز ينزل الشارع ببطء.

- 3 -

الإضراب الذي كان مقتصراً في البداية على السائقين والجباة والمفتشين والموظفين الآخرين في شركة النقل السيار في باهيا، ثم توسع بعد ذلك إلى الفروع وإلى شركة الكهرباء وشركة الهاتف، هذا الإضراب؛ صادف المعلم بدرو أرشانجو يذرع شوارع بيلوينهو وكارمو وباسو وتابوان وهو يوزع فواتير الكهرباء في حي الحذائين. كان قد حصل على هذه الوظيفة بواسطة الدكتور بارساينهو الذي أصبح المستشار القانوني للشركة. وكان العمل متعباً وراتبه قليلاً، غير أنه كان يفضله على الجلوس لتعليم الأولاد. يستطيع أن يذهب من بيت إلى بيت ومن حانوت إلى حانوت لتوزيع الفواتير، وبذلك يجد الفرصة للمحادثة وسماع قصة وحكاية أخرى، والتحدث عن أخبار اليوم وتقبل جرعة كاشاشا بين حين وآخر. ولقد جاء تركي ففتح محل خرداوات، سوقاً صغيرة، حيث كانت تقوم خيمة المعجزات.

وعلى الرغم من أن موظفي شركة الكهرباء قد انتظروا عدة أيام قبل المشاركة في الإضراب. إلا أن بدرو أرشانجو لم يفته اجتماع واحد من الاجتماعات النقابية منذ أن توقف السائقون والجباة عن العمل. وكانت طاقته وحماسته معديتين: قلة من الشبان استطاعوا مجاراة هذا العجوز في الاندفاع والمبادرة. ولم يكن يتصرف من خلال أي إحساس بالواجب أو تنفيذ للأوامر أو تلبية لمهمة من أية جماعة أو فئة. كان يقوم بذلك لأنه يرى أن هذا صحيح ولأنه يستمتع به.

لأول مرة، وبعد ست سنوات، يتوقف عند باب كلية الطب، الطلاب الذين كانوا على أيامه تخرجوا، ولذا فإنه لم يتعرف على وجوه الشبان، وهم أيضاً لم يعرفوه، لكن الأساتذة عرفوه وتوقف بعضهم لتحيته، كان بدرو أرشانجو ينتظر البروفسور فراغا نيتو فسارع إليه حالما ظهر وهو غارق في مناقشة حارة مع بعض الطلاب.

- بروفسور...

- أرشانجو! منذ متى لم أرك؟ هل جئت لتراني؟ وسأل الطلاب: هل تعرفون من هذا؟

التفت الطلاب الشبان ليتطلعوا إلى الخلاسي الفقير في ملابسه النظيفة والمهترئة وحذائه اللامع، كانت عادة النظافة لا تزال متراساً ضد الفقر والشيخوخة.

- هذا هو بدرو أرشانجو الشهير. لقد اشتغل ساعياً في الكلية ثلاثين عاماً، وهو يعرف كل شيء عن الحياة والعادات الشعبية في باهيا. إنه أنتروبولوجي، طبع كتباً هامة. وقد طرد من كلية الطب لأنه نشر كتاباً يعارض فيه نشرة عنصرية قدمها البروفسور فيلو أرغولو. أثبت أرشانجو في الكتاب أننا في باهيا، كلنا خلاسيون، أثار فضيحة.

- سمعت عن هذا. من أجل ذلك استقال أرغولو الغول، أليس كذلك؟

ـ صحيح، لم يغفر له الطلاب بعدها تعصبه الأعمى، وظلوا يلقبونه باسم.. ماذا كان ذلك الاسم يا أرشانجو؟

ـ أوبينيكو!

ـ ولماذا سموه هكذا؟

ـ إنه أحد أسماء الكنية للبروفسور، وهو الاسم الذي لم يكن يستخدمه أبداً. ورث هذا الاسم عن بومبوكسي وهو زنجي جد جد البروفسور، بالمصادفة هو جدي أنا أيضاً.

ـ «ابن عمي البروفسور أرغولو..» قال فراغا نيتو مستعيداً الذكرى. «اعذروني يا سادة. سأذهب مع أرشانجو. لقد مر زمن طويل لم أره فيه».

وجلس البروفسور والساعي السابق في بار بيريز كما في الأيام الخوالي.

ـ ماذا ستشرب؟ سأله فراغا نيتو.

ـ لن أرفض قليلاً من الكاشاشا إذا أخذت منه أنت أيضاً.

ـ أنا لا أستطيع. ممنوع علي الكحول. حتى البيرة للأسف. مشاكل في الكبد، لكنني سآخذ التونيك صافياً.

وتطلع إلي أرشانجو من طرف عينه. لقد شاخ كثيراً لم يكبر في العمر فقط. بل لم تعد لديه كبرياؤه السابقة، ذلك النوع من المهابة. إلى متى سيظل قادراً على الإبقاء على ملابسه نظيفة وحذائه لامعاً؟ إنه لم ير أرشانجو منذ سنوات، منذ موت فري تيموتيو، حين ذهبا معاً إلى الدير لكي يجلسا مع جثمان الراهب الهولندي. وفي مناسبة أخرى بحث عنه من أجل نسخة من «الملاحظات» لكنه وجد أن خيمة المعجزات قد راحت. ومكانها وجد حانوتاً يديره تركي. بدرو أرشانجو؟» ليس له عنوان ثابت، أحياناً يُرى في الجوار إذا شاء أن يترك رسالة.. وأهمل فراغا نيتو الأمر. والآن هما جالسان إلى المائدة، راح يمحص انطباعه الأول، فوجد أن أرشانجو العجوز قد ختير كثيراً.

جئت أتحدث معك يا بروفسور عن إضراب النقل.

ـ الإضراب؟ إنه إضراب عام، أليس كذلك؟ هل توقف كل شيء؟ عربات النقل والترامويات. ومصاعد لاسيدرا والكساريو؟ لا شيء يتحرك على الإطلاق؟ هذا رائع. أليس كذلك؟

ـ نعم. رائع. وهو إضراب عادل يا بروفسور، الرواتب التي يدفعونها بائسة. إذا انضمت إلينا شركة الهاتف والكهرباء فلا بد أن ننتصر.

ـ نحن؟ وماذا ستستفيد منه أنت؟

ـ صحيح. أنت لا تعرف أنني موظف.

ـ في شركة النقل؟

ـ شركة الكهرباء. ولكن لا يختلف الموضوع. الكل جزء من التروست الكبير كما يمكن أن تسميه يا

بروفسور.

ـ صحيح. التروستات الإمبريالية. وضحك البروفسور فراغانيتو.

ـ المسألة، يا بروفسور، هو أنني في لجنة التضامن التي تدعم المضربين. والسبب الذي دفعني لرؤيتك...

ـ المال؟

ـ لا . يا سيدي. أعني أن المال سيساعد بالطبع، ولكن هناك لجنة أخرى من أجل المال. اللجنة المالية. إن كنت تريد أن تساعد بالمال سأحدثهم في اللجنة المالية وسيأتون للحديث معك. لا. أنا أسعى لشيء مختلف. أريد منك أن تأتي إلى النقابة. إننا نعقد اجتماعات دائمة في الليل والنهار. وكثيرون يجيئون ليقدموا لنا دعمهم وتأييدهم، والصحف تنشر عن ذلك. إن هذا يعني الكثير بالنسبة لنا. أناس كثيرون يجيئون: أساتذة حقوق، نواب، مراسلون، كتاب، كثيرون من الناس الجيدين، وكثير من الطلاب.. قلت لنفسي إنك أنت يا بروفسور، بالأفكار التي تحملها..

ـ بأفكاري.. معك حق أن تفكر في. ما زالت لدي الأفكار ذاتها التي لم تتغير. لا شيء أكثر عدلاً من إضراب العمال. إنه سلاحهم الوحيد. ولكن المسألة هي أنني لا أستطيع أن أذهب. لا أعرف إن كنت سمعت فأنا سأدخل مسابقة لكرسي الأستذة الدائم.

ـ وماذا عن البروفسور فيراجا؟ أعرف أنه مازال حياً، وقد رأيت شيئاً ما عنه منذ أيام في إحدى الصحف.

ـ البروفسور سيلفا فيراجا؟ أحيل إلى التقاعد. وهو لا يرى أنه يحق له أن يشغل الكرسي، وهو لا يعلّم ولا ينوي العودة. لقد حاولت منعه عن ذلك، لكنه أصر. هناك منافسان، يا أرشانجو، الأول رجل قادر تماماً ومعلم في الموضوع ذاته في ريسيف. والثاني شخص أبله من هنا من باهيا، ولكن لديه صداقات في مواقع مؤثرة. وستكون معركة من المعارك الحاسمة والعميقة التي أعرفها وتعرفها يا أرشانجو، إنني آمل بالفوز، لكنهم بدؤوا حملة تشهير ضدي. وهم يستخدمون كل ذخيرة يستطيعون تأمينها، وخاصة تلك الأفكار التي ذكرتها. إذا ذهبت إلى النقابة فوداعاً للكرسي يا صديقي.. هل تفهمني يا أرشانجو؟

هو أرشانجو رأسه. فتابع البروفسور:

ـ أنا لا أشتغل في السياسة. لدي قناعاتي لكنني لست رجل سياسة. ربما كان علي أن أكون كذلك. ربما كان هذا هو الشيء الصحيح الذي أفعله. ولكن يا أرشانجو العزيز، ما كل إنسان في الدنيا يملك الشجاعة للتخلي عن الوظائف والألقاب من أجل أفكاره مثلك أنت. حاول ألا تقسو علي في حكمك.

ـ لقب ساع؟ هذا لا يعني شيئاً إذا ما قورن بلقب البروفسور. لكل شيء ثمنه وقيمته. ومن أنا لكي أحكم يا بروفسور؟ سأقول لجماعة اللجنة المالية أن يزوروك.

ـ الأفضل أن يأتوا إلى بيتي مساء.

وقف أرشانجو ونهض فراغا نيتو أيضاً، وهو يسحب محفظته ليدفع ثمن مشروبيهما.

ـ ما هي وظيفتك في شركة الكهرباء؟

ـ أوزع فواتير الكهرباء.

تأثر البروفسور فخفض صوته: «أرشانجو. هل أستطيع أن أساعدك بشكل ما؟ هل ترغب في..» وأخرج ورقة نقدية من الحافظة.

ـ أرجو أن لا تهينني يا بروفسور. خل معك مالك أو أضفه لما كنت تنوي المساهمة به دعماً للإضراب. أتمنى لك التوفيق في الامتحان، لولا أنه محظور علي الدخول إلى كلية الطب لذهبت لمناصرتك.

لاحقه فراغا نيتو بعينيه: عجوز عنيد كريه. ودون أن يهدأ باله غادر البار وتوجه على مضض إلى سيارته، عجوز مقيت، لا عقل ولا تدبير. توزيع فواتير الكهرباء! الفحص فحص. وكرسي الأستاذ هو كرسي الأستاذ. إن مرشحاً شاباً عائداً لتوه من أوروبا لديه الحق في أن ينفث النار ويتجول في كل مكان ليقول عن نفسه أنه ماركسي. أما بروفسور في كلية الطب عشية نيله لقب العمر وأمامه منافسان أحدهما قوي مؤهل، والثاني محمي من عدة وزراء، ستكفي هذا البروفسور زيارة واحدة لنقابة العمال المضربين إذا شاء أن يخسر السباق وينهي وظيفته. كأنني أرمي بكرسي البروفسور من النافذة وأتخلص منه. يا أرشانجو، إن لقب الساعي شيء ولقب البروفسور شيء آخر، لا وجه للمقارنة، أنت قلت ذلك بنفسك. ساع فقير يساوي الفقر والكبرياء. بروفسور غني أين الكبرياء واحترام النفس؟ هل الكبرياء واحترام النفس وقف على السعادة؟ وبدأ يركض وراء العجوز: أرشانجو، أرشانجو، انتظر!

ـ بروفسور؟.

ـ النقابة.. في أي وقت؟ قل لي متى يجب أن أكون هناك.

ـ الآن إذا أحببت يا بروفسور تعال معي يا صاحبي.

ولم يفقد البروفسور فراغا نيتو الكرسي. جرف كل من أمامه ببراعة في الامتحان، أخذ أعلى علامات الشرف، وهزم كلاً من الرجل المؤهل والمحمي. بدرو أرشانجو هو الذي فقد وظيفته. العجوز المقيت لم يكتف بحشد المتعاطفين مع النقابة بل جرب العمل كمحرض.

ـ كان يتحدث ويقنع الآخرين، وكان أحد المسؤولين عن انتقال الإضراب إلى شركة الكهرباء. وسرعان ما وصلت الشرارة إلى شركة الهاتف. صار إضراباً عاماً وشاملاً وناجحاً، ولم يطرد أحد من العمل في ذلك الحين. بدأ الطرد بعد شهر من انتهاء الإضراب، وكان بدرو أرشانجو أحد الأوائل في القائمة.

نزل إلى بيلورينهو وهو يضحك في سره. عاطل عن العمل مرة أخرى. نعم، يا زابيلا، شومير*(42).

---

*(42) ـ عاطل عن العمل ـ بالفرنسية.

- 4 -

وتلا ذلك تاريخ طويل من التنقل من عمل إلى آخر، وكلها بأجر زهيد، ولا واحد منها يدوم طويلاً، لقد كان من الصعب على رجل عجوز أن يجد عملاً، وهذا العجوز الكريه لا يلتزم بالدوام والبرامج. يترك الأعمال نصف منجزة ويأتي إلى العمل متأخراً ويغادره مبكراً، وأحياناً لا يأتي أبداً، ينسى كل شيء وهو غارق في حديث على الناصية. ومع توافر أحسن نية في الدنيا يستحيل الإبقاء عليه. في البدء استؤجر بديلا مناوباً لقارئ البروفات في حجرة التنضيد في صحيفة صباحية، عليه أن يذهب كل مساء ليعرض خدماته وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه. اليوم هذا لم يأت، وغداً غيره، ولدى العجوز خبرة، وهو قوي في القواعد ويعرف أين يضع التشكيل. وعند تناوله إفطاره المكون من سجق الدم والكاشاشا كان ينقل أخبار العالم والبرازيل لأصدقائه، ميغيل والميجور وبوديان وماني ليما. كانوا دائماً أول من يعرف بأي شيء. الأمور لا تسير بشكل حسن: العالم ينتقل من شربوكة إلى أخرى. الفاشيون يقتلون السود في أبيسينيا، ويقلبون عرش سبأ، آه يا سبأ. يا سابينا دوس آنجوس. ملكك محتجز في معسكر اعتقال. مذبحة بعد مذبحة ثم الإعلان الرسمي عن الآرية، واقتربت الحرب العالمية مع إيقاع الطبول، وفي البرازيل ـ نحن نعرف كيف هي الأمور في البرازيل، الأستادو نوفو بأفواهه المغلقة وسجونه المليئة. ولم يمر وقت طويل حتى صار لا يكفي طرد العجوز من العمل، بل وضع اسمه في القائمة السوداء بالنسبة للصحف.

هناك شك صغير جداً في أن يكون بدرو أرشانجو قد خربط بشكل مقصود مقالة في تأليه هتلر بتوقيع مسؤول حكومي كبير، هو الكولونيل كارفالهو، ووزعها مكتب الدعاية والإعلام على الصحف مع تعليمات حازمة بإبرازها. وحين صدرت كانت مليئة بالأخطاء المطبعية والحروف المختلطة. في الخيال فقط، قال مدير مكتب الرقابة لرئيس تحرير الصحيفة (وكان الاثنان صديقين) في الخيال فقط يترك لك المرء فرصة الشك ويتقبل «هتلر، آفة ـ بلايت ـ العالم» بدلا من «هتلر، نور، لايت ـ العالم» على أساس أنها خطيئة من المنضد. هذا الحرف الزائد قد يكون تسلل عن طريق الخطأ. لكن من الصعب جداً تقبل «مصيبة ـ سكورج ـ البشرية» بدلاً من «منقذ ـ سيفيور ـ البشرية» كما جاء في الأصل. وكلمة «شيبونغو» المكررة مرتين قبل اسم الفوهرر خارجة تماماً عن السياق. من حسن الحظ أن أحداً في ريو لا يعرف أن كلمة شيبونغو تعني «لواطي». وعلى الرغم من ذلك جاءت أوامر صارمة من العاصمة. وخاطر الرقيب بوظيفته لتخفيف العقوبة (والفضيحة). فاكتفى بمصادرة الطبعة المهينة وإيقاف التوزيع لمدة ثمانية أيام ـ ثمانية أيام عمل ـ بالإضافة إلى الطلب من مراقبي الجريدة إجراء تحقيق فوري لتحديد المسؤولية.

ولم يستطع مراقبو الجريدة التوصل إلى شيء، البروفات المنقحة اختفت عن وجه الأرض. وكان الإجماع شاملاً: لا أحد يعرف شيئاً. الجميع صم بكم. وبما أن العجوز كان بديلاً عرضياً فإن اسمه لم يذكر. حتى صاحب الجريدة، الذي أطار التعطيل صوابه والخسائر المترتبة عليه، ولكنه مستثار أكثر

من الديكتاتورية، لم يعط اسم المعتوه، على الرغم من أنه أضاف اسم أرشانجو إلى القائمة السوداء المحفوظة في الصحف: «إذا تابع قراءة البروفات سننتهي كلنا إلى السجن». «طيب، يا ابن القحبة، العجوز» قال المنضدون. وبيعت الطبعة سراً بأسعار غالية.

والناسخ جداول في مكتب العدل، في المحكمة، كان يمكن أن يستمر على الرغم من أنه لم يكن يشتغل بنفسه، كما شرح الأمر أحد الموظفين، كازوزا بيفيدي، للميجور داميان دوسوزا. المشكلة أنه لا يكتفي بألا يشتغل، بل لا يدع أحداً غيره يشتغل. ما أن يصل حتى يتوقف الشغل كله: العجوز الكريه يستطيع أن ينسج حكاية لا يستطيعها أحد غيره. وكل حكاية من حكاياته أكثر تعقيداً وإثارة من سابقتها يا حضرة الميجور، أنا نفسي أترك ما أفعله وأصغي إليه.

ووظيفة ناظر في مدرسة خاصة لم تستمر إلا يوماً واحداً، فقد بدا الطلاب المقيمون في المدرسة بالنسبة لأرشانجو مثل السجناء، مبعدين عن بيوتهم وعن الشوارع، خاضعين لنظام صارم، ينقصهم دائماً الطعام والحرية. في أول ليلة، وهي ليلته الوحيدة، كمراقب أقام أمسية أدبية ـ موسيقية للطلاب مع قصائد وكافاكوينهو. وكانوا راغبين في الاستمرار في الغناء حتى الفجر لولا أن المدير، الذي استدعي على عجل، وفرض سلطته وأوقف «ذلك الهرج الذي لا يوصف». وفي عمله كبواب فندق ترك الباب دون حراسة عند أقل حجة. وحين عمل بواباً لمسرح أوليمبيو في حي الحذائين كان يترك الأولاد يتسللون في حفلات بعد الظهر مجاناً. وكمراقب دوام في أحد المشاريع، سواء كان الطقس ممطراً أم مشمساً كان يفتح الأحاديث مع العمال، فانخفضت وتيرة العمل انخفاضاً مريعاً. لم تكن قضية العجوز الأبدية أن يقول للناس ما يجب أن يفعلوه ولا دوره دور سيمون ليغري. وفي نهاية الأمر لماذا يكون على هؤلاء البنائين والنجارين والشغيلة والعمال المهرة في كل مجال، المستغلين الذين يتقاضون أجوراً زهيدة أن يرهقوا أنفسهم في العمل لكي يحقق آخرون كسباً سهلاً؟ إن العجوز لم يتبع في حياته برنامجاً، وحتى في دراساته كان يطيع مبدأ في داخله لا يخضع لعقارب الساعة. ليس هو الشخص الذي يعيش على الساعات والتقاويم.

بليت ثيابه ونسلت قمصانه وتهرأ حذاؤه، لديه بذلة واحدة وثلاثة قمصان وبنطالان قصيران وجرابان، ما لا يكفي للعناية بالمظهر. ومع ذلك كان يرتعب من القذارة إلى درجة أنه كان يغسل هذه الملابس القليلة بنفسه، وكان كارديال، ماسح الأحذية في التيريرو منذ أكثر من عشرين عاماً يمسح حذاءه ويلمعه له، دون مقابل.

ـ تعال يا أبي. تعال نضع بعض التلميع على هذا الحذاء.

لم يخبُ مرحه أبداً، وقد ظل محتفظاً بنشاطه دائماً ـ في مكتبة دانتي اليفيري كان ينعت بونفانتي باللص: «أين نقود كتابي عن الطبخ يا كلابريس؟».

ـ قل عني إنني لص ولكن لا تقل أنني كالابريس، أيوسونو توسكانو، ديو ميردا!

وكان يقضي صباحات كاملة وفترات بعد الظهر وهو يتحدث في حانوت ميغيل أو في أي مشغل آخر في بيلورينهو، أو أمام أكشاك الطعام في السوق الذهبية، أو سوق الموديل أو في سوق القديسة باربارا، كان يأكل هنا أو هناك، ضيفاً مرحباً به دائماً. ودائماً يجلس إلى مائدة تيرينشيا ولكن التي تخدمها الآن ابنة أختها ناير، الصبية ذات الخمسة وعشرين ربيعاً والأطفال الستة الصغار. الأول كان حفيد تيرينشيا نفسها لأن ابن العم داميان لم يكن من الحماقة بحيث يترك لقمة هذه العائلة المغرية

لغريب. الخمسة الآخرون كل منهم من أب. ويشكل الأولاد تسلسلاً لونياً كاملاً من الأشقر حتى الأسود. فناير لم تكن لديها أية أحقاد عنصرية ولم تكن تضيع وقتها.

- «لم أر في حياتي مثلها، إنها تطارد كل بنطال تراه» تقول تيرينشيا متذمرة وعيناها على الكومبادر: «إنها ليست ذات كبرياء مثلك يا كومبادر!».

- متكبر يا كومادر؟ ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

وقرأ الجواب في عينيها الحزينتين. لقد ظلت سنوات طويلة تنتظر كلمة أو طلباً أو دعوة. لم يكن التكبر يا كومادر بل الاحترام. إنك تتحدثين دائماً عن سوزا الخائن وصوتك مشحون بالغضب ولكن قلبك متلهف إليه. لقد أكلت خبزك وعلّمت ابنك القراءة إلا أنني أحترم هذا الفراش الخالي لظني أنه.. آوه يا كومبادر! إنك ذكي جداً. أو يا كومبادر أنت عينا كسانغو، أوه كومبادر لماذا لم تكن لك عينان ترى بهما ما هو أمامك مباشرة؟ الآن فات الآوان. نحن عجوزان الآن ولم يعد في وسعنا فعل شيء. أليس هناك ما يمكن فعله يا كومادر.؟ من تظنين أنه والد ابن ناير قبل الأخير، ذلك الشيطان الصغير الشرير؟ عمره أقل من سنتين وأبوه يا كومادر - أقول لك إن كنت لا تعرفين، خادمك المتواضع، عند قدميك.

وفي مدارس الكابويرا كان يتناقش ويتجادل مع بوديان وفالدلوار. وفي ملاهي الشارع، في مكان اجتماع المهرجين الأفارقة، في التيريرو، عند الفجر على البوابات السبع أو أغوادوس مينينوس، ينتقل - من حديث إلى آخر ويسجل الملاحظات في دفتره الصغير، يضحك الناس ويبكيهم بقصصه وسرده للأحداث اليومية، ودائماً في منتهى النشاط والحيوية. هكذا عاش بدرو أرشانجو آخر سنوات عمره. فمع كل ذهابه وإيابه، ومع كل الناس المحيطين به كان وحيداً تماماً.

لقد ظل وحيداً منذ أن مات ليديو كورو. وقد استغرق وقتاً طويلاً حتى خرج من أزمته التي استنزفت كل طاقاته وظمأه للحياة. وشيئاً فشيئاً انبعث كومبادره بطلاً لألف قصة وقصة. كل ما رآه العجوز أو فعله كان بصحبة ليديو، هما أخوان، توأم، توأم سياسي.

« مرة، قبل سنوات، ذهبت مع كومبادر ليديو إلى مهرجان ليانسان في مكان بعيد، خارج طريق غوميا، حين نزلت هراوة المفتش بدريتو بثقلها ومرارتها على ظهورنا، الكومبادر ليديو..».

حيت رأت الأم بولكوير فقره وحاجته، وهو الذي ساعدها كثيراً في حل مشكلات التيريرو، قدمت له عملاً مأجوراً. كانت في حاجة إلى من يساعدها في جباية الأعطيات الشهرية من أعضاء الأكسي والإيجارات والدفعات من الأكواخ غير النظامية مقر سكن الأقارب وأتباع الكاندومبلي. ويجب أن يكون شخصاً تستطيع أن تثق به لحفظ الحسابات، ولم يكن لديها الوقت للقيام بذلك بنفسها. إنها لا تستطيع أن تدفع له الكثير ولكنه شيء ما على الأقل، فراطة صغيرة أجرة مواصلات، لكنه لم يكن يدفع أجرة مواصلات منذ الإضراب، ولديه وفرة من الطعام للأكل على موائد متنوعة. سأقوم بالعمل يا أم بولكويرا، كواجب لأوجوبا ولخاطر صديقه، ولكن بشرط واحد: لن تدفعي لي شيئاً. لا تهينيني يا أم! وقال لنفسه: لو كنت مازلت مؤمناً بالأسرار، ولو أنني لم أنفذ إلى قلب اللغز، لو أنني كنت مؤمناً حقيقياً لقبلت أخذ المال من القديسين. ولكن الآن، يا أم بولكويرا أنا مجرد صديق مخلص يقوم بالعمل كرمى لك. يمكنك أن تدفعي لزميل مؤمن لكنك لا تستطيعين أن تدفعي لصديق، الصداقة لا تشترى ولا تؤجر. يدفع لها بعملة مختلفة. ويجب أن أعرفها. وهكذا ظل بدرو أرشانجو حتى نهاية حياته يشغل نفسه بأعطيات أعضاء المذهب، أبناء وبنات تيريرو وإيجارات الساكنين والمستأجرين. حافظ على

الحسابات بشكل منظم، وحين يتوافر لديه بعض النقود من جيبه الخاص في خزنة الأوريكسا في معبد كسانغو في مقر إقامة إيكسو.

ومرة اختفى عدة أيام، وحين انتبه أصدقاؤه لغيابه ضجّوا. بحثوا عنه طويلاً وفي كل مكان يخطر لهم، لكنهم لم يعثروا له على أثر. أين يعيش؟ بعد أن اضطر لمغادرة العلّية المواجهة للبحر، والتي ظلت مقر إقامته ثلاثين عاماً. لم يعد له بعدها مقر ثابت بل صار يتنقل من غرفة وسرير إلى غيرهما كل شهر، وأخيراً عثرت استر، مديرة الماخور في ماسيل العليا، السيدة المحترمة وابنة أرشانجو بالمعمودية في التيريرو، على أثره. لقد دخلت في خدمة الاوريكسا منذ أن كانت صبية تعمل خادمة في مقهى. في ذلك الحين كانت ماجي باسان العجوز لا تستطيع الحركة بسهولة، وقد أعانها أوجوبا كثيراً في إيصال القارب الممتلئ بالإياوات إلى المرفأ الأمين في أورونكو في يوم التسمية. وحين آن الآوان لحلق شعر إستر كانت ماجي باسان ضعيفة جداً, فاستعانت بيد أوجوبا, وجعلته يستخدم آلة الحلاقة.

في غرفة أشبه بزريبة قذرة. دون سرير ودون بساط، لاشيء سوى بقايا بطانية وصندوق كتبه - لم يسبق لإستر أن رأت فقراً كهذا - كان أرشانجو متمدداً محموماً ويصر على أن المسألة مجرد برد بسيط. ورأى الطبيب بداية ذات الرئة ووصف حبوباً وحقناً ونقلاً فورياً للمريض، وعنّد أرشانجو: ليس إلى مستشفى - كان يرفض أن يدخل أي مستشفى. رجل فقير في مستشفى أشبه ما يكون بجثة. وهز الطبيب كتفيه: خذوه إلى أي مكان يليق بمسيحي أن يعيش فيه، من المؤكد أنه لا يستطيع البقاء في جحره الرطب هذا الذي لا تستطيع حتى الفئران أن تعيش فيه.

لدى استر غرفة خلفية في قلعتها للصبي الذي يقدم البيرة والفيرمون والبراندي للزبائن، إضافة إلى عمله مراقباً وحامياً للفتيات. هذه المهمات المختلفة والهامة موكولة كلها لماريو فورميغان. خلاسي متين البنية ذو وجه منمش ورجل أسرة مثالي. كان يعيش مع زوجته وأولاده، ولذا فإن الغرفة الصغيرة خالية. وليس المبغى بالمكان الملائم للأب أوجوبا، لكن أستر لم تر حلاً طالما أن العجوز لا يطيق سماع كلمة مستشفى.

في تلك الغرفة الخلفية في قلعة استر، ذلك المهجع الضيق الصغير، قضى بدرو أرشانجو آخر أيامه وكانت أياماً سعيدة، وفيما هو يتنقل من عمل إلى آخر - لم تكن أعمالاً حقيقية بل أي شيء لا قيمة له - مر عيد ميلاده السبعين دون احتفال. وقبل أن يصبح في الحادية والسبعين اندلعت الحرب وصارت عمله الوحيد. صارت تستهلك، كل ثانية وكل ساعة من أيامه.

في كل زاوية من زوايا المدينة، من القلاع إلى الأسواق، ومن الأسواق إلى الحوانيت، ومن المشاغل إلى التيريرو، في البيوت وخارجها كان يناقش مستشاراً، كل ما قام به وكل ما كان يؤمن به صار الآن مهدداً ومثله في خطر، خطر قاتل.

بدرو أرشانجو، الأكثر مدنية بين المدنيين، صار جندياً ثم جنرالاً، فبصفته كتكتيكي واستراتيجي راح يتتبع الطرق والتحركات ويضع الخطط القتالية، وحين كان ييأس الجميع ويعتبرون أن كل شيء قد انتهى، كان يتسلم قيادة جيش من الخلاسيين واليهود والزنوج والعرب والصينيين ويتقدم للتصدي للحشود والنازية. هيا يا صاحبي سنحارب هذا الموت المتأجج الصامت وسننتصر.

- 5 -

ولأن العجوز مدمن مشي، فقد تبع المسيرة منذ بدايتها في كامبو غراند إلى ساحة الكاتدرائية حيث تختتم التظاهرة المؤثرة في الذكرى السنوية الرابعة لاندلاع الحرب العالمية الثانية في حشد كبير، ولتسهيل المشي قليلاً كان قد حشا حذاءه القديم المهترئ المليء بالثقوب بقصاصات من الورق، وكان قد توقف عن محاولة إزالة البقع عن سترته أو بنطاله المهلهل.

تجمعت القوى المناهضة للفاشية بالآلاف. وقد قالت إحدى الصحف أن خمسة وعشرين ألفاً قد تجمعوا في التظاهرة، وقالت صحيفة أخرى أن العدد ثلاثون ألفاً. طلاب ومثقفون وعمال وموظفون وأناس من كافة الطبقات جاؤوا للمشاركة. وعلى أضواء المشاعل التي استخدم فيها النفط البرازيلي الممنوع والذي كان وجوده ينكر رسمياً ـ عدد كبير أولئك الذين حوكموا وسجنوا لأنهم قالوا إن النفط موجود ـ راحت المسيرة تتقدم ببطء في موكب كبير وهي تهتف بشعارات: فيفا ومورا.

وكانت هناك أعلام الحلفاء ويافطات ورايات وصور كبيرة لقادة الحرب ضد (الاشتراكية الوطنية). وعلى رأس الموكب أعضاء هيئة (الجبهة الطبية) وهم يحملون على أكتافهم صورة كبيرة لفرانكلين ديلانو روزفلت، وعرف أرشانجو العجوز واحداً من الذين يسندون محفة ذلك القديس، وكان البروفسور فراغانيتو برأس مرفوع وشارب أحمر ميفستوفيليسي*[43] وعثنون مشاكسة ناتئة. كان من أوائل من تحدوا الشرطة وطالبوا بإرسال جنود برازيليين إلى ساحة المعركة.

وبعدها صور تشرشل وستالين ـ تصفيق حاد ـ وديغول وجيتولو فارغاس، وعلا طالبان على المسيرة كلها، الأول يدعو لتشكيل فوري لقوة متتالية تحول الإعلان الرمزي للحرب من قبل البرازيل على دول المحور إلى مشاركة فعلية. والطلب الآخر يدعو إلى اتخاذ إجراءات فعالة للتنقيب عن النفط البرازيلي الذي كان الخطباء يعرفون بلا أدنى شك أنه قد اكتشف في ريكونكافو. وسمعت النداءات الأولى بإطلاق سراح السجناء السياسيين. أما الحرية فقد كان الناس يحاولون الكفاح من أجلها بجدية من خلال المسيرات والتظاهرات، ولم يفوت العجوز الأشعث ذو الحركة البطيئة أية مسيرة. كان لديه خطباء مفضلون وكان يستطيع تمييز التصنيف السياسي لكل خطيب في هذه الجبهة الموحدة الساعية إلى الانتصار في الحرب.

توقفت المسيرة قليلاً أمام المعهد الفني في سان بدرو، ومن نافذة في الطابق الثاني ارتفع صوت جمهوري يندد بجرائم النازية العنصرية الاستبدادية ويحيّي جنود الديموقراطية والاشتراكية. كل كلمة كانت تقاطع بالتصفيق. وبذل العجوز جهداً لكي يصعد على مقعد لرؤية الخطيب بشكل أفضل، فهو من المفضلين لديه، فرناندو دو سانت آنا، طالب الهندسة والزعيم الطلابي الذي لا يجارى، كان صوته جهورياً ولغته متميزة. وهو نحيل داكن البشرة من لون تادو. قبل سنوات طويلة، خلال الحرب العالمية الأولى، كان العجوز قد سمع طالباً آخر هو تادو كانهوتو، يطالب من النافذة ذاتها أن تشارك البرازيل

في الحرب ضد النزعة العسكرية الألمانية. ولم تؤثر فيه الحرب الكبرى الأولى كثيراً ولا بأي شكل، على الرغم من أنه، بالطبع، قد نشف ريقه وهو يناقش لصالح فرنسا وانكلترا. تأثر بعمق بخطابات تادو، بذكاء الولد الآسر وبراعته في استخدام العبارة الصحيحة اللازمة وحجته المفحمة. كان قد قرأ قبل عدة أيام، في الصحيفة، عن تعيين تادو كانهوتو سكرتيراً للأعمال العامة البلدية للمنظمة الفدرالية مع تنويهات عديدة بـ «مواهب المخطط المدني الشهير القادم من باهيا». لقد انتقلت عائلة غوميز إلى ريو دو جانيرو من أجل الأحفاد الذين جاؤوا أخيراً. أكان ذلك بفضل علاج لو في فرنسا؟ أم بفضل وعد الدونا إيمليا لإلهنا في بونفيم ـ باهيا؟.

المسألة الآن مختلفة تماماً. كان العجوز يتلقى بشوق كل كلمة يقولها الطالب الشاب، ذلك الخلاسي المتحمس الذي يجادل بقوة ضد العنصرية، شاب متهور لمح ومضة من المستقبل، نزل بدرو أرشانجو عن المقعد. إنه من المحاربين القدماء في هذه الحرب. وقد قاتل فيها سنوات طويلة. احترقت حياته في هذه الخنادق.

وتوقف الموكب مرة أخرى في باحة كاسترو ألفس ثم تدفق الحشد إلى باروكوينها ومونتانها وتلة سان نبتو. ومن وسط ذلك الشارع المنحدر رأى العجوز المرهق الميجور على قاعدة تمثال الشاعر، وأصبعه مرفوع مثل حربة. ولم يستطع أرشانجو أن يسمع إلا التصفيق. لم تصله كلمات الخطيب، ولكن لا يهم فهو يعرفها كلها، كل الصيغ والعبارات والصفات البليغة، والمناجاة: ـ أيها الشعب، ياشعب باهيا. هذا الموزع بين أرجاء المدينة كلها، إنه عدالة الفقراء، وأمل المساجين، وسند المحتاجين، وعلم الأميين، ومحامي الشعب. وكان معه ابنه داميان وقَدَمُهُ على أول درجات السلم. وعلى الرغم من وقوعه نسبياً تحت التأثير، مع كمية معقولة من الكاشاشا تحت حزامه حتى في هذه الساعة، فقد كان مشرقاً وبارعاً كعادته. لم يره أحد في حياته سكراناً. وكافة الخطباء الآخرين يمثلون هذا التنظيم أو الجبهة أو النقابة أو المطبعة أو الاتحاد أو الحزب المضطهد أو الحزب السري. الميجور وحده كان يتكلم باسم الشعب ـ وتقريباً على مستوى الشارع، وهو يقف على الدرجة الأولى الصغيرة ـ قاعدة التمثال.

مثل ثعبان هائل تلوى رتل الموكب الطويل صاعداً (رواشيلى) وراح الحاكم المحلي يلوح للحشد من على شرفة القصر. وفي القصر الحكومي هتف البروفسور لويس روغيرو للجماهير: النصر! سننتصر! وتذكره العجوز ولداً، طالباً للطب شارك في الجنازة الرمزية للبروفسور العنصري وألقى خطاباً في معبد المسيح احتجاجاً على فصل الساعي.

وفي براشا داسي ألقيت الخطابات الاختتامية عن سقالة مزينة بالأعلام. وانسل العجوز وسط الحشد الضاغط وهو يقول: عفواً، عفواً، وحين يعرفونه يفسحون له، وأخيراً استطاع أن يقترب من المنصة. خلاسي شاب وسيم وطويل من كابوفيراي بصوت جهوري كان يلقي خطاباً باسم «الجبهة الطبية المعادية للفاشية»: وكان هو الدكتور ديفالدو ميراندا. وبما أنه متخرج جديد فإنه لم يكن معروفاً بالنسبة للعجوز، ولكن هذا الشاب في أول أيلول عام 1943 أثار أحداثاً نسيت، وأخرج أشباحاً وأشكالاً خيالية. أشار إلى مقالة لبروفسور معين في كلية الطب اسمه نيلو أرغولو دو أراوجو كان قد اقترح فيها أن يوضع الهجناء البرازيليون في مناطق محددة، في أسوأ مناطق البلد, وأن من ينجو من الطقس السيئ والمرض يجب ترحيله إلى أفريقيا. لم ينفذ الاقتراح طبعاً, فقد أثار الهزء والسخط. وحين وصل هتلر إلى السلطة في ألمانيا، كان البروفسور لا يزال حياً حين أعلن الفوهرر بدء الألف الآري، وقد حيا

الفوهرر بفرح طاغ «أرسله الله!» أرسله الله للقضاء على الزنوج واليهود والعرب والمهجنين، وكل ذلك الخليط المزعج من الخلاسيين، ثم حول قائمته الإفنائية إلى قانون.

وفي الساحة، تذكر بدرو أرشانجو، وهو يستمع بإعجاب لهذا الشاب الوسيم المتحمس، محادثة جرت قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كان قد انتهى لتوه من نشر كتابه الأول وكان البروفسور أرغولو قد أوقفه في رواق الكلية وقال المحاضر: «إننا نتعامل مع سرطان» وهو يقصد المهجنين «يجب استئصاله. قد تبدو الجراحة عملاً طبياً قاسياً، لكنها نافعة عملياً وضرورية». وكان أرشانجو شاباً متحمساً مثل هذا الفتى على المنصة وقد كبت ضحكته وسأل: «تعني أن تقتلنا كلنا يا بروفسور واحداً بعد الآخر؟»، والتمع بريق أصفر من التعصب في عيني البروفسور، وأطلق لعنته القاسية الحاقدة: «نعم، القضاء عليكم جميعاً لكي يبقى عالم الآريين والبشر المتفوقين، وعدم الإبقاء إلا على العدد اللازم من العبيد للأعمال الغليظة». ثم جاء عبقري، زعيم، رسول من عند الله، لتنفيذ الفكرة الفظيعة، إله حرب خالد في مهمة سامية: تنظيف العالم من اليهود والعرب وذوي البشرة الصفراء ولتنظيف البرازيل «من هذه الزبالة الأفريقية التي تلوث شواطئنا».

هذا كله كان البروفسور يدعو إليه ويتنبأ به, وقد صار الآن حقيقة. وكل ما كان العجوز يدعو إليه ويدافع عنه صار الآن معرضاً للخطر. كانت نظرياتهم وآراؤهم على ذؤابة السيف، وكل منهما تجابه الأخرى من جديد. لكنه لم يعد جدلاً أكاديمياً بل صار الآن قتالاً حقيقياً بأسلحة حقيقية، تدفقت الدماء وراحت كتائب الجنود تحمل الموت على راحاتها.

إذا انتصر هتلر أو أي عبقري متعصب هل سيستطيع قتلهم جميعاً أو بيعهم رقيقاً؟

قال البروفسور إنه سيستطيع، وهلل للزعيم الذي سيجعل هذا يحدث، ومن وسط ضباب ألمانيا أجاب هتلر: ها أنذا! إذا انتصر في الحرب هل سيجعلنا كلنا موتى أو عبيداً؟ وراح العجوز يبحث عن جواب في كلمات الخطيب.

جيوكوندو دياس، الثوري الذي اختبر معدنه في الأفعال، حيا المكافحين في العالم الحر باسم العمال البرازيليين وقال كلمة «العفو» التي رددها الجميع بصرخة طويلة صاخبة لن تخبو قبل أن تفتح أبواب السجون عشية النصر، نستور دوارت، الكاتب والأستاذ في كلية الحقوق، بصوت أجش وكلمات لاهبة، هاجم القيود المفروضة على الحرية والتي جلبتها معها الديكتاتورية ثم طالب بالديمقراطية: «الجنود يحملون السلاح في وجه النازية دفاعاً عن الديمقراطية». والبروفسور تزالي جوشت، بوجهه الطويل المعاني والعاطفي، وبكل آلام الغيتو والمجازر في صوته، كان يتحدث باسم اليهود. و «غارماتا» الشخصية الشعبية المحبوبة، والخطيب المفوّه، أنهى المظاهرة بنبوءة غوتغورية: «هتلر، كرياح الشيطان، ووحش سفر الرؤيا سينتهي في أوحال الهزيمة!».

واستجاب الجمهور بصرخات حماسية وتصفيق حار. وبدأ الحشد الكبير بالتحرك وبالازدحام وإخلاء الساحة. وحاول العجوز المرور بالدفش والمزاحمة. كان سيغادر وسؤاله دون إجابة: هل يمكن لأحد أن يقتلنا كلنا؟ هتلر أو غيره؟ اليوم أو غداً؟ وبعد أن كاد الازدحام يقتله مشى في ظل بحار ضخم فاستطاع، أخيراً، أن يخرج من الزحمة وكان يتنفس بصعوبة.

وفيما بدأ يمشي باتجاه التيريرو دو جيسوس (معبد المسيح) اخترقه ألم فظيع. ولم تكن هذه المرة الأولى، حاول أن يستند إلى جدار القصر الأسقفي ولم يستطع أن يصل إليه. وفيما كان على وشك

السقوط ركضت إليه فتاة وأمسكت به. والتقط العجوز أنفاسه وانتظمت دقات قلبه وخف الألم. الآن هي طعنة دقيقة من سكين ومن بعد: «شكراً لك»!

- ما الذي يؤلمك؟ حاول أن تقول لي. أنا طالبة طب. هل تريد أن آخذك إلى مستشفى.

كان عنده رعب من المستشفيات: رجل فقير في مستشفى، الأفضل له أن يوصي على تابوت ليخرج فيه. لا. لا شيء مهم. لم أستطع التنفس وسط تلك الزحمة وخطر لي أنني سأختنق. لا شيء مهم. شكراً.

وتطلعت عيناه الكليلتان إلى الفتاة ذات الشعر الأسود التي كانت تمسك به، كان يعرف هذا الجمال، إنه مألوف لديه، آه. لا يمكن أن تكون إلا حفيدة روزا! هذه الحلاوة، هذه الفتنة، هذا التوق، هذا السحر، هذا الجمال الطاغي - يعرف هذا كله.

- هل أنت حفيدة روزا؟ ابنة ميمينها؟ كان صوته مرهقاً ولكنه كان سعيداً.

- كيف عرفت؟

كم تشبهها وكم تختلف عنها، كم من الدماء امتزجت لتصنع كمالاً كهذا؟ هذا الشعر الحريري الطويل، هذا الجلد الناعم، والعينان الزرقاوان والغموض المكثف في جسدها المتين الرشيق.

- كنت صديقاً لجدتك. وقد حضرت عرس أمك، ما اسمك؟

- روزا. مثل اسمها. روزا ألكانترا لافين.

- هل تدرسين الطب؟

- نعم أنا في السنة الثالثة.

- كنت أظن أنني لن أعيش إلى أن أرى امرأة جميلة مثل جدتك. روزا ألكانترالافين.. وحدق إلى عيني الفتاة الجريئتين الزرقاوين الموروثتين عن آل لافين، عن ألكانترا؟ عينان زرقاوان وبشرة سمراء: «روزا دو أوكسالا ألكانترا لافين»

- أوكسالا؟ اسم من هذا؟

- جدتك.

- روزا دو أوكسالا.. ظريف. أظن أنني سأستخدم هذا الاسم لي.

نادتها مجموعة من الطلاب: روزا: روزا! تعالي يا روزا! لحظة. ردت روزا، حفيدة روزا الشبيهة والمختلفة.

كانت التظاهرة تتفرق، وراح الناس يندفعون إلى الحافلات وراح الغسق ينسكب على أعمدة الكهرباء التي لم يشتعل عليها ضوء. ابتسم العجوز متعباً وسعيداً. وفهمت الصبية بشكل ما أن هذا العجوز المتعثر وربما المريض بسترته البالية وبنطاله الممزق وحذائه المثقوب وقلبه الواهن، قريب لها وربما قريب جداً. لم يقولوا لها الكثير عن عائلة جدتها، الخيط المفقود، السر الصامت. عائلة

أوكسالا.

ـ وداعاً يا عزيزتي. رؤيتك مثل رؤية روزا.

وبغتة، وقد دفعت بقوة غريبة لم تفهمها أو بعاطفة مبهمة تناولت الفتاة اليد السوداء البائسة بين يديها وقبلتها. ثم ركضت عائدة نحو المجموعة المرحة من الطلاب ثم ابتعدوا وهم يغنون في الشارع المظلل.

وببطء عبر أرشانجو العجوز معبد يسوع متجهاً إلى ماسيل روسيما. لقد حان وقت العشاء في قلعة إستر. هل في وسع أي زعيم، مهما بلغت الجيوش التي يقودها، أن يقتل الناس كلهم ويحولهم إلى عبيد؟ يقتل روزا وحفيدتها؟ يقتل الكمال؟

---

*(43) ـ شيطاني.

- 6 -

بعد الأخبار جاءت نشرات الحرب. «هؤلاء الروس عظيمون»، ووزع مالوف الروم وهم يتحدثون عن الاستعراض والمسيرة وشجاعة البريطانيين الذين لا يقهرون، وملحمة الأمريكيين في جزر الباسيفيك المجهولة ومآثر الجيش السوفياتي. أتولفو المتشائم لم يكن واثقاً من النصر، أعوذ بالله. مازالت لدى هتلر مكائد كثيرة في كمه ـ أسلحة سرية تستطيع أن تدمر العالم.

تدمر العالم؟ إذا انتصر هتلر في الحرب هل سيقتل الجميع ويسترقّهم إن لم يكونوا بيضاً أنقياء وآريين خالصين؟ كلنا. كل واحد فينا؟

وحمي الجدل: نعم: لا، ولم لا؟ وحياتك يمكن أن يحدث، وأخيراً كان الحداد قد سمع أكثر من طاقته:

ـ حتى الله الذي خلقنا لا يستطيع أن يقتل الجميع دفعة واحدة. إنه يقتل الناس واحداً بعد الآخر, وكلما قتل أكثر يتوالد الناس ويكبرون، وسيظلون يولدون ويكبرون ويتزاوجون، وما من ابن قحبة سيوقفهم».

وضرب كفه الضخمة، بضخامة يد مانويل دوبراكسيدس أو يد زي (القلب الكبير)، على النضد فقلب كأساً ودلق الكاشاشا منه، مالوف، التركي، الساقي الطيب والمضيف الممتاز، قدم وجبة أخرى من الكؤوس على حساب المحل.

وكرر بدرو أرشانجو العجوز الجواب الذي أعطي أخيراً:

«.. سيظلون يولدون ويكبرون ويتزاوجون. وما من أحد يملك شيئاً حيال هذا. أنت على حق يا رفيقي. لقد ضربت المسمار على رأسه*(44). لا أحد يستطيع أن يقتلنا كلنا. لا أحد يا صاحبي».

تأخر الوقت. ومازال يحس بالتنميل في ذراعه. وبالألم ينتظره في أعماقه. تمنى لهم بمرح ليلة سعيدة: أراكم غداً يا أصحاب. الأصدقاء يجعلون الحياة تستحق أن تعاش، وكذلك جرعة الكاشاشا. وهذا مؤكد بالطبع، أنا ذاهب الآن. ومن يخرج بعدي يتأكد من إغلاق الباب.

وفي الشارع المعتم بذل جهداً مضنياً أخيراً، وراح المعلم بدرو أرشانجو يصعد إلى التلة ويمشي قدماً. وبغتة مزقه الألم، ترنح مرتمياً على جدار ثم تدحرج على الأرض.. آه يا روزا دو أكسالا!.

---

*(44) ـ أصبت كبد الحقيقة.

عن مجد البرازيل

كان تخمين الدكتور العظيم زيزينهو بنتو صحيحاً، وقد اختار المكان الملائم للاحتفال، القاعة الكبرى المهيبة في معهد التاريخ والجغرافيا في باهيا، امتلأت حتى الاختناق. وحين رأى عميد كلية الطب هذا الجمهور المتميز محتشداً قال لسيادة المحافظ أنه لو سقطت قنبلة على المعهد الآن، ستفقد باهيا خيرة مثقفيها بضربة واحدة وتخسر رأسمالها ومصادرها، وهذا صحيح. أبرز الناس وعظماء المدينة كانوا هناك للاحتفال بمئوية بدرو أرشانجو، وكانوا تلقائياً، يؤدون ألطف واجباتهم المتمدنة: تكريم إحدى مفاخر البرازيل.

وحين أعلن رئيس المعهد الافتتاح الرسمي ودعا المحافظ لترؤسه بخطاب موجز وبليغ، ولم يستطع منع نفسه من الاستمتاع بوخزة لبعض المنافقين وادعاءاتهم: «إننا نجتمع هنا في هذه الأمسية للاحتفال بعيد الميلاد المئوي العظيم للرجل الذي علمنا الأسماء الكاملة لأسلافنا»، لقد كان الرئيس ماغلهايس نيتو، على الرغم من تقدمه في السن وأعماله التاريخية العظيمة، مولعاً بالأقوال المأثورة وأحياناً كان ينظمها على النمط التراثي البرازيلي العريق.

حين أخذ علية القوم أماكنهم في مقدمة القاعة، قام المحافظ بدعوة الدكتور زيزينهو بنتو، صاحب سيتي نيوز زعيم الاحتفالات أن يلقي كلمته. «برعاية سيتي نيوز لهذه الاحتفالات العظيمة فإنها تنجز أهم بنود برامجها: تكريم ونشر أسماء أولئك الرجال البارزين الذين تضيء أمثولتهم الطريق للأجيال القادمة. وعلى نفير بوق سيتي نيوز، فإن مدينة باهيا تتحرك أخيراً الآن بسرعة على الخطوط الحديدية للنهضة الصناعية لترد دين العرفان، الذي تدين به لبدرو أرشانجو الذي تحصد البرازيل من فضله مكاسب مجيدة، وحصة كبيرة من الشهرة العالمية».

الخطيب الثاني كان البروفسور كالازان الذي يشكر الله على أنه لا يزال حياً وحراً في نهاية الماراتون. قرأ ترجمة لرسالة من جيمس د. ليفنسون العظيم إلى لجنة إحياء الذكرى، وبعد إطراء المحاولة كلها بشكل عام، أعاد حامل جائزة نوبل ذكر النجاح النقدي والشعبي الذي حققته الكتب البرازيلية بعد ترجمتها، ليس فقط في الولايات المتحدة بل وفي العالم المتمدن كله. «وبنشر كتابات بدرو أرشانجو، وهي عبارة عن مساهمة البرازيل الأصيلة والقيمة لحل المشكلة العرقية، وهذا تعبير لطيف، وبالتالي غير معروف عن إنسانيتها، فقد أصبحت هذه الكتابات محط الاهتمام والدراسة الدقيقة في مختلف المراكز الكبرى للبحث العلمي».

والدكتور بينيتو ماريز، المتحدث باسم جمعية كتاب الطب، امتدح بالدرجة الأولى بدرو أرشانجو، صاحب الأسلوب، الرجل صاحب «اللغة الشهية المعافاة» الذي «نظراً لعلاقته الحميمة الطويلة بالأطباء، قد تعلم كيف يسيطر على كل من العلم والبيل ليتر»، وركز عميد كلية الطب تركيزاً كبيراً على الموضوع القديم: «بدرو أرشانجو ينتمي لكلية الطب. إنه جزء من ميراث الكلية العظيمة لأنه اشتغل

فيها، وفيها بنى صرح تفكيره، وكلية الطب هي التي قدمت له الجو الملائم للبحث».

لم يمثل عميد كلية الفلسفة أحد، طالما أن البروفسور أزيفيدو لا يزال غاضباً بسبب حلقة البحث الممنوعة حول التزاوج والتمييز العنصري فرفض الدعوة غاضباً، وإن تقديره العلني لأرشانجو هو الكتاب الذي قام بكتابته، والذي هو الآن قيد الطبع. وشرح أسبابه لكالازان: «إنهم قادرون على أن يطلبوا نسخة من خطابي مقدماً لكي يراقبوها».

ـ من؟ سألت سكرتيرة مركز الدراسات الفولكلورية إيدلفايس فييرا، التي تزايد وضوح عجزها عن التمكن من الفروق اللغوية الدقيقة والضرورية في أوقات الاضطرابات السياسية والتداخل مع ميدان الثقافة، «من يتدخل؟»، «أرجوك يا دونا أيدلفايس لا تسألي مزيداً من الأسئلة، تفضلي اصعدي وألقي خطابك».

على المنصة ألقت أيدلفايس فييرا خطاباً قصيراً مؤثراً، شكرت فيه «راعي دراسة فولكلور باهيا» على الكنز الكبير الذي حفظه من النسيان والإهمال في صفحات كتبه. هذه الخلاسية البيضاء اللطيفة ذات الوجه المدور والصوت الناعم والبسمة المؤدبة ـ امرأة جذابة جداً ـ ختمت كلمات امتنانها وتأثرها بمخاطبة المتوفى: «بركاتك يا أب أرشانجو». وباعتبارها منقبة في الميادين التي مهد لها الطريق، وبتجوالها في الحارات وفي الطرق المختصرة التي فتحها مؤلف «الحياة اليومية في باهيا» فقد بدت هذه المهتمة بالفولكلور، وسط هذه الرسميات كلها وهذه الكلمات الفصيحة الفارغة، ابنة محترمة للتيريرو وحين ركعت أمام أبيها الصغير. في تلك اللحظة كان شخص أرشانجو حاضراً بقوة في القاعة. ولكن لفترة قصيرة وإلى أن جاء دور الثاني لاعتلاء المنصة وهو باتيستا، الأكاديمي الشهير والمتحدث الأساسي في هذه الأمسية. فالبروفسور راموس لم يأت من ريو وللسبب ذاته الذي قدمه البروفسور أزيفيدو. «حساسية بنات» فخر الدكتور زيزينهو. إنه عاهر قديم في السياسة وليس أمامه خيار إلا أن يبتلع، بمرح، كل إهانة وشتيمة (كل الضفادع والأفاعي كما يقول المثل).

حتى الآن كانت الخطابات كلها قصيرة بشكل معقول. لم يستغرق أي منها أكثر من نصف ساعة. وقد أخذ الخطباء بنصيحة السكرتير كالازان: «نصف ساعة لكل واحد، يعني ثلاث ساعات من الخطابة، وهذه هي حدود احتمال الجمهور». ولكن حين صعد صاحبنا باتيستا إلى المنصة سيطر الوجوم على الوجوه، وإن لم يحدث اندفاع للخروج من القاعة، فبسبب الاحترام لستي نيوز والدكتور زيزينهو والمحافظ الموجود هنا شخصياً، وللأمانة بسبب درجة معينة من الخوف، فالبروفسور باتيستا أحد المسؤولين عن الحالة الراهنة. وهو المسؤول، كما يقولون، عن كثير من الاتهامات وعدد غير قليل من محاكمات التخريب، في هذه الظروف لم يكن هناك مجال كبير للأمل، وهو حر في اغتنام الفرصة كما يحب والإطالة حسب الساعات التي يشاء.

جزء من خطابه الفضفاض كان قد كتب قبل فترة، والحقيقة خلال زيارة ليفنسون إلى باهيا، وكان قد أعد للعشاء الذي أقيم على شرفه والذي رفض حضوره، غريب الأطوار حامل جائزة نوبل لأنه كان مهتماً بحياة عامة الناس ومفاتن آنا مرسيدس أكثر من اهتمامه بالتعرف إلى الشخصيات الهامة. باتيستا المسهب أضاف إلى هذه البداية القديمة فصولاً أخرى تتعلق بأرشانجو وبالمشاكل ذات الاهتمام العام والحالي. وبهذا فقد ألف ما وصفه مراسل سيتي نيوز بأنه «قطعة فذة من المعرفة والوطنية». متفوقة ولا تعرف الانتهاء.

وجدلية أيضاً إلى حد ما. في المقام الأول أن لدى باتيستا ما يشكو منه لدى جيمس د. ليفنسون، فأكد أن العلم والثقافة ليسا من امتياز الغريب وحده، هو، نفسه، على الرغم من تقديره لأهمية الشمال الأمريكي، لم يخش من أن يتبارز معه. لقد أثنى على ليفنسون بالدرجة الأولى من أجل ألقابه، وكرسيه الجامعي وجائزة نوبل وجنسيته التي تستحق كل إطراء وتقدير. ما ينتقده هو موقف ليفنسون الدائم من الهرطقة العلمية، وقلة احترامه لأولئك الذين نالوا التقدير والاحترام، وعدم اكتراثه الذي حطم به أطر المحرمات وسمى المشهورين الموقرين «مشعوذين منافقين». ثم أثار خصومة مع أرشانجو، حسب منهج باتيستا في التفكير، إن الرجل الذي كرم كثيراً هذه الليلة، ومحط التقدير الكريم لهؤلاء الحاضرين، ما كان يجب أن يتجاوز الحدود في بحثه عن الفولكلور «الذي، على الرغم من امتلائه بمختلف النواقص، ويمثل محاولة واعدة فعلاً ولهذا السبب يستحق أن يدرسه الباحثون». فبسبب تطلعه إلى التقاط محصول من الأرض الذي سبق أن فلحها باحثون ذوو مكانة مثل نيلوأرغولو وأوزوالد فونتس «كتب سخافات همجية ليس لها حتى ساق ضعيفة هشة تقف عليها». ولكن باتيستا لم يتوقف طويلاً عند موضوع بدرو أرشانجو. فمعظم خطابه كان ترنيمة مديح «للتراث الحقيقي، التراث الوحيد الذي يستحق المديح، تراث الأسرة البرازيلية المسيحية». لقد تسلم باتيستا مؤخراً رئاسة جمعية هامة للدفاع عن التراث، والأسرة والملكية الخاصة، وصار يحس بمسؤولية شخصية عن الأمن القومي، لقد كان عميلاً سرياً يقظاً يرى أعداء البرازيل والنظام في كل مكان. حتى أنه كان يشك ببعض الشخصيات في أعلى المناصب في الحكومة، وبأنهم يتعاونون مع المخربين، ومن المعروف عنه أنه يتهم عدداً منهم ـ لا تسألني من هم أو لمن هم يا دونا ايدلفايس.

لابد أن لكل شيء من نهاية. وقد انتهى خطاب باتيستا الرهيب في الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة في جو من الصمت الثقيل من جمهور متعب بمجموعه. وبناء على ما سمعوه ورأوه، لو أن أرشانجو تجرأ على إظهار وجهه لقام الخطيب باستدعاء الشرطة.

بنهدة صعداء تهيأ المحافظ لفض الاجتماع.

ـ إذا لم يكن هناك أحد بعد يرغب في المنصة..

ـ أنا أريد المنصة.

كان هذا الميجور داميان دوسوزا. متأخر كعادته، وعيناه مثل الجمر لأنه حتى الآن كان قد تجرع كمية كبيرة من المواد الكحولية في باهيا. وقد دخل القاعة في اللحظة التي بدأ فيها باتيستا الفاضل خطبته الطنانة. وكانت معه خلاسية رثة الهيئة في مرحلة مبكرة من الحمل ولم تكن مرتاحة أبداً في هذا الجو الفاخر. وقال الميجور للشاعر والباحث الاجتماعي بينا: «أيها الشاعر الجوال! اعط مقعدك لهذه الفتاة المسكينة. إنها في طريقها لتكوين أسرة ولا تستطيع الوقوف طويلاً على قدميها».

نهض فاوستا بينا طائعاً ومعه نهضت، بنظرات متضامنة وذائبة. كاتبة رقيقة آخر فروج في حاضنة الشاعر، الذي ضمن ظهورها مؤخراً في ركن الشعراء الشباب.

ـ اجلسي يا عزيزتي، قال الميجور للخلاسية.

وجلس في الكرسي الشاغر الآخر وهو يركز نظره على الخطيب وفوراً غرق في النوم. وأيقظه التصفيق في الوقت الملائم لكي يطلب الكلام.

على المنصة، وبعد توجيه نظرة حزينة إلى كأس الماء المعدني، «لم يكن لديهم التقدير لوضع بيرة للخطباء؟» حيا الضيوف الموقرين وهذه «الباقة من المواهب» المجتمعة لتكريم بدرو أرشانجو، معلّم الشعب، الرجل الذي علّم الميجور نفسه الأبجدية، المثقف الذي حقق العظمة بجهده الخاص، الاسم الذي يستحضر في باهيا، والذي يشكل مع روي باربوسا وكاسترو ألفس «ثلاثي العبقرية السامي». بعد خطاب باتيستا القامع والكئيب، والمرصع بالتلميحات والتهديدات المبطنة، جاءت كلمات الميجور البليغة المنمقة الباهية الأصيلة فجعلت الجو صالحاً للتنفس وأثارت موجة حيوية من التصفيق، فتح الميجور ذراعيه بطريقة مسرحية «حسن جداً أيها السادات والسادة. هذه التكريمات لبدرو أرشانجو كلها خلال هذا الشهر ـ كانون الأول ـ من نخبة مثقفي باهيا كلها في محلها وهي مدهشة، ولكن..».

«لو أشعلت عود ثقاب أمام فمه لاشتعل» همس رئيس المعهد للمحافظ، لكن كلماته كانت مشبعة بالتسامح الشغوف، فصوت الميجور داميان دو سوزا الأجش وأنفاسه المشبعة بالكاشاشا أفضل ألف مرة من صوت باتيستا الرتيب المنمق ونظرته الغريبة.

بذراعين ممدودتين وشهقة في صوته إلى خاتمة خطبته: حفلات كثيرة، وخطابات كثيرة، ومديح كثير لأرشانجو الذي كان يستحق هذا كله، وأكثر منه ـ ولكن دعونا ننظر إلى الوجه الآخر للعملة. عائلة أرشانجو، أحفاد أرشانجو، أقرباء أرشانجو يعانون فقراً مدقعاً ويقاسون الجوع والبرد، وهنا في هذه القاعة التي يقام فيها هذا الاحتفال الكبير، وأمام أعينكم واحدة من أصدقاء أرشانجو الحميمين، أم لسبعة أطفال وعلى وشك أن تلد الثامن ـ أرملة فقيرة لا تزال تبكي على وفاة زوجها الحبيب، أرملة فقيرة تحتاج إلى طبيب ومستشفى ودواء ونقود لشراء الطعام لأولادها.. هنا في هذه القاعة التي يكال فيها المديح لبدرو أرشانجو هنا أمامنا جميعاً..

وأشار إلى الخلاسية الجالسة في الكرسي.

ـ قفي يا عزيزتي، قفي لكي يتمكن هؤلاء الناس جميعاً من رؤية حالة حفيدة، قريبة حميمة لبدرو أرشانجو الخالد، مجد باهيا، مجد وطننا.

وقفت برأس محني وهي لا تعرف ماذا تفعل بيديها أو أين يجب أن تنظر، ببطنها المنتفخة وحذائها المهترئ، وثوبها الرث، كرمز لفقر الحضيض. ولوى بعض الموجودين أعناقهم لرؤيتها بشكل أفضل.

ـ سيداتي سادتي بدلاً من الصفات الجميلة والكلمات المنمقة أرجو أن تقدموا النذر القليل من المال لهذه الأرملة المسكينة التي تجري في عروقها دماء بدرو أرشانجو.

انتهى من كلامه ونزل عن المنصة وقبعته بيده، وابتداء من طاولة الرئيس بدأ يجمع المال من جميع الحاضرين، وحين وصل إلى نهاية القاعة أعلن المحافظ انتهاء الاجتماع «بهذا العمل المشكور الإحسان المسيحي». وأفرغ الميجور القطع النقدية المختلفة، كمية النقود كلها، في حضن المستفيدة المرتبكة. وحين أفرغ قبعته أمسك بآرنو ميلو وقال: «يا صاحبي الزنجي تعال واسقني بيرة، فمي جاف وأنا ناشف مثل لوح خشب».

وهكذا خرج الرجلان إلى بار بيزاريا وآنا مرسيدس متعلقة بذراع آرنو وقد رست أخيراً في المرفأ الآمن للدعاية والإعلان. لقد أثبتت براعتها في تأمين العقود: فما من زبون يستطيع مقاومة قدراتها على الإقناع، وحين صاروا خارج القاعة قال آرنو للميجور: «هل تمانع في أن أقبلها؟ مرت ثلاث

ساعات على تذوقي لطعم شفتيها، لقد سمعت الكثير من الهراء هناك في الداخل، وجعلني هذا جائعاً جداً وسأموت إن لم أقبلها». «هيا أيها العجوز تخلص مما يوجعك ولكن لا تطل الأمر، لا تنس أن هناك بيرة باردة بانتظارك. وفيما بعد إذا أحببت، سأريك قلعة جميلة من أيام أرشانجو».

حين صارت القاعة خالية، نهض البروفسور فراغا نيتو الذي ابيضت لحيته وشارباه، لكنه مازال بحيويته وجدليته التي كان عليهما، وتوجه إلى قريبة بدرو أرشانجو الفقيرة.

- «كان أرشانجو صديقاً لي يا عزيزتي. لكنني لم أكن أعرف أن له عائلة أو أنه خلف أحفاداً. ابنة من أنت؟ وما هي قرابتك له؟».

الخلاسية التي لم تتخلص بعد من حرجها، شدت بقوة على المحفظة الرخيصة التي جمعت فيها النقود - لم يسبق لها أن رأت هذا القدر من المال في حياتها - وتطلعت إلى الجنتلمان العجوز الواقف أمامها:

« يا سيدي. لا أعرف شيئاً عن هذا، أنا لم أعرف هذا الأرشانجو الذي كانوا يتحدثون عنه، لا أعرف حتى من هو. اليوم سمعت به لأول مرة، لكن كل ما تبقى صحيح، أنا في حاجة لكل شيء وعندي أطفال صغار. ليس عندي سبعة بل هم أربعة. نعم يا سيدي، وزوجي لم يمت لكنه رحل فعلاً وتركني دون قرش في البيت. ولهذا خرجت أبحث عن الميجور لعله يستطيع مساعدتي. عثرت عليه في بار تريونفو، فقال لي إنه ليس معه أية نقود، لكنه طلب مني أن آتي معه إلى حيث يؤمن لي شيئاً من المال. وهكذا جلبني إلى هنا..» ابتسمت وخرجت من الباب. وعلى الرغم من حملها راحت تهز ردفيها، وتمشي متدحرجة تماماً مثل ما كان أرشانجو يمشي.

ابتسم البروفسور فراغا نيتو وهز رأسه. ابتداء باقتراح زيزينهو بنتو الأولي حتى الكلمات الختامية في خطاب باتيستا عن التراث والملكية - هذا الأحمق الخطر! - كل ما جرى في هذه الذكرى المئوية تهريج وكذب وسلسلة من السخافات. ربما كان الشيء الوحيد الشريف الذي جرى هو الخداع الماكر للميجور حول تلك المرأة العاهرة الخلاسية الحامل والجائعة، الحفيدة المزيفة والقريبة الحقيقية. جماعة أرشانجو، عالم أرشانجو، وردد الكلمات التي يحفظها عن ظهر قلب: «ذكاء الشعب وأصالته هما الحقيقة الوحيدة وما من قوة ستستطيع تجاهلها أو إفسادها».

عن بلد السحر والحقيقة

في كارنفال 1969 أنزل أبناء تورورو إلى الشوارع بمعزوفة «بدرو أرشانجو في أربع حركات» التي لاقت نجاحاً كبيراً ونالت عدة جوائز، وقامت مدرسة السامبا بمسيرة في المدينة وهي تغني أغنية فالديرليما الذي فاز بجائزة المؤلفين الموسيقيين بعد أن هزم خمسة منافسين أقوياء.

الكاتب المثير

الواقعي الحسي

دوخ العالم

آه! يا بدرو أرشانجو العبقري

الذي سنريكم حياته

في أربع حركات في هذا الكرنفال

وأخيراً وجدت آنا مرسيدس فرصتها لتصير روزا دو أوكسالا، لم تكن أقل من الأصلية في الدلع المغري، لقد كان الجمهور يجن بمؤخرتها المكورة ونهديها المترجرجين تحت مشدها المخرم وشلحتها الكتانية الناعمة وعينيها المتوقدتين المطالبتين بفراش ومحرك ذي طاقة عالية ـ آه، هذه الخلاسية لم تولد من أجل أي شخص تافه ليبول فوقها. لا. لا. هل ظل بين الجمهور واحد لم يحلم بفخذيها الطويلين أو بطنها الناعمة وسرتها المكشوفة؟ كان السكارى والمعربدون المقتنعون يلقون بأنفسهم عند قدميها الراقصتين.

كانت آنا مرسيدس تقدم رقصتها بين أبرع الراقصين في نوادي السامبا الشعبية الذين يمثل كل منهم شخصية في القصة: ليديو كورو، بوديان، فالدلوار، مانويل دوبراكسيس، أوسا، باكو مونوز، وفي المنصة العائمة الأفوكسي لأبناء باهيا: السفير، الراقص، زومبي ودومنغو جورج فلهو، وزنوج بالمار، والجنود الملكيون، بدأ الكفاح من أجل الحرية. وجميعهم يغنون من أعماق قلوبهم:

من أرض السحر والحقيقة

عظمة عقلنا الوطني

لقد استقى من الشعب وأشياء أخرى

تلقائية غنائية

كيرسي مجبولة من الثلج والقمح، لابسة كنجمة الصباح، تأتي في مقدمة مسرحية الرعاة الشعبية، شقراء، بيضاء، سارارا لطيفة من سكانديناڤيا. والمنصة العائمة التي لا شك في أنها كانت تحدث أعظم الأثر، كانت منصة يستلقي عليها قسم كبير من العناصر النسائية، عشرات وعشرات من النساء بينهن جميلات مشهورات وممثلات وأميرات وربات منازل من أفضل النوعيات، في وضعيات إغراء على السرير الكبير الذي يغطي المنصة، وأمامها وعلى منصة مرفوعة زعيم الاحتفالات يرفع راية تحمل عنوان هذا المجاز الذي تشارك فيه نساء كثيرات جداً في سرير واحد: (الشغل الحلو لبدرو أرشانجو). كن جميعاً هناك يتحدثن ويضحكن: عشيقات، كومادر، مومسات، متزوجات، عذراوات، سوداوات، بيضاوات، خلاسيات، سابينادوس أنجوس، روزندا، روزاليا، ريزولينا، تيرنيشيا الكئيبة، كويلي، ديدي، وكل منهن بدورها تقفز من السرير نصف عارية لتنضم إلى حلقة السامبا:

غلوريا غلوريا

الخلاسي البرازيلي

لأيامنا

غلوريا غلوريا

وبعد ذلك الكاندومبلي بخبرائه، والإياوات والأوريكسات والرقص على إيقاع طبول الأتاباك والأغوغو، والأجراس الحديدية والقرع والخشخشة. بروكوبيو يجلد في باليه غريبة من قبل الشرطة السرية. أوغون، الزنجي الجبار الكبير مثل بيت، يجعل معاون قائد الشرطة بدريتو غوردو يهرب بحياته وهو يتبول في سرواله. وتستمر الرقصة التي لا يقف في وجهها شيء.

مصارعو الكابويرا يوجهون ضربات مستحيلة، ماني ليما وسيدته البدينة يرقصان الماكسيكسي والتانغو، والسيدة العجوز بمظلة مفتوحة وتنورة مكشكشة وإيقاع الكانكان هي الكونتيسة إيزابيل تيريزا مارتينيز أراوجو إي بينهو، زابيلا بين أصدقائها، أميرة ريكونكافو، الباريسية المرحة.

دوروشيا، ملفقة بلهب من ورق نسيجي أحمر، وقرنا شيطان على رأسها، تعلن اختتام المركب، وتختفي في وميض كبريتي:

فلنسبح لمجده الآن

ولمآثره العظيمة

كل ما قدمنه في الطريق

قصص عيشت، وقصص حقيقية

وتستطيع قراءتها في كتبه

مصارعو الكابويرا، فيلهاس دو سانتو، إياوات، راعيات، أوريكسات، موكب الملوك الثلاثة والأفوكسي. رقصوا الخطوات الواسعة، الجميلات الشهيات، يرقصون ويغنون ويفسحون الطريق: المعلم بدرو أرشانجو أوجوبا قادم:

غلوريا غلوريا

غلوريا غلوريا

بدرو أرشانجو (أوجوبا) يرقص، ليس شخصاً واحداً بل هو أشخاص كثيرون متعددون متنوعون: عجوز، في منتصف العمر، شاب، مراهق، صعلوك، راقص، متحدث بارع، سكير فذ، متمرد راديكالي، داعية إضراب، مقاتل شوارع، عازف غيتار، وكافاكوينهو، مغازل، عاشق حنون، فحل جنسي، كاتب، حليم، ساحر...

وكل منهم خلاسي وفقير ومواطن من باهيا.

(انتهت)

فيلا أروري في البيت الأخوي لنايرو جينارو دوكار فالهو, باهيا, من آذار إلى تموز 1969.

المفردات(*)

آدي - adee : رمز لألوهية دادا الأفريقي (الأخ الأكبر لكسانغو)

آفوكسي - afoxee : جماعة كرنفالية أفرو - برازيلية.

آغوغو - agogo: جرس معدني مزدوج يدق في الكرنفال وطقوس الكاندومبلي.

آلابي -alabe: ضارب طبل في احتفالات كاندومبلي.

آمالا-amala: (انظر كاروروCaruru) أكلة.

أتاباك -atabaque : طبل طويل يستخدم في طقوس الكاندومبلي.

آكسي -axee: رقية كاندومبلي.

أكسيكسي -axexe: طقس جنائزي من غرب أفريقيا.

أكسوغون -axogun: عنصر في الكاندومبلي مسؤول عن تقديم الأضحيات الطقوسية.

بابالاو - babalao: كاهن وعرافة الكاندومبلي.

بابالوريكسا - باي دوسانتو - babalorixa- pai- de- santo: كاهن في طقوس الكاندومبلي.

بالانغادان: balangandan - حلية ذهبية أو فضية تعلق مع تعويذة وتمائم، وترتديها زنجيات باهيا.

بانديرانتي - bandeirante: من الطليعيين البرازيليين الأوائل (حرفياً: حامل العلم).

باتوكادا - batucada: إيقاع أو رقصة باتوك.

باتوك - batuque: أية رقصة افرو - برازيلية أو مسيرة كرنفالية مصحوبة بآلات النقر والقرع.

بيريمبو - berimbu: كلمة غير معروفة الأصل (وتلفظ أيضاً بيريمبان) تستخدم في البرازيل كاسم للآلة الموسيقية التي هي القوس الموسيقية التي يمر وترها في يقطينة تردد الصدى وتضخمه وتعلق على صدر العازف أو بطنه ويضرب عليها بعصا صغيرة.

بومبا - مو - بوا- bumba - boi -meu: رقصة شعبية تقليدية وموكب في شمال شرقي البرازيل.

كابوكلو- caboclo: شخص هجين من أصل أبيض وهندي.

كاشاشا- cuchaca: الروم الأبيض.

كامارا- camara: مختصر كامارادا، رفيق أو صيغة للفظ كامارادو.

كامارادينهو- camaradinho: الصديق الصغير.

كاندومبلي - candomble: الاحتفال السنوي الكبير لدى الأفارقة البرازيليين وتستخدم الكلمة لاحتفالات الفودو بشكل عام.

كانغاسيرو-cangaceiro: شقي برازيلي.

كابويرا- capoeira: أسلوب قتال من أفريقيا (زنوج أنغولا) يعتمد على الأيدي والأرجل والرقص، وفي الماضي كانت تستخدم فيه السكاكين والخناجر، حركاته بارعة مثل البالية.

كابويريستا - capoeirista: مصارع الكابويرا.

كارورو- caruru: بامياء (أو أية خضراوات أخرى) مطبوخة مع السمك والفلفل وزيت النخيل.

كاتيدراتيكو- catedratico: أستاذ جامعي.

كاكسيكسي -caxixi: يقطينة عليها أوتار (آلة موسيقية)

كومادر، كومبادر - comadre, compadre: أب، أم، بالمعمودية (عراب) في العلاقة مع الابن بالمعمودية. توسع معناها إلى الصديق الحميم.

كروزيرو - cruzeiro: قطعة نقدية برازيلية.

كوكومبي - cucumbi : احتفال سري أفرو برازيلي.

دندي -dende : زيت النخيل.

إيبري - ebiri: رمز لربة الماء الأفريقية نانا Nana.

إيفو -efo: أكلة برازيلية.

أيغن -egun: روح الميت.

إيباري - eparrei: تحية الأتباع لربة الكاندومبلي يانسان Yansan.

إرويكسيم -eruexim: سود من ذنب الحصان، رمز ليانسان.

ايروكيري - erukere: مروحة من ذنب الثور، رمز الأوكسوسي Oxossie.

إيوا- Eua: ربة أفريقية للبحيرات والينابيع.

إكسو-Exo: رب عابث لا يستقر، رسول الآلهة الأخرى، أحياناً يعرف خطأ بالشيطان.

فازندا- fazenda: مزرعة كبيرة - أو مزرعة لتربية الماشية.

فازنديرو- fazendeiro: ملاك: صاحب المزارع أو مربي المواشي.

فيجوادا - feijoada: أكلة برازيلية تقليدية.

فيغا- figa: رمز الخصب وتعويذة للسعد بشكل قبضة مضمومة يدخل فيها الإبهام بين السبابة والأصبع الوسطي.

غافييرا -gafieiria: رقصة سامبا للطبقات الدنيا.

غانزا- ganza: علبة للخشخشة (آلة موسيقية).

إيابا -iaba: شيطانة.

ايان -iao: منذور للأوريكسا (إله أفريقي) يرقص، تسكنه تلك الروح ويدخل في حالة نشوة في طقوس الكاندومبلي.

إغواليتا - igualita: شبيه (أسبانية).

أيلو - ilu: طبل مدور أصغر من الأتاباك.

إيتا - ita: أم (لغة يوروبا)

إياكيكيري - iakekere: مغن في احتفالات الكاندومبلي.

إيالوريكسا - iyalorixa: ماي دوسانتو، كاهنة الكاندومبلي.

لوندو- lundu: رقصة أفريقية جنسية.

ماكومبا - macumba: الصيغة البرازيلية للغودو - تقارن بالكاندومبلي.

ماي دو سانتو - mae- de- santo: كاهنة الكاندومبلي (القديسة الأم) شارحة تعاليم أوريكسا.

مالاغيتا - Malagueta: فلفل أحمر.

أوبا - oba: ملاك (يوروبا) في الكاندومبلي.

أوغان - ogan: شخصية معتبرة في الكاندومبلي: مسؤول عن مكان الاحتفال.

أوغون - ogun: إله أفريقي، راعي المحاربين والمزارعين وكل من يستخدمون أدوات معدنية (يقابل القديس أنطونيو).

أوجوبا - ojuoba: عينا الملك (يوروبا)

أومولو - omolu: إله أفريقي للأمراض والأوبئة.

أوريكسا - orixa: إله من غرب أفريقيا، نصف قديس ونصف روح.

أوسّين - ossain: رب الأعشاب الطبية والطقوس الدينية.

أوكسالا - oxala: رب الخلق: أعظم الأوريكسا.(يقابل إلهنا في بونفيم).

أوكسالوفان - oxalufan: أوكسالا العجوز.

أوكسوسي - oxossi: إله الصيادين والغابات (يقابل القديس جورج).

أوكسو ماري - oxumare: إله خنثى، إله قوس قزح، رمزه الكوبرا.

أوكسون - oxun: ربة الأنهار، الزوجة الثانية لكسانغو.

بادي دوسانتو – pai- de - santo: كاهن الكاندومبلي (الأب القديس).

باكسورو - paxoro: عارضة تزينية يعلوها طائر ويحملها كسانفو أوكسانفو عجوز.

بيجي -peji: مذبح فتشي.

بنغا -pinga: روم - شراب مسكر.

سارارا -sarara: خلاسي بعينين زرقاوين أو خضراوين وشعر أحمر.

سنها -sinha: آنسة.

تيريرو -terreiro: معبد فتشي أو أرض مقدسة.

كسانغو -xango: إله الرعد الأفريقي.

كساكسارا - xaxara: رمز أو مولو.

يانسان - yansan: آلهة الرياح والعواصف والشلالات، الزوجة الأساسية لكسانغو (تقابل القديسة بربارا).

ييما نجما - yemanja: آلهة الماء، أم الآلهة.

كانكان - cancan: رقصة فرنسية الأصل غير محتشمة.

فودو - voodoo: الودونية: دمية زنجي أفريقي الأصل يقوم على السحر.

فهذه الرواية ـ إضافة إلى كونها ممتعة ـ أعتبرها واحدة من أكثر الروايات التي قرأتها إمتاعاً، وهي في الوقت ذاته، مرافعة فذة للدفاع عن الشعب البرازيلي ـ شعب باهيا تحديداً ـ وعن ثقافته وتقاليده وتراثه أمام هجمة (التأورب) والانسلاخ الثقافي والصَّغار أمام الغرب.

ممدوح

هذه الرواية أقرب إلى الملحمة، وعلى الرغم من كونها تدافع عن ثقافة شعب له عاداته وتقاليده وتراثه إلا أنها لم تكن حكراً على النخبة الثقافية ـ شأن الأعمال الروائية التي تتصدى للدفاع عن الثقافة ـ فالرواية تجمع بين المنافحة عن ثقافة شعب وبين قدرتها الفنية التي تؤهلها كي تكون في مصاف الأدب العالمي.

لا ترفض الرواية التأورب والتأمرك من منطلق عدائي مجاني، بل ترفضه من حيث هو نفي لثقافة الآخر ووجوده، ومن حيث هو استلاب لوعيه وعواطفه وحتى تاريخه!..

الناشر



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



فهذه الرواية ـ إضافة إلى كونها ممتعة ـ أعتبرها واحدة من أكثر الروايات التي قرأتها إمتاعاً، وهي في الوقت ذاته، مرافعة فذة للدفاع عن الشعب البرازيلي ـ شعب باهيا تحديداً ـ وعن ثقافته وتقاليده وتراثه أمام هجمة (التأورب) والانسلاخ الثقافي والصَّغار أمام الغرب.

ممدوح

هذه الرواية أقرب إلى الملحمة، وعلى الرغم من كونها تدافع عن ثقافة شعب له عاداته وتقاليده وتراثه إلا أنها لم تكن حكراً على النخبة الثقافية ـ شأن الأعمال الروائية التي تتصدى للدفاع عن الثقافة ـ فالرواية تجمع بين المنافحة عن ثقافة شعب وبين قدرتها الفنية التي تؤهلها كي تكون في مصاف الأدب العالمي.

لا ترفض الرواية التأورب والتأمرك من منطلق عدائي مجاني، بل ترفضه من حيث هو نفي لثقافة الآخر ووجوده، ومن حيث هو استلاب لوعيه وعواطفه وحتى تاريخه!..

الناشر



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



Table of Contents